الاقتِبَاسُ وَ التَّضمِينُ
في
نَهجِ البَلاغَةِ

دَراسَةُ أسلوبِيَّةٍ

د . كاظم عبد فريح المولى الموسوي

المقدّمةُ

الحمدُ لله على ما أنعم، الذي علّم من البيان ما لَم نعلم، والصلاة والسلام على محمد خير مَن نَطق بالصواب، وأفضَل مَن أُوتي الحكمة وفَصل الخطاب، وعلى آلهِ ملح الأرض وزخرفها، وعلى صَحبه ومِن سار على هَديه إلى يوم الدين.

كان نَهجُ البلاغةِ وما يَزال يفتح كلّ يوم باباً جديداً من أبوابِ الدَّلالةِ، ويمنحُ عَطاءاتٍ سخيةً من المعاني، وهو بِمَثابَةِ أرضٍ بِكرٍ تُغري الدارسين والباحثين وذلك لسَعةِ ميادينه، وتنوّعِ مواضيعِه.

ومع كثرة الشروح والدراسات التي أُلّفت فيه ظَلّ بَحراً مُتلاطماً، وفضاء رحباً لا يُمكن سبر أغواره، أو الإحاطة بأبعاده، وعند تتّبع ما كتب فيه- وفي حدود علمي- يظهر أنّ أغلبها كانت شروحاً، أو ترجماتٍ[١]، أو دراساتٍ لموضوع من مَواضيعه[٢]، وعلى الرّغم من تَزايد الدراسات البيانيّة[٢]، والنحويّة[٣]، واللغويّة[٤]، التاريخيّة[٥]فيه،

(١) دون اكثر من(٣٠٠) شرح، وترجمة لنهج البلاغة.ينظر:بهج الصباغة في شرح البلاغة، الشيخ محمد تقي التستري، دار أمير كبير، طهران، ١٩٩٧م، المقدمة، ص:١٥.

(٢) ينظر مثلا:الأدوات البيانية في خطب الحرب في نهج البلاغة، نجلاء عبد الحسين الغزال، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ٢٠٠٢م. و:الصورة الفنية في كلام الإمام علي، د.خالد محمد محي الدين، مجلة المنهاج، ع٥، ١٩٩٧م، ص:١٥٩-١٧٢.

(٣)ينظر مثلا:أساليب ألتأكيد في نهج البلاغة، أصيل محمد كاظم، رسالة ماجستير، جامعة القادسية، كلية التربية، ٢٠٠٢م.

و:أساليب الطلب في نهج البلاغة، عدوية عبد الجبار كريم الشرع، رسالة ماجستير، جامعة بابل، ٢٠٠٠م.

(٤) ينظر مثلا:خصائص الجملة في نهج البلاغة، سمير داود سلمان، رسالة دكتوراة، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠٠٣م.

(٥)شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، رؤية اعتزالية، جواد كاظم منشد، منشورات ذوي، قم، ١٣٨٤ه.ق.

يَبقى ما يتعلّق بموضوع (الاقتباس والتضمين)، أو ما هو قريب منهما مُجرّد إشاراتٍ متناثرةٍ بين سطورِ هذا الشرح، أو ذاك[1]، أو تلك الدراسة[2]، ولم يُعقد لهما المباحث، أو الفصول المستقلة، بَل مَرَّ الباحثون عَليها مُرور الكرام، وربّما نَجد شيئاً من ذلك بصورة أوضح في جهود بعض العاملين في وَضع فهارس خصِّصت لرَصد الآياتِ، والأحاديثِ، والأشعارِ الّتي وَردت بصورةٍ مباشرةٍ- فقط- في النصِّ النّهجِي.

وعَلى الرّغم من ذلك كله يبقى النصُّ النهجي ليس على مستوى دراسته كقيمةٍ أدبيّةٍ بلاغيّةٍ فنيّةٍ، ولم يأخذ نَصيبه في هذا الجانب مثلما أخذَه في الشَّرح، مِمّا استدعى المضي في تتبّع الاقتباسات، والتضمينات، المباشرة وغير المباشرة والمُتناثرة في الشروحاتِ، والدراساتِ، وبَيان أنواعِها، ووظائفِها، ووخصائِصِها .

ومثّل هذا التناثر للإشارات الاقتباسية والتضمينية -بأنواعِها - وَجهَين مُتناقضين، الأوّل منها يُمثّل صُعوبةً في تَتبّعها، والثاني دافعاً مُغرياً للخروج بِها في دَراسَةٍ أكاديميّةٍ نَهضَت في بابين مُستقلَّين، بَعد التمهيد ببَيان مُصطَلحي (الاقتباس) و(التضمين) لُغةً واصطلاحاً، والمُصطَلح الحَديث البديل لهُما في الدراسات النّقدية البلاغية الحديثة في إشارات سريعةٍ كاشفة.

لَقد نَهض الكتاب على مُقاربات نقدية بلاغية تَسعى إلى تَقصّي عَلائق النّص النهجي بالموروث الديني(القرآن والحديث النبوي)، والمورُوث الأدبي(الشعر والمثل)،

(١) لقد حرص شارحو النهج عبر العصور على الاشارةالى بعض الآيات، والأحاديث، والأشعار، والأمثال، وان كان في اغلبه عفويا بسيطا طارئا، إذ لم يكن هدفا في حد ذاته بقدر ماكان وسيلة من وسائل التفسير، والشرح، واختلف الشراح في مقدار السعي في ذلك، وان كان بعضهم قد تميّز في إفراد مساحة كبيرة لذلك، كابن أبى الحديد، وابن ميثم البحراني من القدماء، والشيخ التستري من المحدثين، وهذا ما يبرّر كثرة الاعتماد على هذه الشروح دون سواها وردت إشارات عابرة للاقتباس اوالتضمين في بعض الدراسات، تصريحا أو تلميحا.ينظر مثلا:اسلوب التوكيد في نهج البلاغة. و:خصائص الجملة في نهج البلاغة.و:الألفاظ القرآنية في نهج البلاغة، السيد محمد جعفر الحكيم، مجلة النجف الاشرف، ١٩٧٦.

(٢) و:المثل في نهج البلاغة، الشيخ عبد الهادي الفضلي، مجلة رسالة الإسلام، كلية أصول الدين، بغداد، ١٩٧٨م.

ومَعرِفة مَدى تَوظِيف ذَينك الموروثين، وخَصائِص كُلّ مِنهُما مِمّا استدعى تَصنيفهُما في بابين هُما(الاقتباس في نهج البلاغة)، و(التضمين في نهج البلاغة).

وتَوزّع ألبابُ عَلَى ثَلاثة فصول، خُصِّصَ الأوّلُ لرَصد المَرجعيات الاقتباسية، المستلهمة مِن مفردات، وبُنى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وتَقصِّيها وبَيان أنواعها، بدءاً من المفردة، وانتهاء بالنَّص، والمَقصود بالمفردة القرآنية هي المفردة الّتي أوجدها القرآنُ الكريم، أو إنّ ورودها خارج الاستعمال القرآني قَليل، ويَأخذ بعضُها خصوصية الانتساب القرآني عَلى الرَّغم من وجود تَغيير طفيف في بُنيتها الصّرفية، والَّذي قابَلهُ اقتباسٌ لتراكيبَ اختَصَّت برسولِ الله (ص وآله)، عُرِفَت بانتسابِها إليه .

والفَصلُ الثاني خُصّص لبيان أثَر تلك الإشارات ومَدى توظِيفها في النَّصِ النَّهجي، في المستويين الدلالي، والفنّي، والحديث عن الجانب الدلالي لَم يَكن عن العلاقات الدَلالية مِن تقديم وتأخيرٍ، وتكرارٍ، ومشتركٍ لفظيٍّ، وترادفٍ، بَل هُو حَديثٌ عَن العَطاءِ الدلالي للمفردات، والعِباراتِ، والتَراكيب.

والثالث جاءَ لتتبّع خَصائِص الاقتباس الدلالية والفنّية، مَع تَتبّع خَصائص كلِّ نَوع مِنهما.

وتَوزّع البابُ الثاني عَلى ثَلاثة فصول مُماثلة لسابقاتها في العَناوين، والتَقسيمات على وُفقَ رُؤية مَنهجية دَقيقة، ولكِن مِمَّا يَنبَغي التنبيه عَليه، والتَنويه إلَيه هُو أنّ البابَ الأوّل جاء عاكِسا لِوجود النصّ القرآني-خاصّة- والحديث النبوي الشريف في النصوص النهجية، إذ شَكّلا تواجداً كبيراً ملحوظاً إذا ما قُورِن بالمساحة الأقل للموروث الأدبي مِن شِعر ونَثر، فكان ذلك عنصراً ضاغطاً للوصول إلى أمرين، ؛ الأوَّل: كبر مساحة باب الاقتباس بفصوله، والثاني: الاضطرار إلى تكرار بَعض شواهد التضمين – في الشِّعر خاصَّة – لاسِيّما المباشرة منها والَّتي انحَصَرت في عَدد مَحدودٍ سيتَّضح في موضِعه، إلاّ أنَّ الشافع لِي في ذلك- إضافةً إلى ما تقدَّم- هُو تَعدّد زَوايا

النظر إليها، على وُفقَ الرُؤى البلاغية تارة، والصوتية تارة أخرى، والنحوية ثالثة، تَبَعاً للموضوع الَّذي دُرِسَت فيه، فضلا عن اكتناز تلك الشَواهد بالدَّلالات، وهو الشافع الأكبر فيما تَقدّم.

وتَلت هذين البابين خلاصة لأهمِّ نتائج البحث التي توصَّل إليها الباحث،مَع إِدراجٍ لمصادر الموضوع، ومَراجعِه التّي اِعتمَد عَليها.

وهنالك بعض التنويهات الَّتيِ ينبَغي الالتفات إليها، وهيَ:

أوّلا: إنّ ذكر النصّ النهجي في الدراسة كلها يُحال إلى كتاب نهج البلاغة الَّذي حَقّقه محمد أبو الفضل إبراهيم[1]، وذلك لاعتماده في اَغلب الدراسات الأكاديمية في نهج البلاغة.

ثانياً: لَم يَكُن اعتماد بَعض الشروحات أكثَر من غَيرها في باب ما، أو فصلٍ ما، أو مَبحثٍ ما، إلّا لوجودِ ما يُسَوِّغ ذلك، وَبالتالي نَجدُ تنوّعاً بتنوع الحَاجةِ إلى هذا الشَّرح، أو ذاك دُونَ غيره، ولكِن يَبقَى الاعتمادُ المتميِّز لشَرح ابن أبي الحديد[2]، باعتباره الشَّرح الَّذي سبَق الكثيرَ من الشِّروح فيما رُمناه، لِكثرة تكرار ما قَالهُ في كَثير منها، مِمّا يَتوجَّب اعتماد الذكر الأوَّل في هذا الَشرح، وشرح ابن ميثم البحراني[3]، لاهتمامِه بالدَّرسِ البلاغي في كثيرٍ منَ الأحيان .

ثالثا: تَمّت الإشارةُ في الدراسة بالرَّمز(خ) إلى الخطبة، والرَّمز(ك) إلى الكتاب، والرَّمز(ح) إلى الحِكمة، أو المَوعِظة.

وخِتاما، وأنا أَضَع هذا الجهد المتواضع بَين يَدي أساتذتي، آملُ مِن الله العَلي القديرِ أن أكُون قَد وُفِّقت في شَيء منه، ولا أدّعِي الكَمال فيه، فالكمال لله وَحده، راجياً

---

(١)صدر عن مطبعة الاستقامة، مصر (د.ت).

(٢)صدر عن دار الساقية، بيروت، سنة، ٢٠٠١م .

(٣)صدر عن دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة، ١٩٩٢م .

مِنه تَعالى أن يَحفظنا، ويُكَلِّلنا بالسِّتر، والعافيةِ، والأمان، لِنَمضي قُدُماً في خِدمة العِلم، والحفاظ عَلى تراثنا الأدبِي الرَّفيع.

البَاحث

٢٩ / ٦ / ٢٠٠٦م

التَمهِيد

رُؤيَة لُغويَّة، اصطِلاحيَّة، نَقدِيَّة .

يستمدُّ النصُّ قَّوتَه، وسلطَته مِن خلال تأثيره في المتلقين لَه، ويَتأتّى ذلك مِن خِلال ارتِباط النَّص بالمورُوث الأدبي، والثقافي، والنَفسي لأولئك المتلقين، والمُتَحقِّق بفِعل التَفاعل، والتَداخل بَين النّصوص السابِقة واللّاحِقة عَن طَريق (الاقتباس والتضمين).

ومِمّا يُدرِكُهُ المُتَلقِّي المتَخصِّص انتظام المداخلات النَّصِّية في خِطَب الإمام، وكتبه، وحِكمِه، ومَواعظِه بمفرداتٍ، وتراكيب، وجُمل، ونُصوص مِن القرآن الكريم، والحَديث النَبوي الشرِيف، أو مِن ألشعر، و المَثَل، والحِكمَة، كشَذَراتٍ لتُؤدِّي مَعانيها الَّتي ابتغاها بجانِب مَبناها ألَّذي لم يكُن بِمعزَلٍ عَن سدى النَّص، ولحمَتِه .

إنَّ الإبداعَ الفني ـ الأدبي خاصة ـ لا يَحدث بشَكلٍ مَعزولٍ، أو فردي، لكنَّه نِتاجٌ لتفاعلٍ مُمتَد لما لا يُحصى من النصوص المختزنة في ذهنِ المُبدِع، ويتمخَّض عن هذه

النصوص حين ينشأ في ذِهن الكاتب، ويَتولّد عَنه العَمل الإبداعِي الَّذي هُوَ النَصّ[1]، غير أنَّ ظاهِرة الاستعانة بالنصوص كانت ضِمنَ دائرةِ الاتِّهام في تراثنا النَّقدي الأدبي القَديم لاسيَّما في الموروث الشِّعري، وبُحِثت في باب(السَّرقات الشَّعرية)، واتَّضح ذلك جليّا في كتابات القاضي الجر جاني ت(٣٦٦هـ)في كتابه(الوَساطَةُ بَين المُتنبي وخصُومه).

ويُعد تمظهر النّصوص بمِعزَلٍ عَن الموروث الأدبي ابتساراً، وثلمة في أدبيتها، قَد لا يكون هذا في أغلب النصوص، لكنَّه ـ في الأقل ـ في عَدد غير قليل منها، والاستعانة بالنّصوص بِمثابة تجلٍّ مُبهِر للخزين المَعرِفي للمُبدِع، والرّجوع إلى الموروث الأدبي، واستدعاؤه في النصِّ من أكثر الظواهر فعّاليّة في أدبيَّتِه، حيث يقود (التداخل)بين النصوص إلى تشكيلاتٍ أدبيّةٍ جَديدة، بغضِّ النَظرِ عَن دَرجة ذلك التداخل«وكلّ نصٍّ أدبيٍّ هو حالة انبثاق عَمّا سَبقَه مِن نصوص تُماثله في جِنسِه الأدبي»[2].

لاضيرَ من الإفادة النصية، أو الإشارية، أو الدلالية للموروث الأدبي مادام ذلك يُعد الأساس – أحياناً– في انبثاق التجربة الأدبية، والإبداع يَحدث مِن تَزاوجٍ، وتداخلٍ بين المخزونِ، والمُبتَدَع.

والأديب يَميل إلى دَعم فكرته، أو تحسينها بِما يَختزنه مِن ثقافةٍ مَورُوثة، وفي التراث الأدبي العربي يأتي القرآنُ والحديثُ النبويُّ الشريفُ في مقدَّمةِ ذلك الخَزين، فضلا عن المَوروث الشِّعري، وما يُصاحبه مِن مَثَلٍ أو حِكمَةٍ .

إنَّ استدعاء آيةٍ، أو بعضها، أو حَديث نَبوي، أو بَعضه، أو معناهُما يختلف في

---

(١) ينظر: الخطيئة والتكفير، د.عبد الله محمد الغذامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٥م، ص: ٩.

(٢) لذة النص، رولان بارت، ترجمة فؤاد صفاء والحسين سيحان، دار توبقال للنشر، المغرب، ١٩٨٨م، ص:٣٥

تسميته عَن استدعاء الشعر، أو المَثل، أو الحِكمة، وكلا هذين النوعين يَمنَح النصَّ الإبداعي بُعداً دلاليّاً لمساحةٍ أوسَع، فهو استمداد دلالي يَرفد العملية الأدبية مِن خلال التفاعل بَين المُضيف والمُستَضاف، ليُنتجا نَصّاً جديداً، ويكون ذلك بوعي من المُبدِع وقَصد، أومِن دون ذلك، فيصبح النصُّ الجديدُ نَصّاً لَه ظِلّ، لانَّ « النصَّ الحقيقي في حاجَة إلى ظِلِّه بشَكلٍ لازِم« [(١)]

ولا يكون الاستدعاءُـ المقصود أو غير المقصودـ مُوفَّقا وفاعلاً في إثراء النصِّ مالَم يكُن مُتأتّياً بطريقة تكشف قِدرة المُبدِع على استلهام الموروث المعرفي، والتعامل مَعه، فالنظم الصحيح، والمنسُوج في سياقٍ فنيٍّ صَحيح هو الضامِن لنجاح ذلك الاستدعاء الَّذي يتَّحِد فيه القديمُ والجديدُ، عند ذلك يصبح النصّ مُورقاً، قادراً على استلهام النصِّ الغائِب، واستثماره في بنية النصِّ، فينضَح دلالةً، ويتفجَّر مَعنىً.

الاقتباسُ والتضمينُ هما البوابتان الواسعتان لِتَداخل النّصوص، وتَفاعلها، والتَّزاوج بين المخزُون والمُبتَدَع .

ولابدَّ مِن التوقّف عند هذين المصطلحين بوصفهما عنواناً، ومُحوراً للبحث.

الاقتباسُ لغَةً :

القَبَسُ:الشُّعلة مِن النار[(٢)]، ويُقال:قَبَستُ منه ناراً، اقتبس قَبَسَا فاقبَسَني:أي أعطاني مِنه قَبَسَاً، وكذلك اقبَست منه ناراً، واقتَبَستُ منه عِلماً ونارَاً سَواء[(٣)].

---

(١) المصدر السابق، ص:٢٧

(٢) ينظر: الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، ت(٣٩٨) هـ، تحقيق، احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٩٩٨م، مادة (قبس)، ج٣/ ٩٦.

(٣) ينظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ت(٧١١) هـ، دار صادر، (د.ت)، لبنان، مادة (قبس)، ج٦/ ١٦٧. وينظر: الصحاح، مادة(قبس)، ج٣/ ٩٦.

وأقبَسَهُ:أعلَمَهُ[1] .

وعند البحث عن معنى(الاقتباس)في مَعاجم اللّغة نَراه يَنطوِي على مَعانٍ عِديدة، لا تبتعدُ كَثيراً عن معناه العام وهو طَلب القَبَس:أي الشّعلَة مِن نار، ثمّ استُعِير لِطَلَب العِلم، وأخذِه، فالاقتباسُ لُغَةً هو الأخذُ، والاستفادةُ، وطًلب العِلم.

الاقتباسُ اصطِلاحاً :

هو أن تُدرج كلمةٌ من القرآن، أو آيةٌ منه في الكَلام تَزييناً لنَظامِه، وتَضخِيماً لشَأنِه[2]، فهو تَضمين الكلامِ كلمةً مِن آيةٍ أو آيةً من آياتِ كتاب الله [3]، أو مِن حَديث الرسول(ص و اله)[4] .

وإذا كان بعضُ العلماء قَصَر الاقتباسَ على القرآن الكريم وَحدَه[5]، فان ذلك

(١) ينظر: القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي ت(٨١٧) هـ، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م، مادة(قبس)، ج٢/ ٢٣٩.

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الر ازي، ت(٦٠٦)هـ، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، و د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر، عمان ١٩٨٥م، ص: ١٤٧.وهناك تعريفات عديدة لهذا الفن في كتب البلاغة، والأدب .ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، د.أحمد مطلوب وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٣م، مادة(اقتباس)، ج١/ ٢٧٠- ٢٧٤.

(٣) ينظر: معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، دار الجيل، لبنان، ١٩٨٧م، ص:٥١٩.

(٤) ينظر: حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي، ت(٧٥٢) هـ، تحقيق اكرم عثمان موسى، دارالرشيد، بغداد، ١٩٨٠م، ص: ٣٢٣ . ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القز ويني ت(٧٣٩)هـ، تحقيق د. عليبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط٢، بيروت، ١٩٩١، ص:٣٤٢. ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، احمد بن علي القلقشندي، ت(٨٢١) هـ، تحقيق يوسف علي طويل، دارالفكر، دمشق، ١٩٨٧، ج٢/ ٣٤٢.ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة (اقتباس)، ج١/ ٢٧١.

(٥) قال صاحب كتاب (أنوار الربيع): خص الاقتباس بالقران الكريم تميزاً له عن سائر الكلام)، ج٢/ ٢٣٢.

لا يُخرِج حديث رسول الله(ص واله)مِن دائرته عِند كثيرٍ غيرهم، كَما هُو بَيّن في تَعاريفِهم لهذا الفن.

وأصبح تعريفهُ اصطلاحاً «تضمينُ الكلام نَثراً، أو نَظماً شيئاً من القرآنِ، أو الحديثِ النبوي الشريف» [١]، ومِن العلماء مَن زادَ في التعريفِ السابق عبارة:(لا عَلى أنّهُ مِنه)[٢]، أو عبارة أخرى هي:(ولا يُنبّه عَليه لِلعِلمِ بِه)[٣].

وعُرِف هذا اللون مِن الفنون البلاغية مُنذ عهد مبكّر، ولَعلَّ الجاحظ ت(٢٥٥) هـ، هو أوَّل مَن أشار إليه[٤]، حتّى أنَّهم عابُوا الخطبة التي تَخلو مِن كلامِ الله، وسَمّوا الخالية مِنَ البسملةِ بالبَتراء[٥].

ويذهب بعضُ النقّاد إلى القَول:إنَّ الاقتباسَ يدخل في مجال النثر دون الشِّعر، لانَّ«الشاعَر لا يقتبس، بَل يَعقِد، ويُضَمّن، وأمّا الناثر فَهو الذي يَقتَبِس كالمُنشئ والخَطيب» [٦].

مِن زاوية أخرى نجد اختلافاً آخر بين العلماء، والنُّقاد في عَملية الاقتباس، أيقتصر الاقتباسُ على (الأخذِ)، و(الإفادة)من كتاب الله، وحديث رسوله(ص واله) فقط ؟، أم يَتَعدّاهما إلى فنون أخرى ؟

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الروؤف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٤١٠ه، ج٢/ ٨١.

(٢) ينظر:الإيضاح، ص:٣٤٢.ينظر:التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين القز ويني، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، ١٩٣٢م، ص:٤٢٢.

(٣) ينظر:حسن التوسل، ص : ٣٢٣. ينظر:نهاية الأرب في معرفة الأدب، النويري، دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٩م، ج٧/ ١٨٢.

(٤) البيان والتبيين، أبو عثمان بحر الجاحظ ت(٢٥٥) هـ، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة المدى، ط٥، القاهرة، ١٩٨٥م، ، ج١/ ١١٨.

(٥) ينظر:معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة (اقتباس)، ج١/ ٢٧٠.

(٦) ينظر:السرقات الأدبية، د. بدوي طبانة، دار الثقافة، ط٣، بيروت، ، ١٩٨٦م، ص:١٦٥.

هناك من وَقَف بِه عند هذين الفنيين، وآخرون تَجاوزا بِه ذينك الموردين، وأدخلوا الشعرَ وغيره من الفنون ضِمنَ دائرتِه[1].

واشترط السيوطي في هذا الفن ألّا يُصَرِّح الشاعر أو الناثر بقوله:قالَ اللهُ تعالى، ونَحوِه[2].

ويرى آخرون أن(الاقتباس)لا يكون بالمفردة، وإذا وَرَدت في التعريف(كلمة) فإنَّ المُراد بها الكلام المركب، وليست مُفردة في حالتها المعجمية، إلاّ إذا كانت كلمةً مُميَّزةً، كأن تكون مِن الأعلامِ القرآنية، أو اسم سورة، أو حروف افتتاح السور[3].

وجَوّز البعضُ التغييرَ الطفيفَ الَّذِي قَد يُصاحب عملية الاقتباس منَ القرآن الكريم[4].

وَعُدَّ الاقتباسُ نوعاً بَديعيّاً، بوصفِه واحداً من المحسِّنات البديعية [5]، وهناك نوعٌ من الاقتباس يُدعى (الاقتباس التوجيهي)وهو ما أشار فيه الشاعر – على وَجه الخصوص – إلى قاعدةٍ مَشهورةٍ من العلوم النقلية أو العقلية مِن غير القرآن،

---

(١) ادخل القلقشندي، وابن الأثير الشعر في (الاقتباس) .ينظر:صبح الأعشى، ج٢/ ٣٤٢.ينظر:المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير ت(٦٢٢) هـ، تحقيق د.احمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار الرفاعي ط٢، الرياض، ١٩٨٣م، ج١/ ١٥٩.وعد بعضهم الإفادة من معاني أرباب الفنون المختلفة، واهل المهن والصناعات من الاقتباس، ينظر:السرقات الأدبية، ص:١٦٦.

(٢) ينظر:الاتقان في علوم القران، جلال الدين السيوطي، (٩١١) هـ، مطبعة مصطفى الحلبي، ط٢، مصر، ١٩٥١م ج١/ ١١١.وهناك من اشترط أن تكو ن العبارة المقتبسة ظاهرة مشهورة معروف صاحبها، وهذا يتعلق بالتضمين اكثر منه بالاقتباس. ينظر:السرقات الأدبية، ص :١٦٩.

(٣) ينظر:معجم آيات الاقتباس، حكمت فرج البدري، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م، ص:١٠.

(٤) ينظر:المكان نفسه.

(٥) ينظر:المصدر السابق، ص : ٨.

والحديث، وأدخلَه البلاغيون تَحت بابِ التوجيه[1] .

وكان للفقهاء* آراؤُهُم في(الاقتباس)، وتعلّق الأمرُ بهم بِقدر تَعلّقه بِكلام الله، ورسوله(ص واله) ويقع عندهم في ثلاثَةِ أقسام هي:

(مَقبول، ومُباح، ومَردُود).

الأوَّل :ما كان فِي الخطَب، والمَواعظ، والعُهود، ومَدح النبي(ص واله) ونَحو ذلك .

الثاني:ويكون في الغزَل، والرَسائل، والقَصَص.

الثالث: وله ضربان، أحدهما ما نَسبه اللهَ إلى نفسِه، ونعوذ بالله مِمَّن نقله إلى نفسِه، والآخر تضمين آية كريمة في مَعنى هَزل لا يُحسَن ذِكرُه[2] .

التَضمَينُ لُغةً :

ضَمَّنَ الشيءُ الشيءَ:أودعه إيّاه كما تُودع الوعاءَ المتاعَ، والميتَ القبر[3]، وكلّ شيءٍ جعلته في وعاء فقد ضَمَّنته إيّاه[4]، وفَهَّمته ما تضمَّنه كتابك، أي ما اشتملَ

---

(١) ينظر:المصدر السابق، ص : ٢٩.

* تناول السيوطي موضوع الاقتباس عند الفقهاء في كتابه(الإتقان في علوم القران)، وافرد له فصلا سماه(في الاقتباس وما جرى مجراه)، وتحدث عنه احمد بن محمد المعري، في كتابه(نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب)، ج/ . ينظر: الإتقان في علوم القران، ج١/ ١١٢.

ينظر: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، احمد بن محمد المعري، ت(١٠٤١) هـ تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج٥/ ٢٧١.

(٢) ينظر: خزانة الأدب، تقي الدين الحموي(٨٧٣) هـ، تحقيق عصام شعيتو، دار الهلال، بيروت، ١٩٨٧م، ج٢/ ٤٥٥.ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة (اقتباس)، ج١/ ٢٧٣. ينظر: معجم البلاغة العربية، مادة (اقتباس)، ج١/ ٥١٩-٥٢٠.

(٣) ينظر:لسان العرب، مادة (ضمن)، ج١٣/ ٢٥٧.

(٤) ينظر:الصحاح، مادة (ضمن)، خ٦ / ٢١٥٥.

عليه، وكان في ضِمنه[1].

ومن المجاز:ضُمّن الوعاء الشيءَ، وضَمّنته إيّاه، وهو في ضِمنه، يقال:ضُمِّن القبرُ الميتَ، وضُمِّن كتابُه وكلامُه مَعنىً حَسناً، وهذا في ضِمن كتابه، وفي مَضمُونه ومَضامِينه[2] .

التَضمِينُ اصطِلاحاً :

للتَضمين في الاصطِلاح مَعانٍ عَدِيدَة، تختلف باختلاف العلوم ونظرتها إليه، فهو عند عُلماء العربية إيقاعُ لَفظٍ موقع لَفظ غَيره، ومعاملته لتضمنه معناه، واشتمالِه عَليه، ومنها أن يكون ما بَعد الفاصِلَة مُتعَلّقاً بها[3] .

وفي عِلم العَروض هُو أن« تتعلَّق قافيةُ البيتِ بما بعده على وَجه لا يستقلُّ بالإفادة»[4]، أو هو «تَعلّق معنى آخر البيت بأوَّل البيت الَّذي يليه»[5]، أو هو« أن يكون الفَصلُ الأول مُفتقِراً إلى الفَصل الثاني، والبيت الأول مُحتاجاً إلى الأخير»[6]، وحين يُضمّن الشاعرُ شيئاً من شِعرِ غَيره عليه أن يُشير إن لم يُكن مَشهوراً[7] .

(١) ينظر:المعجم الوسيط إبراهيم مصطفى، وزملاؤه، مؤسسة دار الدعوة، استنبول، ١٩٨٩م، باب(ضمن)، ج٦/ ٢١٥٥.

(٢) ينظر:أساس البلاغة، جار الله عمر بن احمد الزمخشري، (٥٣٨) هـ، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعةوالنشر، بيروت، ١٩٧٩م، (ضمن)، ص:٢٧٢. العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج١ / .

(٣) ينظر:المعجم الوسيط، باب، مادة(ضمن) ج١/ ٥٤٤.

(٤) ينظر:المكان نفسه. وذكر(ابن رشيق) مثل هذا التعريف، أو قريبا منه في(العمدة) فقال: (أن تتعلق القافية، أو لفظة مما قبلها بها بعدها) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، ابن رشيق القيرواني(٤٥٦) هـ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤، بيروت، ١٩٧٢، ، ح١/ ١٧١.

(٥) مفتاح العلوم، أبو يعقوب بن أبى بكر علي السكاكي(ت ٦٢٦) هـ، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٨٣م، ص: ٥٧٦.

(٦) الصناعتين، أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥) هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطابع عيسى البابي، مصر، (د.ت)، ص:٢٧٣.

(٧) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، الشيخ عبد الرحيم بن احمد العباسي(ت ٩٦٣) هـ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧م، ج٤/ ١٥٣.

والتضمين عند البلاغيين له تعريفات كثيرة [١]، وهي كلها تكاد تعود إلى معنى واحد، وهو: «استعارة كَلام الأخير وإدخالِه في الكَلام الجَديد»[٢].

وبتَفصيلٍ أكثر هُو: «أن يأخُذ الشاعرُ أو الناثر آيةً، أو حديثاً، أو حِكمةً، أو مَثَلا، أو شَطراً، أو بَيتاً من شِعرِ غَيرِه بلفظِه ومَعناه»[٣]، أو أن يُشار في فَحوى الكلام إلى مَثَل سائِرٍ، أو شِعر نادِرٍ، أو قصّةٍ مَشهورَةٍ، مِن غَير أن يُذكر القائِل.

والتَضمين كالاقتباسِ بَدأ يَتّضِح في الكتب البلاغية منذ عَهد مُبكر[٤]، حتّى دَخَل مَفهوم التَّضمين خلال السنوات ألاخيرة في (فَلسَفَة اللّغة)، ومِن ثُمّ في(علم اللّغة) [٥].

ممّا تقدّم نُدرك الفرقَ بين هذين المصطلحين، واختصاص كلَ منهُما بموردٍ من مواردِ الأخذِ، وكثير من البلاغيين فَرَّقوا بينهُما[٦].

وشَهِد انفصالَ المصطلحينِ اضطرابٌ هو بلا شك سابق لولادة الأنواع[٧]، وكان مِن جَرَّاء ذلك الاضطراب تَداخل بين هذين المصطلحين في هذه المَساحة، أو تِلك.

وهذان الفنّان يُراد بِهما أمران هما؛ الارتقاء بلُغّة النصِّ وبنيَتِه اللَّفظية، وتَفجير طاقته الدلالية على ألّا يَصلَ الأمرُ بالمبدِع إلى الحدِّ الّذي يَجعل فيه ما اقتبسه، أو ضمَّنه طاغيا على نصِّه، ومُهيمناً عليه.

---

(١) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة(تضمين) ج٢/ ٢٦٢- ٢٦٤.

(٢) المصدر السابق، مادة(تضمين)ج٢/ ٢٦٣.

(٣) المعجم الوسيط، ج١/ ٥٤٤.

(٤) نهاية الإيجاز في دراية المجاز، ص: ١٤٧. وقد أدرجه الرازي تحت باب(التلميح).

(٥) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة (تضمين)، ج٢/ ٢٦٣.

(٦) ينظر: اللغة والمعنى والسياق، جون لا ينز، ترجمة عباس صادق عبد الوهاب، دار الشوؤن الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٧م، ص: ٢٢٩.

(٧) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة(حسن التضمين)ج٢/ ٤٣٨.

ومع ما تقدَّم لم يقف المصطلحُ القديم عائقاً أمام الولوج في عملية الإبداع في الأدب الحديث، وإن كان الولوج يَستدعي تَغييراً في المصطلحات، والمسمَّيات، حتّى عَدّ بعضُ النقاد الاقتباسَ والتضمينَ فكرتين تَحملان المَلمح القَديم للمصطلحِ الحديث(التناص)[1]، وعُدَّ التضمينُ ألصَق مِن غَيره بالتناص[2].

و(التناصُّ) مُصطلَح نقدي كَثُر الخوض فيه بعد دخوله الآفاق النقدية العربية، فهو أحَد مُميِّزات النصِّ الأساسية التي تُحيل إلى نصوص سابقة عليه، أو مُعاصرة له[3].

إنَّه قراءة لنصوص سابقة، وتأويل لها، وإعادة كتابتها، ومُحاورتها بِطرائق عديدة على أن يَتضمَّن النصُّ الجديد إضافةً فنّيةً، وجماليةً إلى مُكوناته السابقة التي يتكوَّن مِنها[4].

عَرف العربُ (التناصَّ)، وأسهبوا في تحليله، وإن لَم يستخدموا كلمة (تناص)[5]*، ودَرسوه عِبر ظواهر التَعامل مع نصوص الآخرين، وما يَتعلَّق بها مِن

(١) ينظر: معجم آيات الاقتباس، ص: ٩.

(٢) ينظر: التناص واشاريات العمل الأدبي، صبري حافظ، مجلة ألف، ع ٤، لسنة ١٩٨٤م، ص:٢٦-٣٠. ينظر: الليث والخراف المهضوم، دراسة في بلاغة التناص الأدبي، د.شجاع العاني، مجلة الموقف الثقافي، ع(١٧)، لسنة١٩٨٨م، ص:٨٩.ينظر: التناص في شعر محمود درويش، حازم هاشم منخي، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ٢٠٠٥م، ص:١٦.ينظر: النص والتناص، د. رجاء عيد، مجلة علامات، ع ١٨، مجلد ٥، ديسمبر، ١٩٩٥م، ص:١٧٥-٢٠٨.ينظر: تناص الشكل في الرسم الحديث، كاظم وير، مجلة الموقف الثقافي، ع ٢٩، السنة الخامسة، للعام ٢٠٠٠م، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ص: ٣٦.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص:٤٨.

(٤) * ذكر صاحب(تاج العروس) كلمة (تناص) بمعناها اللغوي، فقال:« تناص القوم، أي ازدحموا»، وهذا المعنى هو المنطلق للمعنى الاصطلاحي، الذي يعني ازدحام النصوص، وتفاعلها .ينظر:تاج العروس في جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ت(١٢٠٥) هـ، تحقيق عبد الكريم الغرباوي (د. ت)، (نصص)، ج١٨/ ١٨٢.

(٥) ينظر:التناص في شعر محمود درويش، ص:١٧.

تَداخل، وتَواشج، واقتباس، وتضمين، ولَعلّ في الاستعارة ما يَمدّنا بمدخلٍ مُقنعٍ لمسألة التناص وآليَّتِه[1].

أردنا الوقوف عند مقدار التطابق بين فَنّي (الاقتباس) و(التضمين) مِن جِهة، و (التناصّ) من جهة أخرى، سوف لن يكون الأمرُ يسيراً، لعَدم توافر آلية دقيقة لقياس ذلك، لاسيَّما أن هذه المفاهيم الثلاثة، مفاهيم أدبيّة تَستعصي على الضَبط، والقِياس، والتَحديد «إذ تَعتمِد على ثقافة المتلقِّي وسعة مَعرفته، وقدرَته على التَرشيح» [2] .

وسيسعى الباحثُ إلى بيان العوامل، والقواسم المشتركة لغَرض التعَرّف على مِقدار التقارب بين هذه الفنون، بعدما تمّ التعرّف على معانيها، للوصول إلى إثبات أنّ(التناصَّ) هو المُسمّى الجديد لفنَّي الاقتباسِ، والتضمينِ، عند ذلك يتبيّن المسار التاريخي لهذين المُصطَلحين.

لقد ربط بعضُ النقّادِ المحدثين بين هذه الطرائق الأسلوبية ؛ (التناص) والنقد العربي القديم[3] حيث كان(الاقتباسُ) و(التضمينُ) يمثلان فيه مُصطلحين بلاغيَّين ناضجين، مُتذكِرين ما تمثله البلاغة من موقع في النقد الأدبي العربي القديم، سنقف عند أهمِّ القواسم والمشتركات التي نَعتقد إنَّها محاولة قَد تُقنع أنَّ(التناصَّ) هو مُسمّى جديد لهذين الفنَّين، وهذا لا يَعني انطباقها مَع بعضها تَطابقا كامِلًا، إذ تبقى هنالك خَصائِص ينفرد بها كلُّ نَوعٍ منها، والغرض مِن بيانِ تلكَ المُشتَركات بين المصطلحين القديمين، والمصطلح الحدِيث(التناص) هو بَيان انتساب فَقط، ومَعرفة أيٍّ مِنَ المُسمَّيات الحَديثة التي قَد تُمُتُّ بصِلَةٍ لِهذَين الفَنَّين.

(١) ينظر: تناص الشكل في الرسم الحديث، ص:٤٧.

(٢) ينظر: المكان نفسه.

(٣) تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د. محمد فتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م، ص

يقومُ التناصُ على(تداخل النصوص) وتفاعلِها[1]، وإن كان هذا التداخل يتَخطى كونه تداخلا فقط، ويَصل إلى التفاعل بين النصوص، إلّا أنَه مع ذلك يَبدأ بالتداخل بينها، ومن خلال هذا(التداخل) نجد أنَّ«مختلف تِلك النصوص تَتَحول إلى إشارات داخل النصِّ الذي يتضمَّنها»[2]، وهذا ما نجده في فَنَّي الاقتباس والتضمين

فالتفاعل والتداخل - وهما عِماد الاقتباس والتضمين- أضحَيا الركيزة الأساس في مَفهوم (التناص)، وتَعريفه[3]، وأصبحَ النصُّ مع غيره، وبازدياد هذا الترابط من تَفاعلٍ، وتَداخلٍ[4] على طريق يُوصله إلى الأدبية، حتّى يصِل إلى ما يُعرف

---

(١) التناص مع الشعر العربي، عبد الواحد لؤلؤة، مجلة أقلام، عدد:١٠، ١١، ١٢، لسنة١٩٩٤م، بغداد، ص: ٢٧.

(٢) باعتبار ان التناص هو«التواجد اللغوي، سواء أكان نسبياً كاملاً، أم ناقصاً لنص في نص آخر».ينظر: مدخل لجامع النص، جيرار جينيت، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص:٩٠.

(٣) مشكلة التناص في النقد الأدبي المعاصر، محمد ديوان، الأقلام م، ع (٦، ٥، ٤)، لسنة ١٩٩٥م، ص:٤٦.

(٤) ينظر:النص الغائب، تجلّيات التناص في الشعر العربي، محمد عزام، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص:٤٦. نلمح هذه الحقيقة تصريحاً في كثير من التعاريف، وتَضميناً في بعض منها، فَمِن الذكر الصريح ما نجده في المصادر الآتية :المصطلح النقديّ، د.عبد السلام المسدي، مطبعَة كويتب، تونس، ١٩٩٤م، ص: ١١٩.التطبيق الصرفي، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، ١٩٧٩م، ص:٣٨. علم النص، جوليا كرستيفا، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، المغرب، ١٩٩١م، ص: ٢١.الخطيئة والتكفير، ص: ٣٢١.وذُكر (التفاعلُ) و(التداخلُ) ضِمناً في بعض تعريفات التناص، وتَجلّى هذا(التضمين) في مصطلحات منها : (حِوار خطابات) كما سمّاه (تودوروف). ينظر:المبدأ الحواري، تزفتيان تودوروف، ترجمة فخري صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٢م، ص: ٨(التحويل والتمثيل) بين عِدَّة نصوص يقوم بها نصٌّ مركزي يحتفظ بريادَة النص.ينظر: في أصول الخطاب النقدي الجديد، مجموعة مؤلفين، ترجمة احمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٧م، ص: ١٠٨ .أو بمصطلح (**العلاقات المترابطة**)، لانَّ التناصَّ يُمثل منظومةً من العلاقات العامة المترابطة في العمل الفني، وتفعل فعلها عِبر تمحورها حَول الشَّكل الجديد.ينظر: تناص الشكل في الرسم الحديث، ص: ٤٩ .أو من خلال (**تَحاور النصوص**) باعتبار أنَّ النصَّ هو قراءة لنصوص سابقة، وتأويل هذه النصوص، واعادةكتابتها ومحاورتها بطَرائق عِديدة.ينظر: الليث والخراف المهضومة، ص:٨٤.أو بتعبير (**تقاطع عبارات**) مأخوذة من نصوص أخرى.ينظر:تناص الشكل في الرسم الحديث، ٤٨ .أو يتجلّى في المصطلح (تَعالق النصوص)، لانَّ التناصَّ هو «الدخول في علاقة نصوص مع نصٍّ بكيفيّات مُختلفة».ينظر:استراتيجية التناص، ص:١٢١.

بتَعالِي النص.

وقد جُمعت هذه المضامينُ والمسمياتُ في : (التبديلِ، التَداخلِ، الاشتراكِ، التَأثّر، المُعارضَةِ، الإحالةِ، الارتباطِ، المُعايَشةِ).

وهذه كلها – قد – تُوصِل إلى مُرتكَزَي (التفاعل والتداخل)، والكلُّ يُشير بدوره إلى مُقاربات من فنَّي (الاقتباس والتضمين)، لأنَّهما (تفاعلٌ)، واشتراكٌ، وتداخلٌ بين النصوص المُستَضافَة والأخرى المُستَضِيفَة.

ثم أنّ التناصَّ لمّا كان قائماً على هذين المحورين، فإنَّه يكون شامِلاً للاقتباس والتضمين، بوصفهما مِن مَصاديق تلك العلاقات والتداخلات بين النصوص.

وهناك مُشترك آخر، هو أنَّ أقسام هذه الفنون الثلاثة تَكاد تكون واحدة، أو متشابهة على اقلِّ تقدير، مُتذكرين قبل بَيان ذلك أنَّ هذه الفنون قَد تَدخل النصَّ بقَصدٍ أو مِن غير قَصد، وهو عامل مُشترك آخر، فمثلما قُسّم(الاقتباسُ) إلى (ظاهرٍ، صريحٍ، لفظيٍّ) و(خَفي، مُستَتِر، مَعنوِي)، قُسّم(التناصُّ)إلى مِثل هذه الأقسام[1] .

ويَتحقّق الاشتراكُ في مَساحةٍ أخرى، هي أنَّ(الاقتباسَ) و(التضمينَ) هُما إحضار نَصّ –أو بَعض نصّ–غائب في نَصٍّ حاضر، و(التناص)هو(النصُّ الغائِب) بِحَسَب قول(محمد بنيس)[2] .

وإذا كان الاقتباسُ والتضمينُ يدوران حولَ محورِ التقاطع والتبادلِ، والتفاعلِ، والتداخلِ بين النصوص في ما يُعرف ب(حُسن الأخذ)كما مرَّ في ذكر المصطلحين[3]، فانَّ التناصَّ هو الآخر عُرفَ بأنَّه«التقاطعُ والتعديلُ المتبادل بين نصوص عائِدة إلى

(١) مدارات النص المغلق(من غرابة المفردة إلى تغريب النص)، عبد العزيز إبراهيم، الموقف الثقافي، ع(٢٩)، السنةالخامسة، دار الشوؤن، بغداد، ٢٠٠٠م، ص: ٦.

(٢) قسم إلى(صريح) و(ظاهر) و(خفي)، .ينظر: الليث والخراف المهضومة، ص:٩٦– ٩٧.

(٣) نظر: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ((مقاربة بنيوية تركيبية))، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٥م، ص :٩٨.

نصوص مُختلفة» [١] وهذه واحدةٌ من المشتَركات بين الفنون الثَلاثة.

وبالعَودِ إلى إشاريَّة(التناص)في ضوء أحد تعريفا ته نجده لا يعدو كونه إشارة مقصودة، أو غير مقصودة، والإشار ة هي«الإيماء عند المُتقدِّمين» [٢]

وفي(اللِّسان):«إشارة إليه باليدِ: أي أومَأ» [٣] .

وكذلك الحال في التضمين فهو تَلميح وإشارة إلى بيتٍ مشهور أو مَثَلٍ سائر[٤]، أو أن يُشار إلى قصَّة، أو شعرٍ من غَير ذكره[٥]، وبذلك يشترك التناصُّ ويتواشج مع فَن(التضمين)عِبر هذه المتقاطعًات المُشتركَة.

ومِن القواسم، والمشتركات، أنَّ التناصَّ يَعتمد على حقيقة لا مناص منها وهي أنَّه «لن يكون قائماً بمؤلِّفه، ولا ينتهي عِنده وبالتالي فإنَّ النصَّ هو حصيلة عقول سابقة ينقلها المتأخرُ عَن المتقدم، وإن حاول المتأخرُ أن يُضيف شيئاً على ما قدّمه السابق...»[٦]، بمعنى أنَّ الاقتباسَ يَستند إلى استرجاعيَّة النص، أو النصوص، وكذلك الحال في(الاقتباس) و(التضمين)، فهما يُنتَجان عن عودة المُبدِع، ورجوعه إلى نتاجات مُبدعين من قَبله ويُشركهم في نُصِّه، ويجعله نابضاً، حيوياً بما يَحتويه مِن استحضاراتٍ مباشرة، أو غير مباشرة، مَقصودة، أو غير مقصودة، نابعة من خَزينِه المعرفي، فالعَود التاريخي«القراءة التاريخية» [٧] هي التَّي تضَع النصَّ في مساحةٍ مشتركةٍ بين هذه الفنون الثلاثة، ومِن ثُمَّ يَتحقّق نَوع من التطابق بينها، والنصُّ- بغَض النظر عن هذه المسميات- وبواسطة العَود التاريخي يُشحَن، ويُمنح حيويةً، وديناميةً مُتجدِّدة، تجعله

---

(١) راجع: ص : ٤.

(٢) أدونيس منتحل، كاظم جهاد، مطبعة مد بولي، ط٢، ١٩٩٣م، ص: ٣٤.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة (الإشارة) ج١/ ٢٠٤.

(٤) لسان العرب، مادة (أشار).

(٥) ينظر:خزانة الأدب، ج١/ ٤٠٦.

(٦) ينظر:الإيضاح، ج١/ ٣٨٨، وينظر:المعجم الوسيط، ج١/ ٥٤٤، وينظر: نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص:١٤٧

(٧) مدارات النص المغلق((من غرابة المفردة إلى تغريب النص))، ص: ٦٢.

قادراً على التأثير في المتلقي لما يبثّه من دلالات وانطباعات مُتَجدّدة.

بهذه القواسم، والمشتركات يقترِب التناصُّ في بعضِ جوانبه مِن فنّي(الاقتباس والتضمين)، أو هو صورة لهما[1] لكن بثوبٍ جديد، وهو المُسمّى الجديد لهما، وإن كان هناك مَن عَدَّهما آليَّة تناصّية[2].

تبقى هذه الفنون مُتفاعلات نَصّية تَتنوع بين موروث ديني، أو أدبي قديم، أو أدب معاصر حديث، وتلك المرجعيات تُمثّل المساحةَ المشتركة التي تلتقي فيها - بمقادير- لأغراض شتّى، فيظهَر النصُّ جرّاء ذلك نَصّاً آخر تَتَباين فيه القدرةُ على الإبداع تَبعاً لتغاير القدرة على الإفادةِ من النصوص المُستدعاة أوّلاً، ومقدرة الأديب على نَسج تلك النصوص في سياق مُلائم جديدٍ ثانياً، فيغدو النصُّ ذا مَقدرة على الإمتاع والتأثير، أو هُما جزء من عملية التناصّ، لأنَّه يقع في ثلاثة أقسام، ويدخل ذينك الفنيين في واحد من تلك الأقسام[3].

والخلاصة، هي أن المصطلحَ الحديث لفنَّي الاقتباس والتضمين ليسَ بَديلاً عنهما، أو مُواجَهَة لهُما، إنَّما هو امتدادٌ، واستمرارٌ لهما.

وبعد الوقوف عند المعنى اللغوي، والاصطلاحي لفنَّي (الاقتباسِ والتضمينِ)، والتعرف على مُسمّاهُما الجديد، باتَ مِنَ الضَّروري الشروع في استعراضِ أنواعِهما، ووظائفِهما، وخصائصِهما في النصوص النهجية، مِن خطب، وكتب، ومَواعظ للإمام علي عليه السلام.

---

(1) هناك قراءات متعددة تستطيع تقديم النص للمتلقي، فهناك (**قراءة جمالية**)، وأخرى (**استرجاعية**)، وثالثة (**تاريخية**) ينظر: ما هو النقد، بول هيرفادي، ترجمة سلامة حجاوي، دار الشوؤن الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م، ص:١٤٣.

(2) يعتقد بعضُ الباحثين أنّ النقاد القدماء عَبّروا عن مفهوم التناص بمصطلحات أخرى كالاقتباس والتضمين.ينظر:التناص واشاريات العمل الأدبي، ص: ٢٦. ينظر:الليث والخراف المهضومة، ص: ٨٩.ينظر:التناص في شعر محمود درويش، ص: ١٦.

(3) ينظر:المصدر السابق، ص: ٢١.

هذه الأقسام هي (المَناصَّة) و(المُتَناصَّة) و(المُتانصِّية)، ويدخل (الاقتباسُ والتضمينُ) في القسمِ الثاني، وهذه الأنواع الثلاثة مُتداخلةٌ فيما بينها.

ينظر:النص الغائب، تجليات النص في الشعر العربي، ص: ٤.

البَابُ الأوَّل

الاقتِباسُ فِي نَهجِ البَلاغَةِ

الفَصلُ الأ وَّل: أنواعه .

الفَصلُ ألثَانِي: وظِيفَته .

الفَصلُ ألثَالِث : خَصائِصُه .

الفَصلُ الأوَّل

أنواعُ الاقتِبَاسِ فِي نَهجِ البَلاغَةِ

المَبحثُ الأوَّل:
أنواعُ الاقتِبَاس مِـــــــنَ القُرآنِ الكَريِم.

المَبحثُ الثانِي:
أنواعُ الاقتِبَاس مِنَ ألحَدِيث النَّبَوِي الشَّرِيف.

مَدخَل

تُعد ظاهرة استدعاء النّص القرآني أو معناه من الظواهر الفنية البارزة في الساحة النهجية، التي تُؤدي إلى تَدعيم الخطاب النهجي، وتكثيف دلالته [1]، وبغضّ النظر عن المُسمَّيات واختلافها تبقى هذه الأنواع مُنضويةً تحت مَشروعيةٍ مُتعارَفٍ عليها[2]، والمُتلقي لنصوص النهج يجد نفسَه إزاء هذه الأنواع الاقتباسية التي تَتَمحور حول (استحضار) مُفردةٍ، أو تركيبٍ، أو آيةٍ، أو بعضٍ منها، أو أكثر، أو استحضارِ لمعانيها، أو مَبانِيها.

إنَّ للبناء الفنِّي القرآني أثَره في كَشف مَعانيه، وتَوضيح دلالته، ، لما له مِن أثَر في توجيه النص، والبناء القرآني أقدَر النصوص للقيام بذلك، وقد أقرَّ له فصحاء قريش لما يقوم عليه من تناسب بين المفردات وتَلازم مُوسيقي وصوتي، لذلك لا عَجَب أن نَرى عليّاً عليه السلام - وهو ابن القرآن- يَقتبس بعضاً من مُفرداته، أو تَراكيبه، أو آياتِه، أو صُورِه، أو مَعانيه، حتّى صار البناءُ ألقرآني شِكلا أدائيّاً شائعاً في عباراتـه .

---

(١) ظهرت دراسات عديدة تتقصى أثر القرآن الكريم في النصوص الادبية قديماً وحديثاً.ينظر على سبيل المثال:ألاقتباس من القرآن ألكريم، أبو منصور ألثعالبي ت (٤٢٩) هـ، تحقيق د. ابتسام مرهون ألصفار، بغداد، دار ألحرية، ١٩٧٥م .أثر القرآن ألكريم في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، د. ابتسام مرهون ألصفار، بغداد، مطبعة أليرموك، ١٩٧٤مآثر القرآن في الشعر ألعربي ألحديث، د. شلتاغ عبود شراد، دار المعرفة، دمشق، ١٩٨٧م.اقتباس شعراء صدر الإسلام من القرآن ألكريم، د.سامي مكي ألعاني، مجلة آداب ألمستنصرية، ع(٢٠-٢١)، ١٩٩١م.

(٢) ينظر: النصوص الأدبية بين السرقة والاقتباس، غانم محمود، مجلة آفاق، ع (٣)، آذار، السنة الثامنة عشرة بغداد، ص: ١٣.

المبحَثُ الأوَّل

أنواعُ الاقتباسِ مِن القرآنِ الكَريم

تَنوّعت طَرائقُ الاقتباسِ مِن القرآن الكريم في نصوص نَهج البَلاغة، مِنها ما كانَ اقتباساً لمفرَدَةٍ قرآنِيَّةٍ، أولِتَركيبٍ مِن مُفرَدَتَين أو أكثر، أو ما كانَ اقتباساً لآيَةٍ قرآنِيَّةٍ أو بَعضٍ مِنها كَما سَيتبَيَّنُ وفقَ التَّقسيماتِ، والتفريعاتِ الآتية :

أوّلا - اقتباسُ المفرداتِ القُرآنيّة :

حَفلت نتاجات الأدباء بأنواعها بوجود الأثَر القرآني بصُوَرِه، أوتَراكِيبه، أومَعانيه، ابتغاءً لما يحمله من إفاضات دلالية، وفنيّة، لها قدرة البَث الدلالي، والفنِّي .

ولم يكن النصُّ النهجي بَعيداً من ذلك، إذ دَخل كثيرٌ منه ضِمن دائرة(الاقتباس) القرآني سَواء أكان ذلك باقتباس المفردة، أم التركيب، فالنصُّ القرآني له حضوره، وتجلّى بمظاهر عديدة، يأتي في مقدمتها اقتباس المفردة القرآنية والتي تبدو إشارة مُركَّزة لنصّ غائب قَد تَكفي المفردة لاستحضار فاعليته .

وللمفردةِ أثرُها في بنية النصِّ وقيمته الدلالية مِن جِهة؛وفي نَفس المتلقي مِن جِهةٍ أخرى، وأدركَ النقادُ والبلاغيون العرب القدامى هذا الأمر، فتناوله كثيرٌ منهم في باب(الفَصاحة)[1] .

---

(١) لتعلّق الفصاحة بالمفردة، والبلاغة بالجملة عند كثير من البلاغيين .ينظر مثلا: سرّ الفصاحة، ص:٤٩، المثل السائر، ج١/ ١٤١-١٤٩ .والبحث في الفصاحة بحث في الألفاظ، ودخلت بعدئذ فيما عرف بقضية اللفظ، والمعنى، وهي من القضايا التي عُني بها النقاد العرب، ثم البلاغيون منذ وقت مبكر يمتد إلى العصر الجاهلي.ينظر: علم المعاني، قصي سالم علوان، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٥ م، ص:٥٠.ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة(فصح) .

وهي أساس الصياغة الشكلية للمعاني والهيكل البنائي في العمل الأدبي، فالمعاني أفكارٌ مجرّدة تُخرجها المفرداتُ إلى عالم الوجود، وتَنتشلها من عالم المفاهيم إلى عالم المَصاديق، وليست كلّ مفردة تصلح للقيام بهذا الدور ما لَم يَتَصرف بها مبدعٌ له من القدرة والإبداع حظّ كبير، وما لَم تُوضَع بموجب تلك القدرة في سياقها الصحيح، فتختلق صُوراً أدبية تُحقّق الإمتاع- ومن قبله الإفهام- للمتلقي، من هنا أخذت العناية بها - لاسيّما المفردة القرآنية - تزداد، وأُفرزَت لها المؤلفاتُ المُتخَصِّصة[١]عند النقاد المحدثين، بعد أن كانت تُبحث في الكلام عنً الفصاحة، والإعجاز، والسياق، والنَظم عند القدماء .

ولها أهميتها في النقد الغربي الحديث، حتّى أنَّ بعض النقاد الغربيين جَعلها محوراً لِعِلــم الدَّلالة[٢]، وأصبحت مُنطلقاً للبحث الدلالي عندهم، ويرى ناقدٌ آخر - ستيفن- أَنَّها أهم نواقل المعنى[٣].

إنَّ السياق الصحيح والرصف الناجح للمفردة هو الدافع لولادة دَلالاتٍ ومعانٍ جديدة، ويجعلها قادرة على مَنح إشارات دالّة، ومُحيلة إلى معانٍ مُختزلة، ولا فَضيلةً للمفردات ما لَم يُحسن رصفها مع ما يجاورها من مفردات، لذلكَ يرى الشيخ عبد القاهر الجرجاني ت(٤٧١، ٤٧٤)هـ، أنَّ الفضيلةَ وخلافها في ملازمة اللفظة لمعنى التي تليها[٤]، إذ هناك دلالات ومعان مشتركة بين كثير من الناس، والسياق وحده هو

---

(١) توزّعت هذه الدراسات بين تاريخية، ولغوية، وفنية، ومن تلك الدراسات:
- (جمّاليات المفردة القرآنية)، د.احمد يا سوف، دار المكتبي، ط٢، سورية، ١٩٩٩م،
- (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)، د.فاضل السامرائي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٠م.
- (من كنوز القرآن)، محمد السيد الداوودي، دار المعارف، مصر، ١٣٩١ه - ١٩٧٣م.
- (في ظلال القرآن)، سيد قطب، دار الشروق، ط٣٥، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م

(٢) هذا ما يراه (غيرو) . ينظر: علم الدلالة، ترجمة انطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٦م، ص: ٧٠

(٣) ينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة د. كمال محمد بشير مكتبة الشباب، ط٣، القاهرة، ١٩٧٣م، ص:٤٣ ينظر: علم الدلالة، احمد مختار عمر، مكتبة العروبة، الكويت، ١٩٨٢م، ص: ٣٣.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م/ ص:٤٦.

القادر على تشخيص بَعض الدلالات دون سواها .

وذهب(راسل)برأيه بَعيداً، فهو يرى أن « الاستعمال يأتي أوّلاً، وحينئذ يَتقطَّر المعنى»[1]، غير أنَّ السياق اللفظي- أحياناً- ليس بقادر على تَفجير الطاقة الدلالية للنص، ما لَم يكُن مَشفوعاً بسياق الحال، ليكشف الضوءَ المُسلَّط عليه، ويبدو هذا جَليّاً في فَهم المُراد لكثير من الآيات من خلال معرفة أسباب النزول، التي تُعَد مِصداقاً من مصاديق سياق الحَال[2]، فاللغة ظاهرة اجتماعية لا يُمكن فصلها عن المجتمع، والسياق الاجتماعي، وهي نشاط اجتماعي من حيث إنَّها استجابة ضرورية لحاجة الاتصال بين الناس جميعاً[3].

إنَّ سياق المقال، وسياق الحال بمثابة أضواءٍ تتواشج في كشف دلالات النص، إذ لا يُمكن الاعتماد دوماً على المعاني المُعجمية في استنطاق المعاني المرادة للمفردات، والسياق قد لا يَقِف عند حدود كشف الدلالات ورَفدِها بَل يتعدّاها إلى المقدرة على التأثير في النفوس، بما لها من إيقاعٍ وجَرسٍ ناتجين بفضل رَصف هذه المفردات بَعضها مع بعض بِنَسَقٍ فنّي .

ولكلِّ مُبدِع لغته، ومفرداته التي تكون مُعجَمَه الخاص به، اعتماداً على حَوزته لمفردات تأثر بها، ووعاها، فشكَّلت مَخزونه المعرفي، وركيزته الثقافية وشكَّل القرآنُ الكريم بمفرداتِه، وتراكيبِه، ومعانيه أهمَّ رَكائز الإمام عليه السلام التي استقى منها كثيراً من المفردات، والمعاني .

إنَّ تمثيل المفردة القرآنية ومعانيها لم يكن بِمقدور جميع مَن أراد ذلك، أو مَن

(١) علم الدلالة، ص : ٧٢ .

(٢) تنّبه الزركشي (ت٧٩٤) هـ إلى أهمية السياق باعتباره اعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم.ينظر:البرهان في علوم القرآن، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١م، ج١/ ٣٦. وبرز منهج تفسيري جديد يعتمد السياق في استقراء معاني النصوص القرآنية، ويعدّ(التفسير البنائي) للدكتور محمود البستاني واحدا من ابرز هذه الجهود .ينظر:التفسير البنائي للقرآن الكريم، مؤسّسة الأستانة الرضوية، قم، ١٤٢٢ هـ .

(٣) ينظر:المدخل الى علم الدلالة، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص:١٢٨ .

قَرأ القرآنَ وحفظه أنَّها عملية مُستعصية إلّا لِمَن مَلك زِمام اللغة، وأحسَن استخدام أدواتها.

لقد استعان الإمام عليه السلام بالمفردة القرآنية- وهو القادر على التصرّف بها- لتوسيع دائرة الضوء الدلالي فيما قاله أو كتبه، فهي تَحمل إضاءاتٍ كاشفةً للمتلقي، لذلك عَمد إلى مُفردات بحسب حاجته إليها، وكثيراً ما ازدانَت خطب الإمام عليه السلام وكتبه وحكَمه بالمفردات القرآنية، أو بمقارباتها العائِدة في أصلِها إلى الانتماء القرآني، مَع شيءٍ مِنَ الزيادة، أوالنقصان، أوبهما معاً، أو التغيير في البنية الصرفية، وهذا بِرمّته لا يَبتعد بها كثيراً عَن انتماءاتها القرآنية.

وأورد الإمام عليه السلام تلك المفردات، ومقارباتها من خلال استدعاءٍ عفويّ، واستدعاء بِنائي وظيفي، فجاءت كإشاراتٍ باثَّةٍ يَستشعِرها المتلقي في ظِلالٍ وارِفَةٍ من الدلالات، والمعاني.

وتَلوّنت المفردةُ القرآنية في نصوص النَّهج، فَمِنها الأسماء، والأفعال، وقد تَنوّع كلٌّ منهما، فمن الأسماء نَجد اسمَ الفاعل، واسمَ المفعول، واسمَ الزمان والمكان والصِفة، ومن الأفعال اقتبسَ الفعلَ الماضي، والمضارع، والأمر.

من المفردات القرآنية المباشرة نجد على سبيل المثال: (وَليجَة، مُزدَجَر، أجَاج، ضَغث، أمشَاج، ناشِئة، نَجوى، هار، الأجَداث، مُوزَعُون، مَثابَة، لَغُوب، نَصَب، قَارِعَة، الأجَل، أطبَاق، ذِكر، قِسط، مُنكَر)[1].

ومن المقاربات للمفردة القرآنية التي تمركزت في بعض المفردات نجد: (السَدَنة، ناكِس، الأجَل، الضَلالَة، رَاكِن، مَقمُوع، وَبِق، اكنَان، الإمَامَة، الأئمّة، يَبُور، الاستِغفَار، وَلائِج، الاستكبار، مَأمُوم، راكِس، أغلَف)[2].

(١) ينظر: نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة، مصر، (د.ت).
(٢) :خ(٧)، ج١/ ٨، خ(٩)، ج١/ ٥٣، خ(٣١)، ج١/ ٧٥، خ(٤٩)، ج١/ ٩٥، خ(٨٧)، ج١ ١٩٧، خ(٨٧)، ج١/ ١٧٩، خ(١٠١)، ج١/ ٢٠١، خ(١٠٦)، ج١/ ٢١٩، خ(١٢١)، ج٢/ ٨، ك(١٣٠)، ج٢/ ٢٥.

تلك التغييرات في المقاربات القرآنية لا تَبتعد بها عَن مَرجعيتِها القرآنية لانطلاقها مِن جَذر قرآني مَعروف، سرعان ما يَخطر أمام المتلقي .

قَد تتآلف بعضُ المفردات لتُعطي تركيباً من جُملةٍ أو شِبه جملة عُرفَت بانتمائها القرآني كما في قولهعليه السلام في إحدى خطبه: (عالِم السِّرِّ مِن ضَمائِر المُضمرين، وَنَجوَى المُتَخافِتِين، وَخَواطِرِ رَجم الظُّنُون، وعُقَدِ عَزِيماتِ اليَقين، ومَسارِق إيماضِ الجُفُونِ، وما ضَمِنَتهُ اكنَانُ القُلُوبِ، وغَياباتُ الغُيُوبِ، وما أصغَت لاستراقِه مَصائخ الأسماع، ومَصائِفِ الذَّرِّ، ومشاتي الهَوام، ورَجعِ الحَنين مِن المُولِهاتِ، وهَمسِ الإقدام، ومُنفَسَخ الثَّمرَةِ مِن وَلائج غُلُفِ الأكمام، وَمُنقَمَع الوُحُوشِ مِن غِيَرانِ الجِبال، وأوديَتِها ومُختَبَأ البَعُوضِ بينَ سُوقِ الأشجارِ وألحِيَتِها، ومَغرَزِ الأوراق منَ الافنانِ، وَمَحطِّ الأمشاج من مَسارِب الأصلاب، وناشِئَةِ الغُيُوم ومُتَلاحِمِها، وَدُرُور قطر السَّحاب في مُتراكمِها، وما تَسفِي الأعاصيرُ بذيولها وتَعفُو الأمطارُ بسُيولِها، وعَوم نَباتِ الأرض في كُثبانِ الرِّمالِ...)[1].

يزخر النصُّ بالمفردات القرآنية، أو المُنبَثِقة عنها، وتَوزّعت فيه حتَّى غَدت من نسيجه وسُداه، ومثّلت لبنات أساسية لما تتمتّع به من قدرة على العطاء الدلالي، و قوّة الحَثّ لاستحضار المعنى عند المتلقي، ولتفرّدها ببعضِ المعاني المُكثّفة .

والمفردات(النَّجوى، رَجم، أكنان، وغَيابَة، استراق، وَلائِج، غُلُف، الأمشَاج، نَاشِئة)لها مرجعيات قرآنية [2]، مفردات متوافقة الدلالة، لأنها تشير إلى ما هو خَفي، وغير ظاهر، استحضرهاعليه السلام، وجَعلها قادرةً على إثراء القيمة الفنيّة للنص .

---

(١) ينظر على سبيل المثال المصدر السابق: خج١/ ١٣، ١٨، ١٩، خ(١٤٦)، ج٢/ ٤٩، خ(٣١)، ج١/ ٧٥، ١٧٣، خ(٨٧)، ج١/ ١٧٨، خ (١٣٩)، ج٢/ ٣٥، خ(١٩١)، ج٢/ ٩٦. (٣) ينظر:المصدر السابق، خ(٨٧)، ج١/ ١٧٨- ١٨٠.

(٢) ينظر : سورة الإسراء/ ٤٧، طه / ٦٢، الأنبياء/ ٣، المجادلة / ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، الكهف/ ٢٢، ٥٧، الإسراء/ ٤، الأنعام/ ٢٥، يوسف/ ١٠، ١٥، الحجر/ ١٨، التوبة/ ١٦/ البقرة/ ٥٥، الإنسان/ ٢، المزمل/ ٦.

(النَجوى) كلمة مفردة سَبَقها (مُضاف ومُضاف إليه):(عالم السِّر) ثم تلتها سلسلة من المضافات: (نَجوى المُتخافِتِين، رَجم الظنون...) وأوحت هذه المضافات بالدقّة التي أراد الإمام عليه السلام بيانها بأنَّ الله ليس عالماً للسِّر فقط، بَل هو عالم السرِّ في ضمائر المضمرين، ونَجوى المُتخافِتين ... على ما في هذه المواطن من دقّة وخصوصية، والذي عَزّز هذا الادعاء هو نَوع المُفردة المُمَهّدة لذلك: (نَجوى) من(ناجيته): أي ساورته[١]، وهي من(المُساورة)[٢].

وعلم الله لا يقف عند حدّ، علم بكلِّ دقائق التساور، والتخافت، وهو العالم برجم الظنون، وعَقد عزيمات اليقين، التي عَقد القلبَ عليها، وما تَسترقه الأبصار حين تُومض[٣]، ويعلم بما(ضَمِنَته أكنانُ القلوب)، و(أكنان) مفردة قرآنية، مفردها(كن) هو: (ما يُحفَظ فيه الشيء)[٤]، أو(كنان)وهو: الغطاء[٥]، أي أنَّ الله عالم بما هو محفوظ، ومُغطى، وما لم يَطّلع عليه أحد .

و العالم بـ(غَيَابات الغُيوب)، و(غَيابات)هي جمع(غيابة)، أي قعر البئر، ومُنهبط في الأرض[٦].

الذي يتأمل هذه السلسلة من المضافات، يجد نفسه إزاء تراكيب انتظمت في(شُبه جمل) قصيرة محبوكة البناء، ومُنسجمة مع السياق، أفلتت المفردات مِن قيدها القاموسي إلى فَضاء رَحب تَتزوّد فيه بالمعاني الجديدة، والمتكونة بفعل هذه السياقات الجديدة.

الوَلائج:جمع وَليجة وهي مفردة قرآنية، والوليجة في اللغة لها معانٍ

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني(ت٤٢٥) هـ، تحقيق صفوان عدنان داو ودي، دار القلم، ط٣ ، دمشق، ١٩٨٣م، ص: ٧٩٢.

(٢) ينظر: لسان العرب / مادة(نجا)،

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبى الحديد ت(٦٥٦) هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الساقية، بيروت، ٢٠٠١م، ج٧/ ٢٠ .

(٤) لسان العرب، مادة (كن)، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص : ٧٢٦- ٧٢٧.

(٥) ينظر: لسان العرب، مادة (كن)، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٧٢٧.

(٦) ينظر: لسان العرب، مادة (غُلف)، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٦١٧.

عديدة:(البطانة من المشركين، بطانة الرجل ودخلاؤه، وخاصَّته، والدخول)[١]وهي الدخول في مَضيق[٢].

و(غُلُف):جمع أغلف، وقلب أغلف: بين الغلفة، كأنَّه غشي بغلاف فهو لا يَعي شيئاً[٣].

هاتان اللفظتان ساهمتا في إكمال الصورة البيانية المُراد بها بيان عظيم معرفة الله، فالتزاحم اللفظي للمفردات القرآنية لم يأتِ عَبَثاً، أو فَرضاً بِقَدرِ ما هو استدعاء سَلِس عَفوي لوظيفة بنائية، ويزداد هنا الإدراك إذا أتممنا قراءة النص، أنها مفردات تسعى لتشكيل بنية كلية تآلفت من صور جزئية مترابطة، متتابعة، متقاربة، وهي في أغلبها من معمولات قوله عليه السلام:(عالم السِّر) .

ومن خلال النظم المتميز والتواشج الجميل بين هذه المفردات القرآنية[٤] تتجلّى المقدرة الفنية في بناء أكثر تميزاً، وفَرادة ليصُب أخيراً في فَيض من المعاني والدلالات في صور ناطقة متحركة تستحضرها تلك المفردات معها لتكون آنئذ أمام نَصّ مُكتنز الدلالة .

ومن قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾[٥]، اقتبس المفردة(الوَبق) بتغير بسيط من اسم المكان إلى اسم الصِّفة، غير أنَّ هذا لا يُخرجها من كونها مفردة قرآنية لرجوعها في ذِهن المتلقي إلى أصلها القرآني، فقال عليه السلام في وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم :وذمّ الدنيا: (بعثه حين لا عَلَمٌ قائم، ولا مَنَارٌ ساطِعٌ، ولا مَنهَجٌ واضِحٌ، أوصِيكم عِبادَ الله بتقوى الله، وأحَذِّرُكُم الدُّنيا فأنَّها دارُ

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (ولَج)، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٨٨٢.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (ولج)، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٨٨٢- ٨٨٣.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادة (غلف)، وينظر: مفردات القرآن، ص : ٦١٢

(٤) قال تعالى:﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ . الأنعام/ ٢٥.

(٥) سورة الكهف/ ٥٢.

شُخُوص، ومَحَلّةُ تَنغيص، ساكِنُها ظاعِن، وقاطِنُها بائِن"، تَميد بأهلِها مَيَدانِ السفينة، تَقصفُهاً العواصفُ في لُجَح البحار، فمنهم الغَرِقُ الوبق، ومِنهُمُ النَّاجي عَلى بُطُون الأمواجِ، تَحفُزُهُ الرياحُ بأذيالِها، وتَحمَلُهُ على أهوالِها، فَما غَرِقَ مِنها فَليسَ بمُستَدرَكٍ، وما نَجا مِنها فإلى مَهلَكٍ...))[1].

بَعث الله نبيَّه المصطفى ﷺ حين خَلت الأرضُ مِن عَلَم قائم، و مَنار ساطِع، وهما استعارتان تصريحتان أراد الإمام عليه السلام عِبرهن أن يُعبّر عن مقدار الظلمة والضَّياع قُبَيل المَبعث النبوي الشريف، ثم ينتقل الإمام بحديثه مع المتلقين بصورة مباشرة ليُوصِيهم بتقوى الله، والحَذر من الدنيا، فإنَّها ليست بدارِ المستقر بل هي دارُ شخوص، ما دام ساكنُها ظاعن، وقاطنُها بائِن .

والمفردتان(ساكِن، ظاعِن)تمثلان ترادفاً لغوياً له مَغزى يفيد التوكيد وجاء بالتشبيه للدنيا وعدم استقرارها بأهلها بميدان السفينة في تشبيه بليغ حُذفَت فيه أداة التشبيه، ولزيادة توكيد المعنى جاء بإضافة(تعصفها العواصفُ في لُجَح البحار)، ولمّا كانت الحياة كالسفينة فالناس- بحسب أعمالهم- بين(غَرق، وَبق)أو ناج على بطون الأمواج، تحفزه الرياحُ بأذيالِها، وتحمله على أهوالها، فالذي غَرق لَن يُدركه أحدٌ(فليس بمستدرك)والناجي فنجاته مؤقتة، لأنَّ مصيرَه الهلاك وما دامت الدنيا بهذا الشكل، فينبغي الاستعداد لها، والحذر منها .

إنَّ تقديم هذه الصورة الحركية بأحداثها وأصواتها، وألوانها، إنّما أراد الإمام بها استحضار الخوفَ في قلب المتلقي وَحَثّه على العمل والاستعداد لدار المقام، هي صورة مُركَّبة مِن صور عِديدة، نُسجت إحداها بالتشبيه، والأخرى بالاستعارة المكنية، وكانت المفردة القرآنية(وَبِق)مُحوراً لهذه الصورة المتحركة .

والمفردة(وَبِق)بمعنى: إذا تَثَبَّط فهلك، كما ذكرها(الراغب)في مفرداته القرآنية[2]،

---

(١) نهج البلاغة، خ(١٩١)، ج٢/ ١٩٥-١٩٦.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة(وبق)، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص : ٨٥٢.

قال تعالى: (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ)[1]، ولعلّ إيثار لفظ(وبق)على غيره من الألفاظ أنسب لمقتضى الحال، فهي لها القدرة على تركيز الدلالة في فاعلية التغير، وجعل النص أكثر فاعليّة عند المتلقي، فأصبحت بمثابة رَمز مُكثَّفٍ، مُكتنز الدلالة، والتعبير عن المعنى بأبلغ صورةٍ بيانيةٍ، لا سيّما بعد أن صحبها فنا التشبيه والاستعارة، مع فن بديعي بالمفردات (شخوص، تنغيص)، (ظاعن، بائن) فشكّل سَجعا جميلا بجوار فنِّ الطباق المتحقق بالمفردات: (غارِق، ناجِي)، (غَرق، نّجا).

وللوصف نصيبٌ مِمّا اقتبس الإمام، من صفة، واسم الفاعل واسم المفعول، واسمي المكان والزمان، سَواء أكان استحضاراً مباشراً أم غير مباشر، من الصفات جاءت المفردة(بورا)التي أخذها من قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾[2]، في إحدى خطبه الوعظية لأصحابه: ((أما رأيتم الذين يُؤَمِّلُون بَعيداً، ويَبنُون مَشيداً، ويَجمَعون كَثيراً، كيف أصبحَت بيوتُهم قُبُوراً، وما جَمعوا بُوراً، وصارت أموالُهُم للوارثِينَ، وأزواجُهُم لقومٍ آخَرين، لا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدون، ولا مِن سَيِّئَةٍ يَستَعتِبُون))[3].

إنَّ في كلامهعليه السلامعظة وتذكيراً لسامعيه بمَن كانوا قبلهم، إذ كانوا يبنون ويجمعون، حتّى جاءهُم الموتُ بُغتة، فتركوا ما بنوه، وفارقوا ما جَمعوه، فأضحت قصورُهم قبوراً، وتحوَّلت أموالُهم بُوراً، والبَوار: فَرط الكَساد[4]، وبُوراً:أي هَلكى[5]،

---

(١) الشورى / ٣٤.

(٢) الفرقان / ١٨.ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الميرزا حبيب الله الخوئي، المكتبة الإسلامية، ط، طهران، ١٤٠٥هـ، ج٨/ ٢٩٥.وقال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾. الفتح / ١٢.

(٣) نهج البلاغة، خ(١٢٨)، ج٢/ ٢١.

(٤) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٥٢.

(٥) ينظر: لسان العرب، مادة (بور).ينظر: منهاج البراعة في نهج البلاغة، قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي، مكتبة آية الله المرعشي العامة، قم، ١٤٠٦هـ، ج٨/ ٢٩٥.ينظر: منهاج البراعة، للراوندي، ج٢/ ٥٣.

وقِيل بل هو مَصدر يُوصَف به الواحد والجمع، فيقال:رجل بور، وقَوم بور[1]، وبُوراً:(خالِيَة، هالِكاً، كَساداً)[2].

ولربما انتخب الإمامعليه السلامهذه المفردة دون سواها ليصف بها ما تركوه من أموال وحيوان:من خيل وإبل وغنم، وهي التي كانت تشكِّل مَصدر الثروة والغِنى آنذاك، من هنا ندرك دِقّة اقتباس هذه المفردة، وأصبحت جزءاً من النص، وبنائه، لا سيّما بعد أن مَهّد لها بجمل مسجوعة تَشدّ السامعَ، وتُبهره، من خلال المفردات: (بَعيداً، مَشيداً، كَثيراً، قُبوراً، بُوراً) ثم اتبعها بلون آخر من السَجع تَحقّق بالألفاظ (وارثِين، آخرين، يَزيدون، يَستَعتِبُون)، وبالجناس الناقص في المفردتين(قُبُوراً، بُوراً)، ولمّا قدَّم الإمامعليه السلامحديثه عن البناء أردفه بالحديث عمّا جمعوا ليُبَيِّن حال ما بنوه، ومآل ما جمعوه، فما بنوه، إنّما بنُوه قبراً لهُم، وما جمعوه إنما أصبح كساداً وتالِفاً، ولو عُدنا إلى قوله تعالى: «وكنتم قوماً بوراً» سنجد أن اقتباس هذه المفردة كان في مَبناها وفي مَعناها الذي دلّ عليه السياق، باعتبار أنَّهم قَد ذهبوا أمواتاً، وتركوا ما جمعوه خَلف ظهورهم كساداً تالفاً، لا شكَّ أنَّ تَيَقُّن الإمامعليه السلاممن معرفة المتلقي لهذه الدلالة هو الذي دعاه إلى اختيار هذه المفردة، دون سواها، ولهعليه السلامكلام آخر في مثل هذا المعنى[3].

وكذلك قولهعليه السلام:((أيُّها الناس؛استصبحُوا من شِعلَةِ مِصباح واعِظٍ مُتّعِظ، وامتاحُوا من صَفوِ عَين قد رُوِّقَت من الكَدَر، عباد الله لا تَركِنوا إلى جَهالَتِكم، ولا تَنقادوا إلى أهوائِكُم فإنَّ النّازلَ بهذا المنزل نازل بشفى جُرُفٍ هار، ينقُلُ الرَّدى على ظَهرِه من مَوضِع إلى مَوضِع، لرأي يُحدِثُهُ بعد رأي يُريد أن يُلصِق ما لا يَلتَصِق، ويُقَرِّب ما لا يَتقارَب، فَالله الله أن تشكو إلى مَن يُشكِي شَجوَكُم، ولا يَنقُضُ برأيه ما قَد أُبرِمَ لَكُم))[4].

---

(١) ينظر:المصدر السابق، ص: ١٥٢.

(٢) ينظر:لسان العرب، مادة (بور).

(٣) جاء في إحدى خطبه قوله:((وأصبحت مَساكِنُهم أجداثاً، وأموالُهم مِيراثاً، لا يعرفون مَن أتاهُم ولا يحمِلُون مَن بَكاهُم، ولا يُجيبون مَن دَعاهُم)). ينظر:نهج البلاغة، خ(٢٢٥)ج٢/ ٢٥٢.

(٤) نهج البلاغة، خ(١٠١)ج١/ ٢٠١.

يبدأ النصُّ باستعارة تصريحية في دعوته أصحابه إلى أن يسرِجوا مصابيحهم من شعلة مِصباحِ واعظٍ، مُتّعظ، في قوله:(استصبحوا)، إنها استعارة للمفردة(تبصّروا) بجامع التمكّن من الاهتداء، وكذلك في قوله عليه السلام:(مِن شعلةِ مِصباح)إشارة إلى وصاياه ومواعظه لهم التي تشبه المصباح ليتمكنوا من الرؤية الواضحة للحياة، وهكذا في(امتاحوا)أي:(تزوّدوا) مِن ينبوع معرفته الصافي من كلِّ كَدَر، إنّها استعارات تصريحية تصويرية مُتَجاورة، وبإضافته (واعظٍ مُتَّعظ)إشارة إلى كونه واعظاً للناس، ومُتَّعظاً أيضاً(لانَّ مَن لم يَتَّعظ في نفسه فبعيد أن يتَّعظ به غيره، وذلك لأن القبول لا يحصل منه، والأنفس تكون نافرة عنه، ويكون داخلاً في حيز قوله تعالى:(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ)[1]، وهُم حينذاك يأخذون(من عين صافية)، وقوله(امتاحوا)و(عين صافية)استعارتان تصريحيتان جليتان، لذلك يجب عليهم ألا يَركنوا إلى جهالتهم، وألّا ينقادوا إلى أهوائهم، والذي يعمل ذلك إنّما يكون على(شفا جُرُفٍ هار)، وسيكون كالذي يحمل الرَّدى على ظهره، أو كالسّاعي في ضَلال فلا سبيل له ولا نِصرة، إنَّه تلوين صُوَري مُتكاتِف يُؤدِّي في النهاية إلى صورة مركّبة كلية .

وقوله عليه السلام: (بشفا جُرُف هار)، يعود بذاكرتنا إلى قوله تعالى: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ـ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين)[2]، والشفا:الجرف[3]، ومنه ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ﴾[4].

المُعادلة الظاهرة هي أنَّ الذي يعتمد الجهالة، والهوى سيعاني، ويكابِد من حِملٍ ثقيل في حياته، ويتحّمل وِزرَه بعد مَماتِه، بسبب نزوله بشفا جُرُفٍ هارٍ .

---

(١) ينظر :شرح ابن أبي الحديد، ج٢/ ١٣٧ .

(٢) سورة التوبة/ ١٠٩ . ينظر:منهاج البراعة، للخوئي، ج٧/ ٢٤٨.

(٣) ينظر :لسان العرب، مادة (شف) .

(٤) سورة آل عمران/ ١٠٣ .

ومن المفردات التي وردت بصيغة اسم الفاعل نجد المفردة (ناكِساً) في قوله عليه السلام: ((فاعملوا والعمل يُرفَع، والتّوبة تَنفع، والدُّعاء يُسمع، والحال هادِئة، والأقلامُ جارِية، وبادروا بالأعمال عُمراً ناكِساً، أو مَرضاً حابِساً، أو مَوتاً خالِساً))[1] .

الخطبة في مَقام الوعظ والإرشاد، والتذكير بالموت، والدعوة إلى العمل والتوبة، والدعاء، ما دامت هناك عافية، وفُسحة من الوقت ينبغي مُبادرة الأعمال، وعُمراً ناكساً، و(ناكساً)مفردة قرآنية تعود بنا إلى قوله تعالى:(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ)[2]، أوردها الأصفهاني في مفرداته وهي عنده من(النكس):وهو قلب الشيء على رأسه[3]، والنَّكس في المَرض أن يعودَه بعد إفاقَتِه[4].

وننكّسه في الخلق:نقلبه إلى عكس ما كان قبله، أي: نُعيده ضَعيف الجسم والعقل كما كان أوّل مرّة، وتعوذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أن يُردَّ إلى أرذلِ العمر[5] .

وعُمراً ناكساً:أي عمراً مَنكوساً، وهو مجاز مرسل علاقته الفاعلية، والمراد منه المفعولية، ويبدو أنه جاء بصيغة الفاعلية للدلالية على أن الإنسان هو الذي استنفد عمره، فهو الفاعل وهذا واقع الحال .

أو مرضاً حابساً، أي:مانِعاً، وقعت الاستعارة التصريحية في (حابساً)، والجامع بين المستعار منه(حابساً) و(مانعاً)هو عَدم القدرة على الفعل بإرادة ويُسر، وقد تكون استعارة مكنية، جسَّم فيها المرض، وأصبح كائناً بشرياً محذوفاً، وهذا الكائن- المحذوف- مع بقاء إحدى خصائصه هو القادر على (الحبس) والمنع، كذلك الموت الذي يأتي خلسة، فهو خالس، وهذه استعارة تقبل أن تكون تصريحيه أو مكنية،

---

(١) نهج البلاغة، خ(٢٢٥)، ج٢/ ٢٥٠ .

(٢) يبس/ ٦٨ .

(٣) (نكس) في لسان العرب لها معان عديدة : (قلب الشيء على رأسه، طأطأة الشيء من ذلّ، الرجل الضعيف، العود في المرض) . ينظر :لسان العرب، مادة(نكس) .

(٤) ينظر :مفردات ألفاظ القرآن، ص:٨٢٤ .

(٥) ينظر :من كنوز القرآن، ص:٤٦ .

جسّمت الموت من خلال القول (خالساً)، والمفردة (خالساً)تحمل من الدلالة ما يوحي بالقدرة على المبادرة، والخَتل، والمباغتة .

إن هاتين الاستعارتين أضافتا حركة واضحة، نكاد نحس بها ونراها مع شيء من التساوق الموسيقي المتحقق بالجمل القصيرة المسجوعة بأسجاع متنوعة بالمفردات(يرفع، تنفع، يسمع)، (هادئة، جارية)، (ناكساً، حابساً، خالساً) .

اسم الفاعل(راكس)، اقتبسه الإمام عليه السلام من قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[1]، فأورده الإمام عليه السلام في كتاب له إلى أهل الأمصار يقصّ فيه ما جرى بينه، وبين أصحاب صفّين، فقال:((فلما ضَرَّستنا وإيّاهُم، وَوَضَعت مخالبها فينا وفِيهم، أجابوا عند ذلك إلى الَّذي دعوناهُم إليه فأجبناهم إلى ما دَعَوا، وسارعنا إلى ما طَلبوا، حَتّى استبانَت عليهم الحجّةُ، وانقطعت منهُم المعذِرةُ، فَمِن تَمَّ على ذلك مِنهُم فهو الذي أنقَذَه اللهُ من الهَلَكة، ومن لجَّ وتمادى فهو الرّاكس الَّذي رانَ الله على قَلبِه، وصارَت دائرةُ السَّوءِ على رَأسِه))[2]، إن وحدة الأصل بين(راكس) و(أركسهم)تسمح بمقولة الاقتباس القرآني، ولا بدَّ من تتبّع المعنى للوصول إلى المفردة لمعرفة أثرها في النص، لقد وردت في مواضِع قرآنية أخــــر[3]، وسنجدها كانت بمَحَلِّ القِطب من الرَّحى فبعد أن دعا الإمام عليه السلام أصحاب صِفِّين إلى جادَّة الحق، رفضوا، فجنحت الحرب، ووقدت نيرانها- كناية عن اشتدادها- ثم عَضّت بأضراسها، بعد أن وصلت بهم الحرب إلى هذا المقدار من الضّرر استجابوا لدعوته عليه السلام، فسارعناهم إلى ما طلبوا)، لقد استبانت الحجّة وانقطعت المقدرة، فمن تمّ له ذلك(فهو الذي أنقذه اللهُ من الهَلَكة)، ومَن لجّ، وتمادى فهو(الراكس):مَركوس، وهو مجاز مرسل علاقته الفاعلية، وقد يكون وروده

---

(١) سورة النساء/ ٨٨ .

(٢) نهج البلاغة، ك (٥٨)ج٣/ ١٢٥ – ١٢٧ .

(٣) قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ النساء/ ٩١ .

بصيغة الفاعل للدلالة على أنهم القائمون بالفعل، باختيارهم، وإرادتهم، ولم يكونوا مرغمين

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1]، فهم ظالمون، غير مظلومين، راكسون، غير مركوسين.

والرّكس: قلب الشيء على رأسه، وَردّ أوَّله إلى أخره، يقال:أركَسته فَركس، وارتكَس في أمره، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ :أي ردَّهم إلى كفرهم[2]، هي عند(ابن عباس) بمعنى:(حَبسَهم)[3].

وازداد المعنى الدلالي للمفردة بإضافة صِفةٍ أخرى، وهي(ران) إنَّها مفردة قرآنية[4]، جاءت كناية عَن عَمى القلوب واليأس من هداها، بعد أن عَلا الرَّين قلوبَهم، أي:صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم، فعَمِي عليهم معرفة الخير من الشر[5]، هم فوق ركوسهم في الباطل مَسَح اللهُ على قلوبهم، فدارت دائرة السَّوءِ على رؤوسِهِم، وهذه مفردات قرآنية تشكَّلت في تركيب قرآني استحضره الإمامعليه السلام للتخصيص بعد أن قدّم(دائرة السوء)على(الجار والمجرور)[6].

والمفردة(راكس) تُوحي بهول الصدمة، وعظيم الخطر، فغَدت رمزاً دالّا، استطاع

---

(١) سورة النحل/ ١١٨.

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص :٣٦٤ . ينظر: تفسير الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي ت(٨٧٥) هـ، تحقيق د. عبد الفتاح أبو سلمة وزملاؤه، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ، ج٢/ ٢٧٥. ينظر: تفسير فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت(١٢٥٠)هـ، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج١/ ٤٩٥.

(٣) ينظر: الإعجاز البياني في القرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق، د.عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط٣ مصر، ١٩٨٤م، ص:٤٧٨.

(٤) قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين/ ١٤ .

(٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص:٣٧٣، وفي القاموس، الرَّين:الطَبع والدَنَس، ينظر:مادة (ران) .

(٦) قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ . الفتح:٦

الإمامُ من خلالها توجيه النص، والسير به إلى المراد الدلالي المقصود، وجَعل منها شحنة دلالية عميقة تعود بالمتلقي إلى المعاني المرتكزة في ذهنه، والسياق الذي اقترنت به.

وردت (راكس، ران)في الآيتين بالجمع؛ (أركسهم، كسبوا)، (قلوبهم) في حين أوردها الإمامعليه السلام للمفرد، وربما في ذلك إشارة واضحة إلى معاوية، باعتباره قائد جمع صفين، والذي كان سبَباً في الحرب

من اسم المفعول اقتبس المفردة(مقموع) قولهعليه السلام:((وبَقِي رِجالٌ غَضَّ أبصارَهُم ذِكرُ المَرجِع، وأراقَ دُموعَهم خوفُ المحشر، فهُم بين شريدٍ نادٍّ، وخائفٍ مَقموع، وساكِتٍ مَكعُوم، وداعٍ مُخلِص، وثَكلان مُوجَع، قد أخمَلتهُم التقيّةُ وشملَتهُم الذلَّةُ، فهُم في بَحرٍ أُجاج، أفواهُهُم ضامِرة، وقلوبُهُم قَرِحةٌ قد وَعَظُوا حتَّى مَلُّوا، وقُهِرُوا حتَّى ذَلُّوا وقُتِلُوا حتَّى قَلّوا))[1]، وهم بين شَريد، وخائِف، وساكِت- بالقوَّة – وبين داعٍ، ومُخلِص، بدرجات تُوافق قدراتهم، وعزائمهم، فالخائف منهم(مَقموع)، وهذه مفردةً قرآنية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[2]، وجِيء بالمفردة(مَقموع) لوصفِ هؤلاء، و(مقموع)من(مَقمَع)وهو ما يُضرب به، ويُذلّل، لذلك يقال: قَمَعتَه فانقمع، أي كفته فكف[3]، وجاءت بمعنى الذَّليل[4]، والمقهور[5] في النص النهجي، وهو قريب من معناها القرآني.

وتحمل المفردة(مقموع) دلالة على مقدار ما لاقاه هؤلاء بسبب نِصرتهم للحق حتى الساكن منهم فهو(مكعوم)، اضطر لذلك على الرغم منه مع ذلك نجد منهم من بقي داعياً، مخلصاً، وآخرين ثكلوا، والثكل يقال للمرأة حين تفقد ولدها، وكأن

---

(١) نهج البلاغة، خ(٣١)، ج١/ ٧٤- ٧٥.

(٢) الحج/ ٢١ .

(٣) ينظر:مفردات ألفاظ القرآن، ص:٦٨٤ .

(٤) ينظر: أعلام نهج البلاغة، علي ناصر خسرو، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والارشاد، طهران، ج١/ ٦٥.

(٥) ينظر: في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢م، ج١/ ٢١٦.

هؤلاء قد فقدوا أعزّ ما يَملكون فشبههم الإمامعليه السلام في حزنهم بالمرأة الثكلى، فقهروا وذلّوا، حتى أصبحوا في بحرٍ من الضيم، والقهر، أفواههم ضامرة، وقلوبهم قرحة، وهذا انزياحات تحمل دلالاتٍ شتّى جيء بها لبيان سوء حالهم، وما حلّ بهم، ومع هذا كله لم يكفُّوا، بل وَعَظوا حتَّى(مَلُّوا)، وقُهِروا حتَّى ذلّوا، فكثر القتلُ فيهم حتَّى قلّ عددُهُم .

ومع كثافة المعنى نجد انسيابية لغوية من خلال الألفاظ:(مَلّوا، ذَلّوا، قَلّوا) جعلت النص مفتوحاً أمام كل التصورات التي تستتبع هذه الصور في ذهن المتلقي، ممّا جعل المفردة(مَقموع)مُنسجمة في سياق النص هو وجود المفردات(مَكعوم، مُخلص، مُوجع) .

بجانب ما تقدّم من أسماء تطلّ علينا مفردات لأفعال قرآنية أو ما هو مشتق منها؛بسبب اللواحق، والنواقص التي حلّت في تلك الأفعال، وأصبح من العسير جداً أن نفصل بين هذه الأفعال وما تعلق بها نتيجة لتغيير أزمنتها، والضمائر التي اتصلت بها، إلاّ أن الأصل في هذه الأفعال يبقى حامِلا إشارة تعود به إلى أصله القرآني .

ومن هذه الأفعال على سبيل المثال:(سَجَد، اصطَفى، فَلق، برأ، خَشَع، هَدى، ابتلى، يَؤده، بَوَّأ، تُؤفكون، يَجرمَنّكُم، تَركِنوا، قَنَط، يَتوُب، يَمحَق، يُولِج، ، أصليهم، ذَرأ، نَكَص، يَسومونَكم، يَستفِزنّكم، ، يبسلون، يُوجِس، يَعمهون، ابتدع، صَدَع، ، ألحَف، أجتَتَهُم، تأوّل)[1] .

منها قوله عليه السلام لابن عباس رضي الله عنه عند خروجه لقتال الناكثين في البصرة، لما دخل عليه (ابن عباس) رضي الله عنه ، وهو يَخصف نعله، فقال له:(ما قيمةُ هذه النعل؟)، فقال ابن عباس:لا قيمةَ لها، فقال عليه السلام: ((والله لهيَ أحبّ إليَّ من إمرَتِكم إلّا أن أقيم حقّاً، أو

(١) ينظر:نهج البلاغة، مثلا خ، ج١/ ٥، خ(١٢٩)، ج٢/ ٢٢، خ(٨٠)، ج٢/ ١٤٠، خ (١، ج١/ ٦، خج١/ ٣١، خ، ج١/ ١٨، خ(٢٤)، ج١/ ٦٠، خ، (١٥١)، ج٢/ ٦٠، خ، ج١/ ١٨ .

أدفع باطلًا، ثم خرج فخطَب الناس فقال:إنَّ الله بعث مُحمداً ﷺ، وليس أحدٌ من العَربِ يَقرأ كِتاباً، ولا يَدَّعِي نُبُوّةً، فساق الناسَ حتَّى بَوّأهم مَحَلَّتهُم، وبلّغَهُم مَنجاتَهم، فاستقامت قناتُهُم واطمَأنّت صَفَاتُهم))[١] .

إذ وقع الاقتباس في الفعل (بوّأ) من القرآن الكريم، والذي ورد في آيات عِديدة، وبصيغ عِـــديدة[٢]، و(بَوأ): باء إلى الشيء، يَبوء بَوء: رجع[٣]، وأباءهُ منزلا وبوَّأه إيّاه وبوّأه له، وبوّأه فيه، بمعنى هَيّأه له، وأنزَلَه ومَكّن لهُ فِيه[٤].

و(بَوّأ) من (باء)، وهي بمعنى مساواة الأجزاء في المكان، خلاف (النبو)، الذي هو منافاة الأجزاء....، وبَوّأت له مكاناً : سَويّته[٥].

فالرسول ﷺ بَوّأ الأمة منزلتها (فساق الناسَ حتَى بَوّأهم)وفي هذا تصوير استعاري، وفيه دلالة عليانه ﷺ هادياً للأمة، حين جمعهم بعد تشتتّهم، وأمنهم بعد خوفهم، وأوصلهم مَأمنهم، حينئذ (بوّأهم منزلتهم)، وبفضل هذه المفردة تنكشف للمتلقي محورية النص، ودلالته المركزة والمعنى العام، وهو بيان عظيم فضل على العَرب حين أرسل إليهم من أخرَجَهم من حالٍ إلى حالٍ.

وبعد أن تَبوّؤوا منزلتهم، استقامت قناتهم، والمراد بالقناة: القوَّة والغلبة، وهذا مجاز مرسل، علاقته السببية، فالقناة – الرمح – سبب للقوة، والشدّة، ومعنى إسناد

(١) المصدر السابق، خ(٣٢)، ج١/ ٧٧ .

(٢) قال تعالى:﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يونس/ ٩٣ .

﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يونس/ ٨٧ .

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ الأعراف/ ٧٤ .

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ﴾ آل عمران/ ١٢١ .

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ الحشر/ ٩ .

(٣) ينظر:لسان العرب، مادة (بوأ) .

(٤) ينظر:المصدر نفسه،

(٥) ينظر:مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٥٨ .

الاستقامة إليها، انتظام قهرهم، ودولتهم[١]، ويرى ابن أبي الحديد إن استقامة قناتهم «بعد أن كانت معوجّة قبل الإسلام»[٢]، أو أنَّها إشارة إلى اطمئنان البال، واستقرار حالهم[٣].

وتجري عملية الاقتباس في أكثر من مفردة واحدة، مثلما نجد في اقتباس المفردات: (أجئتم، نكصتم)في إحدى خطب الإمام عليه السلام التي ذمّ فيها أصحابه، بعد نكوصهم، وتراخيهم في الحرب((أحمَد الله على ما قَضي مِن أمر، وقَدّر مِن فعل، وعلى ابتلائي بكم أيَّتها الفِرقة التَّي إذا أَمَرت لم تُطِع، وإذا دَعوتُ لم تُجِب، وان أُمهِلتُم خُضتم، وإن حُورِبتُم خُرتُم، وإن اجتمَعَ الناسُ على إمامٍ طَعَنتُم، وإن أُجِئتُم إلى مشاقّةٍ نكَصتُم، لا أبا لغيرِكُم ما تنتظرون بنَصركم، والجهاد علّى حَقّكم، الموتَ أو الذلّ لكم، فوالله لئِن جاء يَومي- وَليَأتِيَنَّي- لَيُفرِّقَنَّ بيني وبينكم، وأنا لكم قالٍ، وبِكُم غيرُ كَثير))[٤].

جاءت هذه المفردات في قوله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾[٥]، وفي قوله تعالى:﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[٦].

النص في معرض بيان هؤلاء الذين ابتلى الإمام عليه السلام، فهو كان يأمرهم فلا

---

(١) ينظر:أساليب البيان في القرآن، سيد جعفر الحسني، مؤسسة الطباعة والنشر، ط٢، قم ١٤١٣ هـ، ق، ص:٣٩٤.

(٢) شرح ابن أبى الحديد، ج٢/ ١٤٨.

(٣) ينظر: نفحات الولاية، مكارم الشيرازي، مطبعة سليمان زادة، قم، ١٤٢٦هـ، ج٢/ ١٩١.

(٤) نهج البلاغة، خ(١٧٥)، ج٢/ ١٢١- ١٢٢.

(٥) مريم/ ٣٢.

(٦) الأنفال/ ٤٨.

يُطيعون، ويدعوهم فلا يجيبون، مثلما كان يناديهم فلا يُجيبون، ويُناجيهم فلا يأتمنون، وإذا تركهم خاضوا في الباطل، فشبّه الباطلَ في البحر اللجِّي العميق من خلال هذه الاستعارة المكنية، والدالّ على مثل هذا التشبيه هو القرينة، والخصّيصة (يخوضون)، وإذا حُورِبُوا (خاروا) : أي ضعفوا، وانكسروا[1]، أو صاحوا كما يخور الثور[2]، ويعود بنا هذا النص إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[3].

إذا كان هذا هو معناها في نص الإمام عليه السلام، فهي داخلة في باب المجاز المرسل علاقته (المسببية)، لأنه ذكر (المسبّب)، وأراد(السبب)وهو الخوف والإمام عليه السلام جاء بهذه الاستعارة، وهذا المجاز المرسل لتفعيل المضمون الدلالي لكلامه عليه السلام، وبفعل الانتخاب المقصود لهذه المفردات القرآنية اصبح النصّ يشعّ بالحياة، لأنها مفردات ناطقة، ومعبّرة، وموحية، ثم يمضي الإمام عليه السلام في وصفهم، أنهم إذا اجتمع الناس على إمام طعنوا فيه، وخالفوا الجماعة، وفي هذا إشارة لما وقع له حين بيعته وإن(أجئوا)إلى الحرب نكصوا(وان أجئتم إلى مشاقّة نكصتم)، والمشاقّة:الحرب، وهذا مجاز مرسل علاقته المسببية أيضاً، لأنه عليه السلام ذكر(المسبب)، وأراد (السبب)، وهو الحرب التي من مسبباتها المشقة، فالحرب مشاقة، والمرء يضطر إليها كرهاً لا اختياراً لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[4].

والنكوص هو الإحجام من الشيء[5]، والرجوع قهقرى[6]، وجاءت في مواضع

---

(١) ينظر: أعلام نهج البلاغة، ج١/ ١٦٨.

(٢) ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١/ ٥٥ . وينظر: منهاج البر اعة، للراوندي، ج٢/ ١٧٥.

(٣) سورة طه/ ٨٨ . وينظر: منهاج البراعة، للراوندي، ج٢/ ١٧٥.

(٤) البقرة/ ٦١٢ .

(٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص:٨٢٤ .

(٦) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت(٤٦٠)هـ، تحقيق احمد حبيب قصير العاملي، مطبعة الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٩هـ، ج٥/ ١٣٤ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ت(٥٦٠)هـ، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٥هـ، ج٤/ ٤٧٨.ينظر: الجامع لاحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن احمد القرطبي ت(٦٧١)هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج٨/ ٢٦.

عديدة مـــن كتاب الله[١]، كما أنها وردت في موضع آخر في نصوص النهج[٢]، وفيه إشارة ودلالة إلى الارتداد .

من المعطى الدلالي للمفردة (نَكَصتم) يفهم المتلقي أن هؤلاء لم يكونوا متثاقلين فقط، بل كانوا يَحجمون، وينقلبون على أعقابِهم، لذلك ذمَّهم الإمام عليه السلام بقوله: (لا أبا لكم)، ومضى يسأل مُوبِّخاً:(ما تنتظرون بنصركم ؟ والجهاد على حقكم؟) وكأنه عليه السلام أراد القول أن لا أحد غيركم ينصركم، أو يجاهد عن حقكم، لأنّكم أولى الناس بذلك، فانتظمت هذه المفردات المقتبسة في عِقد دلالي، حاملة معها ظلالها المعنوية، كما وردت في كتاب الله[٣]، في نَسَقٍ لفظي جميل مُنسجم، خاصة مع مثل هذه النهايات السجعية في المفردات:(خُضتُم، خُرتُم، طَعنتُم، نكصتُم) وما سبقها من مفردات أخرى (أهمِلتُم، حُورِبتُم، أجِئتُم) فاكتمل وقعها في ذهن المتلقي وسمعه .

ومن الأفعال المضارع مثلا نجد الأفعال : (يجرمَنّكم، تَركنوا، يُورثُها، أصليهُم، يَسومنّكم، تَعتُوا، يؤده، يستفزنَّكم، يَمحق، تَركنوا، يُلامِس، تَعمهون، يوزَعون). قال الإمام عليه السلام مقتبساً الفعل (يجرمنكم) : ((أيُّها الناس لا يجرمنّكم شَقاقِي، ولا

(١) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾الأنفال/ ٤٨ . وقوله تعالى: ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ . المؤمنون:٦٦

(٢) ينظر:نهج البلاغة، خ(٦٣)، ج١/ ١١١، ك(٣٢)، ج٣/ ٦٤، ك(٣٦)، ج٣/ ٦٧-٦٨، ك(٥٠)، ج٣/ ٨٩.

(٣) (خرِتم) جاءت بمعناها القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ لأعراف/ ٨٤١، للدلالة على عدم النفع، سوى هذا الضجيج الصادر عن جسد من غير روح، وقد ارتبطت في السياق القرآني بالفتنة كما في بعض التفاسير، وهذاما أراده الإمام عليه السلام .ينظر:تفسير مجمع البيان، للطبرسي، ج٤/ ٣٦٠. وينظر: تفسير الجامع لاحكام القرآن، للقرطبي، ج٧/ ٢٨٥ .ينظر:تفسير القرآن الكريم، أبو الفداء اسماعيل بن كثير ت(٧٧٤)هـ، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ج٣/ ١٥٩ . (أجئتم) جاءت أيضاً بمعناها القرآني كما في قوله تعالى: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّا) مريم/ ٢٣، دلالة على الاضطرار، كما اضطر المَخاض مريم عليها السلام إلى جذع النخلة (نكصتم) تدل على التراجع كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ألأنفال/ ٤٨، للدلالة على التراجع والتخاذل، وهذا ما أراده الإمام عليه السلام.

يستهويَنّكُم عِصياني ولا تترامَوا بالأبصار عند ما تسمعونه منِّي، فوالذي فَلَق الحبَّة وبَرأ النَّسمةَ، إنَّ الذي أُنبئُكُم به عن النبي ﷺ، ما كذَب المُبلِّغ، ولا جَهِلَ السامعُ، ولكنِّي أنظرُ إلى ضِلّيلٍ قَد نَعَقَ بالشام، وفَحَصَ براياته ضَواحِي كُوفان، فإذا فَغَرَت فاغِرَتُه، واشتَدّت شَكيمَتُه، وثَقُلَت في الأرضِ وَطأتُهُ، عَضَّت الفِتنَةُ أبناءها بأنيابها، وماجَت الحربُ بأمواجِها))(١).

إنَّ قوله:(لا يَجرِمَنّكُم شَقاقِي)يعود بنا إلى الأصل القرآني، في قوله تعالى:﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾(٢)، المعنى هو(لا يَحملَنَّكُم)(٣)، أو لا يَكسِبَنّكُم(٤)، أو لا يَدخِلنّكم في الجُرم(٥)، (ويَجرِمَنّكم) من الجَرم، وأصل الجَرم: قطع الثمرة من الشجرة، والجَرامَة: رَديء التَّمر المَجُروم، وأجرم : صار ذا جرم نحو:أثمر وألبن، واستعير ذلك لكلِّ اكتساب مَكروه(٦)، وإذا استحضرنا المعنى القرآني، يكون معنى قوله عليه السلام هو:لا يَحمِلنّكم خِلافي على تكذيبي، وهو ما أكّده(ابن أبي الحديد) بقوله: «في الكلام محذوف وتقديره» لا يَجرِمنَّكم شقاقي على أن تكذّبوني» والمفعول فضله، وحذفه كثير، نحو قوله تعالى: (والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)(٧) .

الإمام عليه السلام لما قدّم لهم هذه النصيحة، لأنه سيلقي عليهم كلاماً قد يحملهم شقاقهم وخلافهم مع الإمام عليه السلام إلى عدم تصديقه، فهم قد أخذ ينظر بعضهم إلى بعض وكأنهم يتغامزون فيما بينهم كما اخبر الإمام عليه السلام في كلامه لهم، لذلك أقسَم لهم قَسَماً

---

(١) نهج البلاغة، خ(٩٧)، ج١/ ١٩٤-١٩٥.

(٢) المائدة/ ٨ .

(٣) ينظر:تفسير الكشاف، الزمخشري ت(٥٣٨)هـ، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٢م، ص:٢٨١. ينظر:مجمع البيان، للطبرسي، ج٣/ ٢٦٣.

(٤) ينظر:مجمع البيان، للطبرسي، ج٣/ ٢٦٧.ينظر:تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي ت(٩١١)هـ، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص: ١٣٥.

(٥) ينظر:مجمع البيان، للطبرسي، ج٣/ ٢٩١. وينظر: الجامع لاحكام القرآن، القرطبي، ج٦/ ١١٠.

(٦) ينظر:مفردات ألفاظ القرآن، ص:١٩٢ . وينظر: لسان العرب، مادة (جرم) .

(٧) شرح ابن أبي الحديد، ج٧/ ٨١ .

بالذي(فلق الحبَّة وبَرأ النَّسمَة)إن حديثه هذا أخذه عن الرسولﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وَحيٌ يُوحى .

ثم يمضي الإمامعليه السلام ليحدثهم عن(ضِلّيل)- وهي صيغة مبالغة للإشارة إلى كثرة ضَلالته، وإضلالِه – ظهر في الشام، ومن خلال الاستعارة قبح صورة هذا الضِلّيل حين شبَّهه بالغراب(المحذوف)على سبيل الاستعارة المكنية التي حذف فيها(المشبه به) الغراب، وبقيت إحدى لوازمه وهي(نعق)فالنعيق هو صوت الغراب، والجامع بين(الغراب)و(الضلّيل)هو الشُّؤوم، والدمار والخراب، فالغراب لا يسكن إلّا في البيوت الخربة والمنازل المهجورة الموحشة، وقد يكون الجامع بينهما هو(القُبح المعنوي) ويرى(ابن أبي الحديد) أن(نَعَقَ)هو صوت الرَّاعي بغنَمِه(1).

(ضِلّيل)نَكرة، والمقام الذي ترد فيه هو الذي يصفها، ويجدّد معناها(2)، وهنا أراد الإمام به(الذمّ والتحقير)، وللدلالة على أنه ليس ضلّيلا..... واحداً، بل هو ضِليّل مُتعدِّد في كلِ زمان ومكان، فأعطى بذلك عمقاً دلاليّاً في الفكرة المقصودة، وصيغة المبالغة هنا تدلُّ على مقدار ضلالته للناس، وحين ينشر راياته– سلطانه – على كوفان، تَفغر الفاغرة، وتَشتدّ الشكيمةُ، ويثقل ظلمه على الناس، فتعضّ الفتنةُ هؤلاء الناس بأنيابها، وتَموجُ الحربُ بأمواجِها، وتبدو من الأيّام كلوحها، ومن الليالي كدوحها .

إنها رصف استعاري جميل، يجعل المتلقي نفسه إزاء صور متحرّكة، تمنح فيها(الفتنة) الحياة، فتغدو قادرة على العطاء، وقد شُفِعَت هذه الصور البيانية المجسِّمة بفنون بديعة جاورتها وأسهمت معها في إكمال المشهد الصوري المتحرك، فالألفاظ (الأيام، الليالي) شكلت فنّاً طباقّياً والمفردات (كلوحها، كدوحها) كونت جناساً ناقصا، والفعل (يَجرِمَنّكُم) هو النواة التي دارت حوله تلك الفنون في بنية النص.

---

(1) المصدر السابق، ج7/ 180 .

(2) ينظر:من بلاغة القرآن، د. احمد احمد بدوي، دار النهضة للطبع والنشر، ط3، مصر، 1950م، ص:128.

ثانياً: اقتباس التراكيب القرآنية .

وقد يتعدّى الاقتباس إلى التراكيب التي تَتألف من مفردتين أو ثلاث في شبه جمل، أو في جمل اسمية، أو فعلية بسيطة، وبغض النظر عن عدد المفردات، ونوع التركيب تظل إشارات قرآنية متعارف عليها بين الناس، تسهل الإشارة إلى مرجعيتها القرآنية في كثير من الأحايين، ويجري استحضار تلك التراكيب لتوسيع دلالة النص، وتعزيزه، ومن هذه التراكيب:(أنّى يُؤفكون، لات حين مناص، سبع سموات، زينة الكواكب، العَمل الصالح، فَصلُ الخِطاب، غَيابة الجُبّ، مِثقال كلِّ ذرَّة، عالم السِّرِّ، الموعِظَة الحَسِنة، ظِلّ مُمْدود، مَداحِر الشَّيطان، لِباس شِعار الخَوف، قَرار مَكِين، دائِرَة السَّوء، صِلَة الرَّحم، استَجلَب خَيله، تَقطعُون أرحامَكم، تَجلبَبوا السَّكِينَة، دَعا إلى الحِكمَةِ والمَوعِظة، آتِه الوَسِيلَة، يَجلِب عَليكُم، وأجلَبَ خَيلَه، كَظم الغَيظ، انبذ إلِيهم، يَبسِط يَدَه)[1].

ومن قوله تعالى:﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2] اقتبس تركيب(اجلب عليهم)بصيغ عديدة كما مرّ بنا، ومن هذه الصيغ ما جاء في قولهعليه السلام((أيُّها الناس إنَّا قَد أصبحنا في دَهرٍ عَنودٍ، وزَمَنٍ كَنوُدٍ يُعَدُّ فيه المُحسِن مُسيئاً، ويَزدادُ الظالمُ فيهِ عُتُوّا، لا نَنتفع بما عَلِمنا، ولاَ نَسأل عَمَّا جَهِلنا، ولا نَتَخوَّف قارِعَة حتَّى تُحِلّ بنا، فالناسُ عَلى أربعةِ أصنافٍ مِنهُم مَن لا يمنعُهُم الفسادُ إلّا مَهانةُ نَفسِه، وكَلالةُ حدِّه، ونَضيضُ وفرِه، ومنهُم المُصلِت بَسيفِهِ، والمُعلِن بشَرِّه، والمُجلِب بخَيلِه، ورجلِه، قد اشرَطَ نفسَه واوبَقَ دِينَه لحطام يَنتهِزُهُ، أو مِقنَبٍ يَقودُهُ، أو مِنبَرٍ يَفرعُه، ولَبِئسَ المَتجر أن تَرى الدّنيا لِنَفسِكَ ثَمَناً، وَمِمّا لَكَ عِندَ اللهِ عِوَضاً))[3]، وأصلُ الجلب: سَوق الشيء،

(١) ينظر:نهج البلاغة، مثلا خ(١٠٤)ج١/ ٢٠٨، خ(١٨٦) ج/ ١٦٠خج١/ ١٢، خ(٢٢)ج١/ ٦، خ(٨) ج١/ ١٣٢، خ(٨٧)ج١/ ١٧٨، خ(٨٧)ج/ ١٧٨، خ(١٩١)ج١/ ١٨٧.

(٢) الإسراء/ ٤٦ . ينظر: منهاج البراعة، للخوئي، ج٤/ ٥٠.

(٣) نهج البلاغة، خ(٣١)ج١/ ٧٣ .

ويُقال: جَلبت جَلباً، وأجلبت عليه: صِحت عليه بقهر[1]، إنها في مقام المجاز، وبهذا المعنى استحضرها الإمامعليه السلام في نصّه .

وخطبته في وصف هذا الدهر العَنود: الجائر، والزَّمن الكَنود: البَخيل[2]، و(عَنود، كَنود) لفظتان فيهما من الدلالة ما فيهما لبيان الزمن الذي استشعره الإمامعليه السلامبسبب الفتن بين الناس، وعدَّ ابن أبي الحديد المفردة، (شديد) مفردة قرآنية[3]، فالدهر قسي عليهم حتى عُدّ المُحسِن فيه مُسيئاً، وازداد الظالم فيه عُتوّاً، فلا ينتفع العالم آنئذ بعلمه ولا يسأل الجاهل فيه عمّا يجهل، ولا يتخوّف الناس من قارعة حتَّى تحلّ بهم، وهذا يحمل دلالة على هول ما هم فيه مِن مِحَن وشدائِد، حتى أنّهم لا يُبالون بما سيحصل لهم لفداحة ما هم فيه، وقوله عليه السلام: (دَهرٌ عَنود، وزمن كَنود)يمنح المتلقي مجازاً عقلياً علاقته الزمانية، أو لغوياً باعتبارهما استعارتين مكنيتين، مُجسمتين للدهر، والزمن، وهما مِمّا لا يدرك .

إن النظرة المتمعنة في قول الإمامعليه السلام:(يُعدّ فيه المحسن مُسيئاً، ويزداد الظالم فيه عُتوّاً)تظهر لنا تقديم(فيه)على(المحسن)، في حين لم يجر ذلك في الجملة الثانية؛إذ لم يقل الإمامعليه السلام:(ويزداد فيه الظالم عُتوّاً)، لعلّ سبب ذلك يعود – في الجملة الأولى – إلى توكيد المعنى عند المتلقي، و هو إن الحديث عن الدهر، والزمن، لذلك تقدم الظرف(فيه)، وفي هذا نوع من تخصيص الكلام بما تقدّم .

أما في الجملة الثانية(ويزداد فيه عتواً)فإن العلّة في التأخير هي عينها في الجملة الأولى، لأن الحديث عن الدهر العنود، والزمن الشديد إنّما كان بسبب ما حلَّ فيهما من ظلم، وما جرّ ذلك من سفك للدماء، لذا قدَّم الحديث عن الظالم، باعتباره الفاعل

---

(١) ينظر : لسان العرب، مادة (جلب)، وينظر:مفردات ألفاظ القرآن، ص:١٩٨ .

(٢) ينظر : شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٢/ ١٤٠ .

(٣) « قوله [ع] وزمن شديد:أي بخيل، ومنه قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) أي:وانه لبخيل لأجل حب الخير: « المال«، هذا في رواية:(وزمن شديد)، التي أوردها ابن أبي الحديد في شرحه.شرح ابن أبي الحديد، ج٢/ ١٣٩ – ١٤٠ .

الرئيس في الحدث، فهو تقديم تخصيص، وتوكيد.

والناس في هذا الدهر أربعة أصناف فمنهم من لا يمنعه الفساد إلّا مَهانة بنفسه وضعفاً بقوته- المشار إليه بكلالة الحد - وقلّة في ماله- نقيض وفره - .

والصنف الآخر هو المصلت بسيفه، والمُعلِن بشرِّه، والمُجلِب بخيله ورجله، وهذا من ألفاظ الكتاب العزيز، (واجلب عليهم بخيلك ورجلك)[1]، » قد اشترط نفسه «: أي هيّأها للفساد في الأرض، وأوبق دينه أي: أهلكه، مِن أجل حطام الدين، يختلسه اختلاساً، أو من أجل إمارة على بضعة رجال، وقد أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله: «أو مِقنبٍ يقوده»، والمِقنب: خيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين، أومن أجل مِنبر يقرعه، أي: يعلوه[2]، وهي كناية عن حبِّ السلطان، وإذا كان الأمر كذلك فلبئس التجارة التي تكون النفس ثمنها فما عند الله عوض ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[3].

وحين الرجوع إلى قوله تعالى: (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)، نجدها خطاباً مع الشيطان، وفي نصّ الإمام عليه السلام نجدها إشارة إلى هذا الصنف في الناس الذي أعدّ عدّته، وهيّأ نفسَه للفساد في الأرض، بعد أن أهلك دينه من أجل حطام الدنيا، فالمعنى والمخاطب أو المشار إليه تكاد تتقارب، لذا يُمكن القول إنّها اقتباس للحال والمقال معاً.

ومن التراكيب القرآنية التي جاءت بصيغة(مضاف ومضاف إليه)قوله عليه السلام: » لباس الخوف« التي اقتبسها من قوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[4]فقال عليه السلام واصفاً مَبعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ((أرسلَهُ على حِين فَترةٍ منَ الرُّسل، وطول هَجعَةٍ من الأمم، وانتقاضٍ من المُبرَم، فجاءهُم

(١) ينظر:المصدر السابق، ج٢/ ١٤٠ . ينظر:منهاج البراعة، للخوئي، ج٤/ ٥٠.
(٢) ينظر:المصدر نفسه .
(٣) النحل/ ٩٦ .
(٤) النحل/ ١١٢ .

بتصديق الَّذي بينَ يديه، والنور المُقتَدى به، ذلك القرآنُ فاستَنطِقوُه ولن ينطِق، ولكن أُخبرِكُم عنه، ألا إنَّ فيه عِلم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواءَ دائِكُم، ونَظم مابَينَكُم)، ثم يقول: فعند ذلك لا يبقى بيت مَدَر، ولا وَبَر إلّا وأدخله الظلمة تُرحةً، وأولجوا فيه نقمةً، فيومئذٍ لا يبقى لكُم في السماء عاذرٌ، ولا في الأرض ناصر، أصفيتُم بالأمر غير أهلِه، وأوردتموه غير مورِدِهِ وسينتقم اللهُ ممّن ظَلم: مأكلًا بمأكل، ومَشرباً بمشرَب: مِن مَطاعِم العَلقم، ومَشارِب الصَّبر المِقر، ولباس شعار الخَوف ودِثار السَّيف، وإنّما هُم مَطايا الخطِيئات، وزوامل الآثام، فأقسِم ثمَّ أقسِم لَينخُمَنَّها أمَيَّةُ مِن بعدي كما تُلفِظُ النخامةُ ثمَّ لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ماكرَّ الجديدان))[1]

في قوله عليه السلام: «أرسله على حين فترة من الرسل» إشارة إلى قوله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ .....»[2]، والفترة هي ما بين رسولين من رسل الله[3]، أو انقطاع الرسالة والوحي كما يرى الشيخ التستري[4]

وقوله عليه السلام:(وطول هَجعَةٍ من الأمم) أي: بَعد نومه، وغَفلة[5]، والأمم لا تَنام إلّا من خلال الاستعارات المكنية التي تَهب الحياة لمن لا حياة له، فالأمة هنا كائن حي - محذوف - بقرينة(هجعة)، ويجوز أن تكون تصريحية، استعيرت فيها(هجعة) للمدة التي انقطعت فيها الرسل والأنبياء، بجامع الغفلة، وهكذا في قوله عليه السلام: (وانتفاض من المبرم) وهي إشارة بيانية استعارية لانتقاض الشرائع - بسبب ترك العمل بها - والتي شبهها بالحبل - لقوَّته - وقد انتقض.

ينتقل بعد ذلك إلى بيان ما سيصيب الناس بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومجيء بني أمية، إذ ستدخل الأحزانُ كلَّ بيت، في الحضر والبوادي(كلَّ مَدرٍ أو وَبرٍ) دلالة

---

(١) نهج البلاغة، خ(١٥٣)، ج٢/ ٦٩ - ٧٠ .

(٢) المائدة/ ١٩ .

(٣) ينظر: منهاج البراعة، للخوئي، ج٦/ ٢٦٠.

(٤) ينظر: بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، الشيخ محمد تقي التستري، دار امير كبير، بيروت، ١٩٧٨ ، ج٢/ ٢٧٢.

(٥) ينظر: منهاج البراعة، للراوندي، ج١/ ٣٧٠.

على انتشار الفساد في عموم ديار المسلمين، وسيدخلون في كل بيت نقمة، إن دلالة قوله عليه السلام: (وأولجوا فيه نقمة) دلالة على إدخال هذه النقم عنوة في ديار المسلمين لما يُصاحِب الولوج من إكراه، وحَشر بالقوة، وحينئذ- باستفحال ظلمهم – لن يكون للظلمة هؤلاء عاذر ولا ناصر، إشارة إلى زوال مُلكهم، ووَقع الاقتباسُ لألفاظ قريبة من هذه التراكيب في مواضع أخرى في نصوص النهج، مثل(استَشعِروا الخَشيَة، وتجلبَبوا السَّكينَة)[1]، وفي كلا الموضعين نجد تجسيماً للخوف والسكينة .

وهناك تجسيم آخر للتقوى التي جعلها لباساً[2]، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[3].

والأمر الجلي هو أنّ الإمام عليه السلام ربط لباسَ الخوفِ بالطَّعام والشراب مثلما ربطت الآية الكريمة بينهما من خلال(فأذاقها) .

ثالثاً : اقتباسُ الجُملةِ القرآنية المُباشِر:

يُمثل النص القرآني المباشر مرجعية فنية، فكرية، ثقافية عند الخطيب، والشاعر، على حَدّ سواء لاسيّما في عصر صدر الإسلام، ومن أرضيته الصلبة ينطلق الناثر والشاعر للتعبير عمّا ينبغي وليرفد نصه بأدبية النص القرآني العالية، وبما يحمله من دلالات وجمالية، وتأثير في نفوس المتلقين، ليحقق لهم عنصري الإفهام والإمتاع وسُميّ الاقتباس المباشر بالاقتباس النصي، أو الحَرفي تميزاً له عن الاقتباس غير المباشر الذي

(١) ينظر:نهج البلاغة، خ(٦٣)، ج١/ ١١٠ . وجاء في شرح البحراني: ((واستشعروا الخشية، وتجلببوا السكينة، استشعروا الخشية:اتخذوه شعارا وهو مايلي الجسد من الثياب، والجلباب:الملحفة، أي:اجعلوا الخشية أوّل لباس لكم، ثم أرد فوه بالسكينة، وهنا استعارتان تؤكّدان على ضرورة التحلّي بالخشية، والسكينة)) . شرح ابن ميثم البحراني، ح١/ ٣٣٣ . وينظر:منهاج البراعة، للخوئي، ج٥/ ٢٣.

(٢) ينظر:نهج البلاغة، خطبة(١٩٣)ج٢/ ١٩٨-١٩٩ .

(٣) الأعراف/ ٢٦ .

عُرِف بالاقتباس الإشاري[1] أو الدلالي، وعُرِف الأولُّ بالظاهر تميزاً له عن الكامن، أو هو اقتباس الصياغة تفريقاً له عن اقتباس المعاني، وتارة يُدعى بالتأثر الكلي مقابلا للتأثر المعنوي، ويُدعى بالاقتباس اللفظي تفريقاً له عن المعنوي[2].

لقد شهد الاقتباس تعدداً يعكس صعوبة الاتفاق على مُسمَّياتِه وتنوّعت تلك المسميات عند الباحثين تَبَعاً لزاوية النظر، والرؤية التي يقف عندها الباحث، وكلها تضعه في نوعين لا ثالث لهما .

اعتمد كثير من النصوص النهجية في بناء صورِه، ومعانيهِ ظاهرةَ الاقتباس المباشر، مِمّا يؤكد أهمية استحضار النص القرآني، وأثره في النص الأدبي العربي القديم .

وإذا كان(التناص) و (التضمين) يتصلان بالنص الأدبي على وَجه الخصوص، فإن اتصال (الاقتباس) بالنص القرآني له خصوصيته وفرادته، وتَمظهرت تلك العلاقة بِصُوَر شتّى، كان الاقتباسُ المباشر مِن أجلى تلك الصور[3].

سنقف عند النصوص التي استضافت النص القرآني المباشر لكي نستجلي جوانبها، وأهميتها في بناء تلك النصوص، إذ كثيراً ما يتعاطى الإمامعليه السلام في نصوصه الأخذ من النص القرآني المباشر، فشكّلت مساحة كبيرة في بنية نصوصه توجب التوقف عندها .

هذا اللون من الاقتباس له خصوصيته، وتميزه بوصفه يمثل مركز الاقتباس، فبالعود إلى تعاريف النقاد، والبلاغيين لفن الاقتباس نجدها– في كثير منها – تنطبق

---

(١) (الاقتباس النصّي)وهو الذي لا يغيّر الشاعر أو الناثر في لفظ النص المقتبس، و(الاقتباس الإشاري)هو الذي يغيّر فيه الشاعر لفظ النص وتركيبه .ينظر: معجم آيات الاقتباس، ص: ١٢ .

(٢) ينظر:المصدر نفسه، ص:١٥ .

(٣) يرى صاحب كتاب (معجم آيات الاقتباس) إن الاقتباس النصي – المباشر – هو الاقتباس الحقيقي. ينظر: المصدر نفسه، ص:١٢. .

على هذا النوع، وان كان بعض منها يدخل في باب الاستشهاد[1]*.

ازدحمت به ساحة النص النهجي، وتوزعت النصوص القرآنية بحرفيتها بين ثنايا النصوص[2]، لتؤدي وظائفها المبتغاة .

ومن الآيات التي اقتبسها؛آية من سورة فصلت، وأخرى من سورة الأنبياء في خطبة له محذّراً من الدنيا وزخرفها: ((فَبِئسَت الدار لِمَن لم يَتّهِمها، ولم يكن فيها على وَجَلٍ منها، فاعلَموا – وأنتُم تعلمون – بأنّكم تارِكوها، وظاعِنون عَنها، واتّعظُوا فيها بالذين قالوا: « مَن أشدّ منّا قوّة » حُمِلوا إلى قبورِهم فلا يُدعَون رُكباناً، وأُنزِلُوا الأجداثَ فلا يُدعَونَ ضِيفاناً، وجُعِل لهُم مِن الصَّفيح أجنانٌ، ومِن التُّراب أكفانٌ، ومِنَ الرُّفاتِ جيرانٌ، فهم جيرةٌ لا يُجيبُون داعياً، ولا يمنَعون ضَيماً، ولا يُبالُون مَندَبة؛ إن جيدُوا لم يَفرحوا وان قُحِطُوا لم يَقنِطُوا، جميعٌ وهُم آحاد، وجيرةٌ وهُم أبعادٌ، مُتدانون لا يتزاوَرون، وقَريبُون لا يَتقارَبُون، حُلماء قد ذَهبَت أضغانُهم، وجُهَلاءُ قد ماتَت أحقادُهُم، لا يُخشى فَجعَهُم، ولا يُرجى دَفعَهُم، استَبدَلُوا بظهر الأرض بَطناً، وبالسَّعةِ ضِيقاً، وبالأهلِ غُربَةً، وبالنور ظُلمةً، فَجاؤوها كَما فارَقُوها، حُفاةً عُراةً، قَد ظَعَنوا عنها بأعمالِهِم إلى الحياةِ الدائِمةِ))[3].

يبدأ النصُّ بالذمِّ الصريح(بئس)، للدنيا، (فبئست الدار لِمَن لم يتّهمها..)أي:لِمَن

(١) * اشترط النقاد والبلاغيون في عملية الاقتباس بقولهم « على أن يكون منه »، وبذلك يخرج استجلاب النص القرآني في دائرة الاقتباس حين التصريح بالقول: قال الله تعالى، أوماشابه ذلك كما في كثير من خطب الإمام، وكتبه، ومواعظه

(٢) ينظر مثلا: سورة البقرة/ ٣٤، نهج البلاغة، خ ج١/ ١٥، سورة ص/ ٨٠-٨١ خ ج١/ ١٦، الأنعام/ ٣٨، خ(١٧)، ج١/ ٥١، الكهف/ ٤٥، خ(١٠٧)، ج١/ ٢١٦، القصص/ ٢٤، خ(١٥٥)، ج٢/ ٧٣، البقرة/ ٢٤٥، خ(١٨٧)، ج٢/ ١٣٦، الشعراء/ ١٥٧، خ(١٩٦)، ج٢/ ٢٠٧، الحج/ ١١، ك(٣)، ج٣/ ٦، آل عمران/ ١٩٨، ك(٢٣)، ج٣/ ٢٥، هود/ ٨٣، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٩، النحل/ ٩٠، ق(٢٣١)، ج٣/ ٢٠٤، الأعراف/ ٩٩، ق(٢٧٧)، ج٣/ ٢٤٥، الحديد/ ٢٣، ق(٤٣٩)، ج٣/ ٢٥٨.

(٣) نهج البلاغة، خ(١٧٠)، ج١/ ٢١٨-٢١٩ .

اعتمد بصحتها، وإنّها مقصودة بالذات فرَكن إليها[1]، ما دام الإنسان مُفارقا لها، وقول الذين ركنوا إليها من قبل وقالوا:(مَن اشدّ منا قوة)[2]، يثبت ذلك، فهم قد حُمِلوا إلى قبورِهم، وتركوها، مَع مالهم مِن قوّة مَزعومة .

وقولهم هذا الذي اقتبسه الإمامعليه السلام بنَصّه القرآني جاء حلقة من حلقات السرد وفقرة من فقراته، نصّ الآية يتحدث بلسان هؤلاء وهو متناسب مع قول الإمامعليه السلام: (واتّعظوا فيها بالذين قالوا)، فأصبحت الآيةُ استمراراً لكلامه عليه السلام لا سيّما بعد قولهعليه السلام:(فاعلموا – وانتم تعلمون–)، فالجملة الاعتراضية جاءت للتوكيد[3]، وإن كان لا محلَّ لها من الإعراب[4]، إلا أنّها لا تكون إلا مُقيّدة[5]، وبمجيء الآية جزء من السرد الخبري تكون قد أضافت إضاءة داخلية لما تحمله من معنى موجز مكتنز .

الآية المقتبسة شكّلت ركيزة أساسية في نص الإمامعليه السلام، وأوردها كسؤال ليأتي الجواب عليه، في جمل تتراصف فيما بينها فتبني نصّاً يوصل المتلقي إلى صورة نابضة بالحياة تكشف عن معان عديدة، منها نبذ الدار الدنيا، والحَثّ على الاستعداد للآخرة، وإن الدنيا ليست دار قرارٍ، وسرعان ما يأتي الموت، فتتبدل الأحوال، وحينئذ لا ينفع مال ولا بنون وإن الدنيا لو كانت من حَقِّ أحَدٍ، لدامت لأولئك الذين هُم أشدّ قوّة، والحياة الدائمة هي الحياة الآخرة التي يرحل الناس إليها بعد موتهم، وتركهم لها .

وفي قولهعليه السلام في المنافقين: ((...يَتوصّلون إلى الطَّمع باليأس ليُقيموا به أسواقهم، ويُنفِقُوا به اعلاقَهم؛يقولون فَيُشبِّهُون، وَيصِفُون فَيُوَهِّمُون، قد هَوّنوا الطريقَ، وأضلَعوا

(١) ينظر:شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني، ج١/ ٥٣٢ .

(٢) فصلت/ ١٥ .

(٣) قال ابن جني ت (٢٢٣)هـ، متحدثا عن الجملة الاعتراضية: « وهو جار عند العرب مجرى التوكيد». الخصائص، تحقيق:محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٢ج١/ ٣٣٥.

(٤) ينظر:الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها، ابن فارس ت(٣٩٥) هـ، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة، بيروت، ١٩٦٤م، ص: ٢٤٧ .

(٥) أكد ابن جني أن الاعتراض دال على فصاحة المتكلم، وقوة نفسه. ينظر:الخصائص، ج١/ ٣٤١ .

المَضيقَ؛فهم لُمّة الشيطان، وحُمّة النيران، أولئك حزب الشيطان، ألا إنَّ حِزبَ الشَّيطانِ هُمُ الخاسرون))[١]، اقتبس آية من سورة المجادلة: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٢] .

من صفات المنافقين التي ذكرها الإمام عليه السلام أنهم(يتوصّلون إلى الطَّمع باليأس ليقيموا به أسواقهم)، أي:لتنفق سلعتهم[٣]، و(ينفقوا به أعلاقهم)، أي:سلعهم الثمينة[٤]، وهما استعارتان تصريحيتان واضحتا الدلالة، وهم (يقولون فيشبهون)، أي: يوقعون الشبه في القلوب[٥].

وقوله عليه السلام:(ويَصِفُون فيُوَهِّمُون)أي: يصفون الله – بالتشبيه – فيُوَهِّمُون الناسَ، لذلك فقد هوّنوا الطريق، طريق الضلالة، و(أضلعوا المضيق)أي:مالوه وجعلوه ضَلِعاً، مُعوَجاً، أي :جعلوا المَسلك الضيِّق معوجاً بكلامهم، وتلبيسهم، فإذا اسلكوه إنساناً اعوجّ لاعوجاجه[٦]، بعد وصفهم بمثل هذه الصفات، لم يجد الإمام عليه السلام أنسب من قوله تعالى:(أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)، إنهم ليسوا حزباً للشيطان فقط، بل هم خاسرون، لا سيّما بعد أن وصفهم بلمّة الشيطان، أي: جماعته[٧]، وبأنهم (حُمَّة النيران)، والحُمّة: السُمّ[٨]، واجتماع السمّ، (المُدرَك بالتَّذوق)، والنيران(المُدرَكة باللَّمس) يُوصل إلى(تَراسل الحواس)، وتَداخلها .

---

(١) نهج البلاغة، ، خ(١٨٩)، ج٢/ ١٩٢ .
(٢) المجادلة/ ١٩ .
(٣) شرح ابن أبي الحديد، ج١٠/ ١٣٣ .
(٤) أعلاق، جمع (علق)، وهو السلعة الثمينة، ينظر:المصدر نفسه .
(٥) ينظر:المكان نفسه .
(٦) ينظر:المكان نفسه .
(٧) ينظر:شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٦٩ .
(٨)ينظر: منهاج البراعة، للراوندي، ج٢/ ٢٨٥. وحمّ النيران بمعنى: معظم حرّها.ينظر: منهاج البراعة، للخوئي، ج٢/ ١٧١. أو هي: إبرة العقرب، كما يرى الشيخ مغنية. ينظر: في ظلال نهج البلاغة، ج٣/ ١٧٤.

وعَدَّ ابن أبي الحديد(حُمّة النيران)كناية[١]، ويرى البحراني أنها استعارة، وهي ليست واحدة من هذين الفنين، فبمجرد النظر إلى قوله عليه السلام، ندرك أن أصل الكلام:(هم كَلُمّة الشيطان، وكَحُمّة النيران) فيكون من السهل أن نقول إنه تشبيه بليغ، لوجود المشبه والمشبه به، فلا تكون حينئذ استعارة.

وفي خطبة له عليه السلام يصف فيها أهل القبور قال:((.... وكيف يكون بينَهُم تَزاوُرٌ، وقَد طَحَنَهُم بكَلكَله البلَى، وأكلتهُم الجَنادل والثَّرى؟وكأن قَد صرتُم إلى ما صاروا إليه، وارتهَنَكُم ذلك المضطَجَع، وضَمّكم ذلك المُستودَع، فكيف بكَم لو تناهت بكم الأمورُ وبُعثرت القبورُ؟ « هنالك تبلو كلّ نفس ما أسلفت»))[٢].

انظر في قوله عليه السلام، ثم انظر في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾، يتبين كيف أنه استقى كلامه من كلام الله، والذي جاء مناسباً لمقام الحال، والمقال، فتجلت مقدرته عليه السلام في استثمار هذه الآية، وإمكانية الانتقال بها إلى تساؤلات خرجت إلى غرض مجازي، وهو(الاستبعاد)، فلا يَحسّ المتلقي بوعورة ذلك الانتقال من كلامه إلى الآية المباركة، للوصول به إلى الوَعظِ غير المباشر

وأورَد الاستفهامات بصحبة فنٍّ بلاغيٍّ مجازي أخر، حين اسنَدَ(الطحنَ، والأكلَ)، إلى(البلَى والجَنادلِ، والثّرى)، والمعروف أن الطَّحن والبلَى ليسا من خَصائص ما اُسنِد إليه في النص، لكنه عليه السلام جنح بالتعبير من الحقيقة إلى المجاز، فرسم صورة بيانية لها أثرها ألذهني وألنفسي ألكبيرين على المتلقي، لما في المجاز من» تلوين للأفكار، وتوليد للصور، وبَعثٌ للإيحاء بما هو ملائم لطبيعة المعانـــي»[٣]، وأردف هذين الاستفهامين، بآخرين أراد بهما(التهويل)، والقول: كيف بكم لو تناهت بكم الأمور؟ وبعثرت

---

(١) ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١٠/ ١٣٣ .

(٢) نهج البلاغة، خ(٢٢١)، ج٢/ ٢٤٧ .

(٣) المجاز وأثره في الدرس اللغوي، ص:١٤٣ .

القبور؟، بعد هذا الحشد المجازي تأتي الآية حاملة معها أفقاً واسعاً أمام المتلقي، ليتصور ذلك كله في جوّ من الرّهبة، والخوف، وهذا ما أراده عليه السلام.

واقتبس قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1]، في كتاب له إلى شريح بن الحارث، قاضي الإمام عليه السلام، لما بلغه أنه اشترى داراً بثمانين ديناراً، فكتب له((...اشترى هذا المُغتَرُّ بالأملِ مِن هذا المُزعَجِ بالأجَل، هذه الدار بالخُرُوج من عزِّ القَناعَة، والدُّخول في ذلِّ الطَلَبِ والضَّراعَة ، فما أدرَكَ هذا المشتري فيما اشتَرى مِنهُ من دَرَكٍ فعلى مُبَلبَل أجسامِ المُلُوكِ ، وسالِبُ نُفُوسِ الجَبابرة، ومُزيلِ مُلكِ الفَراعِنَة، مثل كِسرى، وقَيصر، وتُبّع وحِميَر، ومَن جَمعَ المالَ على المالِ فأكثَرَ، ومَن بَنى وَشَيَّد ، وزخرَف، ونَجَّد، وادَّخَرَ، واعتقد، ونظر بزَعمِه للوَلَد ؛ أشخاصُهُم جميعاً إلى موقفِ العَرضِ والحِساب، ومَوضع الثَّواب والعِقاب، إذا وقَعَ الأمرُ بفَصلِ القَضاء» وخَسر هُنالِكَ المُبطِلُون» شَهد على ذلك العقلُ إذا خَرَجَ مِن أسرِ الهَوَى، وسَلِمَ مِـن عَلائِق الدُّنيا))[2] .

في جَوٍّ من الرهبة والتذكير يطلق الإمام عليه السلام كلماته منسابة للتذكير بما اعترى ملوك الأمم السابقة بفعل الموت، مع ماهم من عِزّ وشوكة، ليقف بسامعيه عند موضع الثواب والعقاب في يوم الحساب.

إنها نقلة من الماضي البعيد إلى المستقبل الموعود، ليقف المخاطب المخصوص آنئذ(شريح بن الحارث)وكل المتلقين للنص عند حقيقة مفادها أن التحصيل الحقيقي، والمُلك المضمون هو ما سنلقاه أمامنا، وما نملكه في الدنيا فإنه إلى زوال، وإن لم يكن كذلك فنحن الزائلون، فلا ينفع ما بنيناه، وما شيّدناه، وزخرفناه، ومن ظنَّ عكس ذلك، سيكون من الخاسرين(وخسر هنالك المبطلون) فمن المناسب قوله عليه السلام:(أين مَن سَعى

(١) غافر/ ٧٨ .

(٢) نهج البلاغة، ك (٣)، ج ٣ / ٦ .

واجتَهَد، وجَمَع، وعَدَّد وزَخرَفَ وبَنَى وشَيَّد) فأتبَعَ كلَّ لفظةٍ ما يُشاكلُها.

جاءت الآية الكريمة في موقعها، ولولا ذكرها لبقي الكلام ناقصا ومثلوما وأوصلت السامع إلى ساحة الاعتبار، والتفكر، وجعلته على مشارف نجدين، كلاهما يدعوه ألّا يكون من الخاسرين .

وفي اسم الإشارة(هنالك)إحالة إلى المكان البعيد للدلالة على البعد الزماني الناتج من الإشارة إلى البعد المكاني، لأن الكلام عن يوم القيامة .

ولمّا كان الإمام عليه السلام في مقام الدعوة إلى التذكير، والتقريع، والترهيب، لزم استحضار آية تزيد من هذا كله، فكانت شديدة الوقع على النفس، لإيرادها بصورة مفاجئة، فأدّت غَرَضَها

وأورد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾(1) في قوله عليه السلام لمن سأله» أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ فقال عليه السلام:((ويحك!العلّك ظَنَنتَ قَضاءً لازماً وقَدَراً حاتماً، ولو كان ذلك كذلك لَبَطُلَ الثوابُ، والعقاب، وسقَطَ الوَعدُ والوَعيد، إنَّ الله سبحانه أمَر عِبادَه تَخييراً ونَهاهُم تَحذيراً، وكَلَّف يسيراً، ولم يُكلّف عَسيراً، وأعطَى على القَليل كَثيراً، ولم يُعصَ مَغلوباً، ولم يُطَع مُكرَهاً، ولم يُرسِلِ الأنبياء لَعِباً، ولم يُنزل الكتابَ للعبادِ عَبَثاً، ولا خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما باطلاً و ذلك ظَنُّ الذّين كَفرُوا، فويلٌ للّذين كفرُوا مِنَ النّارِ»))(2).

ظنّ السائلُ أنَّ الإنسان مسير، فسأل:أكان مسيرنا إلى الشام بقضاءٍ من الله وقَدَر؟فعلم الإمام عليه السلام بذلك، وبهذا الظنّ والاعتقاد يبطل الثواب والعقاب ويسقط الوعد والوعيد، ولأصبح أمر الله لعباده لَهواً وعَبَثاً، وإرسال الأنبياء والرسل لَعِبَاً، وعبادة الناس إكراهاً، وعصيانهم غلبة لله سبحانه

(1) ص/ ٢٧ .

(2) نهج البلاغة، ق (٧٨)ج٣/ ١٦٧ .

من هنا يبدأ الإمام عليه السلام بقوله للسائل: (ويحك) ويختمه بالآية المباركة التي بها نمت دلالة النص عند نقطة التماس بالنص القرآني، وتغدو هناك صلة عضوية بينهما تدفع بنص الإمام عليه السلام إلى ساحة الفهم .

ومن الناحية النفسية نجح النصُّ في دحض ذلك الاعتقاد، حين نَفَّرَ من اعتقاد ذلك.

وقد يقتبس الإمام عليه السلام آيتين في قول قصير لإحساسه أن القول يستدعي ذلك، كما في إحدى حكمه: ((لا تأمنن على خير هذه الأمة عذاب الله لقوله تعالى: « فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ»، ولا تيأسن لشر هذه الأمة من روح الله لقوله تعالى: «إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ))(١).

على الرغم من قصر النصّ فَإِنَّهُ احتوى اقتباسَين قرآنيين جاء بهما عليه السلام كوسيلتين من وسائل الإقناع للسامع، لاتأمننّ على خير هذه الأمة عذاب الله بدليل قوله تعالى في ألآية الأولى(٢)، وبالمقابل لا تيأسن هذه الأمة من روح الله بدليل قوله تعالى في الآية الثانية(٣).

إنها معادلة عقائدية يراد بها الإقناع بالدليل العقلي، والنقلي بالنص القرآني الواضح والصريح، لذا ندرك أهمية اقتباس هاتين الآيتين، فالمقتبس القرآني شكل محور النص ومرتكزه الأساس، وأمكن الوصول إلى معنى كلامه عليه السلام بهما.

قال عليه السلام في موضع آخر من النهج: ((الزهد كله بين كلمتين من القرآن، قال سبحانه: «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»، ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه))(٤)، حدّدت الآية طرفي الزهد، وجعلته بين كلمتين، لاتأسوا، ولا تفرحوا على شيء فات، أو أتى، كن بين هاتين الكلمتين تكن من الزاهدين،

---

(١) نهج البلاغة، ق(٤٣٩)، ج٣/ ٤٥.
(٢) الأعراف/ ٩٧- ٩٩.
(٣) يوسف/ ٨٧.
(٤) نهج البلاغة، ق(٤٣٩)، ج٣ / ٢٥٨.

ومن أراد الزهد فليمسك بطرفيه المحددين بالآية المباركة التي أصبحت روح النص .

إن اقتباس النص لم يتأت بسبب الإيجاز فقط، بقدرما تحمله من دلالات لتضع بصمات الشحن الاستدلالي في النص، والأمران المذكوران في الآية غايتان في الزهد والإعراض عن الدنيا في قوة خاصة تلزم الزهد، ونبه عليها لتعريفه بها[1]

رابعاً : اقتباسُ الجملةِ القرآنيّةِ غير المباشر (القريب) :

لا يقتصر الاقتباسُ القرآني على الأخذ المباشر فقط، إنّما امتدَّ ليشمل نوعاً آخر، يُدرَك من خلال وجود النص القرآني في التشكيل البياني للنصوص، وقد يبتعد قليلا، فَيَدخل مَساحةَ الاقتباس غير المباشر البعيد، وكلاهما يُعَدُّ اقتباساً غير مباشر للقرآن الكريم، وهما بحاجة إلى تأمّل ومعاودة للكشف عنه، وقد يحتاج إلى قراءة أو أكثر- في النوع الأول- أو إلى قراءة تسندها ثقافة قرآنية تُعِين المتلقي على الرجوع إلى النصوص القرآنية التي تحمل المعاني المقتبسة كما في النوع الثاني.

من الصعوبة بمكان أن يحدّد المتلقي المواضع التي جرى فيها الاقتباس القرآني غير المباشر لا سيما في النوع الثاني، والبلاغيون بإجازتهم للنقل والتغير بالنص المقتبس أدخلوا هذا النوع في الاقتباس[2]، وهذا ما أجازه كثير من البلاغيين والنقاد[3].

ويرى بعض النقاد أنه لا يدخل في باب الاقتباس، إذ على الناقل أن يكون أميناً بالحفاظ على النص ولا بأس بعدئذ بما لم يكُن قَصَد به الاقتباس[4].

---

(١) شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٦٣٨.

(٢) ينظر:معجم آيات الاقتباس، ص:١٥ .

(٣) ينظر:المثل السائر ، ج١/ ١٦١-٢٠٢ ، ٢٢٢ ، تحرير التحبير ، ص :١٤٠، خزانة الأدب ، ج٢/ ٤٥٦ .

(٤) هذا ما يراه الباحث (حكمت فرج البدري) في كتابه (معجم آيات الاقتباس) لذلك هو يُخرج كتاب أبي منصور الثعالبي- (ألاقتباس من القرآن ألكريم)الضخم ، إلّا أبيات لا تخرج عن أصابع اليد الواحدة - ممّا هو اقتباس في نظره ، لأنَّها اقتباساتٌ غير مباشرة فألف كتابَه المَذكور، وجمع فيه الاقتباسات المباشرة(ألنصية) للنص القرآني في الشعر، ولم يتطرق إلى ألجانب ألبلاغي إلاّ في وقوفه عند ألمصطلح ، في حين جمع ألثعالبي في كتابه الاقتباسات غير المباشرة(ألاشاري) بنوعيه القريب والبعيد ، والتغيِّر الجائز عند صاحب ألبدري(معجم آيات الاقتباس) هو ما كان طَلَباً للوزن المناسب للشعر فقط . ينظر:معجم آيات الاقتباس ، ص:١٥-١٦.

إنَ التعاملَ مع النص القرآني هنا يكون بِمعزَلٍ عن التداخل البنائي مع النص، ويصبح اختلاطاً معنوياً في بعض جوانبه .

ونستطيع أن نزعم إنَّ هذا النوع من الاقتباس هو الاقتباس الحقيقي لأن الاقتباس يشترط بـه أن " يراد به غير القرآن" وُفقَ مُقتَضياته وضرورياته .

إنَّ الإمامَ عليه السلام حين يترك النصَّ دون الإشارة إلى الآية المقتبسة، يفترض أن المتلقي يدرك جميع تلك الإشارات، والتضمينات القرآنية، وهو فرض له ما يُعضّده، باعتبار أن المتلقي آنذاك كان قريب عهد من كتاب الله، و من المفترض أن توجد معرفة تستوعب التراث القرآني في صدور المسلمين .

يمتلك النصُّ- عادة باعتباره ظاهرة أدبية - طاقةً داخليةً كامنةً لإنتاج دلالةٍ ما، ولكلِّ أديب قدرته على استخراج هذه الطاقة، وبثِّها لتَشعّ منه الدلالات المتعددة، والاستعانة بالنصِّ القرآني غير المباشر القريب واحدة من أوجه إظهار طاقة النص .

اقتبس الإمام عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1]، وقوله تعالى:﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[2]، وقولـه تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[3]، و: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[4]، و: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[5]، بصورة غير مباشرة في خطبة طويلة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض، وخلق

(١) إبراهيم/ ٣٤ .

(٢) طه/ ١١٠ .

(٣) الشعراء/ ٢٤ .

(٤) الأعراف/ ٥٧ .

(٥) النبأ/ ٧ .

آدم عليه السلام فقال:((الحمدُ لله الذَّي لا يَبلُغ مِدحَتَه القائلون، ولا يُحصي نِعماءَه العادُّون، ولا يُؤدّي حَقّه المُجتَهدون؛ الذي لا يُدرِكُه بُعد الهِمَم، ولا يَنالَهُ غَوصُ الفِطَن الذي ليس لِصِفَتِه حَدّ مَحدُود، ولا نَعتٌ مَوجود، ولا وَقتٌ مَعدُود، ولا أَجَلٌ مَمدُود، فَطَر الخلائِقَ بِقدرَتِه، ونَشَر الرِّياحَ برَحمَتِهِ، وَوَتَدَ بالصخُورِ مَيَدانَ أرضِه))[1].

صاغ الإمام عليه السلام معانيه في النص مِن معاني تلك الآيات في قوالب لفظية جديدة، وحين يَتلقَّاها المتلقي تُحِيلَه إلى المَنابِع القرآنية التَّي استقى مِنها تلك المعاني .

في البدء نجد صلةَ الموصول- الذي - تكشف لنا قدرة الله جل شأنه، وعظمته، فسياق الموصول وصلته في محل بيان تعظيم الله تعالى فلا يبلغ مِدحته القائلون، أو يُحصي نِعماءَه العادُّون، أو يؤدِّي حقَّه المُجتَهِدُون.

إنَّ هيمنة النفي في النصِّ ، أفادت مهمة التصريح بالعجز التام عن الوصول إلى المَدح، أو الإحصاء، أو أداء حقّ الله، مِن جهة، أو إدراك، أونَيلِه بِهِمَّة أو فِطنَة من جهة أخرى، كما أفاد توكيد المعنى، وتركيزه في ذهن المتلقي.

وبالرجوع إلى الآية المباركة نجد(نعمة)بصيغة المفرد (إن تعدّوا نِعمَةَ الله لا تُحصُوها) وفي كلام الإمام عليه السلام (نعم) بصيغة الجمع، لأن السياق سياق جمع(عادّون، مجتهدون، همم، فطن)وصيغة الجمع تدل على عظيم فضل الله، أو كما قال(الراوندي) في تفسيره: وفي إيراد لفظ النعمة مفرداً في كلام الله ، وعلى لفظ الجمع في كلام أمير المؤمنين عليه السلام سرّ عجيب، وهو أن الله دل عباده على الآية العظام، بأن قال نعمة واحدة منها لا يمكنكم عَدّ وجوه كونها هذا حقيقة، وإلّا فالشيء الواحد لا يُمكن عَدَّه، وقِيل المراد به الجنس، وإنّما ذكر علي عليه السلام نعماءه، ونعمة على الجمع في الروايتين، إشعاراً أن

---

(١) نهج البلاغة، خ (١)، ج١/ ٧ . ويرى الراوندي، والشيخ مغنية أن قوله عليه السلام:((لا يُحصي نعماءَه العادّون))، من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ .النحل/ ١٨ . ينظر: منهاج البراعة، ج٢/ ١٢٦. وينظر: في ظلال نهج البلاغة ، ج١/ ١٦

أصول نِعَمِه لا تُحصى لكثرتها، فكيف تُعَد وجوه فروع نعمائه[1]، وحين وصل إلى الحديث عن الله، جاءت صيغ المفردات:(صِفَته ، حَدّ ، نَعت ، أجَل)، وبالرجوع إلى بيان فضله على العباد ، عاد الحديث بصيغة الجمع (خَلائق ، رِياح ، صُخُور) ، وبهذا يكون عليه السلام قد ولَّد من الآيات حالةً جديدةً تَسترفِد المعنى الذي قام عليه النصُّ المستضاف .

وضَمّن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[3]، في خطبة جاء فيها:((بنا اهتَديُتم في الظلماءِ، وتَسنَّمتُم العلياءَ، وبنا انفَجرتُم عن السَّرار، وُقِرَ سَمعٌ لم يَفقَه الواعية ، وكيف يُراعِي النَّبأة مَن أصمَّتهُ الصَّيحَةُ، رَبَطَ جَنانٌ لم يُفارِقهُ الخَفقان، مازلتُ أنتظرُ بكُم عواقِبَ الغَدر، وأتوسّمُكم بحَليَة المغترِّين، سَتَرني عَنكُم جلبابُ الدِّين، وبَصَّرنيكُم صِدقُ النِّيَّة، أقَمت لكُم على سَنَن الحَقِّ في جَوادِّ المَضَلَّة ؛ حيثُ تَلتَقون ولا دَليل، وتحتَفِرون ولا تُميهون، اليومَ أُنطِقُ لكُم العَجماءَ ذاتَ البَيان، غَرَب رَأيُ امرئٍ تَخلَّف عَنِّي ما شَكَكتُ في الحَقِّ مُذ أُريتُهُ ، لَم يُوجِس مُوسى عليه السلام خِيفَةً عَلى نَفسِه ، أشفَقَ مِن غَلَبةِ الجُهَّال ودُوَلِ الضَّلالِ، اليومَ تَواقَفنا عَلى سَبيلِ الحَقِّ والباطِلِ ، مَن وَثِق بماءٍ لَم يَظمَأ))[4]، وأصل الكلام:اهتديتُم بنا في الظَّلماءِ، فإيقاع المُسند إليه أوَّل الكلام يجعل السامع مُتلهِّفاً إلى سَماع الخَبَرِ، وإتمامه، ويكون مُهيّئا لقبوله فإذا ذُكِر ازداد قوَّة، وتمكُّناً، ومع هذا التقديم تأتي الاستعارة في تشبيه آل البيت عليهم السلام بالنور بجامع الهداية في كلّ، والظلماء استعارة تصريحية أخرى للجاهلية بجامع عَدم الاهتداء، إنَّه سياق استبدالي تَحقق بالاستعارة، وهو سِياق انزِياحي لعموم المَجاز من بابَ الخصوص والعُموم فقط كَما يُسمِّيه(كوهين)[5].

---

(١) منهاج البراعة، ج٢/ ٢٦.

(٢) إبراهيم/ ٥ ، وهناك عدّة آيات في هذا المعنى؛ (البقرة/ ٢٥٧، المائدة/ ١٦، إبراهيم/ ١ ، الطلاق/ ١١) .

(٣) طه/ ٦٧ .

(٤) نهج البلاغة، خ (٣)، ج١/ ٣٣ – ٣٥ .

(٥) ينظر: بنية اللغة الشعرية، جان كوهين ، ترجمة محمد الولي، ومحمد العمري ، دار توبقال، المغرب ، ص:١١١

وتَتبَع هاتين الاستعارتين ، أخرى ثالثة جَسَّم العلياءَ فيها ، فأصبحت لها ذروة (وتَسنّمتم العلياءَ)، وصَل المسلمون إليها بفضل آل البيت عليهم السلام بعد ذِلّ الجاهلية وهَوانِها ، وتَسنَّمتم العلياءَ جاء لبيان علوّ مَكانتِهم ، وعَظيمِ شَأنهم.

واستحضرت تلك الاستعارات صُوراً مَرسومة بالألوان، وكلٌّ منها غَنية في مكوناتها المعنوية الرافدة للنص بشحنة دلالية زَوَّدت القارئ برؤيةٍ عميقةٍ، واضِحَةٍ .

وفي قوله عليه السلام:(وبنا انفجرتُم عَن السّرار)أي:دخلتم في الفجر بعد لَيلٍ مُظلم فالسَّرار:الليلة والليلتان يَستتِر فيهما القمرُ في آخر الشهر فلا يظهر[١]، وهذا توكيد للمعنى الأول، فَهمُ بمنزلة النور الذي أخرج اللهُ به الناس من الظلمات إلى النور .

(وُقِرَ سَمعٌ)دعاء على السمع الَّذي لم يَفقَه الواعية بالثقل والصَمَم، وهذا تمهيد لقوله عليه السلام:(كيف يُراعي النبأةَ مَن أصمَتهُ الصَّيحةُ)، وهو مَثَلٌ أراد به أنّ مَن لم ينتَفع بالعِبرَة الجَليَّة الظاهِرة، لم ينتفع بالعِبرة الضعيفة، وهو استفهام خَرج إلى النفي؛أي لا تَنفع العِبرةُ الصغيرةُ مَن لا تَنفعه العِبرةُ الكبيرةُ .

فأنطق لهم العجماء كناية عن بيان الحجة لذلك نجده عليه السلام يقول بعدها مباشرة:(غَرَبَ رأيُ امرئ تخلَّف عَنّي)أي:بَعُدَ وخاب[٢]، ويحتمل أن يكون قوله هذا إخباراً أو دعاء، على حَدِّ قول ابن أبي الحديد[٣]، وهو إلى الإخبارِ أقرَب بِمقتَضى السياق، ولما يَسبقها مِن جُمَلٍ إخباريَّةٍ .

ووقع اقتباس قوله تعالى:﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[٤]، في قوله عليه السلام:(لم يُوجِس موسى خِيفَةً على نفسه)، وأراد به:أن خَوفَه على الأمة، لا عَلى نفسِه، كَخوفِ

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج/ ١٧٧ .

(٢) ينظر:المصدر السابق، ج/ ١٧٩ .

(٣) ينظر:المكان نفسه .

(٤) طه/ ٦٧ .

موسى عليه السلام منَ الفتنة والشّبهَةِ الداخلة على المُكلّفين عند إلقاء السَحرةِ عِصيِّهم[1]، وقوله: (اليوم توافقت على سبيل الحق والباطل) من قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[2]، أي: تواقف القوم على الطريق، وقفوا كلهم عليها، واتّضح الحق والباطل[3]، وقوله عليه السلام: (من وثق بماء لم يظمأ) أراد به أن من تبعه اطمأن، وهدى كما يطمئن من أصابه عطش، ومعه الماء.

وتمثّل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[5]، في خطبة له في استنفار الناس إلى أهل الشام جاء فيها: ((أفٍّ لكُم! لقد سَئِمتُ عِتابَكُم، أرَضيتُم بالحَياةِ الدُنيا مِنَ الآخِرةِ عِوَضاً؟ وبالذُلِّ مِنَ العِزّ خَلَفاً؟ إذا دَعوتُكُم إلى جهاد عَدُوِّكُم دارَت أعيُنُكَم كأنَّكُم مِنَ المَوتِ في غَمرةٍ، ومِنَ الذُّهول في سَكرةٍ، يُرتِج عليكُم حِواري فتعمهُون فَكأنَّ قلوبَكُم مَألوسَة، فأنتمُ لا تَعقلُون، ما أنتُم لي بِثِقَةٍ سَجيس اللَّيالي، وما أنتُم بِرُكنٍ يُمالُ بِكمُ، ولا زَوافُرَ عِزٍّ يُفتقَر إليكُم، ما أنتمُ إلّا كإبلٍ ضَلَّ رُعاتُها، فَكُلَّما جُمِعَت مِن جانب، انتَشَرت في آخر..))[6].

---

(1) ينظر: شرح ابن أبى الحديد، ج١/ ١٧٩ .ينظر: التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج٧/ ١٨٦. وينظر: مجمع البيان، الطبرسي، ج٧/ ٣٩. ينظر: جامع البيان، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت(٣١٠)هـ، تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ج٩/ ٢٨. ينظر: تفسير الجلالين، السيوطي، ص: ٤١١.

(2) البلد/ ١٠ .

(3) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١/ ١٧٩ .

(4) محمد/ ٢٠ .

(5) الأحزاب/ ١٩ .

(6) نهج البلاغة، خ(٣٣)، ج١/ ٧٨- ٧٩ .

خاطب الإمام عليه السلام أصحابه بَعد توانيهم، وتقاعسهم، عن ردِّ اعتداءات جند معاَوية، وابتدأ كلامه بالتبرّم والضَجَر منهم، وتساءل مُوَبّخاً: أرضيتم بالدنيا بَدَلاً من الآخرة؟وبالذلّ خَلَفاً عن العزّ؟ ، بعد أن وصلت بهم سَكرتهم إلى الحدّ الذي يُرتَج عليهم ، فيتَحيَّرون ، ويَتردَّدون ، وكأنَّ قلوبهم مألوسة ، أي:دخلها الجنون[١]، وهو مجاز عقلي أسند الجنون فيه إلى غير ما هو حقه، فأصبحوا عند الإمام عليه السلام غير ذِي ثقة (سَجِيس الليالي) أي : أيد الدهر، فهم ليسوا بِركن يُطمئن إليه، لا هُم بالزَّوافر: الأنصار[٢].

وبوصفهم بالإبل المتفرقة التي غابَ عنها صاحبُها، أراد القول أنهم أصبحوا كذلك لغياب الصواب عن عقولهم، لقد اُرتِج عليهم فلا يميزون بين الحق والباطل، أو لأنهم في سَكرةٍ، وغَمرةٍ، وكلما جُمِعُوا من جانب انتشروا مِن جانب آخر .

النصّ يزخر بالتشبيهات التي تضع المتلقي أمام صور متحركة واضحة وبِمجيء" الكاف " يظهر التساوق مع" الكاف " في الآيتين .

وعند المقارنة بين الآيتين، وقول الإمام عليه السلام : (كأنّكم مِن المِوت في غَمرة) نجد تقديم الموت في كلامه، وتأخيره في الآيتين:(المغشيّ عليه من المَوت) و(.. يغشى عليه من الموت)، ويبدو- والله اعلم - أن الإمام عليه السلام قدَّم الموتَ إنَّما أراد تقديم السَبب الذي جعلهم يُفضِّلون الدنيا على الآخرة، ورضوا بالذلِّ عوضاً عن العّز، فهم قد نَسوا الموتَ، وتَناسوه

إن ترابط الآيتين في النص وتداخلهما للخروج بهذا المعنى التشبيهي الجميل والمعبر يَدلّ على مقدرة فنيّة عالية، مَنحت قوله عليه السلام قُوَّة، وجمالية .

ولا تَخفى العلاقة بين قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ

---

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، ج/ ١٥٢ .

(٢) ينظر: المكان نفسه .

﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، وقوله عليه السلام: (وإن كانت تبوء بآثامها)في خطبة له، وقد استبَطأ أصحابُه إذنَه في القتال بصفين، فقال: ((أما قَولَكُم:أكُلُّ ذلك كراهِيَة المَوت! فوالله ما أُبالي؛أدَخلتُ إلى الموتِ، أم خَرج الموتُ إليَّ، وأمَّا قولكم شكًّا في أهلِ الشام!فوالله ما دَفعتُ الحربَ يوماً، إلّا وأنا أطمَعُ أن تَلحقَ بي طائفةٌ فتهتدِي بي، وتعشُو إلى ضَوئي، وذلك أحبُّ إليّ مِن أن أقتُلها على ضَلالِها، وإن كانت تَبُوءُ بآثامِها))[2].

وظنّ البعض أن الإمام عليه السلام تأخر في إذنه لأصحابه بالقتال كَراهة منه للموت، فبادر عليه السلام من فورِه إلى دحض ظنِّهم ، فأخذ بعرض أقوالهم والردّ عليها ، أما قولهم إنَّ تأخره كراهة الموت ، فكان الردّ عليهم بصورة بيانيَّة استعارية بقوله عليه السلام إنَّه لا يُبالي وسَواء عنده أدَخَل على الموت أم خَرج الموتُ إليه ، أخرَجَ الإمامُ عليه السلام الموتَ من عالَم المعنويات إلى عالَم المحسُوسات ، بهيئة كائن حي له القدرة على الحركة، لوجود إحدى خصائصه ، وهي المقدرة على الخروج .

قَدّم دخوله على الموت، قبل خروج الموتِ إليه ، للدلالة على عَدَم خَوفِه من الموت، فجعل المبادرةَ له قبل أن تكون من الموت، فكان استخدام الاستعارة هنا استخداماً مُبدعاً للغة يُزوِّد المتلقي بقدرةٍ عاليةٍ للنفاذ إلى حقيقة الأشياء .

ويبدو من سياق كلامه عليه السلام أن للقوم قولاً آخر، يظنون فيه أنَّه تأخر- بالإضافة إلى كراهته للموت - شَكّاً في أمره مع أهل الشام وحَربِه معهم ، تَوضّح ذلك من قوله:(وأمّا قولكم شكّاً في أهل الشام)، لذلك جاء بالقسم ليقول:(والله ما دفعتُ الحربَ يوماً ...)

ثم ذكر إنما يفعل ذلك بغية أن تلتحق به طائفة من جند معاوية فتهتدي به، فللتأخير ما يبرره عند الإمام عليه السلام ، والقسم من ضروب الإنشاء الطلبي، و تكرار

(١) المائدة/ ٢٩ .

(٢) نهج البلاغة، خ(٥٤)، ج١/ ٩٩-١٠٠ .

القسم يظهر أنّ كلامه مع منكرين، أو مترددين، وعبّر عن اهتدائهم بالقول:(وتعشو إلى ضوئي)، ليخرجوا من ظلمة الجهالة إلى نور الحق .

جاء استحضار الآية بصورة غير مباشرة للدلالة على مَظلوميته عليه السلام مع هؤلاء الذين تَقَوَّلوا عليه، وظلموه ، إن حاله معهم كَحال (هابيل) مع (قابيل)، إذ ظَلَمه أخوه، وَباءَ بإثمه ، وإثم أخيه، وبهذا أضفى النصّ القرآني الغائب ألحاضر أجواءً داخليةً وخارجيةً ساهمت في إِذكاء دلالية النصّ بما يمتلكه من غِنى وثَراء دلالي.

وقال واعظاً في إحدى خطبه:((. . فاستَدرِكوا بَقِيّة أيّامِكُم واصبروا لها أنفُسَكم، فإنَّها قليلٌ في كثيرِ الأيّام التّي تكون مِنكُم فيها الغَفلة ، والتَّشاغُلُ عن المَوعِظة، ولا تُرَخِّصوا لأ نفُسكُم ! فَتذهَب بِكُم الرُّخَصُ مَذاهِب الظَّلَمةِ ، ولا تُداهِنوا فَيَهجُم بكُم الادهانُ على المُصيبةِ.))[1]

بدأت الخطبة بالنصح ، والإرشاد تارة، وبالأمر أخرى: (الله الله أيّها الناس)، (فاستَدرِكوا بقيّة أيّامكم)، (عباد الله) ، (اعلموا أنَّ يسيرَ الرِّياء شرك) ، (جانِبوا الكَذب)، (لا تَحاسَدوا) ، وشَكّل الاقتباس واحداً منها، فاستَهَلّ به (فاصبِروا لها أنفسَكم) ، ولم يقل: (صَبِّروا) ، أو(عليها)عِوضاً من(لها)، وعند الرجوع إلى قوله تعالى:﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ ﴾[2]، ندرك أنه من الواضح البين أن ثَمّة تشابهاً ظاهرياً بين الآية، والمعنى المُقتَبس، وندرك قولهعليه السلام:(اصبِروا لها)بدلاً من(اصبِروا عليها)، فالأيام متحركة، وليست ثابتة، فلا يَصحّ التَصَبُّر عليها، بل لها ، لنكون معها في دورة الزمن بِمرضاة الله، وحتّى لا نكون في غَفلة وتشاغل حينئذ نرخِص لأنفسنا، فتقودنا – تذهب بنا – إلى َمسالك الضَلال .

وقولهعليه السلام:(ولا تُداهنوا فيهجم بكم الادهانُ على المُصيبَة) يرتبط بعلاقة تناص

---

(١) نهج البلاغة، خ، (٨٢)، ج١/ ١٤٨.
(٢) الكهف/ ٢٨ .

مع قوله تعالى:﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾[1]فالأمر بتركه مأخوذ من قوله تعالى آنف الذكر ، والمُداهنة؛هي النفاق ، والمصانعة ، وهو باب من أبواب المعصية المنهي عنه، فجاء تعبيره بالمجاز عبر استعارة مكنية تظهر المداهنة إلى حَيِّز الوجود المادي ، من خلال فعلها (تَهجم بِكم) وأراد به الإمامعليه السلام ، (تدفعكم دفعاً) عنوة ، نحو المعصية .

وقالعليه السلام متحدثاً عن رسول اللهصلى الله عليه وآله : ((فَبعثَ مُحمداً صلى الله عليه وآله بالحَقِّ، لِيُخرجَ عِبادَه من عِبادةِ الأوثانِ إلى عِبادتِهِ ، ومِن طاعةِ الشَّيطانِ إلى طاعَتِه ، بقرآنٍ قَد بَيَّنَهُ وأَحكَمهُ لِيعلَم العِبادُ رَبَّهم إذ جَهَلوه ، ولِيُقِرّوا به بَعد إذ جَحَدوه، ولِيُثبِتوه بَعد إذ أنكَرُوه ، فَتَجلّى لَهم سُبحانه في كتابهِ مِن غَيرِ أن يَكونُوا رَأوه، بِما أراهُم مِن قُدرتِهِ، وخَوّفَهُم مِن سَطوتِه، وكيف مَحَق مَن مَحَق بالمَثُلاتِ، واحتَصَدَ مَن احتَصَد بالنقِماتِ))[2]، في النصّ مُعادلتان تقودان إلى قوله تعالى:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[3]، الغاية من مَبعث الرسول المصطفى إخراج الناس من ظلمات الجاهلية ، وعِبادة الأوثان، إلى نور الإسلام وعِبادة الرَّحمن ، وتلك معادلة بين (الظلمات والنور)، و(الجاهلية والإسلام) ، و(الشيطان والرحمن) ، إنّ معرفة الله تعني الدخول في طاعته، وجحوده يعني الخروج منها والدخول في ساحةِ الشَّيطان

وقولهعليه السلام:(فتجلّى لهم سبحانه في كتابهِ من غير أن يكونوا رأوه بما أراهُم من قدرتِه)وهذه إشارة تناصِّية تُحيل إلى قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[4].

وخَوّفهم من سطوته بالآيات الزاجرات، وبِما أراهُم مِن مَحق الكافرين وديارهم

---

(١) القلم/ ٩.

(٢)نهج البلاغة، خ(١٤٢)، ج٢/ ٤٠-٤١ .

(٣)إبراهيم/ ١ .

(٤) فصلت/ ٥٣ .

بالعقوباتِ، وأراد بالمَثُلاتِ:العُقوبات[1]، ربطت الآية بين ما تقدّم عليها، وما تأخَّر، ربطاً فنياً حين ألقَت إضاءاتها على النص، لتصبح العلاقةُ بين مفردات النصِّ، والتوجّه بها إلى معنى واحد هو بَيان عَظمةِ دور الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

" وتَتَنامى الفكرةُ في ذهن قائلها ثم يَتفنَّن صاحبُها في وسيلة إعلانها إلى الناس، وبقدر ما يُوافق بين مَدلولِ الفكرة، ومستوى المتلقي، تكون الفكرةُ واضحةً مقبولةً، وبخلاف ذلك تكون غامضةً، وغير مُفيدة"[2]، من هنا ندرك استِعانةَ المبدع بوسائل شَتّى لتُسَهِّل له إيصال، ما يُريد إلى المتلقين، وهذا ما فَعله الإمامُ عليه السلام بالاقتباساتِ غير المباشرة لآيٍ مِن القرآنِ الكَريم .

وفي خِطبةٍ له قال:((أمرُهُ قَضاءٌ وحِكمةٌ ، ورِضاهُ أمانٌ ورحمةٌ، يَقضي بعلم ، ويَعفو بِحلم، اللّهم لكَ الحمدِ على ما تأخذ، وتَعطي ، وعَلى ما تُعافي وتَبتلي ؛ حَمداً يكونَ أرضى الحمدَ لكَ ، وأحَبَّ الحمدِ إليك ، وأفضلَ الحمدِ عِندك ، حَمداً يَملأ ما خَلقتَ ، ويبلُغ ما أردت ؛ حَمداً لا يُحجَبُ عَنك ، ولا يقصُرُ دونَك ، حَمداً لا ينقَطِعُ عَددُه، ولا يَفنى مَدَدُه ، فَلسنا نعلمُ كُنهَ عَظمتِك ، إلّا أنّا نعلمُ أنَّكَ حيٌّ قَيُّومٌ ، لا تأخُذُك سِنَةٌ ولا نَومٌ ، لم يَنتَهِ إليكَ نظَرٌ ، ولم يُدركُكَ بَصَرٌ، أدركتَ الأبصارَ ، وأحصَيتَ الأعمارَ ، وأخذتَ بالنَّواصي والأقدام..))[3].

بِلباسٍ بديعيٍّ مُتنوع، خرج النصُّ زاخراً بالاقتباسات القرآنية، قد يكون من اليسير إحالةً بعضها إلى مَرجعياتِها في الاقتباس أحياناً، ومِن العسيرِ في غيرها أحياناً أخرى .

عند قراءة النص يَتذكّرُ المتلقي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا

(١) شرح ابن أبى الحديد، ج٩/ ١٤٧، وينظر:شرح محمد عبدة، ج٢/ ٤١

(٢) من الأدب والبيان، د. محمد بركات، حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٤م، ص: ٢٥.

(٣) نهج البلاغة، خ٢(١٥٥)ج١/ ٧٠-٧١ .

تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾[3]، و﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾[4].

يُدرك المتلقي عند قراءة الآيات، أنَّها تتكلم عن قدرة الله، وصفاتِه بصيغةِ الغائبِ:(هو الحيُّ)، (لا تأخذهُ)، (لا تُدركُه)، إلّا قوله تعالى:(أحصَيناهُ) و(أخذ بالنَّواصي) في حين يأتي النصُّ بصيغةِ المخاطب (إنَّك حيّ قيُّوم) ، (لا تأخذك سِنَةٌ ولا نَوم) ، (لم ينتهِ إليك نظرٌ) ، (لم يدركك بصرٌ) ، (أدركتَ الأبصارَ) ، (أحصيتَ الأعمالَ)، (أخذت بالنَّواصي والأقدام).

لعلّ السبب يَعود إلى افتتاح الخطبة بالدعاء، والثناء، وألذي يَتطلَّب خِطاباً مباشراً مع الله جلّ علاه، ليس الكلام(عَن الله) كما في الآيات، أنَّه كلام (مَع الله) ما جعل تلك الاقتباسات مُنسجمةً مَعنوياً، وسياقياً مع النصّ، لقوله عليه السلام : (لكَ الحمدُ، أرضى الحمدُ لك ، الحمدُ إليك ، الحمدُ عندك ، ما أردتَ ، يُحجب عنك ، دونَك ، عظمتك، ...) .

ويَحسّ المتلقي بالالتفات مِن (الغَيبةِ) : (أمرُه قضاء) إلى الحاضر:(اللّهم لكَ)، والذي تمثل بالدعاء المباشر.، بشوقٍ دفع الإمامعليه السلام للعدولِ من الحديث عن الله إلى الحديث معه .

---

(١) البقرة/ ٢٥٥ .

(٢) الأنعام/ ١٠٣.

(٣) يس/ ١٢ .

(٤) الرحمن/ ٤١ .

وقوله:(وأخذت بالنواصي والأقدام) إشارة منه عليه السلام إلى بيان فضل الله ، ورحمته، وعنايته بسائر مخلوقاته ، فهو جلّ عُلاه آخذٌ بنواصي الجميع*.

لقد نجح الإمام عليه السلام في جمع الآيات في نسيج فنّي دالٍّ أخّاذٍ، بموسيقاه ، مِمّا يَترك الأثر في نفس المتلقي بجوّ عرفاني، مع ما في النّص من وَمَضاتٍ فكريةٍ تلوح في قوله عليه السلام:(لم يَنته إليكَ نظرٌ، ولم يُدركك بَصرٌ) من قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1]، إلّا أنه عليه السلام قدم(عدم درك الأبصار) له على(درك الله الأبصار) كما في الآية، وأورد المعنى الأول في صيغتين مترادفتين دلالة على التوكيد فيما يبدو .

وكذلك الأمرُ في خطبة له عليه السلام في الكوفة، وهو قائم على حجارة نصَبها له(جعدة بن هبيرة) المخزومي ، وحمائل سيفِه ليف وفي رجليه نَعلان مِن ليفٍ ، وكأنَّ جبينَه ثَفنَة بَعيرٍ ، ومِمّا جاء فيها بعد حمد الله، والثَّناء عليه:((لَم يُولَد سُبحانه فَيكون في العِزّ مُشارَكاً، ولَم يَلِد فَيكُون مُورثاً هالِكاً ، ولم يَتقدَّمهُ وقتٌ ولا زَمانٌ ، ولَم يَتعاوَره زِيادَةٌ، لا نُقصان، بَل ظَهر للعُقولِ بِما أرَانا مِن علاماتِ التَدبيرِ المُتقَن ، والقَضاءِ المُبرَم ، ومِن شَواهدِ خلَقة خَلقُ السَمواتِ مُوطَّداتٍ بَلا عَمَدٍ ، قائماتٍ بَلا سَنَدٍ دَعاهُنّ فأَجَبنَ طائعاتٍ ، مُذعِناتٍ، غَير مُتَلكّئاتٍ ، ولا مُبطِئاتٍ، ولولا إقرارُهُنَّ لَهُ بالربوبيَّةِ وإذعانُهُنَّ بالطَّواعِيَّة، لِما جَعَلهُنَّ مَوضِعاً لِعَرشِه ، ولامَسكَناً لِمَلائكَتِهِ ولا مَصعَداً لِلكَلِم الطَّيّبِ ، والعَملِ الصالِحِ مِن خلَقِه))[2] .

وكما في النص السابق، إذ بِمُجرد الانتهاء مِن قراءة النصِّ أو سَماعه تَتَراءى للمُتلقّي الآيات المُبارَكات التي استقى منها الإمام عليه السلام اقتباساته كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) الأنعام/ ١٠٣ .
(٢) نهج البلاغة، خ(١٧٧)، ج ٢/ ١٢٥_١٢٦ .
(٣) الإخلاص/ ٣ .

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٖ كَرِيمٍ ﴾(١)، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهٗا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ جاء بها الإمام عليه السلام ليصل إلى نتيجتين هما؛إنَّ اللهَ لم يُولَد، لذلك لم يشاركه بالعِزِّ أحدٌ، إذ لم يسبقه بالوجود أحدٌ، وإنَّه جلَّ عُلاه لم يَلِد، لذلك لم يكن مَورُوثاً من قِبَل مَن وَلَد.

وهاتان حقيقتان تقودان إلى نتيجتين هما، إنَّ الله لم يُسبق بالوجود وإنَّه ليس بهالكٍ، لذا أعقَب كلامَه بقوله:(ولم يَتقدّمه وقتٌ ولا زمانٌ ولم يَتعاوَرهُ زيادةٌ ولا نقصان).

وقوله عليه السلام: (بل ظَهر للعُقولِ بما أرانا مِن عَلامات التَّدبيرِ المُتقَن) فيه إشارة خَفيَّةً إلى معنى قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴾(٤).

ويجري التغييرُ أحياناً في صِيغة الجمع إلى المفرد، أو العكس بحَسَب مُقتضى الحال، كقوله عليه السلام:(وإذا حُيِّيت بتحية فَحيِّ بأحسنَ منها، وإذا أُسديَت اليك يَدٌ فكافئها بما يُربي عليها ، والفَضلُ مع ذلك للبادي)(٥)، الآية المباركة بصيغة الجمع: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾(٦)، ولأن الكلام مُوجَّهٌ لابنه الحسن عليه السلام أجرى الآية – بعد اقتباسها – بصيغة المفرد، لتنسجم مع سياق المقال .

وتتشظّى عملية الاقتباس إلى أجزاء متناثرة، يقود جمعُها إلى الجذر القرآني الذي

(١) لقمان/ ١٠ .

(٢) فصلت/ ١١ .

(٣) فاطر/ ١٠ .

(٤) فصلت/ ٥٣ .

(٥) نهج البلاغة، حكمة(٦٠) ج٣/ ٦٢ .

(٦) النساء/ ٨٦.

انبثقت منها، كما في قوله عليه السلام في وصيَّةٍ له لابنه الحسن عليه السلام بعد انصرافه من صِفِّين:((... واعلم انّك إنّما خُلقتَ للآخرةِ لا للدنيا، وللفَناء لا للبَقاء، وللمَوتِ لا للحَياة، وإنّك في مَنزلِ قُلعَة، ودارِ بلغَة، وطَريقٍ إلى الآخرَة، وانَّكَ طَريدُ الموتِ الَّذي لا يَنجو هاربُه، ولا يفوتُه طالبُه، ولا بُدَّ أنّهُ مُدركُه، فَكُن مِنهُ على حَذَرٍ إن يُدرِكَكَ وأنتَ على حالٍ سَيِّئةٍ، قد كُنتَ تُحدِّث نَفسَك مِنها بالتَّوبةِ، فيحولُ بينَك، وبَينَ ذلك فإذا أنتَ قَد أهلَكتَ نفسَك))[1].

قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[2]، توزع في قوله عليه السلام: (وإنَّكَ طَريدُ الموت ﷺ لا يَنجُو هاربُهُ ﷺ لا يَفوتُهُ طالبُه) ، لأنَّه مُدرِكُه، والضَّمير (الهاء) يعود إلى الموت في(هاربه، طالبه، إنَّه) ، ومجموع هذا كله يُوصل إلى (يُدرككم الموتُ) ، وهي جميعها مُتفرِّعة من الكلمة القرآنية (يُدرككم) ، لانَّ كلمة (يُدرك) تتضمّن (يُطارِد) ومن ثم لا ينجو هاربُه، ولا يفوته طالبُه ، ولا بُدّ أنّه مُدرِكُه .

ونجد أصداء قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4]، في قوله عليه السلام لعبد الله بن عباس:((أمَّا بعد، فإنَّك لستَ بسابقٍ أجلَك، ولا مَرزوقٍ ما ليسَ لك، واعلم بأنَّ الدهرَ يَومان:يومٌ لك، ويومٌ عَليك، وأنَّ الدنيا دارُ دُوَل، فَما كان منها لكَ أتاكَ على ضَعفِك، وما كان منها عَليكَ لم تَدفعه بِقوَّتِك))[5].

---

(١) نهج البلاغة، (٣١) ج٣/ ٥٤-٥٥ .

(٢) النساء/ ٧٨.

(٣) الأعراف/ ٣٤.

(٤) آل عمران/ ١٤٠.

(٥) نهج البلاغة، ك(٧٢)، ج٣/ ١٤٦.

(وتلكَ الأيَّامُ نداولها بَينَ النَّاس) تعبيرٌ قرآنيٌّ، والتعبير المقابل لها بَعد الاقتباس(وأنَّ الدنيا دارُ دُوَل)يُلاحظ فارق بينهما هو(الأيام)التي حَلّ مَحلّها(الدنيا) ولا فارق بين المعنى في ذِهنِ السَّامع، وإن كان التعبيرُ القرآني لا يَرقى إليهِ أيُّ كَلامٍ .

خامساً :اقتِباس الجملَة ألقرآنِيَّة غَيرِ المُباشِر البَعيد(المعنوي) .

يتفرّد الاقتباس في هذا النوع بخِصِّيصة التَّعالق المعنوي بين النصّ القرآني، والنصّ النهجي، فيصبح من العَسير على المتلقي أن يَفصل بينهما، أو الرجوع إلى المَورد القرآني الذي استَقى منه الإمام، فيغدو غائِباً في شَكله، حاضراً في معناه.

وهو بمِثابة استجلابات لمعاني النصوص بصورة مقصودة أو غير مقصودة ، وهو تأثر بالمَحفوظ القرآني ، ويأخذ بُعداً يتجاوز فيه الاقتباس الإشاري لأنَّ (الاقتباسَ الإشاري) ما أشار إليه الشاعر[أو الناثر] ، من الآيات مِن غَير أن يلتزم بلفظها وتركيبها ، أو هو ممّا عُرف فيه أنَّ الشاعَر[أو الناثر] يُشير إلى آيةٍ من الآيات القرآنية[1]، أما المعنوي فيذهب إلى أبعد من ذلك ويتعلق بالمعنى فقط

وعُرف هذا اللون من الاقتباس ، وأُفرِدَت له مُصنَّفات عند كِبار العلماء ومنذ عَهد مُبكر[2]، ولمّا جوَّز بعضُ البلاغيين التغيير في المُقتَبس أو نَقلهِ عَن معناه الوارد فيه[3]، عُدّ هذا اللون من الاقتباس مِصداقاً مِن مَصاديق الاقتباس ، ويَلِجُ هذا النوع في النصوص بسهولة، ويسر، غير أنَّه يَعكس صعوبة الإمساك به في أحايينَ كثيرة،

(١) معجم آيات الاقتباس، ص : ١٩ .

(٢) ينظر:معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة(اقتباس) . ويُعدّ كتاب " ألاقتباس من ألقرآن ألكريم " للثعالبي ، مِن أقدم المصنفات التي أفرِدَت لهذا النوع من الاقتباس.ومن المؤلفات الحديثة نجد أنّ الباحث أحمد غنيم تناول في جانب من دراسة – عناصر الإبداع الفني في شعرأحمد مطر – هذا اللون من الاقتباس وخَصَّصَ لهُ مساحةً ملحوظَةً . ينظر:عناصر الإبداع الفنّي في شعر أحمد مطر، كمال احمد غنيم ، مطبعة ستارة ، قم ، ٢٠٠٤م

(٣) جوّز ابنُ الأثير أخذ معنى والحديث النبوي الشريف والخبر، فيُكسى لفظاً غَير لَفظِهِ، ينظر:المثل السائر، ج١/ ٢٢٢-٢٤٢ .

نتيجة ذَوبانِه في بنية النَّص، وإن كانت بمثابة مَنارات مُضيئة وكاشفة عن معاني النص، ودلالاته

نصوص(النهج) كثيراً ما استضافت المعاني القرآنية، وكثيراً ما نجد النصوص(النهجية) تدور في فلك تلك المعاني، أو تكون هي محوراً لها، فللقرآن امتداداته المعنوية الكثيرة في كلام الإمام عليه السلام، ممّا يجعل الإحاطة بها أمراً عسيراً فيضطر الباحثون إلى الإشارة لما تيسر من نماذجه .

ومن نماذج هذا اللون من الاقتباس، قوله عليه السلام في إحدى خطبه:((ولَم يُخلِ سُبحانَه خَلقَه مِن نَبي مُرسَل، أو كِتاب مُنزَل، أو حُجَّةٍ لازمَة، أو مَحَجَّةٍ قائمَة:رُسُلٌ لا تُقَصِّر بِهم قِلّةَ عَدَدِهِم، ولا كَثرةَ المُكَذِّبينَ لَهُم، من سابق سُمِّيَ لَهُ مَن بَعدَهُ))[1]، إذ استوحى عليه السلام معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾[2]، والمعنى واضحٌ وجليٌّ، فالنبي المُرسَل هو النَّذيرُ كما في الآية المباركة، ويأتي بكتاب مُنزَل وحُجَّةٍ لازِمَة، ومَحَجّةٍ قائمَةٍ، وأولئك الأنبياء لا يُؤَثِّر بِهِم قلّة عَددهم، ولا كِثرة المُكَذِّبين لهم .

وقوله عليه السلام: (مِن سابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَن بَعدَهُ) تضمَّن معنى قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾[3]، وقد تكرّر ذِكر مَبعث الرسول المصطفى في كلام الإمام عليه السلام في نصوص النهج[4].

على ذلك سَلفت القرونُ، ومضَت الدهورُ، وسَلفَت الآباءُ، وخُلِقَت الأبناءُ إلى أن بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لإنجاز عِدَتِه، وتَمامِ نُبُوَّتِه، وهذا المعنى مَأخوذ من قوله

---

(١) نهج البلاغة، خ(١)ج١/ ١٨ – ١٩ .

(٢) فاطر/ ٢٤ .

(٣) الصف/ ٦ .

(٤) ينظر:خ (٣٢)ج/ ٧٧، خ(٨٥)ج/ ١٥٥، خ(٩١)ج/ ٨٦، خ(١٠١)ج/ ٢٠٠، خ(١٩١) ج/ ٩٥، خ(٢٠٨)ج٢/ ٢١٩ .

تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾[2]،

هذا النبي الذي يَعرف النبيون أمرَه، وسِماتِه، ونَسبَه، وأولئك الرسل والأنبياء أرسلهم اللهُ حتَّى لا تكون للناس على الله حجّة ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[3]، وفي ذلك دلالة على عَظيم عِناية اللهِ بالعباد، ورحمتِهِ بِهِم .

واستحضر معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ ﴾[4]، في خطبة له عليه السلام يصف فيها من يتصدى للحكم بين الأمة، وليس لذلك أهل فقال:((إنّ أبغضَ الخَلائقِ إلى اللهِ رَجلان: رجلٌ وكَلَهُ اللهُ إلى نفسه فهو جائرٌ عَن قَصدِ السَّبيل، مَشغوفٌ بكلام بِدعَةٍ، ودُعاءِ ضَلالَةٍ، فهو فِتنَةٌ لِمَن افتَتَنَ بِه، ضالٌّ عن هَدي مَن كان قَبلَه، مُضِلٌّ لِمَن اقتدى بِهِ في حَياتِه، وبعد وَفاتِهِ، حَمّال خَطايا غَيرِه، رَهنٌ بِخَطيئَتِهِ...))[5].

مَن وكَلَه اللهُ إلى نفسه: أي تَركه ونفسه[6]، خَرج مِن ساحةِ رَحمةِ الله فيصبح جائراً: (ضَالّ عادل عن الطريق)[7]، مَشغوفاً بكلام بِدعَة، مِن دعاة الضَّلال وفتنةً لِمَن اقتدى بِهِ، بَعدَ أن ضَلّ، وهَوى عَن هَدي مَن سَبقه سيكون مُضِلاً لمن اقتدى بِه، فيدخل في مصداق قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:((مَن سنّ سنَّةً حَسنَةً فَلهُ أجرُها وأجرُ مَن عَمِل بها إلى

(١) المائدة/ ١٩.

(٢) الأحزاب/ ٤٠ .

(٣) النساء/ ١٦٥ .

(٤) العنكبوت / ١٣ .

(٥) نهج البلاغة، خ(١٦)، ج/ ٤٧ .

(٦) شرح ابن أبي الحديد، ج١/ ٢٤٠ .

(٧) المكان نفسه .

يَوم القيامة، ومَن سَنّ سنّةً سَيِّئةً فَعليه وِزرُها وَوِزر مَن عَمِلَ بها إلى يَوم القِيامة))، لذلك فهو- هذا المُضِلّ- سيكون(حَمَّال)خَطايا غَيرِه، وصيغة المبالغة (فَعَّال) تدلّ على كثرة ما يحمله من ذنوب، باعتبار تزايد ما ستحمل من ذنوب الناس الذين ضَلّوا بِسَبَبِه، كما أنها- صيغة المبالغة – تحمل من التوكيد، كما في الآية حيث نجد «وليَحملَنَّ » المؤكدة بالنون الثقيلة .

وهذا المعنى يعودُ بنا إلى الآيةِ المشار إليها، والى قوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[1].

أعطت الآيةُ حقيقة هي أنَّ هؤلاء يَحملون أوزاراً فوق أوزارِهم، وكلامه عليه السلام أوصلنا إلى هذه الحقيقة، بعد أن بَيَّن مُقدَّمَتِها، فالإنسان إذا خَرجَ عَن طريقِ الهداية، واقتفى أثراً معوَجّاً، وتَبِعه بعضُ الناس، سيتحمَّل أوزارَهم .

وفي قوله عليه السلام:((إنَّ اللهَ بعثَ مُحمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم، وليس أحدٌ مِنَ العَرَبِ يَقرأُ كتاباً، ولا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فساقَ الناسَ حتَّى بَوّأهُم مَحِلَّتَهُم، وبَلَّغهُم مَنجاتَهم، فاستقامَت قَناتُهُم، واطمَأنّت صفاتُهُم، أما والله إن كِنتُ لفي ساقَتِها، حتَّى وَلّت بحذافيرِها، ما ضَعَفتُ ولا جَبنتُ، وان مَسِيري هذا لِمثلِها؛فلانقُبَنّ الباطلَ حتَّى يَخرُجَ الحقُّ مِن جَنبِه، مالي ولقريش، لقَد قاتلتَهُم كافِرين، ولأقاتِلَنّهُم مَفتُونِين))[2].

نجد معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3]، يطالعنا في مستهل النصّ الذي تكلم فيه عن بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم[4].

---

(١) النحل/ ٢٥

(٢) نهج البلاغة، خ (٣٢)ج١/ ٧٧ .

(٣) الجمعة/ ٢ .

(٤) وينظر أيضاً :نهج البلاغة، خ(١٤٠) ج/ ٣٦، خ(١٤٣) ج/ ٤٠، خ(١٥٣)ج٢/ ٦٩، (١٥٥) ج ٢/ ٧١، خ(١٥٦) ج/ ٧٧، خ(١٦٤) ج/ ٩٩ ، خ(١٦٨)ج/ ١٠٤، ك(٦٢) ج٣/ ١٣٠ .

وفي نهاية النصّ اقتبس معنى قوله:﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[1]، فضمنه قوله:(فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه)، صاغ المعنى القرآني في جملة فعلية، هَيمَنت فيها الأصواتُ الشَّديدةُ والقويةُ التي تُعبِّر عَن انفعالٍ شعوري، يعتصر قلبَ الإمامعليه السلام، ويَنمّ عن غَضَب وتصميم على دَحر الظلم، والانتصار للحق، وإخراجه مِن بطنِ الباطل الذَّي شَبَّهَهُ" بحيوان ابتلَعَ جوهراً ثمينا أعَزّ مِنه قيمةً وأتَمّ فايدةً فاحتِيج إلى شَقِّ بَطنِه في استخلاص ما ابتَلَع "[2].

ومن الواضح أنَّ ثَمّة سِمَةٍ استرجاعيةٍ في استعارة الإمامعليه السلامهذه تَمثَّلت في إعادة تَشكيل استعارات مُسبَقة في القرآن الكريم، في الآية المذكورة أنَّ الله قويٌ قادِرٌ فضرب الباطلَ بالحقِّ فزهق والإمامعليه السلامسعى جاهداً لإنقاذ الحق بقوله:(لأنقبنّ) وسياق كلام الإمامعليه السلاميُوحِي إلى ضياع الحقِّ وقيام الباطل، وفي هذا التعبير إشارة جليّة لما عليه الناس مِن فِتَن واضطراب حتَّى أنّهم لم يعودوا قادرين على رؤية الحق وأتباعه، مِمّا اضطر الإمامعليه السلامإلى إخراجه وإظهاره إلى الناس ليلقي الحجةَ عليهم .

نحن إذن أمام استعارة "تناصّية" لارتباطها بالاستعارة القرآنية، تصوير استعاري يُدهِش المتلقي ويستوقفه طويلا، ويَمنحه المقدرة على تَخَيّل صُوَرٍ يَكاد يَراها، إنَّه تصويرٌ نابضٌ بالدلالة، حين جسّم ما خَفِي ودَقّ، وأخرجه إلى عالم الوجود، وحَوَّل المعنى الذهني إلى مُدرَكٍ مادّي[3].

حَمل التصويرُ الاستعاري دلالاتٍ عِديدة، منها إظهار الباطل بصورة حيوانية،

---

(١) الأنبياء/ ١٨ .

(٢) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٢٦٦ .

(٣) ولهعليه السلام تصوير استعاري آخر جسم فيه الباطل، وهو قوله:((الدافع جيشاتِ الباطل))وقوله((ولقد ضَربتُ أنفَ هذا الأمر وعَينَه))، ينظر:نهج البلاغة، خ(٤٩)ج١/ ٩٥، خ(٦٦)ج٣/ ١٣٩.ويرى صاحب(شرح نهج البلاغة)إنها كناية " أراد بهاعليه السلامأنه سيقاتل أهل الباطل حتى يهتدوا إلى ما هو عليه من الحق وبذلك يموت الباطل، ويتخلص الحق مما يشوبه من هذا الباطل". شرح نهج البلاغة، السيد عباس علي الموسوي، بيروت، دار الرسول، والمحجة البيضاء، ١٤١٨هـ، ج٢/ ١٨٦

وأخرى تُظهر قيمة الحق عند الإمام عليه السلام فاستدعى ذلك خَوض غِمار الحرب من أجله، وثالثة تُبيِّن المشقة والمعاناة التي واجهها الإمام عليه السلام في إخراجه، وإقراره وتثبيته، ورابعة تُظهِر علو الباطل، وطغيانه، واستِتار الحق للدلالة على كثرة الفتن التي واجهها الإمام عليه السلام آنذاك[1] مع قريش، بدليل قوله عليه السلام:(مالي ولقريش)، وهو استفهام على سبيل الإنكار لما بَينه وبينهم مِمّا يُوجِب الاختلاف ، وجحد فضيلته، وحَسم لأعذارهم في حَربِه[2].

أراد القول إنَّ الباطلَ امتزجَ مع الحقّ ، فاستَتَرَ وضاع ، وهنا تكون الشُّبهة، عند التباس الحَقِّ بالباطِل تختلط الأمور على الناس ، وينخدعوا بكلِّ ناعِقٍ وضلّيل ، حين يختلط الحقُ بالباطِل يسهل خداع الناس ، مِمّا دعا الإمام عليه السلام إلى التنبيه على هذا الأمر مراراً في كلامه[3]، وأكّد هذا الأمر بقوله: (وإنَّما سُمِّيَت الشّبهة شُبهة لأنَّها تَشبَه الحَق)[4].

وله عليه السلام قولٌ آخر ضَمّنه معنىً قرآنياً، فنلمح فيه صَداه، حيث قال:((فما يَنجو مِنَ الموتِ مَن خافَه، ولا يُعطى البقاءُ مَن أحَبّه))[5]، حملت هذا المعنى عِدّة آيات مباركات كقوله تعالى: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ**

---

(١) في قوله عليه السلام :((فقأتُ عينَ الفتنَة))، يرى التستري في تفسيره إنها فِتنة الجمل، وصِفِّين والنهروان، ويرى الراوندي إنَّها استعارة لفتنة الجَمَل، ويرى السيد حسين الشيرازي إنها استعارة أراد بها فِتنَةَ الخَوارِج. ينظر: بهج الصباغة، للتستري، ج٥/ ٣٧٢ . وينظر: منهاج البراعة، للراوندي ، ج٢/ ٤٢٤ . وينظر:توضيح نهج البلاغة، حسين الشيرازي، دار تراث الشيعة، طهران ، (د.ت) ، ج٢/ ٩٤.

(٢) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٢٦٦ .

(٣) قال عليه السلام:((فلو أنّ الباطلَ خَلُصَ على مزاج الحقّ لم يُخف عَلى المُرتادِين ...)) . ينظر:نهج البلاغة، خ(٤٩)، ج/ ٩٥ .

(٤) ينظر: نهج البلاغة، خ(٣٧)ج١/ ٨٥ .

(٥) المكان نفسه .

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2]، كل امريء لاقٍ ما يفرّ منه في فِرارِه، والأجل مساق النفس، والهرب منه موافاته[3]، والأجل جنّة حصينة[4]، هكذا هي فلسفة الموت عند علي عليه السلام لا الخوفَ يُنجي منه ولا التقرُّب إليه يَمنَح البقاء، فالهروب منهُ هو هُروبٌ إليه، لا بروج تمنعهُ، ولا حصون، ويتسلَّل إليهم دون مانعٍ له إلاّ الأجَل، وهو مَنعٌ إلى حِين .

تَصدّرت النصُّ جملتان منفيتان : (ما يَنجُ) ، (لا يُعطى) ، فأصبحتا جملتين منفيتين، تَوحّد فيهما السجعُ، والطباقُ في المفردتين:(خافَه)و(أحَبّه)، فنتج عن ذلك التوحّد، والتلازم تَمام المعنى، والتناغم الصوتي ، ووَفَّر متعةً مُضاعَفَةً تمثّلت في وُضوح المعنى ، وسَلامة العبارة .

ولا تخفي الصلةُ بينَ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[6] من جهة، وقوله:((الحمدُ للهِ الذَّي لا يَفِرُهُ المنعُ والجمود، ولا يكدِيه الإعطاءُ والجودُ إذ كلُّ مُعطٍ مُنتَقَص سواه، وكلُّ مانعٍ مَذموم ما خَلاه، وهو المَنّان بفَوائِدِ النِّعَم، وعَوائِدِ المزيدِ والقِسَم، عِيالُهُ الخَلق، ضَمِنَ أرزاقَهُم، وقدّر أقواتهم، ونَهجَ سَبيَل الرَّاغبين إليهِ، والطَّالِبينَ ما لَدَيه))[7].

---

(١) النساء/ ٧٨ .

(٢) الأعراف/ ٣٤ .

(٣) ينظر:نهج البلاغة، خ(١٤٥)، ج٢/ ٤٥ .

(٤) ينظر:نهج البلاغة، خ(١٢٠)، ج٢/ ٥ -٦ .

(٥) النحل/ ٩٦ .

(٦) هود/ ٦ .

(٧) نهج البلاغة، خ(٨٧)، ج/ ١٥٩ .

(لا يفرُهُ المَنعُ):لا يزيد في مالِهِ المَنعُ[١]، (ولا يُكدِيه الإعطاءُ):لا يفقره ولا ينفد خَزائِنُهُ[٢]، و (كلّ مَعطٍ مُنتَقِصٌ سِواه)، و(كلّ مانع مَذموم ما خَلاه)، (سواه، ماخلاه) أداتان استثنائيتان مُتَّصِلتان بالضَّميرِ العائد لله جَلَّ ذكرُه" والجملة عِلَّةٌ لقوله(لا يفرُهُ المنعُ):أي ليس منعه بُخلاً فيستحق الذمّ، بَل حكمة فيستحق الحمد أيضاً لأنَّه مَنَع ظاهِرا، وأعطى في الحقيقة والمعنى «ولو بَسَط الله الرِّزقَ لِعبادِه لبَغوا في الأرض ولكن ينزل بِقَدر ما يشاء إنَّه بِعبادِه خَبيرٌ بَصيرٌ »[٣].

والخبر(المنّان) صيغة مُبالغة للدلالة على كثرة المَنّ على العباد، مع كثرة عطائه لعباده لا يفتقر ولا تَنقُص خزائِنُه «وما عندكم يَنفَد وما عِند الله باق» ، تَتَجلّى عظمة خزائن الله، بعدم نفادِها مع كلِّ هذا المَنّ والعَطاءِ والجودِ للخلائقِ، والكائنات مع كثرة عِياله «وما مِن دابّة في الأرض إلّا عَلى الله رزقها، ويَعلم مُستقرّها، ومُستودعها كلٌّ في كِتابٍ مُبين».

ويَرى ابنُ أبي الحديد أن قوله عليه السلام:((اللهم أيّما عبدٍ مِن عبادِك سمع مَقالَتِنا العادِلة غَير الجائِرة، والمُصلِحة غَير المُفسِدة في الدين والدنيا، فأبى بَعدَ سمعِهِ لها إلاّ النكوص عَن نِصرتِك والإبطاءِ عَن إعزاز دينك، فإنَّا نَستشهدُك عَليه يا أكثر الشاهِدين شَهادةً، ونستشهد عليه جَميع مَن أسكَنتَهُ أرضَك وسمواتِك ثم أنت بَعده المُغنِي عَن نَصرِه، والآخذ لَهُ بذَنبِه...))[٤].

قريب من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج٦/ ١١٧ . وينظر: منهاج البراعة، للخوئي، ج٦/ ٢٨٨.وينظر:في ظلال نهج البلاغة، ج٢/ ٦.

(٢) المكان نفسه .وفي رواية (الراوندي):((لا يضرُّه المنعُ)). منهاج البراعة، للراوندي ، ج١/ ٣٧٨.

(٣) بهج الصباغة، التستري، ج١/ ٢٠١ -٢٠٢ .

(٤) نهج البلاغة، خ(٢٠٧)ج٢/ ٢١٩ .

[1]، قال عليه السلام: ((ثم أنت بعده المغني عن نصره))[2]، والأظهر من ذلك الصلة بين قوله تعالـى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[3]، وقوله عليه السلام: (إنّا نستشهدك عليه يا أكبر الشاهدين شهادةً) .

لقد تَمظهر النصّ بأسلوبِ الدعاء الإنشائي المُطلّ على المتلقي بالدعاء(اللهم)، وبه يدعو الإمامعليه السلامبالاستغناء عَن نصرة كلّ من سمع مقالة أهل البيتعليهم السلام، وأبى إلاّ النكوص: التأخر[4]، واستشهد على ذلك ربَّ العالمين، وهو أكبرَ الشاهدين، وأشهَد جميعَ ما أسكَنَهُ اللهُ الأرضَ والسماواتِ .

إنَّ استحضار الاسم الموصول «ما» (جميع ما أسكنته) للدلالة على شمول جميع خلق الله من كائنات حَيّة وجمادات بالشهادة، ولو قال(مَن أسكَنتَه)لاستوجَبَ ذلك تَخصِيص العاقل دونَ سِواه، أراد الإمامعليه السلامالعموم مِن خلال اسم الموصول (ما) لتكون الشهادةُ عامّةً كبيرة.

وعَكس معنى قوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[5] في قولهعليه السلام: ((أرسَلَه بالضّياءِ، وقَدّمهُ في الاصطفاءِ، فرَتَقَ بهِ المفاتِق، وساوَرَ بِهِ المغالب، وذَلّل بهِ الصعوبة، وسَهَّل بِهِ الحُزُونة، حتَّى سَرَّحَ الضلالَ عن يَمينٍ وشمالٍ))[6].

(أرسلَهُ، وقدَّمه، ورتَقَ بِهِ، وساورَ بهِ، وذلَّلَ بهِ، وسهَّل بهِ)الضمير فيها يعود إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومع ما رافقها من سَجع شكَّلت مقاطع صوتية متناغمة أضفت بُعداً

---

(١) محمد/ ٣٨ .
(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج/ ٢١٩ .
(٣) الأنعام/ ١٩ .
(٤) شرح ابن أبي الحديد، ج١١/ ٤٨ .
(٥) إبراهيم/ ١ .
(٦) نهج البلاغة، خ (٢٠٨)ج٢/ ٢٢٠ .

موسيقياً على النص .

أرسله بالضِّياء:أي القرآن، وهو تعبيرٌ استعاريٌّ قرآنيٌّ جلي، والاصطفاء هو الاختيار[١]، حيث كان الرسول مُقدَّماً على الأنبياء حتَّى صار المُصطَفى عَلَـماً لَهُ[٢][٤]، و(قدّمه بالاصطفاء)يعود بنا إلى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [٣]، مع أن الآية جاءت حديثاً مباشراً مع الرسول ﷺ وكلام الإمام عليه السلام ورد بصيغةِ الحديث عن الماضي، وانصراف المضارع إلى الماضي لغرضِ استحضار سيرةٍ أخلاقيَّةٍ، وتربويةٍ ليَقتدِي بها المُتلقِّي .

وتَتابَعت الصُورُ البيانية في النص، (رتق به المفاتق) استعارة تعني: أصلَحَ بهِ المَفاسِد[٤]، في الجملة استعارتان مُتلاصِقتان تمثلتا في(رَتقَ) وهي استعارة للفعل أصلَح بجامع (النَّفع)، وفي(المَفاتِق) وهي استعارة للمفاسِد بجامع (التَلَف)، وكذلك الحال في(ساورَ بهِ المَغالِب)أي: واثَبَ به الصِّعاب[٥].

وقوله عليه السلام:(وسهَّل بهِ الحُزُونةِ) وَصفٌ استعاريٌّ رفد بهِ النصّ ، فالحزن ما غلظَ من الأرضِ، والسَّهل: ما لانَ منها، واستُعيرَ لغيرِ الأرضِ كالأخلاقِ ونحوِها[٦].

حتَّى سرّحَ بهِ الضَلال:أي طَردَهُ وأسرعَ بهِ ذهاباً[٧]، وعزّزت هذه الاستعارةُ قوله:(أرسله بالضِّياء)، فأرسله بالضِّياء مُقدمة لطرد الضّلال، فيصبح المعنى أكثر رسوخا في نفس المتلقي، لأنَّ النفس آنس بما هو مُدرَك بالحَواس وبِنورِ الكتاب الساطع تَفَّرق الضّلالُ ، وانهزمَ عن يمينٍ وشمالٍ في صورةٍ استعارية مُتحرِّكةٍ .

---

(١) بهج الصباغة، التستري، ج٢/ ٢٥٧ .
(٢) المكان نفسه.
(٣) الحج/ ٧٥ .
(٤) شرح ابن أبي الحديد، ج١١/ ٥١ .
(٥)المكان نفسه .
(٦) المكان نفسه .
(٧) المكان نفسه .

أثر النص الغائب في ثنايا نصِّ الإمام عليه السلام واضح جليّ، استطاع الإمام عليه السلام تذويبه في نصّه إلى الحدِّ الذي لا يستطيع المتلقي فَصلَه عن كلامِ الإمام عليه السلام فأصبح نسيجاً مغايراً جديداً مُتعدِّد الدلالات .

إنّ إرسال المصطفى بالضياء- الإسلام- ترتّب عليه أثر خاص هو ذهاب ما يقابله من الظلام، وهو الكفر، فتصبّ عبارة(أرسله بالضياء)مُنطوية على دلالة عميقةٍ، انّه ليس إرسال فقط، بل ذهاب نقيضه.

وقال عليه السلام في وصية له لقادة جنده:((.. فإن عادوا إلى ظِلّ الطاعَةِ ، فذاك الذي نُحبُّ، وإن توافت الأمورُ بالقوم إلى الشّقاقِ والعِصيان، فانهَد بمَن طاعَك إلى مَن عصاك، واستَغنِ بمَن انقادَ مَعَك عَمّن تقاعسَ عَنك، فإنَّ المُتكارِهَ مغيبُهُ خيرٌ مِن مَشهدِهِ، وقُعُودُهُ أغنى مِن نهوضِهِ))[1].

وبالعَودِ إلى قوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]نجد معناها في قوله عليه السلام:(فإن المُتكارِه مَغيبُهُ خيرٌ من مَشهدِهِ وقعودُه أغنى عن نهوضِه) .

إنَّ التقاربَ واضحٌ وجليّ بينَ النصِّ القرآني ونصِّ الإمام عليه السلام مِن حيث المعنى مِن خلال التناص، غير أنَّ التغاير بينهما بالصِّيَغ؛ الآية بصيغة الجمع وكلامُ الإمام عليه السلام بصيغةِ المفرد (مَغيبهُ، مَشهدهُ، قعودهُ نهوضه) وبجملٍ خبريَّةٍ مُؤكّدة، واشتركا بالجانب الوَعظي.

ومِمّا جاء في وصيته لابنه الإمام الحَسَن عليهما السلام:((ما أقبحَ الخُضُوع عِندَ الحاجَةِ ، والجفاء عندَ الغِنَى)) [3].

وندرك أنَّ ثَمَّة ارتباطاً معنوياً لهذا الكلام بقوله تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ

---

(١) نهج البلاغة، ك(٤)ج٣/ ٦ -٧ .

(٢) التوبة/ ٤٧ .

(٣) نهج البلاغة، ك(٣١)ج٣/ ٦١ .

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[1]، وبآيات أُخر تحمل المعنى نفسه[2].

النصّ في معرض الحديث عن الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند انتهائها، وإذا كان هذا الأمر قبيحا بين العباد وعلاقتهم ببعضهم، فهو أشدّ قبحاً في علاقتهم معَ الله، الذي تَجب طاعته والإقرار بفضلِه في السَّراءِ والضَّراءِ، وعند الوقوف عند معاني الآيات المباركات نصِل إلى هذه الصفة من صفات المنافقين، وعَبَّر الإمامُ عليه السلام عنه بأساليب متنوعة[3]، وإذا رفعنا الذم(ما أقبح)نجد فنَّين بديعيَّن تمثّلا في الموازنةِ في الجملتين: (الخضوع عِند الحاجَة=الجفاء عِند الغِنى)والطباق الظاهر في المفردات (خضوع، جفاء)، (حاجة، غنى)، ويكاد حرف العين في(أقبح، حاجة عند) يُفصح عن الألمِ واللوعةِ والحرقةِ التي تَعترِي صَدرَ الإمام.

وقال عليه السلام:((إذا وصلت إليكُم أطرافُ النِّعَمِ فلا تُنفِّروا أقصاها بقِلَّةِ الشُّكر))[4]، وتكرّر مثل هذا المعنى[5]، وكثيراً ما ارتبط دوام النعم بالشكر في كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[6]، ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[7]، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن

---

(١) يونس/ ٢٢ – ٢٣.

(٢) (٥) العنكبوت/ ٦٥، الفجر/ ١٥ – ١٦، النحل/ ٥٣، الإسراء/ ٦٧.

(٣) قال عليه السلام في هذا المعنى:((إن صَحّ أَمِن لاهياً، يعجب بنفسِه إذا عوفي، ويَقنط إذا ابتلى وان أصابَهُ بَلاء دعا مُضطرّا وان نالَه رخاءٌ أعرضَ مُغترّا)). نهج البلاغة، ق(١٥٠)ج٣/ ١٨٩.

(٤) نهج البلاغة، خ(١٢)ج٣/ ٥٤. وقال عليه السلام: ((احذروا نفار النّعم فما كلّ شارد بمردود)). ينظر:خ(٢٤٦) ج٣/ ٢٠٧

(٥) قال عليه السلام:((والله مستأديكم شكره)). ينظر:نهج البلاغة، خ(٢٣٦)ج٢/ ٢٦١.

(٦) إبراهيم/ ٧.

(٧) البقرة/ ١٥٢.

طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾[1].

ارتبط الشكرُ بالزيادةِ في الآية الأولى، وبالعبادة في الثانية، وبالعبادة في الثالثة دلالة على منزلة الشكر عند الله، وهذا ما عكسه الإمام عليه السلام في قولهِ آنف الذِّكر، وفي غَيرِهِ منَ الأحاديث في غير موضع كما مَرّ، غير أنّ اللّافت للنظر عند السامع هو تشبيه النِّعمِ بالأنعامِ التي يُنفِّرها الجحودُ في صُورَةٍ بيانيَّةٍ واضحةِ المَعالم .

إنَّ قوله عليه السلام:(لا تنفّروا)خِصِّيصةٌ من خصائص الاستعارة المكينة التي جَسّمت النِّعم وشبَّهتها بالأنعام، وحفلت بغير قليلٍ من الدلالاتِ؛ منها التعبير عن النِّعم بالأنعام، وما تَدرّه هذه الحيوانات من خيرٍ وطعام، وللدلالة على كثرتها ، ولارتباط بَقائِها بكثرةِ الشِّكرِ، إذ أنّها تَنفر، وتَهرب عندَ قِلّتهِ، إنَّها صورة حيّة متحركة .

إنَّ بقائَها مشروطٌ بوافر الشكر، وهذا الشرط أخذه الإمام عليه السلام من الشرط القرآني الواضح: « لَئِن شَكَرتُم لأزيدَنّكم»، لم يستخدم الإمام عليه السلام الأمر المباشر، بل حَبَّبَه إلينا بأسلوبٍ بعيدٍ عن صيغتهِ الاستعلائية

قال تعالى في الحديث عن وليّ الدم: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴾[2]، فاقتبس الإمام عليه السلام هذا المعنى وصاغه بقوله:((أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة))[3].

وتَجلّى قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾[4]، في قوله عليه السلام:((عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار))[5]. وقوله تعالى:﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ

(١) البقرة/ ١٧٢ .
(٢) الإسراء/ ٣٣ .
(٣) نهج البلاغة، خ(٥٢)، ج٣/ ١٦٤ .
(٤) الأنفال/ ٣٣ .
(٥) نهج البلاغة، خ(٨٧)، ج٣/ ١٦٩ .

ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، في قوله عليه السلام:((رب عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه))[2].

تتعطل آليةُ فهم النص ما لَم نستحضر النص القرآني الذي استَقى منهُ الإمامُ عليه السلام معناه ، ولابدّ للمتلقي مِن إدامة التدبر في النصِّ ليقف عند القاسم المشترك بينهما .

وفي قوله عليه السلام:((للظالم البادي غدا بكفه عظة))[3]، اقتباس معنوي لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[4].

جملةٌ فعليةٌ – مضارعة – اتّكأت على الأسلوب الكنائي، لتكشف لنا حالةً مِن ندم على ضَياعِ العمر ظلماً للنفس ، ولغيرهِ ، فعبَّر الإمام عليه السلام عن الحسرة بعَضِّ اليد، وتكرّرت هذه الصورة الكنائية في غير موضع من المواضع النهجية كقوله:((يَعضّ يدَه ندامةً على ما أصحَر له عند الموت من أمرِهِ))[5]، إنّها كنايةٌ وفق المنظورِ البلاغي القديم، ورمزٌ بحسبِ المصطلح النقدي الحديث ليُعبّر عن الغَيظ والنَدم الشديدين على ما عَمِلوا مِن شرّ أو على ما لَم يعملوا مِن خَير، ونَجح الإمام عليه السلام في جعَل هذه الصورة قادرةً على بَثِّ دلالاتِها .

ومهما كانت النصوص القرآنية متوارية في نصوص الإمام عليه السلام– في هذا النوع من الاقتباس تحديداً – إلّا انَّه يترك أثراً في ذهن المتلقي يساعد على الوصول إليه، ومَثَّلت حضوراً مَرِناً طَوعِيا لا استحضاراً قَسرِيّاً .

وكذلك اقتبسَ معنى قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) الجمعة/ ٥ .
(٢) نهج البلاغة، خ(١٠٧)، ج٣/ ١٧٥ .
(٣) نهج البلاغة، ح(١٨٦)، ج٣/ ١٩٥ .
(٤) الفرقان/ ٢٧ .
(٥) نهج البلاغة، خ(١٠٥)ج١/ ٢١٢ .

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1]، وضمّنه قولهعليه السلام:((من لان عوده كثفت أغصانه))[2]، وهو اقتباس معنى معكوس لدلالة معكوسة، إذ هو نتيجة عكسية للآية المباركة، فالآية دعوة إلى ترك الفظاظة والغلاظة، حتى لا ينفضُّ الناس من حوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي كلام الإمام دعوة إلى اللين ليكثر الاتباع والمريدين:

لا تكُن غليظاً فينفر عنك الناس = كُن ليّنا يكثر الناسُ مِن حَولِك.

وللإمامعليه السلاماقتباسات عديدة من هذا النوع في النصوص النهجية قامت بتعجيلِ إنزالِ معاني النصوص إلى ساحة فهم المتلقي[3]، وتثبيتها في ذهنه.

---

(١) آل عمران/ ١٥٩ .

(٢) نهج البلاغة، ح(٢١٤)ج٣/ ٢٠١ .

(٣) ينظر مثلا: نهج البلاغة، خ(٢٤)، ج٣/ ١٥٦، خ(٤٦)، ج٣/ ١٦٣، خ(٦٧)، ج٣/ ١٦٥، خ(١٥٨)، ج٣/ ١٩٢، خ(١٧٤)، ج٣/ ١٩٤، خ(٢٦٠)، ج٣/ ٢١٠.

المبحثُ الثاني

أنواعُ الاقتباس مِن الحديث النبوي الشريف

يُعدّ الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم ومصداقاً من مصاديق السنة النبوية[1]*، ومثّل مرجعية فكرية، لغوية، أدبية مهمة عند المسلمين، ومن ثم فإنّ العودة إليه تعني الانتهال من مَعينٍ لاينضب لاسيّما بعد الدراسات اللغوية، والأدبية، والبلاغية منها على وجه الخصوص، وتعني أيضاً منح مصداقية متميّزة للنتاجات اللغوية، والأدبية انطلاقاً من مصداقيّة حديث النبي المصطفى ﷺ.

وكما مَرّ بنا ـ في تعريف الاقتباس ـ أنَّ الأخذ من الحديث النبوي الشريف نوعُ من أنواعِ الاقتباس ولِقرب الامام عليه السلام من النبي ﷺ[2]، والتصاقِه بِه، استطاع الإفادَةِ من كلامِه فضمّنه خطبه، وكتبه، وحكمه، ومواعظه، فتداخل كلامُه بكلام رسول الله ﷺ حتّى أصبح «ككلام رسول الله ﷺ لأنّ مُستقاهما مِن قَليبٍ ومفرغهما مِن ذَنوب»[3].

---

(١) * باعتبار تقسيمها إلى حديث الرسول ﷺ وعمله، وقراره .

(٢) تربّى الامام في حِجر النبي ﷺ، وحامى عنه، ونَصَره عند ظهور الاسلام قبل غَيره مِن قريش، وبني هاشم، ثم ماكان بينهما مِنَ المصاهرة التي افضت إلى النسل الاطهر دون غيرِه من الاصهار . ينظر:مناقب علي بن ابي طالب، علي بن محمد الشافعي ابن المغازلي ت(٤٨٣)هـ، تحقيق:محمد باقر البهبوري، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٩٤ هـ، ص:٤٠٤، مطالب السؤال في مناقب ال الرسول، كمال الدين ابوسالم محمد بن طلحة الشافعي ت(٦٥٢) ه، النجف الاشرف، (د.ت)، ص:٣٠ . ينظر:شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد المعتزلي رؤية اعتزاليةعن الامام عليه السلام جود كاظم منشد، دراسة دكتوراه كلية الاداب، جامعة البصرة، منشورات ذوي القربى، قم، ١٣٨٤ هـ، ص:٤٠٥ .

(٣) هذا قول الشريف الرضي تعقيبا على قوله: ((الحَجَرُ الغَصب فِي الدارِ رَهنٌ على خرابِها))كما نقله ابن ابي الحديد. ينظر: شرح ابن ابي الحديد.ج١٩/ ٦٦.

لقد تنوع اقتباسه من الحديث النبوي، من تراكيبه، ونصوصه وكثيراً ما كان يوشح كلامه به، مثلما وشحه بمفردات من القران الكريم وآياته، وانفتح على كلام رسول الله كانفتاحه على كتاب الله، فجرياً على لسانه في خطبه، وكتبه، ومواعظه، وسيسلّط الضوء على أنواع هذه الاقتباسات، وتتبعها في نصوص الامام عليه السلام .

أوّلًا: اقتباسُ ألتَّركيب مِنَ الحَدِيثِ النَّبوي الشَّرِيف .

صحيح أنَّ حضور تراكيبِ الحديثِ النَّبوي الشَّريف لم يَكُن مِثل حضور المفردة القرآنية، إلّا أنَّه كان حضوراً فاعلًا، وباثّاً للدلةِ في النص النَّهجي ومِن أمثلةِ ذلك اقتباسهِ للتركيب المتآلف مِن المُفردَتَين المُتلاحِقتَين(حُلوَةٌ نَضرةٌ)، قوله عليه السلام:((أمّا بعد، فَإنِّي اُحذِّركم الدنيا فإِنَّها حُلوةٌ خَضِرةٌ، حُفّت بالشهواتِ، وتَحبّبت بالعاجلةِ، وراقت بالقليلِ، وتحلّت بالآمالِ، وتزيّنت بالغَرور، لاتدوم حَبرتُها، ولاتُؤمَن فَجعتُها، غرّارةٌ ضَرّارةٌ، حائِلةٌ زائِلةٌ، نافِذَةٌ بائِدةٌ، أكّالةٌ غوّالةٌ...))[١]وأوردها في خطبة قبلها، والتي قال فيها:((الحمد لله غير مقنوط من رحمتهِ، ولا مُستكنَفٍ من عبادتهِ، الذي لاتبرَح منهُ رحمةٌ ولا تُفقَد له نِعمةٌ، والدُّنيا دارٌ مُنيَ لها الفناءُ، ولأهلِها منها الجلاءُ، وهي حُلوةٌ خَضِرةٌ، وقد عَجلَت للطالبِ، والتبَسَت بقلبِ النَّاظِرِ...))[٢].

وقعت هاتان المفردتان كثيراً في وصف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للدنيا بأنها (حُلوَةٌ خَضِـــرَةٌ)[٣]، ووصفها تارة أخرى (خَضِرةٌ حُلوةٌ)[٤].

في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :(إنَّ الدنيا حُلوةٌ نَضِرةٌ)، وفي قوله عليه السلام:(إنّي اُحذِّركُم ألدنيا فإنّها

---

(١) نهج البلاغة، خ(١٠٧)، ح١/ ٢١٦ .

(٢) المصدر السابق، خ(٤٤)، ح١/ ٩١ .

(٣) ينظر:صحيح مسلم ابي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري ت(٢٦١)هـ، دار الفكر، بيروت، ج٨/ ٨٩. و:سنن ابن ماجة، الحافظ ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت(٢٧٥)هـ، تحقيق محمد فؤاد، دار الفكر، بيروت، ص:٣٢٥. و:السنن الكبرى، احمد بن الحسين بن علي البيهقي ت(٤٥٨)هـ، دار الفكر، بيروت، ص:٥٥٢.

(٤) ينظر:مسند احمد، ج٣/ ٧، ج٦/ ٦٨. و:سنن الدارمي، عبد الله بن بهرام الدارمي ت(٢٥٥)هـ، مطبعة الاعتدال، دمشق، (د.ت)، ح٢/ ١٠ و:صحيح البخاري، ح٢/ ١٢٧، ح٣/ ٢١٤، سنن الترمذي، محمد ابن عيسى الترمذي ت(٢٧٩)هـ، تحقيق عبد الرحمن عثمان، ط٣دار الفكر، ١٤٠٣هـ، ح٣/ ٣٢٧ .

حلوة نضرة) كلاهما جاء بالتوكيد، غير أنّ كلام الرسول ﷺ هو إخبار عَنِ الدّنيا، وفي قول الامام عليه السلام تحذير منها، وأحاط تحذيره هذا بأداتين توكيدتين (فإنّي، فإنّها)، ثم علّل سبب تحذيره منها بيان صفاتها من خلال جمل وصفية قصيرة متناسقة بحروفها، واسجاعها، وللامعان في التحذير منها، ستحضر صيغ المبالغة في (غرّارة ضرّارة)، (اكّالة غوّالة)بنسق سجعي صاحبه فنٌّ بديعيٌّ هو الجناس، والمتحقّق بالمفردات: (غَرّارة ضَرّارة، حائِلة زائِلة، نافِدة بائِدة).

جاء هذا كله بعد أن مَهَّد بوصفِها ـ المُقتَبَس ـ (حُلوة خَضرة)، منها لفظتان تحملان دلالة واضحة تلقي بظلالها في النص، إنّهما لفظتان مُكتنزتانِ، في الخطبة الأولى، بدأ كلامه بذمّ الدنيا والتحذير منها، وحافظ على حديثه عنها في معظمها ثم ذكر مآل المغتربها، والمخدوع فيها، بعد أن يعودوا إلى القبور حُفاة عُراة[1] وسيعودون ليوم الحساب ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

ختم بهذه الاية التي تنتهي بالتوكيد، مثلما بدأ به خطبته الأخرى – مورد الشاهد – فقد بدأها بحمد الله وتعظيمه بصفات عديدة ثم عَرج إلى ذكر الدنيا فوصفها بتعبيرِ رسولِ الله.

ومن ذلك اقتباسه للتركيب (الفئةِ الباغية)، في قوله عليه السلام في طلحة والزبير: ((والله ما أنكروا عليّ مُنكراً، ولا جَعلوا بيني وبينهُم نَصَفاً، وإنَّهم ليطلبون حقّاً هُم تَرَكوه، ودَماً هم سَفَكُوه، فإن كُنتَ شريكَهم فيه فإنَّ لهُم نصيبهم منهُ، وإن كانوا وُلُّوه دوني فما الطَّلبةُ إلّا قَبلَهُم، وإنّ أوَّل عَدلِهم للحكم على أنفسِهم، وإنّ مَعي بصيرَتي : ما لَبَّستُ ولا لُبِّسَ عليَّ، إنَّما للفِئَةِ الباغية فيها الحَما والحُمَّةُ، والشُّبهَةُ المُغدِقةُ))[3].

(الفِئةُ الباغِيةُ)مُفردتان وردتا في قولِ المصطفى ﷺ لعَمّار بن ياسر((يا عَمّار

(١) ينظر:نهج البلاغة، ح١/ ٢١٩ .

(٢) سورة الانبياء/ ١٠٤ .

(٣) نهج البلاغة، خ(١٣٣)، ج٢/ ٢٧ .

تقتلك الفئةُ الباغِيَةُ))[1]، أو في إخباره عن مقتل عمّار بأنّه((تقتله الفئةُ الباغيةُ))[2]، وجاءتا بالمعاني المتراكبة، وأراد أن يُوجِز بهما صفات مَن تكلّم عنهم، و بيان والتوكيد والايجاز عِبرَهُما، وقد تَمّ له ذلك .

وتواجدت بعضُ التراكيب الدالة على أثرِ الحديثِ الشريفِ حيثما وُجِدَت وهي وإن كانت قليلة إلّا أنَّها تبوح بمرجعيتها في أقوال المصطفى ﷺ مثل التراكيب: (حظائر القدس)[3]، (وَعثاء السَّفَر)[4]، و (طُوبى لمن)، وهذا ألاخير له أكثر مِن موقع في نصوصِ الإمام، فتأتي تارةً ضِمنَ حديثٍ مُباشـــرٍ[5]، وأخرى بِتَغيير طَفيف، كما في أقوالهِ عليه السلام:

١- ((**فطُوبى لِذِي قَلبٍ سَليم أطاعَ مَن يهديه**))[6].

٢- ((**طُوبى لنفس أدّت إلى ربِّها فرضَها**))[7].

٣- ((**طُوبى لمن ذكَرَ المعادَ، وعمل للحساب، وقنَعَ بالكفافِ، ورضي عَن الله**))[8].

٤- ((**طُوبى للزاهِدين في الدّنيا الراغبين في ألآخرةِ...**))[9].

٥- ((**ما قالَ الناسُ لشيءٍ « طُوبى له » إلّا وقد خبّأ له الدهرُ يومَ سُوء**))[10].

(١) مسند أحمد ج٢/ ١٦١، سنن الترمذي، ج٥/ ٣٣٣، الكافي، الشيخ الكليني ت(٣٢٩)هـ، تحقيق علي اكبر غفاري، مطبعة الحيدري، ط٣، طهران، ١٣٨٨. ج٢٥/ ٢٢، المعجم الوسيط، سليمان بن احمد الطبراني، تحقيق ابراهيم الحسيني، دار الحرمين، ١٩٩٥ م، ج٧/ ٢٩١. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي ت(٨٠٧)هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ج٧/ ٢٤١، بحار الانوار، ج١٩/ ١٢٤ .

(٢) مسند أحمد، ج٤/ ١٩٧، صحيح البخاري، ج٣/ ٢٠٧، صحيح مسلم، ج٨/ ١٨٦، تفصيل وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي ت(١١٠٤)هـ، تحقيق مؤسسة ال البيت لاحياء التراث، ط٢ مطبعة قم المشرفة، ج١٥/ ١٣٩ .

(٣) ينظر: نهج البلاغة، خ (٨٧)، ج١/ ١٦٧ .

(٤) المصدر السابق، ك (٤٥)، ج١ / ٩٢.

(٥) كما سيمر بنا في الاقتباس للحديث النبوي الشريف في قوله ﷺ: (طُوبى لِمَن شَغلهُ عيبُهُ عَن عيوبِ النَّاس). ينظر: نهج البلاغة، خ(١٧١)، ج٢/ ١١٦- ١١٧.

(٦) المصدر السابق، خ(٢١٠)، ج٢/ ٢٢٢ .

(٧) المصدر السابق، ك(٤٥)، ج٣/ ٨٤ .

(٨) المصدر السابق، ق(٤٤)، ج٣/ ١٦٢ .

(٩) المصدر السابق، ق(١٠٤)، ج٣/ ١٧٣ - ١٧٤ .

(١٠) المصدر السابق، ق(٢٨٦)، ج٣/ ٢٢٢ .

مع النظر إلى اقتران هذه المفردة بحرف الجر(اللّام) كما وردت في الحديث النبوي:((طوبى لِمَن شغله عيبُه عن عيوبِ الناس))[١].

ومن ذلك اقتباس التركيب:(بادروا بالأعمالِ) في قوله عليه السلام:((بادروا بأعمالِكم تكونوا مع جيرانِ الله))[٢]، وهو ممّا ورد عن قول النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:((بادروا بالأعمال))[٣] أوفي غيره من الأحاديث التي بدأها صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:((بادروا بالأعمالِ))[٤] أو((بادروا ألعملَ))[٥] واعتمد مفردة(بادروا)في مواضع عديدة في النهج[٦].

واسم التفضيل (أفضَل) الداخل في كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من خلال المضاف إليه في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:((أفضَل العبادةِ أحمزها))[٧] نجد ظلّه ـ مقتبساً في قوله عليه السلام:((أفضَل الأعمالِ ما أكرَهتَ نفسَكَ عليه))[٨]، أحمزها:أي أشَقُّها [٩]، وهو معادل للقول:(ما أكرَهتَ نفسَك) عليه .

اشترك حديثه عليه السلام مع الحديث النبوي بالتركيب، وإن اختلف نوع المضاف إليه، إلّا أنّهما يوصلان إلى معنىً واحدٍ، وإن كان في الحديث النبوي لفظ عموم (العبادة) وفي قول الإمام عليه السلام لفظ خصوص (الأعمال)، باعتبار الأعمال مصداقاً من مصاديق العبادة .

---

(١) ينظر: الباب الاول، الفصل الاول، ص:٦٦، الفصل الثاني، ص:٨٩، ٩٤.
(٢) نهج البلاغة، خ (١٧٨)، ج٢/ ١٣٦ .
(٣) مسند احمد، ج٢/ ٠٤، سنن الترمذي، ج٣/ ٣٣٠ .
(٤) ينظر:المعجم الاوسط، سليمان بن احمد الطبراني ت(٣٦٠)هـ، تحقيق ابراهيم الحسيني، دار الحرمين، (د.ت)، ح٣/ ١٥٦، و: بحار الانوارح٦ / ١٩، ح٧٤ / ١٧٦.
(٥) نهج البلاغة، خ(١١٠)، ج١/ ٢٢٣.
(٦) ينظر:نهج البلاغة، خ (١٠٢)، ح١/ ٠٢، خ (١١٠)، ح١/ ٢٢٤، خ (١٨٥)ح٢/ ٥٤، خ (١٧٨)، ح٢/ ١٣٤ .
(٧) بحار الانوار، ج٦٧/ ١٩١. النهاية في غريب الحديث، ابن الاثير ت(٦٠٦)هـ، تحقيق طاهر احمد الزاوي، ومحمود محمد ألطناحي، مؤسسة اسماعيليان، ط، ٤ج١/ ٤٢٢.
(٨) نهج البلاغة، ح (٢٤٩)، ح٣/ ٢٠٧، وينظر: شرح ابن ابي الحديد، ح٣/ ٧٦.و شرح ابن ميثم البحراني، ح٢/ ٥٧٨ .
(٩) شرح ابن ابي الحديد ج٢٠/ ٧٦ .

وكذالك في المعنى المقابل للمفردة(أحمزها)، وكِلا الحديثين إخبار ـ من وِجهةِ نظرٍ بلاغيَّةٍ ـ تفيد فائدة الخبر، ويدلّان على النصح والإرشاد .

وقوله عليه السلام:((وخادِع نفسَك في العبادةِ وارفق بها ولا تقهَرها، وخُذ عفوَها ونشاطَها، إلاّ ما كان مكتوباً عليكَ منَ الفرائضِ))[1]- وهو الآخر مقتبس من الحديث النبوي – لا يتناقض مع القول السابق، إذا ما نظرنا إلى امور عديدة أولها:إنّ الحديث الاول في مقام بيان أفضلِ العبادات، وثانيها:إنَّ القولَ الثاني جاء في مقام المعالجة لِمَن أرهقَ نفسَه، وثالثها:إنَّه – الثاني – كان مُوجّهاً إلى شخصٍ بعينِهِ وهو(الحارث الهمداني)[2]*.

ثانيا :اقتباسُ الحديثِ النبويِّ المباشِر .

بحسب تعريف مصطلح الاقتباس، الذي يشترط إيراد المقتبس في الكلام ((لاعلى أنّه منه))[3]، يخرج كثير من إيراد أقوال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من دائرة الاقتباس، ويندرج تحت باب آخر، أَلَا وهو (الاستشهاد)[4]بسبب إيراد تلك الأحاديث والأقوال على أنَّها من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بسبب تقديمها بعبارة تصرح بذالك، وقد تُوحي اليه، مثل(قال رسولُ الله، قال لي، أخبرني، أنبأني، سمعته يقول ..)، لذلك لا يتبقّى إلّا القليل جداً من شواهد هذا النوع من الاقتباس، من ذلك قوله عليه السلام:((أحبب حبيبكَ هوناً ما، عسَى أن يكون بغيضَكَ يوماً ما، وابغِض بغيضَكَ هَوناً ما، عسى أن يكون حبيبكَ يوماً ما))[5]، وهذا القول هو عين ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[6].

(١) نهج البلاغة، ك(٦٩)، ح٣/ ١٤٣ .

(٢) * هو الحارث بن عبد الله بن كعب بن اسد بن نخلة بن حرث بن سبع بن صعب بن معاوية الهمداني، وكان أحد الفقهاء، له قول في الفتيا، وكان صاحب الامام . شرح ابن ابي الحديد، ج١٨/ ٣٢ .

(٣) ينظر:التمهيد.

(٤) ينظر:نهج البلاغة، خ(٧١)، ح٢/ ١١٤، ح٢/ ١١٦، خ(٢٠٥)، ح٢/ ٢١٤، ك(٤٧)، ح٣/ ٨٥، ٧٦، ٨٧، ح(٤٥)ح٣/ ١٦٣ .

(٥) المصدر السابق، خ(٢٦٨)ح٢/ ٢١٧.

(٦) ينظر: كنز العمال، المتقي الهندي ت(٩٧٥)هـ، تحقيق بكري حياني، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت)، ج٩/ ٢٤، و: الترمذي، ح٣/ ٢٤٣، المعجم الاوسط ح٦/ ٢٠١، مجمع الزوائد، ج٨/ ٨٨ . و: بحار الانوار، ح٧١/ ١٧٤.

إنَّ استحضار الحديث بنصّه وأفراده من غير مقدمة أو تعليق، يترك النصّ يسبح في فضاءٍ رحب ويفتح العقلَ على مصراعيه، ويتخطّى به حدود الزمانِ والمكانِ، ليكون مُوجَّها إلى ألناس كافة إلى يوم الدين

ومن ذلك أيضا قوله عليه السلام في إحدى حكمِه:((ما عالَ مَن اقتَصَد))[1]، وقد روي هذا الحديث بلفظِه[2] عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبرواية أخرى:((ما عالَ امرؤ اقتصد))[3]، في الأولى يكون اقتباساً مباشراً، وفي الأخرى يُعدّ اقتباساً غير مباشر، وكلاهما خبر خرج إلى النفي؛نفي الفقر عن الاقتصاد .

وقال عليه السلام في خطبة وعظية:((ياأيّها الناس؛ طُوبى لَمن شغله عيبُه عن عيوبِ الناس، وطوبى لِمَن لزم بيتَه وأكلَ قوتَه، واشتغلَ بطاعةِ ربّهِ، وبكى على خطيئَته، فكان مِن نفسهِ في شغل، والناس منهُ في راحة)[4] وقوله من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:((طُوبى لَمن غلهُ عيبُه عن عيوبِ النَّاس))[5] . وطُوبى شجرةٌ في الجنَّة [6] فيصبح المعنى كنائياً يُراد بها المعنى الآخر للمفردة، وكأنَّ معنى القولِ :(الجنةُ لَمن شغلهُ عيبُه عن عيوبِ النَّاس).

---

(١) نهج البلاغة، خ(١٤٠)، ج٣/ ١٨٥ .

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج١٠/ ٢٥٢و: الجامع الصغير، ج٢/ ٥٠٠، و:المعجم الكبير، ج ١٠/ ١٠٩ .

(٣) بحار الانوار، ج ٦٨/ ٣٤٧، ج ٧٥/ ٦٠، ج ١٠٠/ ٢١، ج ١٠١/ ١ . وروي (لاعالَ مَن اقتَصَد) . ينظر:المعجم الاوسط، ٥/ ٢٠٦، ج٦/ ٣٦٥ .

(٤) نهج البلاغة، (١٧١)، ج٢/ ١١٦ .

(٥) مسند الشهاب، محمد بن سلامة القضاعي ت(٤٥٤)هـ، تحقيق حمدي عبد المجيدالسلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ج١/ ٣٥٨ . ينظر:منهاج البراعة، للراوندي، ج٢/ ٢١٤. ينظر:منهاج البراعة، للخوئي، ج٢/ ١٦٧. وجاء بصيغ أخرى مثل: (طُوبى لِمَن وَجَد في صحيفتِهِ استغفاراً كَثيراً). ينظر:سنن ابن ماجة، ج٢/ ١٢٥٤. و(طُوبى لِمَن طالَ عمرهِ وحسُن عَمَلُه).ينظر: سنن ابن ماجه، ج٣/ ١٧١. و(طُوبى لِمَن تواضَعَ مِن غيرِ مَنقصةٍ) . ينظر: سنن ابن ماجة، ج٤/ ١٨٢. و(طُوبى لِعَبد أخذَ بعنانِ فَرسهِ ...) . ينظر: سنن ابن ماجه، ج٩/ ١٥٩.

(٦) ينظر: بحار الانوار، ج١٥/ ٢٠٧، ج ٣٠/ ١١٩، ج ٣١/ ٣٢٠، ج٣٨/ ١٤٠ .

ثالثاً : اقتباس الحديث النَّبوي الشَّريف غيرِ المباشِر (ألقَريب) .

لهذا النوع من الاقتباس نماذج ليست بالقليلة في ثنايا نصوص النهج[1]، وبإمكان المتلقي أن يضع يدَه على كثيرٍ منها لو كان ذا حِفظ للمشهور من الأحاديث النبوية، واحتلّ مساحةً واسعةً من النّصوص النهجية، وإن كانت أقلّ من المساحة القرآنية، إلاّ أنّها بدت كظاهرةٍ وسمت كثيراً من تلك النصوص .

قد يأتي الحديث المقتبس – أحياناً – مع تغييرٍ طفيف بالتقديم والتأخير، وقد يأتي مع الزيادة والنقصان تَبَعاً لسياقِ المَقال .

قال عليه السلام:((والله ما معاوية بأدهى مِنّي، ولكنَّهُ يغدِرُ، ويَفجُرُ، ولولا كَراهيَّة الغَدر لكنتُ من أدهى النَّاس، ولكن كلُّ غَدرةٍ فَجرةٌ، ولكلِّ فَجرةٍ كَفرةٌ، ولِكُلِّ غادرٍ لِواءٌ يُعرَفُ بِهِ يوم القيامةِ، والله ما أُستُغفَلُ بالمَكيدَةِ، ولا أُستَغمَزُ بالشَّدِيدَةِ))[2].

أقسَمَ عليه السلام على أمرٍ ظاهر بقسمٍ صريح:(والله)، ويؤكد ذلك الأمر بحرف الباء(بأدهى)، بقدر ما أكّدَ غدرَ معاويةً وفجورَه مَرَّة ثانية بحرفِ اللّام(لكنت)، وأراد بذلك توكيدَ أمر ظاهر، وهو أنَّه لولا كراهية الغدرِ لأصبحَ مِن أدهى الناس، هنا اظهار للسبب، والذي مَنعهُ هو أنَّ الأمر يبدأ بالغدرِ، مروراً بالفجورِ والكفر لينتهي بسخطِ الله، حين يفضح الغادر بلواء يدلُّ على غدرِه يوم القيامة، وهذه نتيجة .

وهذه الكلام في الواقع اقتباس من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لكلِّ غادرٍ لواء يوم القيامةِ يُعرفُ بهِ))[3].

(1) ينظر مثلا:نهج البلاغة، خ(١٦٤)، ج١/ ١١٢، خ(١٥٨)، ج٢/ ٨١، خ(١٦٠)، ج٢/ ٨٦، خ(١٦٢) ج٢/ ٩٧، خ(١٧١)، ج٢/ ١٠٩، خ (١٩٤)، ج٢/ ٢٠٤، خ(٢٠٩)، ج٢/ ٢٢٠، ك(٢٧)، ج٣/ ٣١، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٤، ك(٣١)، ج٣/ ٤٢، ك(٤٨)، ج٣/ ٨٧، ك(٣)ج٣/ ١٥٢، خ(٥) ج٣/ ١٥٢، خ(٥٤)، ج٣/ ١٦٤، خ(١٤٥)، ج٣/ ١٨٥، خ(٢٤٤)، ج٣/ ٢٠٧.

(2) نهج البلاغة، خ(١٩٥)ج٢/ ٢٠٦ .

(3) مسند ابي الجعد، علي بن الجعد الجوهري، تحقيق ابي القاسم عبد الله البغوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت). ص: ٢٠٧ . و: صحيح البخاري، ج٨/ ٦٢ . و: بحار الانوار، ج٩٢/ ١٩٧، وقد ورد هذا الحديث بطرقٍ تختلفُ قليلا عن صيغته الأولى . ينظر:مسند أحمد ج٢/ ١٦ . ويرى ابن ابي الحديد ان كلام الامام عليه السلام حديث صحيح مروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ينظر:شرح ابن ابي الحديد، ج١٠/ ١٦٦ .

فالحديث إذن أخذ بِطَرَفَي النَّص، لكونِهِ سَبَباً لامتناع العملِ بالغدر، ونتيجة للعمل به، فأورده عليه السلام بمثابة جملة، اشتركت في البناءِ السردي للنصّ، واستكمال معناه، في تسلسلٍ استدلاليٍّ، وفي جُملٍ قصيرةٍ، مسجوعةٍ لِتُقضي إلى محصّلة أظهرت السببَ والنتيجةَ في آن .

قدّم الامام عليه السلام جملة (يعرف به) على جملة(يوم القيامة) كما هو في قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولعلّ سياق الكلام – الذي يدور حول محور الغدر، وصاحبه – هو الذي جعله يقدّم(يُعرَف به)للتوكيد، والتخصيص، إذ لم يكن الحديث عن (يوم القيامةِ) بقدر ما كان عن صاحب ذلك اللواء، وكأنّه أراد أن يعود بالضمير المستتر في(يُعرَف بهِ) إلى معاوية، وهو مَحل الشاهد .

وكذلك قوله عليه السلام:((... أَلَا وانّي لَم ارَ كالجنةِ نام طالبُها، ولا كالنارِ نامَ هاربُها، أَلَا وإنّه مَن لاينفعهُ الحقُّ يَضرُرهُ الباطلُ، ومَن لم يستقِم به الهُدَى يَجُرَّ بهِ الضّلالُ إلى الرّدى...))[1]، الأمرُ الَّذي أشار إليه الحديث النبوي الشريف:((ما رأيت مثل النار نام هاربُها ولا مثل الجنة نام طالبُها))[2]

ارتكز النصَّان على النفي(ما)في الحديث النبوي و(لم)في حديث الامام عليه السلام، وكلاهما اعتمد التشبيه، (مثل)و(الكاف)، ومع هذين الفرق بأنواع الادوات، نلحظ تقديماً وتأخيراً، إذ قدّم الكلامَ في النارِ في الحديث وقدّم الكلامَ في الجنة في نصّ الامام عليه السلام .

ولم يقتصر كلامُه عليه السلام على النفي فقط، بل تعّداه إلى توكيدِ ذلك النفي، واخراجهِ بصورةٍ بيانِيَّةٍ اعتمدت التشبيه عينَه في حديثِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) نهج البلاغة، خ(٢٧)ج١/ ٦٧-٦٨ .الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي ت(٩١١)هـ، دار الفكر العربي، بيروت، (د.ت).ج٢/ ٤٩٦. وجاء بتقديم(طالبها) على(واردها) في الروايات . ينظر:المعجم الاوسط، ج٢/ ١٧٧، ج٤/ ٧٣، ج١٩/ ٢٠، بحار الانوار، ج٧٤/ ٢٩٣، كنز العمال، ج١٦/ ٢٠٣ .

تحدث عليه السلام في خطبته عن الدنيا، وحثَّ على العمل ليوم غدٍ (أَلَا وإنّ اليومَ المِضمارُ وغَداً السباقُ)، ثم يمضي مُحَذِّراً على العمل(في أيام أملهِ قبل حضورِ أجلهِ..)، وحديثه كان دعوة للفوز بالجنة قبل الدعوة لتجنب النار، فالغاية الجنة، (أَلَاَ وإنّ اليومَ المضمارُ، وغداً السباقُ، والسَبَقةُ الجَنَّةُ)، من هنا قدّم ذكر الجنة على ذكر النار، وإحضار التوكيد(وإني) دلّ على توكيد هذه الحقيقة، واهميتها، وقد تأتي لتوكيد استغرابه، وسخريتهِ منها .

إنَّ سياق المقال، ومُقتضى الكلام هو الذي عَدلَ بالإمامعليه السلامإلى مثل هذا التقديم والتأخير، المهم أنّ الحديث النبوي قد تسرّبت معانيه، وتفرّعت دلالاتُه في حديث الإمامعليه السلام، فطغى بدلالته في بنية النصِّ .

وامتداد بنية النص النبوي، في نسق كلامهعليه السلام، واعتماد صيغتي النفي والتشبيه في قولهعليه السلام: ((لا عقلَ كالتدبيرِ، ولا كرمَ كالتقوى، ولا قرينَ كحسن الخلقِ، ولا ميراثَ كالأدبِ، ولا قائدَ كالتوفيقِ، ولا تجارةَ كالعملِ الصالحِ، ولا ربحَ كالثوابِ، ولا وَرَعَ كالوقوفِ عند الشبهة، ولا زهدَ كالزهدِ في الحرامِ، ولا علمَ كالتفكرِ، ولا عبادةَ كأداءِ الفرائضِ...))[1]، وهما صيغتان تقودان إلى حصرٍ وتوكيد ما قاله، وهذا من قولهصلى الله عليه وآله وسلم: ((لا عقلَ كالتدبيرِ، ولا ورعَ كالكفِ، ولا حَسَبَ كَحُسنِ الخُلُقِ))[2].

وفي موردِ ذمّه المدبر لأصحابه حين تقاعسوا عَن نصرتهِ، اقتبس حديثاً نبوياً شريفاً[3]، حين قال مُوبّخاً: ((ومن رُمِيَ بِكُم فقد رُمِيَ بأفوقَ ناصِلٍ، وإنّكم والله لكثيرٌ في الباحاتِ قليلٌ تحتَ الرايــاتِ))[4]، وهذا نقيض ما قال الرسولصلى الله عليه وآله وسلم مادِحاً

(١) نهج البلاغة، خ(١١٣)، ج٣/ ١٧٧ .

(٢) سنن ابن ماجة، ج٢/ ١٤١٠، الجامع الصغير، ج١/ ٤٢٨، ج٢/ ٧٥٠، مجمع الزوائد، ج٤/ ٢١٦، بحار الانوار، ج٧٤/ ٥٩ .

(٣) ينظر: منهاج البراعة، للراوندي، ج٢/ ٢٩٥. وينظر: بهج الصباغة، للتستري، ج١٠/ ٥٨٩.

(٤) نهج البلاغةخ(٦٦)، ح١/ ١١٣-١١٤ .

الأنصارَ: ((إنّكم لتكثرون عِندَ ألفَزعِ، وتقلّون عِندَ ألطَّمَعِ)) [1] .

جاء قَسَمهُ(والله)لتوكيد حقيقة هؤلاء، ثم استدعى أكبر حَشدٍ من المؤكدات تمّثلت في(إنَّ، القسم، الّلام):((إنّكم واللهِ لكثيرٌ في الباحاتِ، قليلٌ تحتَ الرَّاياتِ))[2]– رَغبةً منه عليه السلام في توكيدِ حال هؤلاء، وتَيَقّنِه منهم، والمفردات(الباحات، الرايات)كنايتان عن الغنائم والحرب، إنّهم كثيرُ في السِّلم والغَنائِم[3] ، وقليلون في ساحات الحروب تحت الرايات، وهذان الوصفان من لوازم الجُّبنِ، والطَّمعِ، كما أنَّ مقابلهما من لوازم الشجاعةِ، وعِزّةِ النفس، لذلك مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الأنصارَ بعكس هذه الأوصاف.

نحن إزاء نوعين من الطباق؛لغوي ظاهر في المفردتين:(كثير، قليل)ومعنوي تمثل في تناقض المعنيين(الباحات والرايات) .

نجح الإمام عليه السلام في الإحالة الدلالية العكسية للحديث، اعتماداً لمنظوميته المعنوية، ومنظومته الدلالية، تاركا إدراك القيمة الإيحائية للمتلقي حين يستذكر حديثَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم في الأنصار .

وكذلك قوله عليه السلام في حقِّ أهلِ البيت: ((هُم الَّذين يُخبِرُكُم حُكمُهُم عَن عِلمِهِم، وصمتُهُم عن منطقِهِم، وظاهرُهُم عن باطِنِهم، لا يخالفونَ الِّدينَ، ولا يختلِفُون فيِهِ، فهو بينَهُم شاهدٌ صادقٌ، وصامتٌ ناطقٌ))[4]، وهو من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إنّي تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّهما لن يفترقا حتّى يَرِدا علي ألحوض)[5].

(١) النهاية في غريب ألحديث، ، ج٢/ ٤٤٣. وورد بصيغة: ((انّكم لَتقلون عِندَ ألطَّمعِ، وتكثرون عِندَ ألفَزَعِ)). تفسير القرطبي، ابو عبد الله محمد بن أحمد ألقرطبي ت(٦٧١)هـ، دار احياَء التراث العربي، مؤسَسة التاريخ ألعربي، بيروت، (د.ت)، ج١٤/ ٣١٥. وينظر:منهاج البراعة، للراوندي، ج٢/ ٢٩٥..
(٢) ورد بصيغة : (الباحة ، والراية) بصيغة الافراد في شرح الخوئي . ينظر: منهاج البراعة، ج٥/ ١٢١
(٣) ينظر:شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٣٤١ .
(٤) نهج البلاغة، خ(١٤٣)، ج٢/ ٤٣.
(٥) بحار ألانوار، ج٤٧/ ٣٩٩. وينظر: السنن ألكبرى، للنسائي، ابو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ألنسائي ت(٣٠٣)هـ، تحقيق د.عبد ألغفار سليمان، وسيد كسروي، دار الكتب ألعلمية، بيروت، ١٩٩١م، ج٥/ ٤٥. سنن الدارمي، ج٢/ ٤٣٢. مسند ابي الجعد، ص:٣٩٧.

لذلك فإنّهم عليهم السلام، (لن يخرجوكم مِن هدى ولن يعيدوكم في رَدى) والمفردة(الدِّين) اسمٌ جامعٌ، ومن مَصاديقِهِ (كتاب الله).

وقال في وصيته لابنه الحسن عليهما السلام:((... وأمُر بالمعروفِ تكُن من أهلِه، وانكر المنكَر بيدكَ ولسانكَ وباين مَن فعله بجهدِكَ، وجاهِد في الله حَقّ جهادِهِ، ولا تأخذكَ في الله لومةُ لائِم، وخُض الغمراتِ للحقِّ حيثُ كان))[1]، وهذا ما أكّده الحديثُ النبويُّ الشريف:((مَن رأى منكُم مُنكَراً فليغيّره بيدهِ فإن لم يستطِع فبلسانِهِ، فإن لم يستطِع فبقلبِهِ وذلك أضعفُ الإيمان))[2]، وكلاهما دعوة للعمل الصالح، وحثّ على فعله، والتصدّي للمنكر كلّ بحسب قدرته، باليَدِ، أو الِّلسانِ، أو بالقلب .

دعا الحديثُ النبوي إلى ذلك بفعل الأمر في إحدى صِيغ الأمر، الفعل المضارع ولام الأمر (فليُغَيِّره)، وكلام الامام عليه السلام جاء بصيغة النَّصح والحثّ على إنكارهِ باليدِ، واللسان، بعد التمهيد في الحثّ على فعل المعروف، والأمر بالعمل به .

ولمّا كان الإمام عليه السلام لا يريد مدافعة الباطل بالقلب فقط مِن قِبَلِ ابنهِ الحسن عليه السلام لا نجد ألمقطع (ومن لم يستطِع فبقبله)، فهو امام الأمَّةِ والمدافع عنها مِن بَعدِهِ وعليه ومدافعة الباطل باليد واللسان، وعليه ان يباين من فعله بجهده، وأن يجاهد في الله حق جهاده، وألاّ تاخذهُ في الله لومةُ لائِم، حتى لو تطلّب الأمرُ خوضَ الغمرات حيثما كانت، والدّليلُ على ذالك ما نجد في كلامه عليه السلام لسائر الناس حين يدعوهم إلى دفع الباطل، ومدافعته، باليدِ، واللسانِ، أو بالقلبِ، كلٌّ بحسَبِ استطاعَتهِ[3].

والدليل الآخر هو قوله عليه السلام:((وجاهِد في الله حَقّ جهاده ولا تأخذك في الله لومةُ لائِم))وهذا ممّا يتخطّى الدفع بالقلب فقط، وكذلك دفع الباطل ولو يخوض الغمرات

(١) المصدر السابق، ك(٣١)، ج٣/ ٤٤.
(٢) مسند احمد، ج٣/ ١٠ .
(٣) ينظر: نهج البلاغة، ق(٣٧٣)، ح٣/ ٢٤٣، ق(٣٧٤)، ح٣/ ٤٣، ق(٣٧٥)، ح٣/ ٢٤٤ .

(ولفظ الخوض مستعار لمعاناة الشدايد، والدخول فيها لطلبه الحق)[1]، ومن هنا ندرك فائدة التصرف بالحديث ليناسب مقام المقال، وليطابق مقتضى الحال .

وكذالك قوله عليه السلام: ((الصدقةُ دواءٌ مُنجِح، وأعمالُ العبادِ في عاجلِهم نَصب أعيُنِهم في آجِلِهم))[2]، وهذا المعنى مأخوذ من قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم:((داوُوا مَرضاكُم بالصَّدقةِ))[3]، فقوله صلى الله عليه وآله وسلم أمرٌ صريح بفعل الأمر(داوُوا).وقول الإمام المقتبس في معناه خبرٌ فيه(فائدةُ الخبر)يفيد السامع معنىً جديداً لم يكن يعلم به من قبل، فهو خالِ الذِّهنِ من هذه المعلومة التي جاء بها الإمامُ في ايجازٍ مُكثّفِ الدَّلالةِ .

وقوله عليه السلام : (أعمالُ العبادِ في عاجلِهم نَصبَ أعينهم في آجِلِهم) مُقتَبس من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[4]، والمقطع الأول في الآيه المباركة هو محلّ الشاهد، فما نعمله ألآن وهو نصب أعيننا سنجده ـ يوم الحساب ـ محضراً، نصب أعيننا.

وهكذا تلمح مرة أخرى عَرضاً وترغيباً بالأسلوب الخبري المُوحي بالأمر المُحَبَّب للمتلقي، والفارق بين القولين لم يكن باختلافِ الأساليبِ النحوية من حيث كونها أدوات، أو البلاغية من حيث كونها أساليب، بقدر ما كان اختلافاً في الطَّرحِ ليلتقيا في نقطه واحدة، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم حَصَر التداوي بالصَّدقةِ فقط، والمُتبيّن بحرف الجر(الباء)، والذي يوحي بالحصر والتخصيص، والمعزز لذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم بالدواء المنجح .

(١) شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٣٦٤ .

(٢) نهج البلاغة، ح(٦)، ح٣/ ١٥٣ .

(٣) السنن الكبرى ج٣/ ٣٨٢، كنز العمال، ج١٠/ ٢٣، بحار الانوار، ج١٠/ ٩٩، ج٥٩/ ، ٦٣ج٦١/ ٢٥، ج٦٣/ ١٧٢، ج٧٨/ ٢٠٣

(٤) آل عمران/ ٣٠ . وينظر: شرح ابن ابي الحديد، ج١٨/ ٨٠..

رابِعاً : اِقتباسُ الحديثِ النبويِّ غيرِ مُباشِرٍ (ألبَعيد)، (المَعنَوِي).

هو نوعٌ لا يقِلّ شيوعاً عن سابقهِ في سطورِ النصوص النهجية[١]، وتمثّل بتحفيز الخزين الثقافي عند المتلقي ذي الاطلاع على الحديث النبوي الشريف والمحاولة الرجوع به إلى معاني تلك الأحاديث، وصياغتها في تشكيل بنائي جديد ينسجمُ وسياق النصِّ الوارد فيه .

لقد نَهَل الامامعليه السلاممن معاني الحديث النبوي، مثلما كان الأمرُ مع المعاني القرانية فكانا منطلقاً لعملية الإبداع عنده .

و قولهعليه السلامعند خروجه لقتال أهل البصرة:((مالي ولقريش ! والله لقد قاتَلتَهُم كافرِين، لأقاتلِنّهُم مَفتُونِين، وإنّي لَصاحِبِهِم بالأمسِ كما أنا صاحبُهُم اليوم!))[٢].

(مالي ولِقُرَيش)استفهامٌ على سبيلِ الإنكارِ لما بينه وبينهم[٣]، وعند التمعّن في النص ندرك مغزى إفراغ أدوات التوكيد من خلال(القَسَم، وقَد، واللّام، ونون التوكيد)المجتمعة في النَّص، وبحسَبِ التصنيف البلاغي نستطيع تصنيف هذا النص

---

(١) ينظر:نهج البلاغة، خ(١٦٤)، ج١/ ١١٢، خ(١٥٨)، ج٢/ ٨١، خ(١٦٠)، ج٢/ ٨٦، خ(١٦٢)، ج٢/ ٩٧، خ(١٧١)ج٢/ ١٠٩ خ (١٩٤)، ج٢/ ٢٠٤، خ(٢٠٩)، ج٢/ ٢٢٠، ك(٢٧)، ج٣/ ٣١، ك(٢٨)ج٣/ ٣٤، ك(٣١)، ج٣/ ٤٢، ك(٤٨)، ج٣/ ٨٧ك(٥٣)، ج٣/ ٩٢، ك(٦٣)، ج٣/ ١٣٣، ح(٣)، ج٣/ ١٥٢، ح(٥)، ج٣/ ١٥٢-١٥٣، ح(٥٤)، ج٣/ ١٦٤، ح(١٠) ج٣/، ح(١٤٥)، ج٣/ ١٨٥، ح(٢٤٤)، ج٣/ ٢٠٧، ح(٢٨٧)، ج٣/ ٢٢٢، ح(٣٤٢)، ج٣/ ٢٣٤، ح(٣٨٩)ج٣/ ٢٤٧، ح(٤٤٤)ج٣/ ٢٥٩ .

(٢) نهج البلاغة، خ(٣٢)ج١/ ٧٧-٧٨ .يورد ابن ابي الحديد في شرحيه تتمة لكلامهعليه السلام وهي:(والله ما نَقَمت مِنّا قُريشُ الاّ انَّ اللهَ اختارنا عليهم ، فأدخلناهُم في حَيّزنا فكانوا كَما قالَ الاوَّل : أدمتَ لعَمري شُربَكَ المَحضَ صامحاً وأكلَكَ بالزَّبدِ المُقَشَّرة البُجرَاونَحنُ وَهبناكَ العلا ولَم تكُن عليّاً، وَحُطنا حَولَكَ الجُردَ والسُّمرَاينظر:شرح ابن ابي الحديد، خ(٣٣)ج٢/ ١٤٧. وبصيغة:((ما تَنقِم مِنّا قُريش.....))، في شرح الخوئي . ينظر: منهاج البراعة، ج٧/ ٢١٣.وأورد ابن ميثم البحراني تتمة أخرى لهذه الخطبة في شرحه فقال:» وقد نُقِلَت في تمام هذه الخطبة في بعض النسخ: لتضجّ قريشُ ضَجيجَها ان تَكُن فينا النُبُوّةُوالخلافَةُ، واللهِ ما أتينا اليهم الاّ انّا اجتَرَأنا عَليهم « .شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٢٦٦ .

(٣) نظر المكان نفسه .

باعتباره خبراً انكارِيّاً، ولَعَلّ هذا التوكيد مأخوذ من تأكيد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي أشـار إلى هذا الأمر، إذ جـاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام :((ستقاتلهم على التأويل كما قاتلتهم على التنزيل))[1]، جاء التوكيد بحرف (السين) .

وقوله عليه السلام – وإن كان خبريّاً – يحمل في طَيّاته تهديداً، لاسِيّما إذا تذكرنا أنه عليه السلام قاله عند خروجه لقتال المارقين من قريش (فهو تهديدٌ بأن يوقع بينهُم القتالَ على فِتِنتهِم وضَلالِهِم على الديـــن)[2].

ولتزاحم أدوات التوكيد دلالةٌ أخرى تُظهر غضَبَه، وسَخطِهِ، وَوَعيدَه لهؤلاء، وقد خَتَمه بقولهِ: (وإنّي لَصاحبهم بالأمسِ، كما أنا صاحبهم اليوم !)، وهو تصريح بأنَّ حاله لم يتغيّر اليوم عَمّا كان عليه في الامس عند قتاله المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا فرقَ بين قتالهِ للمشركين على التنزيل، وقتاله للمارقينَ والناكثينَ والخارجينَ على التأويل.

وقال عليه السلام:((وقَدَّرَ الأرزاقَ فكثَّرها، وَقلّلَها، وقَسَّمها على الضِّيقِ والسَّعة، فعَدَّلَ فيها ليَبتَلي مَن اراد بمَيسُورِها، ومَعسُورِها، وليَختَبِر بذلكَ الشُّكرَ، والصَّبرَ مِن غَنيِّها وفَقِيرِها، ثُمَّ قَرَنَ بسعَتِها عَقابيلَ فاقَتِها، وبِسَلامَتِها طَوارقَ آفاتِها، وَبفُرَجِ أفرَاحِهَا غُصَصَ أتراحِهَا وَخَلَقَ الآجَالَ فأطالَهَا، وقَصَّرَها، وقَدَّمَهَا وأخَّرَهَا...))[3].

لقد صرّح النبي الأعظم بالمعنى نفسه في قوله:((إنَّ إعطاءَ هذا المال فِتنَةٌ وإمساكَهُ فِتنَةٌ))[4].

(إنَّ)الناصبة ومعموليها، وما عطف عليهما، قدّمت لنا بخبرٍ توكيدي مُوجَز ومكثّف هذه الحقيقة التي فصل الإمام عليه السلام القول فيها بحشدٍ لفظيٍّ متناسق، انتظم في طِباقاتٍ مَسجوعَةٍ من المفردات:(كثّرها وقلّلها، الضَّيق والسَّعة، مَيسورِها ومَعسورِها،

---

(١) المناقب، ص:٦١، بحار الانوار، ج ٣٨/ ١٣٤ .

(٢) نهج البلاغة، خ (٥٦)، ج١/ ١٠١ .

(٣) المصدر السابق، خ(٨٧)، ج١/ ١٧٧ .

(٤) مسند احمد، ج٥/ ٥٨. مجمع الزوائد، ج٣/ ٨٧.

غَنيِّها وفَقيرِها، سَلامتها وآفاتُها، أفراحُها وأتراحُها، أطالَها وقَصَّرَها)والذي زاد من جماليّة النصِّ وأثره في المتلقي هو انتهاء تلك المفردات بحرفِ المَدِّ ذي الوقع الكبير في الاذن والتصور لاكبر قَدرٍ مِنَ الانفتاح الكَمّي لتلك التصورات، وكأنّ تلك المفردات قد انفتحت على مصراعيها لتُعطِي أكبرَ ما تستطيع من معانيها بفضلِ هذا المدّ المُنفتِح إلى ما لانهاية .

أراد الإمام عليه السلام بقولِه انَّ اللهَ قَدَّرَ الأرزاقَ فكَثَّرَها عند المُوسرِ وقَلّلَها عِندَ المُعسرِ، (قَسَّمها على الضِّيقِ والسَّعةِ) هما مفردتان تُحيلان إلى (الغنى والفَقر)، وكثرتُها عند المُوسرِ ابتلاءً له في الإنفاقِ الحَلالِ وإخراجِ الحقوقِ، وقِلّتها عند المُعسرِ اختبارٌ لهُ في الصَّبرِ أو عَدَمِهِ، (عُدّ فيها مَن أراد بميسورِها، ومعسورِها، وليختبر بذلك الشكرَ والصبرَ من غنيِّها وفقيرها)، إذ يعود اختبار الشكر عند الغني واختبار الصبر عند الفقير بِحَسَبِ الترتيب في قوله عليه السلام، والأمر في كليهما فتنةٌ، وكلّ منهما قد ينجح في الاختبار أو يفشل فإعطاؤهُ (في الغنى) فِتنةٌ، وإمساكِهِ(في الفَقرِ)فتنَةٌ .

لقد جاء قوله تفصيلاً وبياناً لأسباب تلك الفتنة، لاسيّما بعد أن بَيّن الارتباط الموضوعي المُحتمل بين السّعة والضيق، والسلامة والآفات، والأفراح بالأتراح، وكذلك الأمر في الآجالِ - فهي ميدان الاختبار الكبير - فأطالها لبعضٍ، وقصّرها للآخر، فقدّمها وأخَرها، وهذا كله فتنة واختبار .

وفي خطبة له عليه السلام قال بعد حمد الله، والثناء عليه: ((... وإنَّ محمداً عبدُه ورسولُه أرسلهُ بأمرِه صادِعاً، وبذكرِه ناطقاً، فأدّى أميناً، ومضى رَشيداً، وخلّف فينا رايةَ الحقِّ : مَن تقدّمها مَرَق، ومَن تَخلّف عَنها زَهق، ومَن لَزِمها لَحِق، دليلُها مَكيثُ الكلامِ))[1] .

انصبَّ الحديثُ بأسلوب سردي خبري، ولأن السامع له انئذ لم يكن خالي الذهن من هذا الخبر، لذلك عُدّ خبر لازم الفائدة، هو خبر للتذكير، وحاملا معنى حديث

(١) نهج البلاغة، خ (٩٦)، ج١/ ١٩٣ .

نبوي شريف شاع وانتشر بين الناس والدالة عليه مفردات النص(وخَلّف فينا رايةَ الحَقِّ)، وقَصَد بها قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنّي تاركٌ فيكُم الثقلين، كتابَ اللهِ وعترتِي، ما اِن تمسكتُم بهما لن تَضِلّوا بعدي أبداً))[1].

وقوله عليه السلام: (مَن تقدّمها مرق، ومَن تخلّف عنها زهق، ومَن لزمها لَحق) يعود إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « مثل أهل بيتي مثل كسفينهِ نوح مَن رَكبها نَجا، ومَن تَخلّف عَنها غَرق[2]، امتزج الحديثان معا في(رايةِ الحقِّ)، والمقصود بهما: الثقلان، الكتاب والعترة[3] تلك الراية التي خَسَر مَن وضَعها خلف ظَهرِه، وتقدّم عليها، أو مَن تَخلّف عَنها وتركها، فالأوّل خارجٌ مِنَ الدين، والثاني هالكٌ، والفائزُ مَن لزمها

وقوله:(دليلُها مَكيث الكلام)يعني نفسه عليه السلام لأَنَّهُ المشار إليه مِن العترة[4]، والضَّمير المُتَّصِل(الهاء) يعود إلى الرايَة المتقدّم ذكرها، كناية عن أنّ الكتاب لا يُفارِقه، وهو لايُفارِق الكتاب بِحَسَبِ مَضمونِ الحديث الشريف.

وفي آليَّةٍ إبداعيَّةٍ انطلق بها من معنى الأحاديث النبوية((خُذ ما تعرفه ودَع مالاتَعرِف))[5]، و((مَن حُسنِ إسلامِ المَرءِ تَركِهِ ما لا يَعنِيه))[6]، والحديث:((دَع ما يريبك إلى ما لا يريبَك)) [7].

---

(١) ينظر: منهاج البراعة، للراوندي، ج٢/ ١٥٨. وينظر: منهاج البراعة، للخوئي، ج٧/ ١٥٨.ورد الحديث بصيغ عديدة تنفق كلها في المعنى نفسه .ينظر:المعجم الصغير، ج١ / ١٣١، المعجم الاوسط، ج٤/ ١٠، المعجم الكبير، ج٣/ ٦٦، بحار الانوار، ج٢٣/ ١٠٨، ج٣٥/ ٢٢٩، ينابيع المودة، ج٢/ ٨٩ .

(٢) مجمع ألزوائد،ج٩/ ١٦٨.كماوردبصيغ أخرى متقاربة.ينظر:ينابيع المودة،لذوي القربى،الشيخ سليمان بن ابراهيم الحنفي ت(١٢٩٤)هـ، تحقيق سيد علي جمال اشرف الحسيني، مطبعة اسوة، (د.ت) ج٢/ ٩٠. و:ألمعجم ألكبير، للطبراني،ج١/ ١٣٩. و:بحار الانوار،ج١٨/ ٣٤٧،ج٢٣/ ١٠٥،ج٢٧/ ١١٣ .و:كنز العمال،ج١٢/ ٤

(٣) شرح ابن ابي الحديدج٧/ ٧٠.

(٤) ينظر:المكان نفسه

(٥) مستدرك الوسائل، ومستنبط المسائل، المحقق النوري الطبرسي ت(١٣٢٠)هـ، مؤسسة ال البيت عليهم السلام لاحياء التراث، ١٤٠٨هـ، ج١٧/ ٢٥.

(٦) صحيح مسلم، ح٢/ ١٣١٦، المعجم الصغير، ج٢ / ٤٣، المعجم الاوسط، ج١/ ١١٥ .

(٧) البخاري، ح٣/ ٤، سنن الدارمي، ج١/ ٢٩، ج٢/ ٢٤٥، مجمع الزوائد، ج١٠/ ١٢٥ .

وبِآليَّةٍ تَناصِّيَّةٍ، سواء أكانت بقصد أم بغيره تجلَّى معنى الحديثين مُدمَجاً في بنية شكليّة نصّية جديدة في وصيته الإمام الحسنعليه السلام:((. . . فأصلح مَثواك، ولاتبع آخرتَك بدنياك، ودَع القولَ فيما لاتعرِف، والخطاب فيما لم تُكلَّف، وامسِك عَن طريقٍ إذا خِفت ضَلالَتَه، فإنَّ الكفَّ عند حَيرةِ الضَّلالِ خَيرٌ مِن ركوبِ الأهوالِ)) [1].

لقد تواشجت معاني الحديثين لتصُبَّ في النصّ دفعة واحدة، إذ يرى أن القول:(ودع القولَ فيما لاتعرف)من قول المصطفىصلى الله عليه وآله وسلم الأول والقول:(والخطابَ فيما لم تُكَلَّف)من الحديث الثاني، والقول : (وامسِك عَن طريقٍ إذا ما خِفتَ ضَلالتَه) من الحديث النبوي الثالث [2].

تسرّبت معاني الأحاديث وتوزّعت بين سطور النص وثناياه، وبكلمات يسيرات «إنّ قيمة العبارة الفنية تتضخّم بمقدار ما تجنح إلى السهولة واليسر» [3].

وفي كلامٍ موجَزٍ مُكثّف في ذمِّ إبليس والتَكبُّر، فذكر(قابيل)ضِمناً، وما ألحق بهِ مِن آثام: ((. . .ولا تكونوا كالمتكبّر على ابنِ امّهِ، مِن غيرِ ما فَضلٍ جَعله اللهُ فيه سِوى ما ألحَقتِ العَظَمةُ بنفسِهِ مِن عَداوةِ الحَسَدِ، وقَدحت الحَمِيَّةُ في قلبِهِ من نارِ الغَضَبِ، ونَفَخَ الشيطانُ في أنفِهِ من ريحِ الكِبَرِ الذي أعقَبَهُ الله بهِ الندامةِ، وألزَمَهُ آثامَ القاتلينَ إلى يومِ القيامَةِ))[4].

ويرى التستري في شَرحه أنَّه مُقتبَس مِن الحديثِ النبويِّ:((ما مِن نَفسٍ تُقتَل ظُلماً الاّ كان عَن ابنِ آدم الاوَّل كِفلٌ مِنها، وذلكَ لأنّه أوّلَ مَن سَنّ القَتلَ))[5]، ذابت ملامح الحديث البنائية لتَحُلَّ مَحلّها دلالته المعنوية بلغةٍ دالّةٍ، قادرةٍ على العَطاءِ والاقناعِ، على

(١) نهج البلاغة، ك(٣١)، ج٣/ ٤٤ .

(٢) ينظر: شرح ابن ابي الحديد، ج١٦/ ٥٠ .

(٣) دراسات فنية في صور القران، د . محمود البستاني، مجمع البحوث الاسلامية، مشهد، ١٤٢١هـ، ص:٤٦.

(٤) (٤) نهج البلاغة، (١٨٧)، ج٢/ ١٦٥ .

(٥) بهج الصباغة، التستري، ج١/ ١٥-١٦ .وينظر: تاريخ الطبري، ج١ / ٩٦-٩٧ .

وفقَ بناءٍ صوتيٍّ أخّاذ وقد تَجَسّد في هَيكلٍ مِن الجناس المُختَلِط بالسَّجع، فكان الحديثُ من نسيج كلامِهِ فأضحى نَصّاً نُسِجَ ببَراعةٍ لفظيّةٍ، ومَعانٍ صِيغت بصورةٍ بارعَةٍ لما دعا إلى عَدمِ التكَبّر كما فَعل قابيل فلحقته النَّدامةُ والآثامُ إلى يوم الدِّين ويُدرِكُ المتلقي تلك الإشارةَ الضمنية – في الكَلامين – إلى(قابيل)دونَ التَّصريحَ باسمِهِ .

وكلامه عليه السلام مَبنيّ على ما أقَرَّهُ الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم وما علّلهُ، لأنّه – قابيل – (أوّل مَن سَنّ القَتلَ)

ألفَصلُ الثَّانِي

وَظِيفَةُ الاقتِبَاس

ألمبَـحَثُ الأوَّل: ألوَظِيفَةُ الدّلاليَّة

ألمبَحَثُ ألثَّانِي: ألوَظِيفَةُ الفَنِيـَّة

مَدخَل:

وظّف الإمام ما اقتبس من القرآنِ والحديثِ النبوي في نصوصه بطرقٍ شتّى، من خلال توظيف المعاني والدلالات، والإشارات في الآية، أوالحديث.

إنَّ استحضارهما ـ بالطرق المختلفة ـ لم يكن استحضاراً شكلياً، بل هو سعيٌّ نحو التوظيف، والاستقدام الدلالي، وسعي نحو قصديّة مَرجوّة، ومُبتغاة لم يكن الغرض منها التزيين فقط، فالنص ليس عملاً إبداعيا فقط، إنّما هو «مُدَوَّنةُ حَدَثٍ كلاميٍ ذي وظائف مُتَعَدّدَة» [1].

كان الإمام عليه السلام مُدرِكاً لأثر النصِّ في التوظيف، فمثلت معلماً واضحاً من معالم النص النهجي عنده من هنا نجد نصوصه ذات أثر في خدمة الإنسانية، والحضارة، فهو أدب وظيفي أوعلى الأقلِّ كانت الوظيفة من مرتكزاته الأساسية[2]، حيث يُوظف كلّ شيء من أجل الهدف.

حين تكلّم في خطبه، وكتبه، ومواعظه، لم يكن غرضه السرد التاريخي المُجرّد لما يقتبسه، بقدر ماكان يبتغي استنطاق الحدث، والخروج به إلى توظيف مُثمِر للإسهام في بناء الإنسان والمجتمع، فالقصدية والغرضية، والوظيفية كانت نَصب عَينَيه في أغلب الأحيان إذ لم يكن النصُّ عِنده بمعزل عن الحياة، فهو إمام الأمة، وقائدُها، ومُرشدُها، وله القدرة على توظيف النص، لتمكنه من أدواته الفنيَّة التي يستطيع بها توجيه نصّه نحو القَصدية المُبتَغاة في توجيه الأحداث، وإحداث الأثر فيها، أو من خلال «كشف مَكنونات الذات ثم إيصالها إلى الملتقى»[3]

ويدرك المتلقي لنصوص النهج الغرض الوظيفي المُتعَدِّد الجوانب، والناتج عن

(1) تحليل الخطاب الشعري «إستراتيجية التناص» د محمد مفتاح، ص:120

(2) ينظر: من روائع النهج، ص:35.

(3) المصدر نفسه، ص: 5.

تفعيل الخزين المعنوي للنصوص المقتبسة فيه، ولا تَقِلُّ أهمية الوظيفة عن أهمية الإبداع، باعتباره استثماراً لذلك الإبداع، وسيشمل الفصل نوعين من المستويات التوظيفية، المستوى الدلالي، والمستوى الفنّي، وبيان ما لهذين المستويين من أقسامٍ وفروعٍ .

ألمبحَثُ الأوَّل: ألتوظيف الدَّلالِي

سَيُسلّط الضوء في هذا المبحث على أبرز الاتجاهات الرئيسة في التوظيف الدلالي، والمُتَمَثّل في أنماطٍ وظيفيَّةٍ هي: (وظيفة التوكيد ، وظيفة التذكير والتنبيه، وظيفة الشرح والتعليل ، وظيفة التّرغيب والترهيب ، وظيفة التحذير ، وظيفة الإيجاز ، وظيفة المدح والذم ، وظيفة السرد ، وظيفة النصح والإرشاد ، وظيفة التعظيم والتحقير).

أولاً : وَظيفةُ التَّوكِيد.

احتلّ التوكيدُ منزلةً كبيرة في الدراسات النَّحوية ، واللغوية ، والبلاغية فهو «في العربية من أساليبها المعروفة ، لاغنى للمتحدث عنه، سواء في اللغة أم في الكلام الدارج ، فالمتحدث يخبر مرَّة ، ويُجيب على التساؤل أخرى ، ويردّ على إنكارِ مُنكر ثالثة ، وفي الحالتين الأخريين يجد نفسه مُضطرّا إلى تكرار الكلام أحياناً توثيقاً وتمكيناً..» [1].

ومن شواهدِ ذلك قوله عليه السلام:((وأشهد أنَ مَن شَبَّهكَ بتباينِ أعضاءِ خلقِك، وتَلاحُم حَقاقِ مَفاصِلِهم المُحتَجبَة لتدبيرِ حكمتِكَ ، لم يَعقِد غَيبَ ضَميرِه عَلى مَعرفَتك ولم يُباشَر قَلبُهُ باليقين بأنَّهُ لا نِدَّ لكَ، وكَأنَّه لم يَسمَع تَبَرُّؤ التَّابِعين عَنِ المَتبوعِين ، إذ يقولونَ: تاللهِ إن كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبِين ، إذ نسِّويكُم بِربِّ العالمين)) [2].

قول هؤلاء المخدوعين لَمِن أضلّوهم مأخوذٌ من القرآن بصورة مباشرة[3]، عبر

(١) أسلوب التوكيد في سورة فصلت، هادي عبد علي هويدي، مجلة القادسية، مجلد٢، ع ٣، لسنة ٢٠٠٢، ص:١٧٢.

(٢) نهج البلاغة، خ(٨٧)، ج١/ ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٣) سورة الشعراء/ ٩٧-٩٨ .

الاقتباسِ وقد جاء بياناً، وتوكيداً لمآل موقفهم حينئذ، وجلاءً للحقيقة الحتمية لمن ظَنّ الخالقَ كالمخلوقِ، فشَبَّهُهُ، وجَسَّمَـهُ .

الصيغةُ البنائية للآيةِ المباركة تحمل توكيداً ظاهراً والمُتمَظهِر بالقَسَم واللّام (تالله، لفي)، فأفاد الإمام من هذا المَلمَح التوكيدي لتوكيد ما أراد بيانه من معنى، وهو ندم أولئك الذين ساووا بين الخالق والمخلوق، فأصبحوا في ضَلالٍ مُبين.

وللتوكيد على عظيم أمرِ الصلاة، والحَثّ عليها، اقتبس آيتينِ من كتاب الله، في إحدى خطبه، في نصّ مكثّف ، لتبث أثرها الدلالي التوكيدي، في روح المتلقي، وتُدخله في دائرةِ اليَّقين، فقال:((تعاهَدوا أمرَ الصَّلاةِ وحافظوا عليها، واستكثروا مِنها، وتقرّبوا بِها، فإنَّها كانَت على المؤمنين كِتاباً موقوتاً، ألَا تسمعون إلى جوابِ أهلِ النار حين سُئِلوا:مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ))[١].

اقتبس الآية بمعناها في قوله:﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[٢]، والأخرى بنصِّها[٣]، في النصِّ الَّذي ابتدأه بفعل الأمر(تَعاهدوا)، وعَزّزه باستحضارِ هذين الاقتباسين.

وقوله عليه السلام:(عَليها ، مِنها ، بِها) والعائدة بضمائرها إلى الصلاة ، تكاد تكشف عن حقيقة مهمة لأمر الصلاة ، وكأنه أراد القول بإحاطتها ، وشموليتها لكلّ عملٍ من أعمالِ المرءِ في الدنيا .

وبعد توكيد فرضها (كتاباً موقوتا) أكّد أهميتها الظاهرة ، من خلال جواب التاركين لها ، انه جواب مكتنز الدلالة ، والأثر، من هنا يدرك المتلقي مقدار ما كان لها من القدرة على إثبات صحّة احتجاجه عليه السلام في تأكيد أهميتها ، وأنَّها من العبادات المهمّة

(١) نهج البلاغة، خ(١٩٤)، جـ٢/ ٢٠٤.
(٢) من قوله تعالى:(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً) ، النساء/ ١٠٣ .
(٣) سورة المدثر/ ٤٢ ـ ٤٣ .

في نظرِ الشارع [1].

وهناك توظيف مُماثل للنص القرآني باستحضاره توكيداً في الخطاب والحكمة والكتاب [2].

للحديث النبوي الشريف دورُه في التوكيد، كقولهعليه السلام في كتاب إلى بعض عُمّاله مُوبّخا، بعد أن سَرقَ من أموالِ بيتِ المال، وهَربَ إلى معاوية:((واللهِ لو أنَّ الحسنَ والحسين فَعلا مثلَ الذَّي فَعَلتَ ما كان لهما عندي هَوادة، ولاظَفَرا منّي بإرادة، حتَّى آخذ الحقَّ منهُما، وأزيل الباطلَ عن مَظلتِهما))[3]، ويبدو فيه أثر قول المصطفىصلى الله عليه وآله وسلم: (والّذي نفسي بيدِهِ لو أنّ فاطمة بنت محمد سَرقت لقطعتُ يـدَهـا)[4] .

لقد دخل الحديث النبوي الشريف بتركيبه، ومعناه في كلامهعليه السلام فبثّ فيه دفقةً من التوكيدِ دالة على رفضهِ للظلمِ والباطلِ، وإن قام بهما أقرب الناس إليه ٠

ثانياً : وَظِيفةُ التذكيرِ والتّنبيه.

ومن ذلك التوظيف قولهعليه السلام:((فاتَّعِظوا عبادَ اللهِ بالعِبَرِ النَّوافع، واعتَبِروا بالآي السَّواطِع، وازدَجِرُوا بالنُّذُرِ البَوالغَ وانتَفِعوا بالذِّكر والمَواعِظ، فَكَأن قَد عَلقَتْكُم مخالبُ المَنيَّةِ، وانقطعَت منكُم عَلائقُ الأمنيَةِ، وَدَهمتكُم مُفظِعاتِ الأمُورِ، والسِّياقَةُ إلى الوِردِ المَورُود، وكلّ نَفسٍ مَعَها سائقٌ وشَهيد، سائِقٌ يسوقها إلى مَحشرِها، وشاهدٌ يشهدُ عَليها بِعملِها))[5].

في النصِّ إشارة اقتباسية تُرجعنا إلى قوله تعالى: ﴿ **وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ**

(١) ينظر:شرح ابن أبي الحديد، حـ ١٠/ ١٦٠ ٠
(٢) ينظر:خ (١٥٥)، حـ ٢/ ٧٣، خ(١٨٧)، حـ ٢/ ١٧٤، ك(٨) جـ ٣ / ٣٤
(٣) نهج البلاغة، ك (٤١)، جـ ٣/ ٧٤ ٠
(٤) (٦) السنن ألكبرى، للنسائي، ج٤/ ٣٣٤.سنن ألنسائي، ج٨/ ٧٥.
(٥) (١) نهج البلاغة، خ(٨١)، ج١/ ١٤٦ ٠

﴾[1]، استعمل الإمام النص القرآني بتغير طفيف في إبدال حرفِ (الفاء) بحرف (الواو) لضرورة سياقية استدعت مجيء حرف الفاء الدالّ على المباشرة ، بصورةٍ بيانيةٍ مُتحرّكةٍ ابتغى من ورائِها التذكير بيوم الحساب والاستعداد له.

وختم خطبةً وعظ بها أصحابَه بقوله تعالى:﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[2]، بعد أن قال:((فالحَذر الحَذر أيّها المستَمِع، والجِّد الجِّد أيُّها الغافل «ولا يُنبئكَ مثلَ خَبِير» إنّ مِن عزائمِ الله في الذِّكرِ الحكيم، التي عليها يُثيب ويُعاقِب، ولها يَرضَى ويسخط ...))[3].

(الحَذر الحَذر، الجَد الجَد)إشارتان تحذيريتان، بدأ بهما الكلام للفت الانتباه، وشدّ السامع، وتُمهدان لما أراده بالآية المباركة(إذ نبّه باقتباسِ الآيةِ على أنّ الواعظَ له خبيرٌ بأحوالِ طريق الآخرة وأهوالِها، ولا يخبر بحقائقِ الأمور كالعارفِ بها)[4].

وتكرّر مثل هذا الأمر في غير موضع، حين ختم مذكراً، ومُنبّهاً بآيٍ مِنَ الذِّكر الحَكِيم[5].

وقال عليه السلام:((أيُّها الناس كلّ امرئٍ لاقٍ ما يفرّ منه في فِرارِه، والأجلُ مساقُ النفسِ، والهَرَبُ مِنهُ موافاتُهُ))[6].

وتذكيره(كلّ امرئ مايفرّ منه من فراره)من قوله تعالى:(ولو كنُتم في بروجٍ مشيّدة)[7].

ومن قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ

---

(١) سورة ق/ ٢١.

(٢) سورة فاطر/ ١٤ .

(٣) نهج البلاغة، خ(١٤٩)، ج٢/ ٥٦ .

(٤) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٦٢ .

(٥) ينظر: نهج البلاغة، خ(١١٠)، ج١/ ٢٢٢، حيث ختم هذه الخطبة بالآية(١٠٢)من سورة آل عمران.

(٦) نهج البلاغة، خ(١٤٥)، جـ ٢/ ٤٥ .

(٧) سورة النساء/ ٧٨

عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

الملاحظ أنَّه عليه السلام ساقَ كلامَه في معرضِ التذكير، والمُدرَك من قولِه: (أيُّها الناس)، وأقام عليه السلام دلالته اعتماداً على العَودِ الحَتمي في ذهنِ المُتلقِّي إلى التعبيرِ القرآني أو معناه، لاسِيّما وانَّه يَعود إلى مُرتكزاتٍ قرآنية تُعدّ من أولويات الحفظ عِند كثيرٍ من المسلمين لارتباطهِ بقضيةٍ مهمةٍ، ألا وهي قضيةُ الموتِ.

ثالثاً : وَظيفةُ الشَّرحِ والتَّعليل .

وكثيراً ما اعتمدعليه السلام الاقتباس، ووظّفه للشرح، والتعليل، ومِمّا يرتجى أن يقوم المفسر بتسليط الضوء على المفاهيم القرآنية لتُسفِر عن معانيها، غير أنَّ الأمام استعان بالنصِّ القرآني ليُفَسِّر بهِ بعضَ المعاني والمفاهيم التي يُريد بيانها للمتلقي عِبرَ الاقتباس.

من ذلك قوله في خطبة له بذي قار ، وهو متوجّه إلى البصرة ، ذاكراً النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم :((فصَدعَ بما أُمِرَ به ، وبَلّغَ رسالاتِ ربِّه ، فلمَّ به الصَّدع ، ورتقَ بهِ الفَتق ، وألّفَ بهِ الشَّمل بينَ ذوي الأرحامِ بَعد العداوَةِ الواغرةِ في الصدور ، والضَّغائنِ القادحة في القلوب))[2]

النصُّ في مقام الثناء على المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، وبيان فضلهِ على الأمة، والمفردات (صَدعَ، رتقَ، فتقَ) استحضرت معها ظِلالاً من المعاني الساندة لهذا الشرح، وهي إحالات إلى آيات قرآنية، منها: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4]، وكذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن

(١) سورة الجمعة / ٨ .

(٢) نهج البلاغة، خ(٢٢٦)، ج٢/ ٢٥٣ .

(٣) سورة الحجر/ ٩٤ .

(٤) سورة الأنبياء/ ٣٠ .

لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

من الصعب أن نجد مفردةً واحدة تستدعي معها نصّاً عرف بها وعُرفت به، فيصبح حضورها طاغياً، ومُوحِياً في النصّ الذّي استضافها.

وعلى الرَّغم مِن كونها مفردات، إلاّ أنّ ما يرافقها من عبارات مكثّفة أدّت وظيفةَ الشَّرحِ والبيان لما قام بهِ رسولُ الله ﷺ .

لقد كانت إشارات دالة، أحسن الإمام توظيفها في النص، مثلما فعل في مواضع أخرى[2] .

واستحضر قوله تعالى:﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[3]، ليعلل به فقال:((لاتأمننّ على خير هذه الأمة عذاب الله، لقوله سبحانه وتعالى «فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» ولاتيأسنّ لشر هذه الأمة من روح الله لقوله تعالى «إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»[4].

وقال ابنُ أبي الحديد: «والاحتجاج بها جيّد لاشُبهةَ فيهِ »[5].

من ذلك أيضاً قوله عليه السلام: ((بعثَ اللهُ رسلاً بما خَصّهم بهِ من وَحيِهِ ، وجعلهم حُجّةً له على خَلقِهِ لئلا تَجب الحجَّةُ لهم بتركِ ألاعذارِ إليهم ، فدعاهُم بلسانِ الصِّدقِ إلى سبيلِ الحقِّ))[6].

والقول : (وجعلهم حجّة له على خلقه لئلا تجب الحجة لهم بترك الأعذار إليهم)

(١) سورة المائدة / ٦٧ .

(٢) ينظر:الفصل الأول، ص :١٦-٣١.

(٣) سورة يوسف/ ٨٧.

(٤) نهج البلاغة، خ(٢٧٧)، حـ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٥) شرح ابن أبى الحديد، جـ١٩/ ٢٧٤ .

(٦) نهج البلاغة، خ(١٤٠)، ج٢/ ٣٦ .

من قوله تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(1)، وفي هذا تعليل ظاهر اعتمده من أصل الآية المقتبسة مع إبدال بسيط في بعض مفرداتها .

وقال مقتبساً من قول رسول الله ﷺ : (إنّ أخوف ما أخاف عليكم اتّباع ألهوى وطول الأمَل ، أمّا الهوى فإنَّه يَصِدّ عنِ الحق ، وأما طول الأملِ فيُنسِي الآخرة(2): ((و إنّ أخوف ما أخاف عليكم؛ اتّباع الهَوى وطول الأمل))(3).

واستحضر من قول المصطفى ﷺ :((إيّاكم والحَسَد ، فإنَّ الحسَدَ يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطبَ))(4)، في قوله عليه السلام: ((ولا تحاسَدوا فإنَّ الحسدَ يأكلُ الإيمانَ كما تأكلُ النارُ الحطب))(5)، وهو توظيف للحديث النبوي الشريف، وإن كان بشيءٍ من التصرف المقصود، وهو في مقام التعليل أيضاً(6) .

باستخدام هذا الحديث أراد الإمام أن يُوَسّع دائرة فهم المتلقي نظراً لأهمّية الموضوع الذي طرحه، فهو لم يقف عند حدودِ نهيه عن الحسد، بل أعطى تعليلاً لذلك، فهو نهيُ مُعلّل، وضّح فيه سبب النهي عن الحسدِ فاستحضر الحديثَ النبوي الشريف، وربطهُ مع ما سبقه بالرابطة:(فإنّ).

قد يأتي بالنصِّ القرآني ليشرحه، أو يوضّح معناه، كقوله عليه السلام مُفسّراً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ

---

(1) سورة النساء/ ١٦٥.

(2) بحار الأنوار، ج٦٧/ ٧٥.

(3) نهج البلاغة، خ(٢٧)، ج١/ ٦٨.

(4) ينظر:صحيح الترمذي ، جـ ٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩ . صحيح البخاري حـ ٣/ ٢٧١، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف حـ ٦/ ٣١ .

(5) نهج البلاغة، خ(٨٢)، جـ١/ ٤٩ .

(6) ينظر خصائص الجملة العربية في نهج البلاغة، ص:١٥٠ .

﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾(1)، فقالعليه السلاممفسّراً: ((العدل:الإنصاف، والإحسان:التفضل))(2)، وقال ابنُ أبى الحديد:((وهذا تفسيرُ صحيح اتّفق عليه المفسّرون كافة))(3)، ولم يقف هذا التوظيف عند هذه الأمثلة فقط، في النصوص النهجية(4).

رابعاً : وظيفةُ التَّرغيبِ والتَّرهِيب :

للترغيب والترهيبِ دورهما في نصوص النهج، لإدراكهعليه السلام ما لهذين الأمرين من أهمية في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بطريقة لا يظهر هذا الأمر والنهي صريحاً بألفاظه المعهودة.

ولقد وظّف قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾(5)، وقوله تعالى:﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾(6)، مرغّباً في وصيّةٍ لهعليه السلام قبيل وفاته لمّا ضربَهُ ابنُ ملجم(لع): ((أنا بالأمسِ صاحبكم واليوم عبرةٌ لكم، وغداً مفارقكم، إنْ أبقَ فأنا وليّ دمي ، وإنْ أفنَ فالفناء ميعادي ، وإنْ أعفُ فالعفو لي قُربَة ، وهو لكم سنّةٌ فاعفوا: «أَلَا تُحبّون أنْ يغفر اللهُ لكم » واللهِ ما فجأني من الموتِ واردٌ كرِهته ، ولاطالعٌ أنكرتَه ، وما كنت إلّا كقاربٍ ورد ، وطالبٍ وجد «وما عند الله خيرٌ للأبرار»))(7).

---

(1) سورة النحل/ ٩٠ .

(2) نهج البلاغة، خ(٢٣١)، حـ٣/ ٢٤٠.

(3) شرح ابن أبي الحديد، جـ١٩/ ٥٤ ٠ وينظر:منهاج البراعة ، للخوئي ، ج٢٠/ ٣٠٠. وينظر:في ظلال نهج البلاغة ، ج٢/ ٣٥٥.

(4) ينظر: نهج البلاغة، حـ٦/ ١٧١، حـ ٩/ ٧٧، حـ ١٨/ ٣٣١، حـ ١٩/ ٢٧٤.

(5) سورة النور/ ٢٢.

(6) سورة آل عمران/ ١٩٨.

(7) نهج البلاغة، وصية(٢٣)، جـ٣/ ٢٤ ـ ٢٥.

بنسقٍ صوتي منسجم حزين يلقي قوله تعالى في وصيته مُغرياً بالعفو، ليصلوا بهِ إلى مغفرة الله، في جُملٍ خبريَةٍ مسجوعةٍ، تبعتها جملٌ شرطية، حاضرة الجواب، يتلوها أمرٌ عزّزه بعرضٍ، وإغراء إلهي يحثُ على العفو ، وُيرغّب فيه.

ينتقل بعدها بالمتلقين نقلةً كبيرةً حين يتحدّث عن نفسه عليه السلام مؤكداً قبل ذلك بقسم صريح(والله)سبق جملتين منفيتين بحرفي(ما) و(لا):(ما فجأني من الموت واردٌ كرِهته ولاطَّالعٌ أنكرته)ثم أكّد قوله هذا باسلوب القصر المتحقق بالنفي والاستثناء(ما كنت إلاّ كقاربٍ ورد، وطالبٍ وجد)وهو نوع من أنواع التوكيد، حيث هناك الخير للأبرار(وما عند الله خيرٌ للأبرار) انّه عرضٌ، وترغيبٌ، وكلامٌ محمول على الندب[1].

ولعب قوله تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾[2]، دوراً في الترغيب وبث الأمل في النفوس، حين اقتبسها وتلاها عقب قوله عليه السلام:((لَتعطفَنَّ الدنيا علينا بعد شَماسِها عَطف الضروسِ على ولدِها))[3].

شبّه الدنيا بالناقةِ الشموس في استعارة مكنية دلّت عليها إحدى خصائصها وهي(شماسها)، والناقة الشَموس هي التي تَستعصي على راكبِها، والضروس:السيّئة الخلق، والتي تَعَضّ حالبها، غير أنّها مع ذلك تعطف على ولدِها.

واللام في(لتعطفَنَّ)يدلّ على المباشرة والقرب، فيكون المعنى أنّ الدنيا على قساوتها مع اتباع أهل البيت عليهم السلام ستعطف عليهم وإذا كان هذا الأمر مُستغرباً كغرابةِ ركوبِ ناقةٍ شموس أو الاقتراب منها، فإن الإمام أكّد هذا الأمر وقرَّبه، ورغّبَ في حصولِه في أقرب وقتٍ، وبهذا يتّسم النصّ بوضوحِ المعنى والقدرة على التشويق وزرعِ الأملِ في النفوس.

---

(١) ينظر:شرح ابن أبي الحديد، جـ ١٥/ ١١٢.

(٢) سورة القصص/ ٥ .ينظر:بهج الصباغة، التستري حـ ٣/ ٤٩٥.

(٣) نهج البلاغة، ح(٢٠٩)، جـ ٢/ ١٩٨

لقد تكلّم بما يحرك فيهم الأمل الراقد ، والأمنيات الخامدة لتكون مناراً في بحرٍ مُتلاطم من الهَمِّ، والأحزان ، والانكسارِ بفعل الضربات النفسية المُوجَّهة لهم من الناكثينَ، والمارقينَ، والخارجين.

ومن شواهد التوظيف الدلالي للاقتباس ليؤدي دورَ الترهيب قوله عليه السلام مُذكّراً ومُرهّباً من عذاب يوم المحشر ، والاستعداد لذلك اليوم الذي تُبعثَر فيه القبور:((فكيفَ بكُم لو تاهت بكم الأَمورُ، وبُعثرَت القبورُ: «هنالك تبلو كلّ نفسٍ ما أسلفت، ورُدّوا إلى اللهِ مولاهم الحقّ وضَلّ عنهم ما كانوا يَفتَرون»))[1]

بدأ كلامَه باستفهامٍ لا على سبيل السؤال، بل للتذكير والترهيب من تلك الحال، حين يتركون الدنيا وما فيها ، ويخرجون من قبورهِم وحفرهِم كلٌّ بعملهِ، انه استفهام مُغطّى بنبرةِ الترهيب.

و(بُعثرت القبورُ)تركيبٌ قرآنيٌّ[2] له وقعه الكبير في النفوس، لما يرتبط به من مَعان مُنفّرة، وبما يحمل من ظِلالٍ معنوية، رافقته، واقترنت بهِ أينما حلّ وذكر، إنه استدعاء لمعانٍ خفيّة أُخَر، خفية بألفاظها حاضرة بآثارها، وتُستحضَر من خلال السياق الذي استنفرها من الخزينِ الثقافي للمسلم على وجهِ الخصوص.

وهو تركيب مُتكوّن من مُفردتين قرآنيتين لهما من الفصاحة والبلاغة، والبيان والظهور، مالا يمكن لغيرهما أن تثبت من المعاني المُنبَعثة عنهما «فالألفاظ القرآنية لها من الفصاحةِ والبلاغةِ، والبيانِ والظهورِ مالا يُدانيها كلام » [3].

وإحضار النص القرآني ساعد على تعزيز الترهيب، والآية المُنتَقاة في النصِّ[4]

---

(١) نهج البلاغة، ح(٢٢١)، ج٢/ ٢٧٤ .

(٢) من قوله تعالى: " وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ " الانفطار/ ٤ .

(٣) أساليب البيان في القرآن، ص:٨٢ .

(٤) سورة يونس/ ٣٠ .

ترهيبٌ، وتخويفٌ بتلك الأهوال ليذكروا شِدَّتها فيفزعون إلى العَمل[1].

وفي خطبة أخرى نلمح ترهيباً ، وتحذيراً من خداع الدنيا، وسوء منقلبها فهي((دارُ حربٍ وسَلبٍ، ونَهبٍ ، وعَطَبٍ))[2]، وأهلها((على ساقٍ وسياق ، ولحاقٍ وفِراقٍ))[3]، وهم بعد فراقها بين((عاضٍّ على يديه، وصافقٍ بكفَّيه ، ومُرتَفقٍ بخَديَّه ، وزارٍ على رأيه، وراجعٍ عن عزمِهِ))[4]، ما العمل((وقد أدبرت الحيلةُ ، وأقبلت الغيلةُ ولاتَ حينَ مَناص !هَيهات ، هَيهات! قد فاتَ ما فات ، وذهبَ ما ذهب ومضَت الدنيا لحالِ وبالِها! فما بكت عليهم السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظرين))[5].

بعد تصوير بياني متحرك بفعل الجمل الفعلية، تطلّ الآية بدلالتها على الترهيب، والتهويل، لمن نسي الآخرة، ولم يعمل لها، سوف لن تبكي عليه السماء، والمراد بهم الملائكة وأهل الأرض ـ لأنهم لا يستحقون أن يتأسف عليهم[6]، ويرى ابن أبي الحديد أن المراد المبالغة في تحقير شأنهم[7].

خامساً : وظيفةُ التَّهديدِ والوَعيدِ :

اخذ الاقتباس دوره الواضح في التهديد والوعيد ، فانسلّت كلماته عليه السلام كالسيوف والسِّهام في قلوب من قَصَدهم من خلال الاقتباس ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتاب له عليه السلام أرسله إلى معاوية ، وقد ختمه بآيةٍ قرآنيّةٍ[8] مُهدداً،ومُتَوعِّداً فقال:((...وأنا مُرقِلٌ نحوكَ في جَحفلٍ منَ المهاجرين ، والأنصار، والتابعينَ لهم بإحسانٍ ،شَديدٌ

(١) تفسير ابن ميثم البحراني، ج٢/ ١٥٠.
(٢) ينظر:نهج البلاغة، ح(١٦٨)، ج٢/ ١٥٩.
(٣) ينظر:المكان نفسه.
(٤) المكان نفسه.
(٥) المصدر نفسه، ج٢/ ١٦٠.
(٦) ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١٣/ ١٩.
(٧) المكان نفسه.
(٨) سورة هود/ ٨٣.

زحامُهُم ،ساطِعٌ قَتامُهُم ، مُتَسَربلين سربالَ الموتِ ، أحبّ اللقاء إليهم لقاءِ ربِّهم وقد صَحِبتهُم ذريَّةٌ بَدريَّةٌ ، وسيوفٌ هاشميَّةٌ ، قد عَرفتَ مواضِعَ نَصالِها في أخيكَ وخالِكَ وجَدِّكَ ، وأهلِكَ « وما هيَ منَ الظَّالمينَ بِبَعيد »))[1].

إن ورود الآية في تهديد الكافرين بحجارة من سجّيل ينذر بالوعيد،وكان خطابه مع الموحدين،لما خرجوا عن أمره،وطلبوا ما ليس لهم من إمارة،بدليل وقوع القتل والدماء بينهم،وبقرينة التصريح حين اقتبس الآية «وما هي من الظّالمين ببعيد».

واتساق الجمل،وانتظامها في هندسة إيقاعية حادّة كان له الوقع في نفس المتلقي، بما يعزّز الوعيد ويرفده؛ (شديد زحامها،ساطع قتامه ،متسربلين سرابيل الموت).

وبعد تهديده معاوية بالذرّية البدرية،والسيوف الهاشمية،والتي يعلم معاوية أثرها،وأفعالها في بدر وحنين؛ استحضر قوله تعالى: «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»،وعند الرجوع إلى سياق الآية المباركة نجد أن الضمير المتصل يعود إلى نار جهنّم،وسياق كلام الإمام يشير إلى السيوف،عند ذلك ندرك معنى تشبيهها بنار جهنم باعتبارها ستردي معاوية فيها.

وله كتاب مماثل بعثه إلى معاوية أيضا،مهدداً بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[2]، بعد أن كتب له: ((.. واحذَر أن يُصيبَكَ اللهُ منه بعاجلِ قارعَةٍ تَمَسُّ الأصلَ،وتَقطَعُ الدَّابِرَ!فإنّي أُولي لكَ باللهِ أليَّةً غيرَ فاجِرَةٍ:لَئِن جَمَعَتني وإيَّاكَ جوامعُ الأقدارِ لا أزالُ بباحَتِكَ « حَتَّى يحكُم اللهُ بُينَنا،وهوَ خيرُ الحاكِمين»))[3].

وفي ذلك غليظُ الوعدِ بعذابٍ شديدٍ[4]، ويَقسم له قَسَماً غير فاجر أن لَو اجتمع بهِ في ساحة الحربِ،لا ينصرفُ منها حتى يحكم اللهُ بينهما بما ستؤولُ له المعركة.

---

(١) (٥) نهج البلاغة، ك(٢٨)،ج٣/ ٤٠.

(٢) سورة الأعراف/ ٨٧.

(٣) نهج البلاغة،ك(٥٥)،ج٣/ ١٢٤.

(٤) ينظر:شرح ابن ميثم البحراني،جـ ٢/ ٤٦٧

ومن أمثلة ذلك قوله عليه السلام : ((أما أنَّكم سَتَلقَون بَعدِي ذُلاً شامِلاً وسَيفاً قاطِعاً، وأثرةً يَتَّخِذُها الظالمون فيكُم سِنَّةً))[1]، وفي هذا القول اقتباس توظيفي من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبا الأنصار: ((ستلقونَ بعدي أثرةً فاصبروا حتّى تلقوني على الحَوض)) [2].

سادساً : وَظِيفةُ الإيجازِ والتَلخيص .

للإيجاز مكانتُه البارزة في البلاغة العربية،فهو أصلُها،وروحها[3]، وأصبح موضع عناية البلاغيين، واللغويين،والنقاد القدماء والمحدثين وإن كان بعضُهُم قد أطلق عليه مُسمّياتٍ جديدةً[4] .

استطاع الإمام عليه السلام أن يُبلور أفكاراً كبيرة في بضع كلمات جاءت كمنارات مضيئة،تكشف زوايا النص، بفضلِ إفادته من قبسات قرآنية،وإضاءات من الحديث النبوي الشريف،من مصاديق ذلك قوله عليه السلام حين سُئِلَ من بعض أصحابه:كيف دفعكم قومُكُم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به؟ فقال:((...حاول القومُ إطفاء نور اللهِ من مِصباحِهِ ، وسَدّ فَواره من يَنبوعِه ، وجَدَحوا بيني وبينهم شِرباً وَبِيئاً ، فإن ترتفع عنَّا وعنهُم مِحن البَلوى أَحملهُم منَ الحقّ على مَحضِهِ،وإن تكن الأُخرى« فلا تذَهَب نفسُك عليهِم حسرات إنَّ الله عليمٌ بما يصنعون»))[5].

(جَدَحوا بيني وبينَهُم شِرباً وَبِيئاً): أي خَلطوه،ومَزجوه، وأفسَدوه،والوبيء:ذو الوباء والمرض،وهذه استعارة تصريحيه،وكأنّه جعل الحال التي كانت بينَه وبينهم قد

(١) نهج البلاغة،خ(٥٧)ج١/ ١٠٢.

(٢) صحيح البخاري،ج٥/ ١٠٤. صحيح مسلم،ج٣/ ١٠٩. مسند احمد،ج٣/ ٥٧. سنن النسائي،ج٨/ ٢٢٥. وورد بصيغة : ((فاصبروا حتّى تلقوني ، ومَوعدكم ألحَوض)).صحيح ألبخاري ، ج٤/ ٢٢٥.

(٣) فن الاستعارة ص: ٣٣٣

(٤) سماها محسن أطيمش بالتكثيف عند ما تحدث عن الصورة البيانية في الشعر.ينظر:دير الملاك،دار الرشيد للنشر،بغداد،١٩٨٢م،ص:٢٧٣،ص:٢٧٣

(٥) نهج البلاغة،خ(١٥٧)،جـ٢/ ٨٠ ـ ٨١.

أفسدها القومُ،وجعلها مظنّة الوباء والسقم كالشراب الذي يُخلط بالسمِّ،أو بالصَّبرِ فيفسد ويوبُيء[1] .

والحال هنا بين أمرين؛فإن كشف اللهُ عنه هذه المحن حملهم على الحق الذي لا يُمازجه باطل،كاللّبنِ المحض الذي لا يخالطه شيء من الماء(على محضِه)،وإن تكن الآخر،أي:إن اختاروا الباطل وابتعدوا عن سبيل الحقّ،فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وهو اقتباسٌ قرآنيُ ظاهر[2].

بهذا لخّصت الآية الموضوع كله،وجعلته في بؤرة دلالية مركزة أمام المتلقي،لأنَّها جاءت نتيجة لما قدمه الإمام عليه السلام،ولما تَتَضمَّنه من قِيمٍ دلاليَّة مُتعالية .

واستدعى قوله تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3]، ليوظفها في قوله عليه السلام:((اللهم لا تُؤاخذني بما يقولون))[4] ، لقد عَبّر بإيجازٍ شديدٍ عن أمرهِ مع قومه،فدلّت على أمور عديدة؛منها ظلمهم له،وعدم طاعتهم له، وبراءته مما فعلوا .

وقال: ((فبادروا بأعمالِكم تكونوا مع جيرانِ اللهِ في دارِه،رافق بهم رسلَه،وأزارَهُم ملائكتَه،وأكرم أسماعَهُم أن تسمع حسِيس نار أبداً وصانَ أجسادَهم أن تلقى لُغُوباً ونصباً:« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»))[5].

إنَّ مآل العمل الصالح رِفقةِ الرّسلِ والملائكةِ،وصيانة الأسماع عن النار والأجساد

---

(١) شرح ابن أبي الحديد جـ ٩ / ١٩٩٠

(٢) ينظر:المصدر نفسه،جـ ٩/ ٢٠٠

(٣) سورة البقرة / ٢٨٦.

(٤) نهج البلاغة،خ(١٨٨)،جـ ٢/ ١٨٧ ٠

(٥) نهج البلاغة،خ(١٧٨)،ج٢/ ١٣٦ – ١٣٧.

عن اللغوب والنَّصَب، هذا هو فضلُ اللهِ الذي يُؤتيهِ مَن يشاء، لقد وُظِّفَت الآيةُ لضغط المعنى ، وتلخيصه، وإيجازه، واستطاع أن يجعلها مثيرة ، ودالة إلى معنى مكتنز في ذهن المتلقي، من خلال تعليق المعنى في ذهنه عبر هذه الآية،فكانت وسيلة لا غاية عنده .

وتمظهر التلخيص عبر آلية الاقتباس في قوله عليه السلام لما سأله رجل عابد يدعى (همام) عن صفات المتقين، وكأنّه ينظر إليهم،فتثاقل الإمام عن جوابه،ثم قال له يا همام اتَّقِ الله وأحسن: «فإنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»[1].

لم يتحمل همام هذا التخليص ، والتكثيف ، فطلب جواباً غيره[2]، إنّ تلخيصاً تحمل كلماتُهُ إشارات ، وتداعيات متنوعة.

واستعار من الحديث النبوي الشريف لتلخيص المعنى وإيجازه قوله عليه السلام في وصيةٍ له لابنه الحَسَن عليهما السلام: ((٠٠ فأحبِب لغيرِكَ ما تحب لنفسِكَ واكرَه لهُ ما تكره لَها))[3]، وهو من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا يُؤمِن أحدُكُم حتَّى يحبّ لأخيهِ ما يحبّ لنفسِهِ))[4]، أضاف الاقتباس إضاءات جديدة للنص، وجاء مجسّداً للرفض الضِّمني من خلال طَرح النقيض له،والمُستَوحى مِنَ النفي الصريح في الحديثِ النَّبويِ الشَّريفِ

سابِعاً: وَظيفةُ المدحِ والذَّم :

وللاقتباسِ وظيفةٌ في المدح والذمّ،استطاع الإمام أن يُفيد من هذا التوظيف في نصوصه،فبدت حاملة لصور حِسيِّة تحقق الإمتاعَ عند المتلقي،وتظهر بما ينسجم مع شعورهِ في حالتَي القَبولِ والرَّفضِ،فيتفاعل معها.

واقتبس بعضاً من التراكيب القرآنية فوظَّفها في المدحِ والذم، ومن هذه التراكيب

---

(١) نهج البلاغة،خ(١٨٨)،ج٢/ ١٨٥٠

(٢) ينظر:شرح ابن أبى الحديد،ج١٠/ ١٨٦٠

(٣) نهج البلاغة،وصية(٣١)،ج٣/ ١٥٠

(٤) السنن الكبرى،ج٦/ ٥٣٩. المعجم الكبير،للطبراني،ج٨/ ٣٠٨.

(حزب الله) في كتاب أرسله إلى عامله في البصرة(عثمان بن حنيف) ، وقد بَلَغه أنّه دُعِيَ إلى وليمةِ قوم من أهلها:ومّما جاء فيه: ((طُوبى لنفس أدّت إلى رَبِّها فَرضَها ؛ وعَرَكت بجَنبِها بُؤسَهاً ، وهَجَرت في الّليلِ غمضها، حتى إذا غلَب الكرى عليها افترشت أرضها ، وتوسّدت كفَّها ،في مَعشرٍ أسهرَ عيونَهُم خوفُ معادهِم ، وتجافَت عن مضاجِعِهم جنوبُهُم ، وهَمهمت بذكرِ ربِّهم شفاهُهُم ، وتقشّعت بطولِ استغفارِهم ذنوبُهُم» أولئكَ حزبُ الله ، ألا إنَّ حزبَ اللهِ هُمُ المفلِحون « فاتَّقِ الله يا ابنَ حُنَيف ، ولتَكفِك أقراصُكَ؛ ليكون منَ النّارِ خلاصُك))[1].

بعد نصح وارشادٍ لابن حنيف، وتذكيرٍ بالآخرة، ختمَ كتابه بهذا المقطع، حاثّاً إيّاه على التقوى، فالفوز والجنّة لِمَن طَوّع نفسَه على تأدية الفرائض، وعَركَها:(صَبَّرها)[2]، على بُؤسٍها ، وطَوّع نفسَه على هجر النوم والكرى ، ولم يكن له فراش إلاّ الأرض ، ولم تكن وساده إلّا الكف[3] ، وكان في معشرٍ شغلهم ذكرُ المعاد، والخوفُ منه، وتجافت عن مضاجعِهم جنوبُهم ـ وهو لفظٌ من ألفاظ الكتاب العزيز ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[4]، وكثر ذكرُ ربِّهم على شفاهِهِم، وزالت ذنوبُهُم بطولِ الاستغفار، فأولئك هُم حزبُ الله .

بعد بيانِ صفاتِ المؤمنين خَلُصَ إلى مدحهم بأنّهم حزب الله الفائزون برحمتِهِ، ومَهّد لهذا المدح بمدحٍ ضمني تحقّق بفعل التركيب القرآني المُقتبَس «وتجافَت عن مضاجعِهم جنوبُهُم » ، وقدٍ يستقلُّ لفظٌ واحدٌ ـ لاعبارةٌ كاملة ـ برسم صورة شاخصَة،تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن،وتارة بظلّه الذي يلقيه في الخيال، وتَارة بالجرس والظلّ جميعاً[5].

واستطاع بما يمتلك من مقدرة فنيّة توجيه الاقتباس إلى موارد الذمِّ في كتابٍ

---

(١) نهج البلاغة،ك(٤٥)ج٣/ ٠٨٤

(٢) ينظر:شرح ابن أبى الحديد،جـ١٦/ ٢٣١

(٣) ينظر:المكان نفسه ٠

(٤) سورة السجدة/ ١٦

(٥) ينظر:النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، ط ١٤٢٤،٨ هـ، لسنة ٢٠٠٣م، ص:٤٦.

بعثه إلى (المنذر بن الجارود)وقد خانَ في بعضِ ما ولّاه من أعمال((أما بعد فإنَّ صلاحَ أبيكَ ماغرّني منكَ،وظننت أنَّكَ تتبع هديَه،وتسلك سبيلَه، فإذا أنتَ فيما رُقِيَ إليَّ عنك لا تَدع لهَواكَ انقياداً،ولا تبقي إلى آخرتِكَ عتاداً تُعمِّر دنياكَ بخرابِ آخرتِك وتصلُ عشيرتَك بقطيعةِ دينَك ولأن كان ما بَلغَني عنكَ حقاً،لجمل أهلِكَ وشَسعِ نَعلِكَ خير منِك))[1].

زخر النصُ بالاقتباسات القرآنية فغدت ومضات بين ثناياه تدلّ على معانٍ جاءت بها معها،إذ مثل قوله عليه السلام: (لا تَدَع لهواكَ انقياداً) شاهداً على ذلك،فهو انعكاس لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2]، وكذلك في قوله:(وتعمر دنياك بخراب آخرتك)، فهو يعيدنا إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[3]، وقوله تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[4] ظاهر أثره في قوله عليه السلام:((وتصل عشيرتك بقطيعة دينك)).

فَمَن اتّبع هواه،وباعَ آخرتَه بدنياه،وعَمّرها بخرابِ آخرتِه – وهو تصوير كاشف ساقه الإمام في مورد الذمّ ـ كان من الطبيعي أن يكون جملُ أهلِه،وسَشع نَعلِه خيرٌ منه،وما كان الوصول إلى هذه المقارنة بالأمر الممكن لولا هذا التمهيد الذي صَبَّهُ الإمام على ذلك الشخص عبر توظيف النصوص القرآنية المقتبسة .

وثَمّة مثل آخر كرَّس فيه الاقتباس لذمِّ أولئك الذين انقلبوا على أعقابِهِم بعـد

(١) نهج البلاغة،ك(٧١)،حـ٣/ ١٤٥
(٢) سورة الجاثية / ٠٢٣ وينظر :بهج الصباغة،التستري،حـ٨/ ١١١
(٣) سورة البقرة/ ٠٨٦ وينظر:بهج الصباغة، التستري،حـ٨/ ٠١١١
(٤) سورة التوبة / ٢٤. و ينظر:بهج الصباغة، التستري، حـ٨/ ٠١١١

وفـاة رسـول الله ﷺ بقوله عليه السلام :((··· حتّى إذا قبضَ اللهُ رسولَه ﷺ رجع قومٌ على الأعقابِ، وغالتهم السُّبلُ، واتّكلوا على الولائجِ ، ووصلوا غيرَ الرّحم،وهجَروا السّبب الذي أُمِروا بمودّته ونقلوا البناء عن رصّ أساسه،فبنوه بغير موضعه))[1]، ويبدو انعكاس النصِّ القرآني: (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)، جليّاً[2] في بيان صورة الذم لهؤلاء.

وخرج بالاستفهام المتتابع إلى غرض مجازي آخر،وهو الذم في أحد كتبه المرسلة إلى معاوية جواباً: ((·· ثم ذكرتَ ، ما كان من أمري وأمر عثمان،فلكَ أن تُجاب عن هذه لرحمِك منه،فأيّنا كان أعدى لهُ ؟ وأهدى إلى مقاتلهِ؟ أمَّن بذلَ له نصرتَه فاستقعدَهُ، واستكفَّهُ؟ أمّن استنصرَه فتراخى عنه وبثّ المنون إليه حتّى أتى قدَرُهُ عليه؟، كلا والله: لقد علم اللهُ المُعَوِّقينَ منكم، والقائلينَ لإخوانِهم هَلُمَّ إلينا ولا يأتونَ البأسَ إلّا قليـلاً))[3].

نحن إزاء سيل من الأسئلة الاستنكارية،الدّالة على الذمِّ والاستهجانِ في نَسَقٍ من الجمل الحادة بوقعها، والمتحقق بهذه الاستفهامات والاستنكارات(كلا)، و(القسم)، حتى يصل الإمام إلى ذروة الذمّ لمعاوية باستدعاءٍ قرآني صريح[4]، ليَعقِد به تشبيهاً له بمن تكلمت الآيةُ عنهم، مثلما وصفه – في كتاب آخر بعثه له – بالشيطان[5]

وهكذا الحال في توظيف قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[6]، في ذمّ هذا النوع من الناس الموجود في كلّ زمان

---

(١) (٥) نهج البلاغة،خ(١٤٦)، جـ٢/ ٤٨-٤٩ .

(٢) (٦) سورة الشورى/ ٢٣.

(٣) (١) نهج البلاغة،ك(٢٨)، جـ٣/ ٣٨ـ ٣٩

(٤) (٢)سورة الأحزاب/ ٠١٨

(٥) (٣)ينظر:نهج البلاغة،ك(٤٤)،جـ٣/ ٠٧٧

(٦) (٤) سورة البقرة/ ٠٤٤

ومكان فقال: ((لعن اللهُ الآمرينَ بالمعروفِ والتاركينَ له، والناهينَ عن المنكر والعاملينَ به))[١]، فعدل عن الأسلوب الاستفهامي الاستنكاري إلى أسلوبٍ إنشائي، واعتمد فنَّين من البديع، وهما الموازنة، والطباق،مُتحققان بالنَسَقِ الواضحٍ في التركيبين،وفي الألفاظ: (الآمرينَ، الناهينَ)، (المعروف والمنكر)، (التاركين له،العاملين به)، والمشتركة بعامل واحد وهو(لَعَن) العائد إلى الله جل وعلا، والفعل(لَعَنَ) يُصرِّح بالذمّ،قال ابن أبي الحديد: « ومن قولهعليه السلام ظاهر الذمّ بالقول: لعن»[٢].

وجاء الذمّ بالمعنى الذي تستصحبه الآية المباركة، من حديث عن الأحبار الذين كانوا يأمرون أقاربهم باتّباع محمدصلى الله عليه وآله وسلم ولا يتّبعونَه،أو يأمرون بالصَّدقةِ ولا يتصدَّقون[٣].

ولهعليه السلام نماذج أخر لهذا النوع من التوظيف[٤] .

ثامناً: وظيفةُ النصحِ والإرشاد .

ويتجلّى هذا التوظيف في الخطب أكثر من سواها،لما لها من تأثيرمباشرعلى الجمهور «حيث يستثمر الخطيبُ العقل الجمعي لدى الجمهور في إحداث الإثارة المُشار إليها»[٥].

من أمثلة ذلك قولهعليه السلام في كلام كان يوصي به أصحابه، ومما جاء فيه:((تعاهَدوا أمرَ الصلاة ، وحافظوا عليها واستكثروا منها ،وتقرّبوا بها ، فإنّها كانت على المؤمنين كِتاباً موقوتاً،ألا تسمعون إلى جوابِ أهلِ النار حيث سُئِلوا : «مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ،قَالُوا

(١) نهج البلاغة،خ(١٢٥)،جـ ٢/ ٠١٧
(٢) شرح ابن أبى الحديد،جـ ٢/ ٠١٧
(٣) ينظر:من كنوز القرآن،ص:١٧٤٠
(٤) نهج البلاغة،خ(٣٨)ج١/ ٢٨٦.
(٥) التفسير البياني، ص:٥.

لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ»، وإنها لتحتّ الذنوب حتَّ الورق، وتطلقها إطلاق الربق))[1].

تقاسم النصَّ اقتباسان ؛ الأول من قوله تعالى: « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى»، وهو اقتباس غير مباشر ، والثاني تمثل في صورته الظاهرة في النص[2]، والآية المقتبسة اقتباساً مباشراً أتت داعمة ، ومُعزّزة لتوكيد أهمية الصلاة ، و الحفاظ عليها ، وهما في مقامِ التّذكيرِ ، والوَعظِ ، والنصحِ والإرشاد .

كما وظّف قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[3]، في قولهعليه السلام:(والله مستأديكم شكره وموّرثكم أمره)[4]، مع الاختلاف بين صيغتي الأمر والإنشاء في كل منهما، إلا أنّهما يشيران إلى هدف واحد وهو شكر الله.

وقال: ((إذا حيّيت بتحيّة فحيّي بأحسن منها،وإذا أسدِيَت إليك يدٌ فكافِئها بما يُربي عليها،والفضلُ مع ذلكَ للبادي))[5] وهو قول يعود بنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾[6]، يبدو الوعظ والإرشاد جلياً لا يحتاج إلى مايدلّ عليه،بفعل التصريح بالأمر،عبر الفعل(حَيِّي)،والنزوح بالآية من صيغة الجمع إلى الإفراد في قولهعليه السلام، الذي جاء مختلفاً لاختلافِ المُخاطبِ في كلٍّ منهما.

ومن قول المصطفىصلى الله عليه وآله وسلم:((قد أفلحَ مَن رُزِقَ كَفافاً وقنّعهُ اللهُ بما آتاه))[7]،ليوظفه في النصح والإرشاد بقولهعليه السلام:((ولا تسألوا فيها فوقَ الكفافِ ولا تطلبوا منها أكثر

(١) نهج البلاغة،خ(١٩٤)،ج٢/ ٢٠٤
(٢) سورة البقرة / ٢٣٨.
(٣) سورة القصص/ ٧٣.
(٤) نهج البلاغة،خ(٢٣٦)،ج٢/ ٢٦١ عليها السلام
(٥) نهج البلاغة،خ(٦٢)،ج٣/ ١٦٤.
(٦) سورة النساء/ ٨٦.
(٧) صحيح مسلم، ج٣/ ١٠٢.

مِنَ البلاغ))، وإذا قارنا بين القولين نجد أنَّ الحديثَ النبوي الشريف بصيغةٍ إخباريَّةٍ تفيد فائدة خبرية،وكلام الإمامعليه السلامجاء بصيغة إنشائية تفيد الأمر الحامل للنصح بين جوانحهِ،ولهذا النوع من التوظيف أمثلة أخرى[1]

(١) ينظر:نهج البلاغة،خ(١٦١)،ج٢/ ١٦٧،خ(٢٢٥)،ج٢/ ٢٥٠، ق(١٤٠) ،ج٣/ ١٨٥.

المبحثُ الثاني

التوظيف الفني

يتعاضد التأثير الدلالي،والتأثير الفني في خلق الإفهام، والإمتاع عند المتلقي،ويمتزجان فيما بينهما ليوصلان إلى إضاءات تُنير النص، وتكشف عن مضامينه،وتظهر جمالية بنا ئه بما له من آثار صوتية، أو تركيبية، أو تصويرية.

و ينطلق الحديث في هذا المستوى من الحرف إلى الكلمة فالجملة،وما ينتج عنها من آثار بيانية،وهذا يعني حتمية البدء بالتوظيف الصوتي لماله من علاقة بالحرف والكلمة،مروراً بالتوظيف النحوي لعلاقته بالجملة ،ثم الوقوف عند التوظيف البلاغي لعلاقته بالأثر البياني للجملة العربية،وما بين الجمل من علاقات سياقية،وسيتوزّع الفصل على أهم تلك التوظيفات،والتي توزّعت إلى توظيف صوتي، وتوظيف نحوي،و فنّي

أوَّلاً: التوظيفُ الصَّوتِي .

تمكّن الإمامُ من توظيف الاقتباس من الجانب الصوتي في نصوصه،وجعلها تنهض بالنصّ معنى ومبنى، فتُضفِي عليه مسحة جمالية لها أثرُها الكبير في المتلقي.

إنَّ التركيبَ الصوتي – للمفردات والجمل – ضمن بنية نسيجية مُحكمة يستجلب

معه مسحة جمالية لا تقلّ في تأثيرها عن الكشف الدلالي في النص،فالنصّ الأدبي له قدرة خلق الأثر الجمالي المستحصل بالمعاني والألفاظ مثلما له القدرة على خلق الأثر الدلالي، لاسيّما إذا ما عدنا إلى غايتي العمل الأدبي وهما الإفهام والإقناع(١) ،والجانب الصوتي يسهم في تنامي الأثر الدلالي عند المتلقي ومقدرته الإيحائية،وهو الجامع بين استكمال المعنى وتزيين المبنى .

والاقتباس فنٌّ أدبيٌّ له الحظ الكبير في جمالية النص باعتباره فنّاً بديعاً (٢)، وفي تزيين الكلام وتفخيمه كما يرى فخر الدين الرازي ت(٦٢٦) هـ، في تعريفه له(٣)، وكذلك من وجهة نظر المفهوم الحديث باعتباره آلية من آليات التناص(٤).

لقد ازدان النص النهجي بالأثر الصوتي بفعل الانسجام والتلاؤم بين الحروف والمفردات،أو باختبار الألفاظ الملائمة التي تضفي نسقاً موسيقياً يلقي بظلاله على المعاني المراد نقلها (٥).

من مصاديق ذلك قوله عليه السلام في وصف تردّد جنده،وعدم التحاق كثير منهم لنصرة إخوانهم:((مُنيتُ بِمَن لا يُطيعُ إذا أمَرتُ،ولا يُجيبُ إذا دعوتُ،لا ابالكم ما تنتظرون بنصرِكُم رَبَّكُم،أما دينٌ يجمعُكُم،ولا حَمِيَّةَ تحمِشُكم، أقومُ فيكم مُستصرخاً، وأناديكُم مُتَغَوِّثاً فلا تَسمعونَ لي قولًا،ولا تُطيعون لي أمراً،حتَّى تكشَّفَ الأمور عن عواقِبِ المساءةِ،فما يُدرَك بِكُم ثأرٌ، ولا يبلُغُ بِكُم مرامٌ ، دعوتُكُم إلى نَصرِ إخوانِكُم فَجَرجَرتُم جَرجرَةَ الجَمَلِ الآسَر، وتَثاقلتُم تَثاقُلَ النِّضوِ الأدبَر ثم خَرجَ إليَّ مِنكُم جُنيدٌ

(١) اقترن البيان بالجمال في بحوث الكلاميين والبلاغيين والمفسرين واللغويين عند دراستهم إعجاز القرآن، وهما من أهم مهمات علم الدلالة. ينظر:آيات الابتلاء،د. حامد عبد الهادي حسن،مجلة دراسات إسلامية،بغداد،ع(١)،٢٠٠٢م،ص:٦.

(٢) ينظر:التمهيد، ص : ٨.

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص: ١٤٧.

(٤) جمالية التناص، د . عبد الملك مرتاض، جريدة الجزيرة،ع ١٢٨٧٩،السنة،١٤٢٤هـ ،السعودية، صفحة فنون .

(٥) ينظر:خصائص الجملة العربية في كتاب نهج البلاغة، ص : ٥

مُتذائِبٌ ضَعيفٌ « كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ»))[١] .

كشفت طلائع النص عن ضَجَرِ الامام وتبرّمِهِ،وسخطِهِ من تردد هؤلاء،إلى الحدِّ الَّذي صَرَّح فيه بذلك،فمضى مُوبّخاً بأسلوب استفهامي تعجبي(أما دين يجمعكُم،ولا حشمةَ تحمشكُم)، فلا ينفع معهم استصراخ،ولا استغاثة،لذلك قال:(فما يُدرك بِكم ثأر،ولا يبلغ بِكم مرام).

عرج بعدها إلى رسم صورة بيانية ، تشبيهية ، يصاحبها حشدٌ صوتي ثقيل عبر الحروف(التاء، الثاء ، والجيم ، والخاء ، والميم) ليعَبِّر عن مرارة الموقف ، وثقله،فيصبح الصوت جزءاً متمماً لبيان صورة هؤلاء الذين لم يخرج منهم إلّا(جُنَيد مُتَذائِب) إمعاناً منه في التقليل ، فهم ليسوا سوى(جُنَيد) مُضطرب[٢]، خرجوا وهم يُجَرجِرون أنفسَهم جَرجَرة الجملِ الأسَرِّ ، وهو أكثر ما يكون عند الإعياءِ ، والتَّعَبِ[٣] ، وبتثاقلهم كانوا كالنِّضوِ الأدبَرِ ، وهو البعيرُ المهزول[٤].

كشف التوظيف الصوتي عن معنى الإمام،مثلما كشفت عنه الصورة البيانية، إن لم يكن أكثر منها، فالمفردات(جَرجَرتُم ، اثَّاقَلتُم) تفضح ترددهم،وكراهيتهم للخروج من خلال هذا الوقع الثقيل للحروف،وكأنَّنا نرى تساقطهم على الأرض ، والتحاقهم الثقيل والمُتقَطِّع، من مجموعة عناصر تحمل بين طياتها تصويراً حَركياً بارعاً، وفعالاً تأتى بفضلِ الحشدِ الصوتي، وممّا صاحبَهُ من تصوير بياني تشبيهي .

ثم أتت الآية[٥] لتكمل بناء المشهد في صورته الكلية،وموسيقاه وبتلاؤم دلالي،وصوتي،فالتشبيه (كأنما) ينسجم مع التشبيه البليغ (جَرجَرتُم جَرجَرة)، و(تَثاقلتُم

---

(١) نهج البلاغة،خ (٣٨) ج١/ ٨٦.
(٢) ينظر: شرح ابن أبي الحديد،ج٢/ ٢٣٧.
(٣) ينظر:المكان نفسه.
(٤) ينظر:المكان نفسه.
(٥) سورة الفلق/ ٣.

تثاقل)، والمدّ في(يُساقون)يكشف مرة أخرى عن سيرٍ ثقيل،وطويل،والذي جاء في حشدٍ صوتي ثقيل من خلال الحروف(النون، القاف، والتاء).

يدرك المتلقي دور الصوت الذي كان بمثابةِ موسيقى تصويرية لمشهدٍ صُوري مُتحرِّك،فغدا النصّ عِبر التوظيف الصوتي للآية لوحةً موسيقيةً مُتعددة المقاطع المتلائمة مع بعضِها،حتى ليكاد المتلقي يسمع صوت احتكاك هؤلاء بالأرض وهم يُساقون كرهاً إلى مالا يُحبُّون،وكأنَّهم يُساقون إلى الموتِ دلالة على حالةِ الضَّعف التي وصلوا إليها،فلم يجدعليه السلامسوى هذه الآية المُعبِّرة،والتي تُوحي بتثاقلِ الأجسام الَّتي يرفعها الرافعون في جهد،فيسقط في أيديهم بثقل كثقل حروفه(الباء،والتاء،والجيم،والحاء،والضاد،والنون ،والميم)،إذ» لكلّ صوتٍ دلالةٌ خاصّةٌ تحمل بينَ طيَّاتِها شيئاً من المعنى العام للفظ«[1].

وعند خروجهعليه السلامإلى الشام قال:((الحمدُ للهِ كلّما وَقَب ليلٌ وغَسَق،الحمدُ للهِ كلّما لاحَ نَجمٌ وخَفَق،الحمدُ للهِ غير مَفقودِ الأنعام،ولا مُكافئ الأفضال))[2].

كان هذا المقطع بداية لخطبته ، فجاء بِجمل متوازنة ، متساوقة في التوزيع الصوتي ، وعدد المفردات ، وتشابه حروفها والتي شكلت المفردة القرآنية بعضاً منها ، (وَقَب ، غَسَق) ، وهما من قوله تعالـى :﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾[3].

جُملتان اسميتان تدلّان على ثباتٍ ودوام الحمد لله،كلما دخل ليلٌ،واشتدَّت ظلمتُهُ،وكلما ظهر نجمٌ واختفى،بنسقٍ صوتيٍ جميل يُحيل سامعَه إلى جوٍّ عرفاني.

واتبَعَ هاتين الجملتين بأخريين محكومتين بنسق صوتي يدلّ على ذلك الأنعام ، والإقبال الواسع ، والكبير والدالّ عليه بالمساحةِ الواسعةِ في حروف المدِّ في كليهما ، (أنعام ، افضال).

---

(١) الأضداد في اللغة، محمد حسين آل ياسين، مطبعة المعارف، ط١، بغداد،١٩٧٤م، ص:٧٥—٧٦.
(٢) نهج البلاغة،خ(٤٧)،ج١/ ٩٣.
(٣) الفلق/ ٣.

وكذلك في قوله عليه السلام إذا لقي العدوَّ: ((اللّهمَّ أفضَت إليكَ القلوبُ،ومُدّت الأعناقُ،وشَخصَت الأبصارُ، ونُقلت الأقدامُ،واُنضيَت الأبدانُ،اللّهم قد صرَّح مكتومُ الشَّنآن،وجاشَت مَراجِلُ الأضغانِ،اللّهم إنّا نشكو إليك غَيبة نبيِّنا،وكثرة عَدوِّنا،وتشتّت أهوائِنا؛ ربَّنا افتَح بَينَنا وبَينَ قومِنا بالحَقّ،وأنتَ خيرُ الفاتِحِين»))[1].

زخر النص بنحوٍ ملحوظ بالصورةِ،والإيقاع،والمُتَّحِديَن ببعضهما بفعل ترابطٍ عضوي،وقد جمع بينهما فنٌّ بديعيٌّ تحقق بالجناس في المفردتين(أفضَت،أنضَت)، وأفضَت القلوب:أي خَرجَت،وأنضَت الأبدانُ:هزلت،وخروج القلبِ هو مَقصديتها لله،وخروجها مُتوجِّهٌ إليه.

وانتخاب الآيةِ المقتبسة(ربَّنا افتَح بينَنا...)جاء بنسقٍ مُتناغِم مع المفردة التي بدأ بها المقطع(اللّهم)،وكلاهما يُفصِح عن أسلوبٍ دعائيٍ التفت حولَه مفرداتُ النصِّ بنسقٍ صوتي مُتَجانِس.

وفي خطبة له عليه السلام وظَّف قوله تعالى :﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[2]، فقال: ((...وانصَرَمت الدنيا بأهلِها، وأُخرجتُم من حضنِها، فكانت كيوم مَضى، أو شهر انقضى، وصارَ جديدُها رثاً،وسمينُها غثّاً،وفي موقفٍ ضَنَكِ المَقام،وأمورٍ مشتبهةٍ عِظام،ونارٍ شديد كَلَبُها،عالٍ لَجَبُها،ساطعٍ لَهَبُها، مُتَغيِّظٍ زَفيرُها،مُتَأجّج سَعيرُها،بعيدٌ خُمودُها،ذاك وقودُها،مُخيفٌ وَعيدُها،غَمٍّ قَرارُها،مُظلمةٍ أقطارُها،حاميةٍ قدورُها، فظيعةٍ أمورها،» وسِيقَ الّذينَ اتَّقوا ربَّهم إلى الجَنَّةِ زُمُراً، واطمأَنَّت بهم الدارُ))[3].

توزّعت الثنائية السجعية في النصّ ، بالمفردات (بأهلِها ، من حضنِها) ، (مَضى،

---

(١) (٢) نهج البلاغة،ك(١٥)،ج٣/ ١٧.

(٢) (٣) الزمر/ ٧٣.

(٣) (٤) نهج البلاغة،خ(١٨٥)،ج٢/ ١٥٥.

انقَضى) ، (رثّاً ،غَثاً) ، بجوار أسجاع لمفردات أخرى مُترادفة ، ليكتمل رسم صورة مُنَفِّرة لمثوى الطالبين للدنيا ، رَسمٌ تَوضَّح في استحضار تقابلاتٍ لفظيةٍ ، ومُترادفاتٍ توكيدية، وفي جُملٍ قصيرة،وَصفيَّةٍ،مَسجوعةٍ دونما تكلّف،فيحيل النصّ إلى مقاربة شِعريَّةٍ،فتمنحه بُعداً موسيقيًّا.

إن حرف المد في ذيل الآية(زمراً)جاء متناغماً مع نهايات الجمل القصيرة قبلها، وهي: (لهيبها ،سعيرها،ضمورها،وقودها ،وعيدها،قرارها،أقطارها،قدورها)،والدالّة جميعها على صرخة نكاد نسمعها، وصورة نكاد نراها.

وفي نصّ مُقارب وظَّف النصَّ القرآني توظيفاً صوتياً كاشفاً عن الصورة المراد إيصالها ،فقال:((اعملوا لِيوم تُدخَر له الذَّخائر،وتُبلى فيهِ السَّرائِر،ومَن لا ينفَعهُ حاضرُ لُبِّه فعازِبُهُ عنهُ أعجز، وغائِبُهُ أعوَز، واتّقوا ناراً حَرُّها شَديد ، وقعرُها بَعيد، وحليتُها حَديد ، وشَرابُها صَديد))[1] .

يبدي النص إطلالة ضمنية إلى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[2].

استُبدِلَت ناراً (نكرة) بالنار (المعرفة) للإمعان في الترهيب،والتنفير، وهي ذات حرّ شَديد ، وقَعرٍ بَعِيد، وقيود مِن حَديد[3]، وشَرابٍ مِن صَديدٍ، فرسمت المفردات (شَديد، بَعيد، حَديد، صَديد) نسقاً سجعياً يلفه جناسٌ مُؤثر يُوحي بضربات، ولسعاتٍ، وكأنّها رُسمت بقطع من النار،وبفضاءاتٍ مَفتوحةٍ،تلقي بظلالٍ منَ التّيه، والخَوفِ، والرَّهبةِ، والضَّياع، وتكفّلت الحروف(الحاء،والراء،والشين، والقاف، والعين،والجيم) بتعزيزِ هذا المعنى،وحمّلت النصَ ترهيباً،وتحذيراً «بضربات صوتية مُنتظمة تولَّدَت من

(١) المصدر السابق،خ(١١٦)،ج١/ ٢٣٢.
(٢) التحريم/ ٦.
(٣) ينظر: شرح ابن أبي الحديد،ج٧/ ٢٣٠.

السَّجع»[1]، ومنحته قوة تعبيرية ، بما لها من دعم صوتي عَزّز الصورةَ،وأصبح مُرتكَزاً لها،فاللَفظ العربي- كسائرِ الألفاظِ الأخرى- رمزٌ صوتيٌّ للتعبيرِ عن معنى[2].

ولم يكن الحديث النبوي الشريف بمنأى عن مثل هذا التوظيف، ومن قوله ﷺ: ((آيةُ ألمنافقِ ثلاثة؛ إذا حَدّث كَذَب، وإذا وَعَدَ أخلَف، وإذا اؤتُمِنَ خَان))[3]،اذ اقتبس هذا المعنى فقال عليه السلام واصفاً عمرو بن العاص:((إنَّه لَيقول فيكذِب ، ويَعِد فيخلُف ، ويُسأل فيَبخَل ، ويُسأل فيلحِف ، ويخون العهدَ ، ويقطعُ الأل))[4]،والملاحظ أنّ أداة التوكيد (إنّ) وحرف اللام في (ليقول) توغل في الذمّ،وحرف العطف الفاء ، والدالّ على التتابع والفورية، أراد الإمام به أن يقول إنَّه - عمرو- حين يقول سرعان ما يكذب،وإذا وَعَد سرعان ما يخلف وإذا سُئِل سرعان ما يبخل ، وإذا سَأل سرعان ما يلحف ، مع انه يخون العهد .

وأكّد صفةَ الخيانة بتكرار معناها،حين عزّزها بقوله:(ويقطع الأل)، والأل:هو العهد[5]، ومنحت الألفاظ تتابعاً صوتياً يعكس تتابع الصفات الذميمة،لاسيَّما مع وجود مفردة قرآنية كان لها أثرها في استكمال الصورة الكلية،المتألِّفة من صُورٍ متجاورة ،وبوحداتٍ لفظيَّةٍ،مُتساوِقة،ومُتلازِمة.

والمعنى وإن كان يرسم القُبح،والذم غير أنَّه جاء بنسقٍ لفظيٍ جميل ،يكاد يرسم موسيقى ساخرة لصورةٍ ساخرة يُدركُها المتلقي مِن أوّلِ وَهلَةٍ.

ويُطَوِّع أحياناً ما اقتبسه من آية ـ أو بعضها ـ أو حديث نبوي شريف في سياق النص المستضيف ،كما فعل في قوله تعالى:﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾[6]، في كلام

(١) خصائص الجملة العربية في كتاب نهج البلاغة،ص:٢٠.
(٢) ينظر: البحث النحوي عند الأصوليين،د. مصطفى جمال الدين،دار الرشيد،بغداد،١٩٨٠،ص:٢٩٥.
(٣) صحيح البخاري، ج١/ ١٤ وجاء الحديث بصيغة :» عَلاماتُ ألمُنافِق...» . صحيح مسلم، ج١/ ٥٦.
(٤) نهج البلاغة،خ(٨٠)،ج١/ ١٤٥.
(٥) ينظر: شرح ابن أبي الحديد،ج٦/ ٢٢٥.
(٦) سورة الانفطار/ ٦ .

له قاله عند تلاوته لهذه الآية،ومما جاء فيه: ((يا أيها الإنسان ، ما جَرّأكَ على ذنبكَ ، وما غَرّكَ بربِّكَ ، وما أنساك بَهَلكَةِ نفسك ؟ أما مِن دائكَ بُلولٌ ، أم ليسَ مِن نومِكَ يقظَةٌ ؟ أما تَرحَم مِن نفسِكَ ما تَرحَم مِن غَيرِكَ ؟...))[1].

بدأ كلامَه بما بدأت به الآيةُ بمخاطبة الإنسان المفرد والقصد كل إنسان، ثم جاء بأسئلةٍ على سبيل التقريع والتَّوبيخ[2]، لم يكن الغرض منها الاستفهام ، ما الذي جرّأك على ذنبِكَ ؟، ما الذي غَرّك بربِّكَ ؟... ولما كان المخاطب بصيغة المفرد حرص على ذكر المفرد (الذنب) ، لا الجمع (ذنوبك) .

وبعد التمهيد بالقول:(ما جَرّأك على ذنبِكَ)،ولاقتباس:(ماغَرّك بربِّكَ) تلاها بقوله:(وما آنسك بهلَكَةِ نفسِك)، فأصبحت من بناء النصِّ السِّياقي .

لم يأت بذكر(الكريم)المذكور في الآية لأن سياق المقال في نصهعليه السلامسياق تقريع وتوبيخ، وعند الاطّلاع على النص بأكمله نجده، قد بني على الاستفهام الاستنكاري بالأداة(ما) في مساحة كبيرة منه، ثم يسألعليه السلام أما مِن شفاء مِن هذا الداء؟ ، أما مِن يقظَةٍ مِن هذا النَّوم؟ ، أما مِن رحمَةٍ لهذهِ النَّفس بعد جرأتها على ذنبِها ؟ وهي أسئلة على سبيلِ تجاهل المعروف[3].

ولو أنَّهعليه السلام جاء بالآيةِ كاملةً مع الذكر(الكريم) لما استقامَ السياق ،لا لفظاً ولا معنىً،غير انَّه أدرك ذلك فأحسن تطويع الآية في النص،لأنّ الخطبة تدور حول موضوع ظاهر وجلي، استوحاه منها عند قراءتها،ثم طوّع معناها في كلامِهِ من خلال رصف مفرداتٍ نَسَجَ منها سياقَ كلامِهِ مُستعيناً بالتَّناغم الصَّوتي والترادف المعنوي ،بسلسلةِ الاستفهاماتِ الاستنكاريّة المُعبِّرة ، وانتقاء هذه العبارات يدلّ على مبلغِ عنايته باللَّفظِ والجرس .

---

(١) نهج البلاغة،خ(٢١٨) جـ ٢/ ٢٤٠ .

(٢) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ،جـ ٢/ ١٤٠.

(٣) ينظر:المكان نفسه.

ثانياً: التَوظيفُ النَّحوي

اللغةُ ظاهرة كونيةٌ ذات تجلّياتٍ عاليةٍ[1]، ويحكمها نظامٌ نحويٌ صارِم ولها القدرة على كَشفِ مافي الفكر البشَري من معانٍ،وتصورات[2] .

واللغة العربية امتازت بنظامِها النحوي الذي يبدأ بالتَّعاملِ مع الحروف والكلمات وينتهي عند الجُمَلِ والسياقات ليحقِّق استعمالاً لغوياً من العسير جداً أن نَخرج مِنه .

وقد تداخل الجانبان البلاغي والنحوي في مساحةٍ مُشتركَةٍ واسِعَةٍ إلّا أنّ ما يَتعلَّق بالجملة العربية وما يطرأعليها من حَذف وذكر، أوتقديم وتأخيرٍ، أوتعريفٍ وتنكيرٍ ـ وغيرها كثير ـ يبقى في صِلب المُعالجَةِ النَّحوية، ومِن أولَويّاتها،وان أُفرِدَت له مساحاتٍ كبيرة في المصنفات البلاغية .

ويتمحور التوظيف النحوي حول توظيف الجملة العربية وما يَعتريها مِن تغيراتٍ تُفضي إلى تَغيير في الدلالات ، وتمتد تلك التغييرات ليدخل في حيّزها كلُّ ما تقدم ذكرُه من أحوالِ الجُملةِ ،وما يستَتبعَه من أساليبِ نحويَّهٍ لها أثرُها في العَطاءِ الدَّلالي للجمل والنصوص ، وسيبدأ الحديثُ بالضَّمائر وانعكاساتها الدلالية عند استبدالِها مِن حالٍ إلى حال أثناء عمليةِ الاقتباس .

أ- الضَّمائر.

من ذلك مثلا حين انتقل بالضمير من حالة الجمع إلى حالة الإفراد في كتابٍ لهعليه السلام أرسله إلى جرير عبد الله البجلي، لما أرسله إلى معاوية : ((أما بعد فإذا أتاكَ كتابي

(١) حد اللغة بين المعيار والاستعمال ،د.عبد السلام المسدي ، مجلة الأقلام،ع السنه العاشرة ،مايس ،١٩٨٥، دار الشؤون الثقافية العامة والنشر، بغداد ،ص :٦

(٢) ينظر : المكان نفسه

فاحمِل معاويةَ على الفَصلِ ، وخُذهُ بالأمرِ الجَزمِ ثم خَيِّره بينَ حربٍ مُجليَةٍ ، أو سِلمٍ مُخزيَةٍ، فإنَّ اختارَ الحربَ فانبذ إليهِ ، وان اختار السِّلمَ فخُذ بيعتَهُ والسَّلام))[1].

الكتابُ بعباراته القليلة حمل معانٍ مكُثّفة،ودلالات مُختزله تبوحُ بها المفرداتُ، بحروفِها ، وأصواتِها ، واستلهم[2] قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾[3] ، مع إبدال(انبذ إليه) بـ(انبذ إليهم) لتناسب سياقِ حديثهِ المُوجَّه إلى جرير بن عبد الله ليَخرج إلى معاويةَ ، وهو مفرد،في حين كانت الآيةُ تحثّ النبيَّ ﷺ، والمؤمنينَ للخروج إلى قتالِ المُشركين فاستَدعى ذلك صيغةَ الجمع في الآية ، والإفراد في كتاب الإمام .

ويأخذ التعبير نَمَطية أخرى،حين ينتقل بالكلمة من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب كما حصل حديث عن الرسولﷺ مّما اضطرَّه للقولِ ليبلوهم[4]بدلاً من (يبلوكُم) التي جاءت في مورد الاقتباس[5].

أو مثلما جرى في تحويل الضمير من صيغه الغائب[6]، إلى المخاطب في قولهعليه السلام: (لا تأخذُكَ سِنَةٌ ولا نَوم)[7]، في خطبة هيمن فيها عنصرُ الدعاء والتي بدأها بالقول: (اللهم لكَ الحمد على ما تَأخذ وتعطِي...)، والسياق هو سياق خطاب ودعاء(لك الحمدُ، تبتلى، الحمدُ لك، الحمدُ إليك، الحمدُ عنـدَك، ما أردت، مُحجب عنكَ، دونَك، عَظَمَتَك .)

---

(١) نهج البلاغة ك (٨) حـ ٣/ ٩ .

(٢) ينظر : شرح ابن أبي الحديد جـ ١٤/ ٣٧.

(٣) سورة الأنفال / ٥٨ .

(٤) ينظر: نهج البلاغة،خ(١٤٠)،ج٢/ ٣٦.

(٥) قال تعالى: (وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ). النحل/ ٩٢.

(٦) قال تعالى: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) . البقرة/ ٢٥٥.

(٧) نهج البلاغة، خ(٥٥)،ج٢/ ٧٠.

ب- الحَذفُ .

وهو صورةٌ أخرى من صور التوظيف النحوي ذي الدلالةِ الواضحةِ في الجملة لما يعتريها من نقص في تركيبها البنائي ، لضرورة دلالية .

وشَبَّه الشيخُ الجرجاني ت (٤٧١،٤٧٤) هـ الحذفَ بالسِّحر وهو عنده (بابٌ، دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخَذِ، عجيبُ الأمرِ،شبيهٌ بالسِّحرِ فإنَّك تَرى بهِ تَركَ الذِّكرِ أفصَح مِن الذِّكر،والصَّمتِ في الإفادَةِ...)[١].

ولهذا المفهوم ـ الحذف ـ مصاديق كثيرة منها :

١- حَذفُ الفاعل .

كقوله:((أقوالاً بغير عمل))[٢]، وهو مُقتبَس مـن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [٣]، إنه اقتباس لمعنى الآية الكريمة والتقدير في قوله عليه السلام: ((تقولون أقوالا بغير عمل))[٤]، ولعلّ سبب حذف الفاعل وجود قرينةٍ عقليةٍ تَدلّ عليه باعتبارهِ كلاماً مع المخاطب وهو الفاعل ، وهنا يتوضَّح حذف الإيجاز .

٢- حَذفُ المُضاف .

ومن أمثلته قوله عليه السلام:((فرّوا إلى الله))[٥]، أي إلى رحمة الله ، وهو تعبير مجازي واضح، ويقابل هذا النوع من حذف المضاف، إضافة بين المضاف والمضاف إليه كقولة عليه السلام: ((... وسينتقم الله مِمَّن ظَلم مَأكلاً بِمَأكل ، ومَشرباً بِمشرب مِن مَطاعم العلقم ، ومَشارِبِ الصَّبرِ والمِقرِ، ولباس شعار الخوفِ ، ودِثارِ السَّيفِ))[٦]، والّذي

(١) دلائل الإعجاز،ص:١١٢.
(٢) نهج البلاغة،خ(٢٨)،ج١/ ٧١.
(٣) سورة البقرة/ ٤٤.
(٤) ينظر: خصائص الجملة العربية، ص: ٩١.
(٥) شرح ابن أبي الحديد،ج١/ ٢٧٩.
(٦) نهج البلاغة خ (١٥٣) ج٢/ ٦٩

يعودُ بنا إلى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1]، حيث أضاف المفردةَ (شعار) إلى لباسِ الخوفِ تَوَخّياً لدلالةٍ مَرجُوةٍ وهي المبالغة في خوفِ هؤلاء لانَّ التعبيرَ بشعارٍ يَدلُّ على قرب الخوفِ منهم لانَّ الشعار أقرب للجَسَدِ[2] مِمّا سواه من أنواع اللباس.

وتجلّى في وصفه لأبغض الخلائق فقال:((حَمَّال خَطايا غيره))[3]،والمقتبس من الآية المباركة: (لِيَحْملُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)[4]،والتقدير: هو حمّال خطايا غيرِه ، وحُذِفَ المُبتدأ لوجود قرينةٍ عمليَّةٍ وسِياقيَّةٍ تدلانِ عَليـه[5].

ج- التَّقديمُ والتَّأخِير .

وهو حالٌ من أحوالِ الجملة العربية، ذو قدرة على العطاء الدلالي، ويَنبثق عن تغيّر في مَوقعي المُسنَد والمُسنَد إليه ، تَغيّر في المواقع يُصاحبه تَغيّر في المَعاني والدلالات ، وهو كذلك يمثل « استجابة لدوافع نفسية فرضتها الحالةُ الشعورية ، والأبعاد النفسية للمتكلم ، والمعنى المراد نقله إلى السامع »[6] .

ولانَّ التقديمَ والتأخيرَ يعتمدُ،حركيةً في مساحةِ السَّماح بينَ المُسند والمُسنَد إليه، ويَمنح النص مقداراً في الحريَّةِ للوصولِ إلى مَثابَةٍ دلاليَّة مُرتَجاة.

---

(١) سورة النحل / ١١٢.

(٢) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ج١/ ٠٦٤٤ وينظر::نهج البلاغة،خ(٨٣) ج١/ ١٥،خ (٨٥)، ج١/ ١٥٦.

(٣) نهج البلاغة خ(١٦) ج١ـ/ ٠٤٧

(٤) سورة النحل/ ٢٥. وسورة العنكبوت/ ١٣.

(٥) خصائص الجملة العربية في كتاب نهج البلاغة ص:٨١.

(٦) حرية الحركة للمسند والمسند إليه في التقديم والتأخير لون من ألوان حرية اللغة . ينظر:الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها، ابن فارس،ص:٢٦٤. ينظر:بحوث لغوية، د.احمد مطلوب،دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان،١٩٨٧م،ط١،ص:١٤ - ٤٠٠. ينظر:خصائص الجملة العربية في كتاب نهج البلاغة،ص:٩٧.

ولهذا الفن وجوه عديدة تتصل بالمبتدأ والخبر ، والفعل والفاعل والمفعول به، والجار والمجرور ، ومَدى تقدّم كل منهما على الآخر ، وما يَتَمَخَّض عنه مِن ولاداتٍ دلالية.

وفي قوله تعالى:(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)[1]، تقدّم ما كان حقه التأخير،إنه تقديم له دلالته ،وجاء لدوافع نفسية فرضتها الحالة الشعورية ،والمعنى المراد نقله،لقد أعاد الإمامعليه السلام التركيب النحوي المعتاد لهذه الآية في وصف الدنيا:((...الَّتي قَد بُنيَ بالخَرابِ فَناؤُها،وَشيدَ بالتُّرابِ بناؤُها،فَمحَلُّها مُقتربٌ،وساكِنُها مُغترِبٌ،بَينَ أهلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشين،وأهلِ فَراغٍ مُتشاغِلين،لا يَستأنسونَ بالأوطَانِ ،ولا يَتواصَلونَ تَواصُلَ الجيرانِ، عَلَى مابَينَهُم مِن قُرْبِ الجِوارِ،ودُنُوِّ الدَّارِ... فَكيفَ بِكُم لو تَناهَت بِكُم الأمُورُ، وبُعثِرَتِ القُبُورُ؟))[2]، وإعادة التركيب النحوي المُعتاد مع أدواتِ السؤال على سبيلِ الاستنكار[3]شكّلت نسيجاً بَنّاء في وحدةٍ مُتناغمَةٍ تضَع المُتلقي في حَيرةٍ واعتبار،في تساؤله:(فَكيفَ بِكُم لو تَناهت بِكُم الأمُور،وبعثِرَت القُبُورُ ؟؟؟).

وتمثّلت موافقة السياق في رصف الجمل القصيرة، والتي جعلَ كلَّ اثنتين منها في سَجعٍ واحد (بالخرابِ فناؤُها ، بالترابِ بناؤها) ، (محلّها مُقتَرب ،ساكنها مُغتَرِب)، (مَحَلّةٍ مُوحِشين، فَراغ مَتشاغِلين)، (لا يَستأنِسون بالأوطانِ ، تَواصل الجيران)،(قُرب الجِوار، ودُنو الدّار) ، (بكَلكَلهِ البَلى، الجَنادل والثّرى)،(ذلك المضجَع، ذلك المستَودَع)،(الأمور،القبور).

وبناء الفاعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث ، والاستفهام المصاحب له يُفيد التَّعجب مِن هَولِ يومٍ تُبعثر فيهِ القبورُ ، والفعل الرباعي(بعثر) يدل على الحركة والاضطراب.

---

(١) سورة الانفطار/ ٤

(٢) نهج البلاغة ،خ(٢٢١) ، ج٢/ ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ، ج٢/ ١٥٠.

وهكذا فرض مقتضى الحال تقديم المفعول به على الفاعل في قولهعليه السلام:((لا يحصى نعماءَه العادُّون))[1]، فهو مِن قولهِ تَعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2].

بدأ كلامَه بعد حَمدِ للهِ بأداةِ النَّفي(لا)، والَّتي ظَلَّت أداةً مُتسلطةً على النص مَعَ غيرِها مِن أدوات النفي والأصل في كلامه وفق النظام النحوي(لا يحصي العادون نعماءه) فوقع التغيير في موضعين؛ أولهما إبدال (نعمة) ب (نعمائه)، دلالة على كثرتِها،وبيانِ عظمةِ فضلِ الله، والثانية في تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ دلالةً على التعظيمِ .

أما فيما يَتعلَّق بالأمرِ الأوَّل ، نَجد أنَّ السياقَ سياق جمع: (قائلون ،عادّون، مجتهدون ، همم ، فطن..) ، وعند الوصول إلى صفات الله عز وجل عمد إلى الإفراد، للدلالة على التوحيد فقال: (صفتهُ ، حَد، نعت ، مَوجود ، مَعدود ، أجل) ، وذكر صيغة الجمع للخلائق للدلالة على شمولية آلائه ونعمه مثل:(فطر الخلائق ، نشر الرياح ، وتد بالصخور...).

أمّا في التقديم، فدلالة التعظيم هي التي أوجبت ذلك لأنَّ العرب « كأنَّهم إنَّما يُقَدِّمون الَّذي بِبَيانِهِ أَهم لهم ، وهم ببيانهِ أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ، ويعنيانهم»[3].

ويجري التقديمُ والتأخيرُ في بنية النص المقتبس طَلباً لدلالةٍ ما ، وتَمثّل ذلك في تقديم الجار والمجرور في كتاب بعثهعليه السلامإلى عامله على البصرة ـ عثمان بن حنيف ـ واعِظًا ومذكّراً بصفات المؤمنين:((في مَعشَرٍ أسهرَ عيونَهم خوف معاهدِهِم،وتجافَت عَن مضاجِعِهِم جنوبُهم، وهَمهَمَت بذكرِ ربِّهِم شفاهُهُم))[4].

---

(١) نهج البلاغة ، خ(١)، ج١/ ٧.

(٢) سورة النحل/ ١٨، وينظر: شرح ابن ميثم البحراني ، ج١/ ٤٨.

(٣) الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر الملقب سيبوبة ت (١٨٠) هـ ، ت عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي مصر ، ط٣، ١٩٨٨م،ج١ / ٣٤.

(٤) نهج البلاغة ك (٤٥)،جـ٣/ ٨٤.

انصبّ الحديثُ لرسم صورة للمؤمنين بدقَّةٍ تفصيلية ، تشريحية لبيان سَهَرِ عيونِهِم خَوفاً من المَعاد ، ومجافاةِ جنوبُهم عن المضاجِع خشية وتعبدا ، وهَمهَمةِ شفاهِهِم بالذكرِ والتسبيح ، وهو حديث عن الأفعال لاعَنِ الآلاتِ التي قامت بذلك،من هنا قدَّمَها على الفواعِل لها،(سَهر العيونِ على خوفِ المَعاد) ، و(مُجافاةِ المَضاجِع على الجنوبِ) ، و(هَمهَمَةِ الذكر على الشفاه) ، وتكرر مثل هذا التقديم في مواضع أخرى من النهج[1].

د-التَّعريفُ والَّتنكير :

ويعَرف بأنَّه « أسلوبٌ من أساليبِ العربِ في كلامِها ، وليس له أداة سوى أن يخلِي اللفظ من أدوات التعريف ، والأصل في الكلمة التنكير لكونها مطلقاً ثم يأتي التعريف ليحصر نوعه ويقيده بواحد من أوجه التعريف المعروفة عند النحاة »[2].

ولمّا كان الأصلُ في الكلمةِ التنكير نبدأ بهِ في قولهعليه السلام:((واتّقوا ناراً حَرّها شَديد وقَعرُها بَعيد ، وحُليتُها حَديد ، وشَرابُها صَديد)) [3].

مثّل المقطعُ ظِلاً لقولهِ تَعالى ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾[4] ومَحل الشاهد هو (ناراً) ، والفارق بينَ التَّعرف في الآية ـ والتنكير ـ في النص هو فارقٌ في السِّياق وتنكيرها يُوغِل في التَّعتيم والتهويلِ منها، مادامت نكرة مُبهَمة لا يَمكِن تصورها ، وتترك المتلقي في فضاءاتٍ رحبةٍ لا يستطيع الإمساك بصورة لها، فهو إذن تنكيرٌ لارادةِ الإبهامِ والتَّهويلِ .

---

(١) كما في تقديم الجار والمجرور في:(منَ الموتِ في غَمره)، وتقديم (لم يدركهُ بصرٌ) على(يدرك الأبصارَ)، وتقديم الباطل على الحق). ينظر: نهج البلاغة خ (٣٣)، جـ ١/ ٧٨. و: المصدر السابق خ (١٥٥)، جـ ٢/ ٧٠. و: المصدر السابق خ(٣٢)، ج ١/ ٧٦،خ (١٨٨) ج ٢/ ١٨٥، ك (٦٦) جـ ٣/ ١٣٩.

(٢) بلاغة الكلمة والجملة والجمل، د. منير سلطان ، منشاة المعارف الإسكندرية،١٩٨٨، ص:٦٦

(٣) نهج البلاغة خ (١١٦)،ح ١/ ٢٣٢.

(٤) سورة البقرة / ٢٤.

وبالمقابل نقف عند المفردة (راكِس)[1] حين عرَّفها في قولهعليه السلام : وهو يقصّ لأهلِ الأمصـار ماجرى بينه وأهل صفين بعد أن وقَعَت الحربُ ثم طَلَبوا منه ـ أصحاب صفين ـ الصلـح: ((... وسارَعناهُم إلى ما طَلبُوا،حتّى استبانَت عليهم الحُجَّةُ، وانقطَعَت منهُم المَعذِرَةُ فَمَن تمّ على ذلكَ مِنهم فَهو الَّذي أنقذهُ اللهُ من الهَلَكَةِ،ومَن لَجَّ وتَمادى فهو الرَّاكِس))[2]،(مَن لَجّ وتَمادى فهو الراكِس) والتعريف بالالف واللام يَعكس توكيداً وُيفيد التخصيصَ والقَصرَ، وكأنَّهعليه السلامأراد القول إنَّه ـ المُتَمادِي ـ هو الراكس ليسَ سِواه.

هـ- الأسَالِيبُ:

دخلت الأساليبُ حيِّز التوظيف النحوي ، حينَ وظَّفَ الإمامُ الاستفهامَ والتوكيدَ ، والأمرَ ، والنهيَ، والنداءَ ، والنفيَ ، والتوكيدَ في خطبِهِ ، وكتبِهِ ، وحكمِهِ ومواعظِهِ.

لم يكن إحضار الأساليب بمنأى عَن الغرضيَّة والقَصديَّة،والتَّوظيف الَّذي استَدعى ذلكَ،إذ لكلّ أسلوبٍ أدواتُهُ التي عُرِفَ بِها،واقترنَت بهِ في المؤلفاتِ النَّحوية،والبلاغية(علم المعاني) على حَدّ سَواء

١- أسلوبُ الاستفهام،

لم يقتَصِر الاستفهامُ على معنى طَلبِ الفَهم فقط[3] ، بل يخرج إلى دلالات آخرى كالإقرارِ ، والاستنكارِ والتعجبِ ، ونجح الإمام في توظيف هذه الأغراض المجازية ، والتي انطلقت من رَحِم النحو لدلالاتٍ يبتغيها ، كقوله في خطبةِ الملاحم: ((... أين

---

(١) « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً « .النساء/ ٨٨ .

(٢) نهج البلاغة خ ك (٥٨) حـ ٣/ ١٢٦.

(٣) ينظر: مغني اللبيب عن كتاب الاعاريب،ابن هشام الأنصاري تحقيق د. مازن المبارك دار الفكر،بيروت ط ٦ ١٩٨٥م ، ص:١٢١ وينظر: معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة (استفهام)

تذهب بكُم المَذاهِب ، وتَتيه بِكم الغَياهِب، وتخدعكم الكواذِب ؟ ومِن أينَ تؤتون ، وأنَّى تُؤفَكون فلكلٍّ أجَلِ كتاب ، ولكلِّ غَيبةٍ إيـــاب)[1] ، وخرج الاستفهام عنده إلى أغراض مجازية أخرى كالتعجيزِ في قولهعليه السلام: (أينَ تذهب بكُم الظنونُ ، مِن اينَ تؤتون، أنَّى تُؤفَكون).

وتكرَّر مثل هذا الاستفهام في قولهعليه السلام:((هَل مِن مَناص أو خَلاص ، أو معاذٍ أو ملاذ ، أو فرار أو محار؟أم لا ؟ فأنّى تُؤفكون؟ أم أينَ تصدقون؟ أم بِماذا تَغترون))[2]، سلسلةٌ استفهاميَّةٌ تدلُّ على التقريـــع[3]، وخرج به إلى التعجبِ كقوله: ((ما غَرَّكَ بِربِّكَ))[4]، وهو قولٌ مأخوذٌ من القرآنِ الكريمِ[5] .

و إلى التنكير:((ألستُم في مَساكن مَن كانَ قبلكُم أطولَ أعماراً وأبقى آثاراً))[6]وهو قول مُقتبس[7]، أو للإغراء كقوله(ع):((ألا تحبّون أن يغفر الله لكم))[8]، أو للتحسر في قوله(ع):((أينَ إخواني الَّذين َركبوا الطريقَ ومضوا على الحَقِّ ؟))[9].

٢- أسلوبُ الأمر .

والأمرُ من الأساليب التي حظيت بنصيبٍ وافرٍ منَ التوظيف عند الإمام في نهجه،ولم يقف عند حدِّه الصرف في كونه طَلب الفعل مِن جهةِ الاستعلاء

(١) نهج البلاغة خ (١٠٤) جـ١/ ٢٠٨

(٢) المصدر السابق،خ (٨٠) جـ١/ ١٤٣ـ ١٤٤

(٣) شرح ابن ميثم البحراني،ج١/ ٣٩٢.

(٤) نهج البلاغة خ (٢١٨) ج ٢/ ٢٤٠ .

(٥) سورة الانفطار/ ٦.

(٦) نهج البلاغة،خ (١٠٧)،ج١/ ٢١٧ـ ٢١٨.

(٧) من قوله تعالى:(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ). سورة إبراهيم/ ٤٥،

ينظر: شرح ابن أبي الحديد،ج ٧/ ١٨٧ .

(٨) نهج البلاغة ك (٢٣)، جـ٣/ ٢٤.

(٩) نهج البلاغة (١٧٧)، جـ٢/ ١٣٠ـ ١٣١.

والإلزام[1]،وبأدواته المعدودة، وإنَّما جاء للنصح والإرشاد ،كقوله عليه السلام:((.. فاستَدركوا بَقيَّةَ أيّامَكم،واصبروا لها أنفسَكم فإنَّها قليلٌ في كثيرِ الأيّام التي تكون معكمُ فيها الغفلةُ والتشاغلُ عن المَوعِظَة))[2]وهو نصحٌ وارشاد اقتبسه من قولهِ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3].

ومن قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾[4] اخذ هذا المعنى بصيغته الأمرية: ٠٠٠٠٠٠((تعاهَدوا أمرَ الصَّلاةِ،وحافظُوا عَلَيها))[5]،وخرج كثير من الأمر عنده عليه السلام إلى مِثلِ هذا الأمر[6] .

٣- أسلوبُ النهي.

و النهي ، هو طلب الكفِّ عن الفعل ، مِن جهةِ الاستعلاء[7] ، وقد يخرج إلى غير غرضه الرَّئيس ، إلى أغراض مجازية أخرى ، كالدُّعاء مثلاً في كلام له عليه السلام في الاستسقاء: (اللهم اِنّا خَرَجنا إليكَ نَشكو إليكَ مالا يخفي عَليك ، حِينَ أجاءتنا المَضايقُ الوَعِرة ، وألجَأتنا المقاحِطُ المُجدِبَة وأعيَتنا المَطالبُ المُتعَسرة ، وتَلاحقَت علينا الفِتَنُ المستَصعِبَة ، اللهم إنّا نَسألك فلا ترُدَّنا خائِبين ولاتَقلبنا واجِمين ، ولا تخاطبنا بذنوبِنا ، ولا تقايِسنا بأعمالِنا)[8].

عندَ سماعِ المقطع الأخير يعود المتلقي إلى ثقافتِه القرآنية،ويتذكر قوله تعالى:

---

(١) ينظر: معجم المصلحات البلاغية ، وتطورها،مادة(أمر).

(٢) نهج البلاغة،خ(٨٢)،ج١/ ١٤٨ .

(٣) سورة الكهف/ ٢٨.

(٤) سورة البقرة/ ٢٣٨.

(٥) نهج البلاغة،خ(١٩٤)،جـ٢/ ٢٠٤ وينظر: ك (٢٧)،ج٣/ ٣٣.

(٦) ينظر:المصدر السابق خ(٩٤)،ج١/ ١٩٠،خ(١٦٣)، جـ٢/ ٩٨ـ ٩٩،خ (١٨٥)،ج٢/ ١٥٣ـ١٥٤ .

(٧) ينظر :معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، ج٣/ مادة (نهي) .

(٨) نهج البلاغة خ(١٣٩)، جـ٢/ ٣٤ .

﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾(١)، هنا أمرٌ خرجَ إلى دعاء وتَضرُّع ، باستفهامٍ خرج إلى أمرٍ مجازي .

٤- أسلوبُ النِّداء.

و النداءُ هو أسلوبٌ تراءى بصور عديدة في نصوص الإمامعليه السلام ، وهو من أساليب الطلب عند النَحويِّين، والبلاغِيِّين،ويُراد به تنبيه المُخاطَب(٢)

وقد يكون بالأداة كقوله عليه السلام : ((أيّها الناس إنّما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضلُ فيه المنايا))(٣)،وأكّد قوله بالقصر عبر الأداة(إنما) ليعزز هذا المعنى،ويستنفره للتنبيه إلى ما أراد بيانه برفقة استعارة مكنية شخص فيها المنايا وجعلها تتبارى على غرض واحد،وهو الإنسان،وتكرّر مثل هذا الأمر في غير موقع في النهج(٤).

ويستجلب هذا الأسلوب أحياناً بالتكرار اللفظي كقولهعليه السلام:((الله الله في الأيتام ... الله في جيرانِكم ... الله الله في القرآن ... الله الله في الصلاة ... الله في بيتِ ربِّكم ... الله الله في الجهاد...))(٥).

٥- أسلوب النَّفي.

وللنفي دورُه في التوظيف النحوي،وهو خلاف الإثبات،والمُتحَصِّل عِبر أدواتٍ قُرِنَت بِهِ(٦)وأخرجه الإمام ـ بقدرتهِ الفنية ـ إلى أغراض مجازية أخرى كالتعظيم

(١) سورة الأعراف / ١٥٥ .
(٢) ينظر:أساليب الطلب عند النحو بين والبلاغيين، د. قيس إسماعيل الالوسي بغداد ، ١٩٨٨ص : ٢١٧ .
(٣) نهج البلاغة،خ (١٤١)،ج ٢/ ٣٨،
(٤) ينظر مثلاً :خ (٨٠)،ج ١/ ٤٣ ،خ(٨٣)،ج١/ ١٤٩،خ(١٤٣)،جـ ٢/ ٤٢،خ (١٤٥)،ج٢/ ٨٦.
(٥) ينظر: ك(٤٦)ج٣/ ٨٦.
(٦) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية ، وتطورها، مادة(نفي).

في قوله عليه السلام: ((الحمدُ لله غير مَقنوطٍ من رَحمتِه،ولا مَخلوٍ مِن نِعمتِهِ ولا مَيؤوسٍ من مَغفرتِه،ولا مُستنكَف مِن عبادتِه))[1]، والذي اقتبسه من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]، مع العدول من صيغة النهي إلى النفي ، فأنتج نقلة إلى النصح والإرشاد في الايه المباركة إلى صيغة التعظيم في قوله عليه السلام والمستجلب بالنفي لصفةِ القنوطِ ، ، واليأس والاستنكاف ، وله غير موضع آخر[3] .

أو للنصح حين اقتبسِ نصًّاً قرآنياً اقتباساً مباشراً في حقِّ أعدائِهِ فقال:((فإن تَرتَفع عَنَّا وعَنهم مِحَن البلوى احملهم مِن الحَقِّ على مَحضِه،وإن تَكن الأخرى « فلا تذهَب نفسُكَ عليهِم حَسَرات إن اللهَ عليمٌ بما يَصنَعون»))[4].

ويخرج به الإمامُ للتهديدِ والوعيدِ بلفظٍ غير مُباشرٍ قريبٍ من نصِّهِ القرآني مع دلالةٍ توكيدية

تتحصّل بأدوات التوكيد تارةً وينفي الشك تارةً أخرى كقوله عليه السلام عن النار: ((وما هِيَ من الظالمين ببعيد))[5] .

وقد يكون لنفي حقيقة ما كقوله عليه السلام : ((لم يُوجِس مُوسى عليه السلام خِيفةً على نفســــــه))[6] ، والمقتبسة من قوله تعالى : ﴿جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[7].

لقد نفى الخوفَ عن موسى عليه السلام استناداً للنص القرآني اليقين،الذي نَتفهَّمهُ

---

(١) نهج البلاغة،خ(٤٤)،ج ١/ ٩١.

(٢) سورة الزمر/ ٥٣.

(٣) ينظر مثلاً:خ(١٧٧)،ج٢/ ١٢٥ ،خ(١٨١)،ج ٢/ ١٤٥.

(٤) نهج البلاغة،خ (١٨٤)،ج ٢/ ٨١

(٥) المصدر السابق، ك (٢٨)،ج ٣/ ٤٠.

(٦) نهج البلاغة،خ(٣)،ج١/ ٣٣ .

(٧) طه/ ٧٦.

من خلال السياق الذي يوضح اللَّبس، أو مع بقاء الدلالة على النفي الخالص ، كما في قولهعليه السلام مُقتبساً حديثاً نبوياً شريفاً: ((لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتّى يَستقيم قلبُه، ولا يستَقيمَ قلبُه حتّى يستقيمَ لسانُه))(١)، أو كما في قولهعليه السلام: ((ما عالَ مَن اقتَصَد))(٢)، وهو اقتباسٌ لمعنىً قرآني(٣) .

ولرُبَّما يُوظَّف النفيَ لدفع أمرٍ ما،وتثبيت نقيضَه،فيكون حينئذٍ بمثابةِ نفي توكيد في آنٍ واحدٍ،كقولهعليه السلام: ((لم يَلِد فَيكون مَولوداً،ولم يُولَد فيصير مَحدوداً))(٤).

هاتان الجملتان تُشيران إلى قوله تعالى:﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾(٥)،وهو قولٌ ينفي الصفاتَ الإنسانية عن الذات الإلهية،واعتمد الإمامُ هذا التعبير القرآني لينفي هذه الصفات عن الله جلَّ وعلا،وهو نفي بمثابةِ التوكيدِ على تنزيهِ الله عنها،هو نفي صفاتٍ لاثباتِ صفاتٍ مُقابلة،إنَّه نفيُ السلبِ لاثباتِ الإيجاب.

٦- أسلوب التوكيد.

ويتَحقّق بأدواتِهِ المعروفة ، أو باعتماد صِيَغ تَدلّ عليه كما في قولهعليه السلام: (لاتَ حينَ مناص، هَيهات هَيهات)(٦)ومقطعه الأول اقتباس من السَّهلِ إرجاعهِ إلى النصِّ القرآني الذي استقى منه ،وله إضاءاتٌ دلاليَّةٌ: أفادت استحالة العودة والإرجاع، وأخرى سياقية فنية، أطّلت بالتلاؤم الصوتي والمعنوي فقوله:(هيهات، هيهات) امتداد صوتي لذلك التحسر، وتوكيد وتذكير لتلك الاستحالة ، وتكرار المدود في (لات، مَناص، هَيهات، هَيهات) أفاد ـ من حيثِ اللاشعور ـ ذلك التوكيد، والإيغال في التَّيئيسِ منه .

---

(١) المصدر السابق،خ (١٧١)،جـ ٢/ ١١٤

(٢) المصدر السابق،ق (١٤٠)، جـ ٣/ ١٨٥.

(٣) من قوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ). الأعراف/ ٣١ .

(٤) نهج البلاغة،خ(١٨١)،ج٢/ ١٤٥.

(٥) الإخلاص/ ٣.

(٦) المصدر السابق،خ (١٨٦)،جـ ٢/ ١٦٠

أو باعتماد صيغة المبالغة الدالَّة على التوكيد، كما في اقتباس قوله تعـــــالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1]، فقال عليه السلام:((حَمَّال خَطايا غَيره))[2]، وحَمَّال مفردةٌ مُكتنزةٌ بالدَّلالةِ التَّوكيديَّة، ولها قدرة الاشتراك في رسمِ صورةٍ بَيانِيَّةٍ .

ثالثاً : التوظيفُ البَلاغِي .

عُرِف الأدبُ العربي بِصوَرِه البيانية بمختلف أنواعها والقادرة على إظهار ما هو عقلي غير مَحسوس بصورة حسِّية، أو إضفاء صفاتٍ إنسانية على الجَمادات، والحيوانات فتمنحها العواطفَ، والإحساسَ،والشعورَ، أو إضفاء الزينة، والجمالية على النصّ بما عُرِف فيما بعد بالفن البديعي،ويقوم هذا التوظيف على خَرقِ مَنطِق العلاقات المألوفة في اللغة العادية، وخصوصاً في الاستعارة والكناية .

وقد نجح الإمام عليه السلام ـ أيّما نجاح ـ في توظيف ذلك كلّه في النص النهجي ، ولا يتعلق الأمرُ بإثباتِ ذلك ـ فهو فارسُها وصاحبُ قدحها المُعلَّى- ،بل هو وقوف عند بعض من تلك النجاحات، ليتجلّى لنا مقدار توظيفه البلاغي بفنونه البيانيه والبديعية ، وفي علم المعاني ، بدءاًمن التجسيم ، فالتشخيص ، وانتهاءً عند صوره البيانية التشبيهية والاستعارية والكنائية .

أ- التَجسيمُ والتَّشخيصُ .

التجسيمُ هو صياغة المُجرَّداتِ في صور مجسمةٍ حسيةٍ ، فنرى فيها المعنويات،حتى نكاد نلمسها،ونراها، وتخرج بنا من المجال العقلي إلى المجال الحسي[3] .

---

(١) سورة العنكبوت / ١٣.

(٢) نهج البلاغة،خ (١٦)،جـ ١/ ٤٧

(٣) ينظر: فن الاستعارة، د. احمد عبد الصاوي الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،١٩٧٩م، ص:٢٧٥ وينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم ، سيد قطب ، ص :٥٧ .

ويرى الشيخُ عبد القاهر الجرجاني ت(٤٧٤هـ) أنَّ التجسيمَ من الوظائفِ الأساسية للاستعارة ، فنرى من خلاله « المعاني الخفيّة باديةً جليّةً »[١]، والتشخيص هو أسلوب يُحي بهِ الشاعرُ ما لا حياةَ له وبه تُطلَق صفاتٌ إنسانّيةٌ على الحيوان ـ والجماد[٢]، وبهما ـ التجسيم والتشخيص ـ نَطِل على فضاءاتٍ جديدةٍ نَصِل من خلالها إلى رؤيةٍ بصريةٍ لمكونات معنويةٍ من العسير تصورها لولاهما.

من أمثلة ذلك قوله في خطبة له: ((أمَا واللهِ إن كنتُ لَفِي ساقتِها ، حتَّى ولّت بحذافيرِها،ما ضعِفتُ ولا جبِنتُ ، وأنَّ مَسيري هذا لمثلِها ، فَلأنقبَنّ الباطلَ حتَّى يخرُجَ الحقُّ مِن جَنبِهِ)) [٣].

بدأ التجسيمُ في التوظيف الاستعاري والمُقتبَس من قوله تعالى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[٤]، وبذلك نقل إلينا معنىً مُجَرّداً إلى عالم الحسّ والإدراك ، نقل لما كان مَركوناً في عالمِ الذهنِ إلى موقعِ الإدراك البصري ، عِبرَ التوظيف البلاغي للاستعارةِ المكنية الواقعة في تشبيهِ الباطل بالحيوانِ الذي ابتلعَ الحقَّ بقرينةِ قولهِ عليه السلام:(مِن جَنبه) وهي خِصّيصةٌ من خَصائصِ الأجسادِ،والعبارة تفيد (وجود الحقِّ في الدنيا دائماً،وان غَطَّاه الباطلُ) [٥]

بالتجسيمِ تتحقق نقلةٌ من المجهولِ إلى المعلومِ ، والحسِّي أوضح من المَعنوي

---

(١) ينظر:أسرار البلاغة، ص:٤١ .

وذهب الدكتور شوقي ضيف إلى التَعاملِ مَع التَجسيم والتشخيصِ كما تَعاملَ مَعهما الغربيون حِينَ عَزلوهما عَنِ المجاز. ينظر:الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، (د. ت)،ص:٢٣٦.

(٢) ينظر:نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، ايليا حاوي،دار الكتاب اللبناني، ط٣، ١٩٦٩م، ص:٩٣١. ينظر:الاتجاه العقلي في التفسير عند المعتزلة، د. نصر حامد أبو زيد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت،١٩٨٢، ص:١٠٧ . ينظر: التصوير الفني في القران، سيد قطب، دار المعارف، مصر،١٩٦٣، ٦٤.

(٣) نهج البلاغة،خ (٣٢) جـ ١/ ٧٧.

(٤) سورة الأنبياء/ ١٨.

(٥) نفحات الولاية، ج٢/ ٢٨٦

لألفَةِ النَّفسِ بهِ ، وتعودها منذ بدايةِ وَعيِها بالعلمِ ، أمّا النقلةُ من الحسِّي إلى المعنوي فإنَّها بمثابةِ انتقالٍ من معلومٍ إلى مَجهول[1] .

ومنها أيضا قوله عليه السلام:((أصفيتُم بالأمرِ غَيرِ أهلِهِ ، وأوردتُموه غَير مَوردِهِ ، وسينتقم اللهُ مِمّن ظلَمَ ، مأكلاً بمآكل ، ومشرباً بِمشرب مِن مَطاعمِ العَلقم ، ومَشاربِ الصَّبرِ والمَقرِ ولِباسِ شِعارِ الخوف ، ودِثارِ السَّيفِ ، وانّما هُم مَطايا الخَطيئاتِ ، وَزَواملِ ألآثام))[2] .

والخطيئات جمع للخطيئة، وهي مفردة قرآنية معروفة[3] اقترنَت بتركيب استعاري جَسّم الخطايا وجَسّدها ، وعُزِّزَت هذه الصورةُ الاستعاريَّةُ باستعارةٍ ثالثَةٍ وهي ، (لِباس الخَوف) المأخوذ مِن قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾[4].

ونجح في التوظيف التجسيم في كتاب بعثه إلى ابن عمه ابن عباس رضي الله عنه وهو عامله على البصرة، مقتبساً صورة استعارية مجسّمه لما هو معنوي من قوله تعالى: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾[5] فقال ناصحا له: (فَحادِث أهلَها بالإحسانِ إليهِم،واحلُل عُقدةَ الخَوفِ عَن قلوبِهِم)[6].

شَبّه الخوفَ بالحبلِ بجامعِ الغلظة والشِدَّة ، فحذف الحبلَ ورمزَلهُ بالعقدة التي هِيَ مِن لوازمِهِ، فالخوف حَبلٌ يُضَيِّق الأنفاسَ ، ويغل الأيدي والأقدام ويَمنعهم عنِ

(١) ينظر :الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر عصفور، دار الثقافة ، مصر،١٩٧٤، ص:٤١٢.
(٢) نهج البلاغة،خ (١٥٣) جـ ٢/ ٦٩ـ٧٠.
(٣) سورة النساء/ ١١٢.
(٤) سورة النحل / ١١٢.
(٥) طه/ ٢٧.
(٦) نهج البلاغة، ك (١٨)، ج٣/ ٢٠ .

الحركةِ ، لذلك طلبَ الإمامُ عليه السلام من والي البصرة أن يُزيل عن أهلِ البصرةِ ، عقدة الخوفِ عَنهُم،مثلما طَلَبَ موسى عليه السلام مِن رَبِّهِ حين قال: (واحلُل عُقدةً مِن لِساني) .

فالاستعارة ـ من خلال التجسيم ـ حين تُوضِّح المعنى وتكشفه فإنَّها تؤثر في المتلقي وتَجعله يتفاعل مع النص، فالإيضاح « يُخاطب الشعورَ والإحساسَ لَدى المُتلقِّي»[1].

إنَّ اللغةَ العادية تعجز عن القيام بمثل هذه الأعمال ، أو إنَّها لا تؤديها مِثلما تؤديها الاستعارة، وللكشف عَمّا يجول في الذهن من أفكارٍ لابُدَّ مِن التوظيف البلاغي للوصول إلى التجسيم ، وبذلك يتوضّح ما يدور في طَيّاتِ العقلِ والقلبِ من دلالاتٍ ومَعانٍ وأحاسِيس[2] .

ومنَ التشخيص قوله عليه السلام في خطبة له: ((... وقَد أدبَرت الحيلةُ وأقبلت الغيلةُ، ولاتَ حِين مَناص؟ هَيهات هيهات قَد فات مافات ، وذَهَبَ ما ذَهَبَ ، ومضت الدنيا لحالَ بالها ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾))[3]، لقد مَثّلت الآية[4]مظهراً اقتباسياً توظيفياً تَحقَّق في تشخيص السماء والأرض ، وإظهارهما بهيئةٍ بشريةٍ من خلال القدرةِ على فعلِ البكاء ، فيصل بنا إلى ذروةِ المُبالغةِ في تحقيرِ شَأنِ مَن غَرَّتهُ الدنيا[5]، فذهبَ مِنها من غيرِ زادٍ ، وقد فاتَ مافاتَ وذهبَ ما ذهب .

ولِمثلِ هذا التوظيف نَماذج أخرى في ألسَّاحةِ النَّهجيَّةِ ، حين جعل للفتنةِ عَيناً ، وللحقِّ جَسَداً ، وللنعمَةِ أطرافاً[6]

(١) فن الاستعارة ،ص ٣٢٤.
(٢) المصدر السابق،ص:٣٥٥.
(٣) نهج البلاغة،خ(١٨٦) جـ٢/ ١٦٠ .
(٤) سورة الدخان / ٢٩.
(٥) شرح ابن أبي الحديد، جـ١٣/ ٩٩.
(٦) ينظر: نهج البلاغة، خ (٨٩) ج١/ ١٨٢،خ (١٠٠) جـ١/ ٩٩،ح (١٨٨)ج ٣/ ١٩٥،ح(٤٠٨)جـ ٣/ ٢٥١،خ(٣٣) جـ١/ ٧٨ .

ومن التشخيص أيضا قوله:((ولو وهَبَ ما تَنفَّسَت عَنهُ مَعادِنُ الجبالِ وضَحِكَت عَنهُ أصدافُ البِحار مِن فِلِزِّ اللّجَينِ والعِقيان وَنِثارةِ الدُّرِّ،وحَصيدِ المَرجانِ))[1].

اظهر عظيمَ فضلِ الله وكَرَمهُ المُتَمَثِّل في عَطاءِ الأرضِ وسخائِها حين صَوَّرها بصورة حيوان يتنفس،أي شَبَّه ما يخرج من بطون الجبالِ مِن مَعادِنٍ،بالحيوانِ المُتَنَفِّس بجامع الحيويةِ والإخراجِ في استعارةٍ مكنيةٍ،مُجرَّدةٍ لوجود ما يُلائم المستعارله وهي الجبال[2] ، ولِمثلِ هذا التوظيف نَماذج أخرى طَغَت على نصوص النَّهج منها حين جعلَ الكوفةَ جسماً بين يديه:((ماهِيَ الاّ الكوفة اقبضها وابسطها))[3]، وكأنه أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[4] .

لقد تَكثّفت الإيحاءاتُ وتَزاحَمت المعاني بِفعلِ هذين الفَنَّينِ في تَدقيقٍ لفظِيٍّ مُنسَجِم .

ب-التصويرُ البَياني .

يُعدّ التصويرُ البياني عِماد العمل الأدبي، فالنتاجات الأدبية ليست مُجرّد أسلوبِ لغوي مُتَمَيِّز،بل هي غايةٌ وَوسيلةٌ،ولابد أن تكون لها وظيفةٌ تُؤدِّيها،فتَتَدَفَّق عِبَراً،وعِظات، وتَعليماً يستمر تَجَدده[5].

والإمام حين يأتي بالصورة البيانية المقتبسة-أو سواها- لا يأتي بها وسيلة فقط،بقدرِ ما تكون هناك غاية تُصاحبها، وتسير مَعها يَداً بيد وبِتَنوع مُقتَضى الحال تَنوَّعت الصور البيانية المُقتَبَسة، فمنها ما رُسِمَ بالتَّشبيه، أو ما كان بالاستعارةِ،أو الكنايةِ،من هنا كان

(١) نهج البلاغة،خ (٨٧) ج١/ ١٦٠ .
(٢) ينظر: أساليب التعبير في القران، ص:٥٩٧
(٣) ينظر: نهج البلاغة،خ (٢٠٨) ص:٢٢٠ .
(٤) سورة الأنبياء/ ١٠٤
(٥) ينظر:الصورة الفنية في كلام الإمام (ع)، ص:٦٧ ١.

الفنُّ البلاغي مَشهداً مِن مشاهد التوظيف الفنّي بل هو عِمادُهُ، لارتباطِهِ بالصورةِ، ومن ثمّ بتأثيرِها في المُتلقي .

وتُمَثّل الصورةُ البيانيةُ انبجاساً فَنياً وتلقائياً يَنغَرس في أحشاءِ النسيج الفَنّي بأكملِهِ في وجهها الاستعاري[1]، والكلماتُ ليست إلاّ بدائل للأشياء،إنها مُرصودة لتَنقل إلينا خَبَراً عن الأشياءِ،خَبَراً كان بوِسعِها أن تَبلغه بدِقَّةٍ أكبر لو أمكنَتنا أن نَراها مُباشرةً[2]،وقَد يمكن ذلك بالتشبيه والاستعارة والكناية

١ - التشبيه.

ويأتي التشبيهُ في مقدمة ألوانِ الصُوَر البيانية، وأوضَحها ، ومِن تِلك الصُور البيانية التشبيهيه قوله عليه السلام بعد أن عَدَّدَ أعمالَ المُنافقين:((.. يَقولون فَيُشَبّهون، ويَصفونَ فَيُوهِّمون،قد هَوّنوا الطريقَ ، وأضلَعوا المَضيق، فَهُم لُمَّةُ الشَّيطان، وحُمّةُ النِّيران: « أولئكَ حِزبُ الشيطانِ ألا إنَّ حزبَ الشيطانِ هُم الخَاسِرون «)) [3] .

بعد بيانٍ وصفي طويل خَلُصَ إلى القولِ بأنَّهم لُمَّةُ الشيطانِ، وحُمّةُ النيران،وهُما تعبيران استندا إلى فنِّ التشبيه البلاغي الخَفي والمُقَدَّر بأداةِ التشبيه الغائبة،ثم مَضى عليه السلام للإيغالِ في ذَمّهم واستكمالِ بيانِ صورَتهم استحضر الآية المباركة[4] ليقول: بَل هُم حِزبُ الشَّيطانِ وهُم خاسِرون وِفقَ حَتميّةٍ إلهيَّةٍ كَونيَّةٍ ثابتَة.

حَمَلَ مُفرداتَ النصِّ،وحَوّلها مِن معانيها المعجمية المباشرة إلى فضاءاتٍ من المعاني الجديدة حين عَقَدها برباط التَشبيه الخَفي،فوضَع المُتلَقي أمامَ صُورٍ مُدهشة جَميلة مُؤثِّرة، وجَعلَهُ يَشعُر بِشيءٍ مِن المُفاجَأةِ،والإدهاش،وهذا ما يَمنح النصَّ جَماليَّةً خاصّةً بِهِ .

---

(١) ينظر: في البلاغة العربية ، د. رجاء عيد، دار غريب للطباعة ، مصر، ط ٢(د.ت) ص:٢٠٨ .

(٢) ينظر: بنية اللغة: ص: ٣٣.

(٣) نهج البلاغة،خ (١٨٩) جـ ٢/ ١٩٢.

(٤) سورة المجادلة/ ١٩.

٢- الاستعارة.

أمّا التصوير الاستعاري فقد كان عنصراً مُهَيمناً في كثيرٍ من مواضع النَّهج، لقد شُحِنَت النصوصُ بصورٍ بيانيّةٍ استعاريَّةٍ تشدّ المتلقي وتُرضي عَينَيه قَبلَ أُذنَيه .

وفي خطبه له عليه السلام بدأها بحمد الله ((الذي لبس العزّ والكبرياء))[١]، فشبّه العزّ وأظهَره بلباسٍ معنوي ، ثم استعار لفظَ المشبَّه بهِ للمشبه على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيةِ ، ثم استنشَقَ من (اللبس) الفعل (لَبِسَ) بمعنى (اتَّصَفَ) ، والقَرينةُ المانعةُ مِن إرادة المَعنى الأصلي ، هي العزّ والكبرياء ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّبعِيَّةِ ، والجامع بينَ المستعار والمُستعارله هو (الإحاطة)[٢]، ويَعود بنا الاقتباسُ إلى قولِ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : ((الكبرياءُ رِدائِي ، والعِزَّةُ إزاري ، فَمن نازَعَني واحداً منهُما ألقيتهُ في النار))[٣].

وله صورةٌ استعاريةٌ استعارَها منَ النص القرآني[٤]، فألبسها ثوباً استعارياً في قوله عليه السلام:((ذاك حيث تَسكرون مِن غَيرِ شَراب))[٥]، حيث شبّه الغفلة بالسكر،مثلما شبّهت الآيةُ هولَ الموقف بالسكر على سبيل الاستعارة التبعية، بقرينةٍ مانعةٍ للمعنى الحقيقي[٦] ، قوله عليه السلام: (مِن غيرِ شَراب) فالسكر ليس سكراً حقيقياً، بل هو نقلةٌ عقليةٌ مجازيَّةٌ عبرَ الاستعمال الاستعاري الَّذي فَجَّر طاقةَ المفرداتِ وحمّلها دلالاتٍ مُوحِيَة،وهو انزياحٌ كَما عَبّر عَنهُ النّقاد الغربيون فِيما بَعد .

وفي صورةٍ بيانيةٍ استعاريَّةٍ جميلةٍ جَعَل للباطلِ جيوشاً، وللأضاليلِ صَولاتٍ حِينَ

---

(١) نهج البلاغة،ح (١٧٨)،ج ٢/ ١٦١ .

(٢) ينظر: أساليب ألبيان في القرآن ، ص :٥٧١ .

(٣) مسند أحمد ،ج٢/ ٢٤٨ وسنن ابن ماجة ، ص :١٣٩٧ . وجاء تعبير (رداء الكبرياء) في أحاديث نبوية كثيرة. ينظر مثلا : صحيح مسلم ،ج١/ ١١٢ . و سنن ألد ارمي ، ج١/ ٣٣٣ .

(٤) سورة الحج/ ٢.

(٥) نهج البلاغة ،خ(١٨٢)،ج٢/ ١٥٠ .

(٦) ينظر: أساليب البيان في القران، ص :٥٧٢.

قال:((الدافعُ جيشاتِ الأباطيل، والدامغ صولاتِ الأضاليل))[1] ، نحن إزاء حَشدٍ صُوَريٍّ تصحبه ضَجَّةٌ صَوتيةٌ تكاد تُفصِح عَن صورةٍ حَقيقيَّةٍ للباطلِ،والأضاليلِ، باستعارةٍ مَكنيَّةٍ تَبَعيَّةٍ[2] .

ولفظَتَي (دافع ، دامغ) بصيغةِ اسم الفاعل من ورائِها دلالةٌ مقصودةٌ وهي المبادرةُ،والثباتُ ،لما للاسم من دلالةٍ على الثَّبات[3]،وللاسم دلالةٌ على الحقيقةِ دونَ زمانِها، فالغَرَض ليس زمانَ الفعل،بل إثبات ذلك الفعل، وهذا المعنى نلمحهُ مخبوءاً خَلف كلماتِ الأمام بِصورتِها الاستعارية وصيغَتِها الصَّرفِيَّة المَقصُودة .

يجد المتلقي نفسَه في حَشدٍ صُوَري هادر بالصوتِ والصورةِ، وعندئذ يلمس قِيمةَ الانزياح الَّذي قَفَزَ بِهِ إلى مساحاتٍ تَبتَعدُ كثيراً عَنِ المَعاني الحَقيقيَّة للألفاظ .

ومَثَّلت صُوَرهُ هذِهِ مَزيجاً مِنَ المعاني القرآنية مَسبوكةً بألفاظٍ ومفرداتٍ انسَجَمَت بِموسيقاها، وتمازَجَت ألوانُها ، فهو انشطارٌ مَصحوبٌ بِلِباسٍ لفظيٍ أخَّاذ .

٣- الكِنايةُ .

والكناية ـ بأنواعها[4] ـ ضَربت بسهامِها في بناءِ الصورة البيانية، وإظهارِها بألوانٍ مُختَلفةٍ باختلاف تلك الأنواع،وقد عَبّر الإمامُ عليه السلام بألفاظِهِ عن معانٍ كان منها القريبُ والبعيدُ،ولا تُعبِّر عَن المعاني البعيدة لأوّل وهلة[5]، فمنحت نصوصَه تنويعاً بَيانِياَ،وزينةً لفظيَّةً، فجمعت بينَ جودةِ المعنى، وروعَةِ السَّبكِ .

---

(١) نهج البلاغة،خ(٦٩)،ج١/ ١١٦ . وينظر: نفحات الولاية: ج٤/ ٩.

(٢) ينظر: أساليب البيان في القران، ص:٥٥٧.

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص:٤١.

(٤) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة(كناية) .

(٥) باعتبار ان الكناية هي المعنى البعيد للألفاظ التي تدل على معان قريبة وبعيدة .ينظر: معجم المصطلحات البلاغية ، وتطورها، مادة(كناية) .

ومِن هذه الألفاظ (الأمشاج)[١]، إذ أسهمت في بناءٍ كنائي في قوله:((عالِم السر مِن ضَمائِرِ المُضمرين... ومَحَط الامشاج مَن مَسارِبِ الأصلابِ... وعَوم نَباتِ الأرضِ في كثبانِ الرمالِ))[٢] .

و(مَحط الأمشاج) كنايةٌ عن رَحِم المرأة وهي كنايةٌ قريبةٌ ، يُراد بها نسبة الصِّفةِ للموصوف، وتحقَّقت بفعلِ الإضافةِ المُقترنة بالألفِ واللّام ، وكذلك الحال في(نَباتِ الأرضِ) ، وهي كناية عن الأحياء البرية التي تكَّونت مِن تلال الرمال وتَنشأ فيها [٣]، فمنَحَ النَصَّ بُعداً (عِرفانِيًّا) ارتفع بالنصِّ إلى مَشهدٍ مِن مَشاهدِ الروح .

أصبح مَشهداً يُظهر عظمةَ علم اللهِ بأدقّ الأمورِ،وأصغرها،فهو العالِم بضمائرِ المُضمرين، وبأحوال الناس وهم في مَحط الامشاج مِن مَساربِ الأصلابِ، وبأحوالِ (نبات الأرض) الضعيفة بين كثبانِ الرمال الكثيفة،إنَّه جمعٌ بين المتناقضاتِ التي بتفاوتها، وتناقضها تتَجلّى عظمةُ الله.

وحَوَّل البناءَ الاستعاري ـ في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٤] إلى بناء كنائي حين اقتبسَ معنى هذه الآية المُباركة ليَصِف بناءَ القبورِ، فقال:((قَد بُنِيَ عَلى الخَرابِ فَناؤُها))[٥]، أراد القول: إنّما بُنِيَت ساحاتُها على خَرابِ الحياة،أو زوالها،ومن هنا صَحّ التقابل بين فَناءِ الدار،وسعة أرضِها،وزوالِ الحياةِ وأفولِها، ولم يقل بُنِيَت بالخرابِ،لأنّه من بابِ الكنايةِ عَن نِسبة [٦]، فأصبَحت صُورةٌ مُكثّفة أنارت النصّ وأخرجت غايتهُ الدلالية الواضحة،لأنَّه عليه السلام في

(١) قال تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) ، الإنسان/ ٢ .

(٢) نهج البلاغة،خ (٨٧) جـ١/ ١٧٩ـ١٨٠.

(٣) ينظر: أساليب البيان في التعبير القرآني، ص:٧٣٣.

(٤) سورة التوبة / ١٠٩.

(٥) نهج البلاغة ،خ (٢٢١)،جـ ٢/ ٢٤٦ـ ٢٤٧.

(٦) ينظر: أساليب البيان في التعبير القرآني، ص : ٧٣٩ .

مَقام التَّذكيرِ والوَعظِ،ولابُدّ منَ الوضوح لاقامةِ الحجّة ، وله كنايات أخرى استمَدّها مِن القرآنِ الكريمِ والحديثِ النبويِّ الشَّرِيف[1] .

(١) ينظر: نهج البلاغة، ق (١٨٦)،ج٣/ ١٩٥، خ (٨٩)،ج١/ ١٨٢-١٨٣.

الفَصلُ الثَالث

خَصائِص الاقتباس

المبحَث الأوَّل: الَخصائِص الدَّلاليّة.

المبحَث الثاني: الَخصائِص الفَنّية.

مَدخَل:

إنَّ التنوعَ في طرق الاقتباس استدعى تَنَوعا مُماثلاً في خصائصه، إذ ليس من المعقول أن تتوحّد مع مثل هذا التنوع .

والقول إنَ المتأمّل في نصوص النهج يجدها كلها ماء واحداً ، ونفساً واحداَ، وأسلوباً واحداً، كالجسم الذي لَيسَ لبعضِ من أبضاعِه مُخالِفاً لباقي الأبعاض في الماهية(١)، لا يمنع من ظهور خصائص ، ومزايا مختلفة لكل نوع من هذه الاقتباسات .

ومِن الطبيعي أن يستدعي تنوع الخصائص تصنيفاً يُناسِبه ويستقصيه، لتفردها «ماثلة في بنية الخطاب الذي يتكامل نَصًّا مغنياً »(٢).

لمّا كان الأمر كذلك لابدّ أن يَتولد عن هذه الخصائص دلالاتٌ موحيةٌ، تميّزها، وسماتٌ فنيةٌ لها جماليّتها، اصطبغت بها، فقاد إلى حَتمية تصنيفها إلى:(خصائص دلالية) و(خصائص فنية) تبعاً لعطاءاتٍ معاني هذه الاقتباسات وألفاظها.

---

(١) ينظر: شرح ابن أبي الحديد: المقدمة .

(٢) سلطة الحق ، ص:٢١٩.

المبحَث الأوَّل: الخصائِص الدَّلاليِّة

إنّها إضاءة وتعميق لصور الاقتباس والمُتحقق بفعلِ عرض خصائصها التي استهدفت المنح الدلالية لبنى الاقتباس في النصوص، وتجلّى في بعض من الخصائص التي انضَوت تحت جناح المستوى الدلالي، وهي:

أولا: تغيير المفردة تَبعاً لِمُقتضى السِّياق .

وكان تغيرها وفقا لمتطلبات عديدة، منها:

أ- تغيير المفردة المُقتبَسة تَبعاً للتوافق الدَّلالي.

عمد الإمامُ إلى اقتباس المفردةِ القرآنيةِ لعمق دلالتها، ولقدسيتها في نفس المتلقي، ولقدرتها على بث المعاني، والدلالات المكتنزة فيها وحملها للمعاني التي يطول شرحها إذا أراد المتكلم العادي التعبير عن مثل هذه المعاني التي أرادها القرآنُ لم يصل إلى بغيته إلّا بلفظٍ أطول، وأقلّ دلالة(١).

لقد أصبحت بمثابةِ إشاراتٍ منشطة قادرةٍ على استدعاء الصورةِ الذهنية المصاحبة لها، ومن خصائص الاقتباس عنده عليه السلام في عموم اقتباساته تطويع ما اقتبسه

(١) ينظر:البيان والتبيين، ص:٩٤ .و تقدّم الكلمةُ عنصراً دلاليّا يشعّ بالإيحاءاتِ المتعدّدة. ينظر:محاضرات في الصوت والمعنى، رومان جاكوبسن، ترجمة حسن ناظم وزميله، المركز الثقافي العربي بيروت، ط، ص:٩٠.

سَعيا لخلق التوافق الدلالي، وتَمثَّل هذا الأمر في المفردة حين يغيّر من تركيبتها البنائية[1]، أو في مواقعها حين يقّدم أو يُؤخّر بحَسَبِ مُقتضى الحال.

قال عليه السلام مُحَذراً أصحابَه من الشيطان:((فاحذروا عبادَ اللهِ عدوَ اللهِ أن يُعديكُم بدائِه، وأن يستفزنكم بندائِه، وأن يجلب عليكم بخيلِه، ورجلِه))[2].

وقع الاقتباس في المفردة(يستفزنكم)من قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[3]، في سياقها القرآني كانت خطاباً مباشراً بصيغة الأمر، غير أنَّ السياقَ الجديد في كلام الإمام عليه السلام فرض تعبيراً جَديداً في المفردةِ حين أوردها بصيغةِ المُضارع وللكلام استمراريتُه، وفاعليتُه بهذا الفعل المضارع الدال على الحضور والمستقبل مع الحفاظ على معناها القرآني الذي وردت فيه.

والتعبير البنائي للمفردة–من حيث الزمان– لم يكن مانعاً في استحضار معناها في سياقها القرآني وما أن تطرق المفردة النهجية (يَستَفزِنَّكُم) سَمعَ المتلقي حتى يقفز المعنى القرآني للمفردة(استَفزِز)[4] أمام ناظريه، فيتحقق الإفهام قبل اكتمال قراءة النص، فأصبحت بمثابة(اقتران شرطي) [5]*.

وغَيَّر التركيبُ القرآني(فانبذ إليهم)في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾[6] إلى صيغةِ المفرد، في كتاب له عليه السلام إلى

(١) ينظر:الفصل الأول، المبحث الأول اقتباس المفردة القرآنية ، ص :١٦-٣١.

(٢) نهج البلاغة، خ(١٨٧)، ج٢/ ١٦٣.

(٣) الإسراء/ ٦٤

(٤) استفزز: أي استنزل.ينظر:التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي، ج٦/ ٤٤٩. وينظر: أحكام القرآن، للجصاص، ج٣/ ٢٦٦.

(٥) * الاقترانُ الشرطي هو مصطلح علمي عُرِفَ عند علماء النفس، ويعني حضور شيءٍ عند حضور شيءٍ آخر اقترن بهِ، كما توصل إليه العالم الروسي(بافلوف) . ينظر:أساسيات علم النفس التربوي، د.محسن حسين الازيرجاوي، دار الكتاب للطباعة، الموصل، ١٩٩١م، ص:٢٣٨

(٦) الأنفال/ ٥٨ .

جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية، ومّما جاء فيه: ((... خُذهُ بالأمرِ الجزم، ثُمَّ خَيِّرهُ بَين حَربٍ مُجلية ، أو سِلمٍ مُخزية ، فإن اختار الحربَ فانبُذ إليه، وإن اختارَ السِّلمَ فخُذ بيعَتَهُ والسَّلام)) (١).

الضمير يعود إلى معاوية، وأراد الإمامعليه السلامأن يعبر عن أمر مقصود فتم له ذلك حين عبر بهذه المفردات القرآنية التي تشكّلت في التركيب(فانبُذ إليه)، وهو تركيب أضفى دلالةً غنيةً على النص ومثلت إحالة دلالية موجزة تأخذ بالمتلقي إلى ما وراء النص حين يعود إلى صَدرِ الآية المقتبسة، وهي إشارةٌ واضحةٌ إلى خيانة معاوية .

وللوصول بالمفردةِ القرآنيةِ إلى أقصى عطائها الدلالي، نجدهعليه السلامأحيانا يقتبسها في بنيتها الصرفية القرآنية المتعارف عليها كما في قولهعليه السلام:(...انفروا – رحمكم الله – إلى قتالِ عَدُوِّكمُ ولا تَثَّاقلوا إلى الأرض فَتَقِرّوا بالخَسفِ، و تَبوؤوا بالذلِّ)(٢).

والمفردة (تثاقلون) تعود بانتمائها الصرفي إلى المفردة القرآنية(اثاقلتم)في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(٣).

لقد نجح الإمامعليه السلامفي تطويع الدلالة القرآنية(٤)على الرغم من التغير الحاصل في بنيتها البنائية مع الحفاظ على سِمتِها الصرفية التي عُرِفَت بها، والتي دَلّت بحروفِها الثقيلة على مقدار تثاقل هؤلاء عن القتال ، حتى كأنهم يتساقطون على الأرض إن

---

(١) نهج البلاغة، ك(٨)ج٣/ ٩.

(٢) المصدر السابق، ك(٦٢)ج٣/ ١٣٢.

(٣) التوبة/ ٣٨.

(٤) واصل المفردة(اثّاقلتم):تثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الاقامة بالأرض، وهو توبيخٌ على ترك الجهاد، وعتابٌ على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وقيل :أي تكاسلتُم ، ومِلتُم إلى المَقام في الدعةِ، والخَفض، وطيب المَكان. ينظر: مجمع البيان ، الطبرسي، ج٥/ ٥٤. وينظر: جامع البيان، الطبري، ج١/ ١٧٢. وينظر :الجامع لاحكام القرآن، القرطبي، ج٨/ ١٤٠. وينظر: تفسير القرآن، ابن كثير، ج٢/ ٢٧٢ .

أرادوا، القيام وهكذا قَدَّم بها – المفردة – دلالةً مُوحِيةً شكّلت بُؤرةً دلاليَّةً للنص .

وغالباً ما تأتي اقتباساتُهُ للمفردات، مَصحوبَةً بالمناخ العام الذي ينهل منه تلك الاقتباسات، وكأنَّه يقتبس سياقها معها للإفادَةِ منه ضِمنَ دلالةِ النَّص الجديد .

ب- تَغَيّر النصوص المقتَبسة تَبعاً لِمُقتَضى السِّياق .

تكيّف النصُّ القرآني، والنبويُّ للمُرادِ المَدلولي من خلال الإفادةِ من تركيبِهِ، أو معناه، وقد نجح الإمامُ في إيجادِ كثيرٍ من هذا التكييف.

نجده عليه السلام يطوع ما اقتبسه من آيات وفقا للسياق العام للنص باعتبارهِ « المَرجع الذي يُحال إليه المتلقي كي يتمكن من إدراك مادَّةِ القولِ ويكون لفظاً أو قابلًا للشّرحِ اللفظي »[1] ، ومن أمثلة ذلك قوله وقد مرّ بقتلى الخَوارِج يوم النهروان : ((بُؤساً لكُم، لقد ضَرّكُم مَن غرّكم، فقِيل لهُ: مَن غرّهُم يا أميرَ المؤمنين؟ فقال : الشيطانُ المُضِلّ والأنفُس الأمَّارةُ بالسُّوء ، غرّتهُم بالأماني ، وفَسَحت لهم بالمعاصي ، ووعَدتهُم الإظهار فاقتَحَمَت بهم النار))[2].

بالرِّجوع إلى الآية ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[3]، نلمح إبدالاً في الصيغةِ المُقتَبسة، إذ تحول الخطاب من المخاطب الحاضر (غَرَّتكُم الأماني) إلى الغائِب (غَرَّتهُم بالأمانِي) .

في الآيةِ المباركةِ وقع التغريرُ من قِبَل الأماني ، وهي نسبةٌ مجازيةٌ لغويةٌ وقعت في نسبة التغرير لما هُو مَعنوي ليس له وجود في عالم المحسوس بفضلِ الاستعارةِ ، وفي كلامِهِ عليه السلام وقع التغريرُ من قِبَل (الشيطان المُضلّ والنفس الأمَّارة بالسُّوء) ، بالإضافة

(١) الخطيئة والتكفير، ص:٣.
(٢) نهج البلاغة، ق(٣٢٣)، ج٣/ ٢٣٠.
(٣) الحديد/ ١٤.

إلى العدول من المخاطب إلى الغائب بعد أن سُئِل : (مَن غرّهم..؟) ، وهو سؤال عن الغائب باعتبارهم مَوتى ، ولم تبقَ سوى أجسادِهم في الوقت الذي نجد الآية في حوار مع أولئك حواراً مُباشراً ، إنَّ ملاءمة سياق الحال والمقال التي استَدعت هذا التغيير مع الحفاظ على الدَّفق المعنوي الكبيرَ للمقتبسات ، ووضوح إحالتها الدلالية .

ونجد مثالاً آخر أعاد فيه الصياغة بأسلوبٍ جديدٍ مُلائم للسياقِ العام لكلامِهِ خدمةً للدلالة الجديـدة في قوله في كتاب له كَتَبه إلى الحارث الهمداني حين عَدلَ عن صِيغة الجمع إلـى المفـرد فقـال : (وعَظِّمٍ اسمَ الله أن تَذكره إلّا عَلى الحَق)[١] ، وهو من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢].

وقال له أيضاً: ((ولا تَتمنَّ الموتَ إلّا بشَرط وَثيق))[٣]، وهو من قولِهِ تعالى في خطابِ بَني إسرائيل: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[٤].

وكذلك في صيغة:(وأكظِم الغيظَ)[٥]، وهو إفراد لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٦]، ولانَّ خطابَه مُوجَّهٌ لشخصٍ مُفرد جعل الاقتباسَ مُوجَّها بصيغةِ الإفراد، فأصبح الاقتباسُ مُلائِماً لسياقِ النص .

ويصل التغييرُ أحياناً إلى إبدالِ المضارع(تعتوا الوجوه)[٧] بالماضي (عَتَت

(١) نهج البلاغة، ك(٦٩)، ج٣/ ١٤٢ .
(٢) البقرة/ ٢٢٤. وينظر:شرح ابن أبي الحديد، ج١٨/ ٣٣.
(٣) نهج البلاغة، ك(٦٩)ج٣/ ١٤٣ .
(٤) الجمعة/ ٦ – ٧ . وينظر:شرح ابن أبي الحديد ج١٨/ ٣٣.
(٥) نهج البلاغة، ك(٦٩)ج٣/ .
(٦) آل عمران/ ١٣٤. وينظر: شرح ابن أبي الحديد،ج١٨/ ٣٥.
(٧) نهج البلاغة،خ(١٧٤)ج٢/ ١٢٠-١٢١.

الوجوهُ)[1]، أو العكس من ذلك في إبدال(ولا يؤدهُ حِفظهما)[2]بصيغةِ الحَديث عن الماضي(لم يؤده)في قولهعليه السلام:((لم يَتكاءَدهُ صنع شيءٍ منها إذ صنَعَهُ، ولم يؤده منها خَلق ما بَرأهُ وخَلَقَهُ، ولم يكونها لتشديد سلطان...))[3]، لانَّ سياقَ الحديثِ في الخطبةِ كان في بدءِ خلق الأرض، وهو حديثٌ في زمنٍ مضى استدعى ضرورةَ تغيير المُقتبَس تَبَعاً لذلك.

أويغير المقتبس المضارع(مُهطِعين)[4]إلى فعل الأمر (فاهطِعوا)في قولهعليه السلام:(فاهطِعوا أسماعَكُم إليها وكُظُّوا بجدِّكم عَليها)[5]، حين جاءت خطبته للوعظ والإرشاد فتطلب الأمر المخاطبة بصيغة الأمر أو في إبدال الجمع بالمفرد[6].

ثانياً:التَنوع الدَّلالي بتَغيِّر مواقعِ الاقتباس .

احتلّت النصوص القرآنية المقتبسة- اقتباساً مباشراً - مواقعَ مختلفة تبعاً لاختلاف سِياقَي الحالِ والمقال[7]، فأفضَت إلى هِباتٍ دلاليةٍ امتاز بها كلُّ مَوقعٍ دونَ سِواه .

أ- دلالةُ الاقتباساتِ الواقعة في بدايةِ النّصوص .

هي غالبا ما تكون منطلقات لحديث ينبع منها سَواء أكان في خِطبِهعليه السلامأم في كتبِه، فتغدو المحورَ الأساس الذي تدور النصوص في فلكِهِ، وتلتف حوله، من ذلك قوله بعد

(١) قال تعالـى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾. طـه/ ١١١

(٢) من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾. البقرة/ ٢٥٥.

(٣) نهج البلاغة،خ(١٨١)ج٢/ ١٤٨.

(٤) من قوله تعالى: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء) . البقرة/ ٤٣.

(٥) نهج البلاغة، خ(١٨٦)ج٢/ ١٥٨ .

(٦) ينظر:المصدر السابق، ك(٨)ج٣/ ٩ .

(٧) ينظر على سبيل المثال: سورة النحل/ ١٢٨ في خ(١٨٨)ج٢/ ١٨٥، سورة النور/ ٣٧ في خ(١٢٧) ج٢/ ٢٣٧، سورة الانفطار/ في خ (٢١٨)ج٢/ ٢٤٠، سورة النحل/ ٩٠ في ق(٢٣١)، ج٢/ ٢٠٤ .

تلاوته لقوله تعالى:﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾[1]، فقال:((يالَهُ مَراماً ما أبعدهُ وزَوراً ما أغفلهُ، وخَطَراً ما أفظَعَهُ لقد استخلَوا منهم أيَّ مُدَّكَر، وتَناوشُوهم مِن مكانٍ بَعيد !!! أبِمَصارِعِ آبائِهم يفخَرون أم بعَديدِ الهلكى يَتَكاثرون؟ يرتَجِعُون منهُم أجساداً خَوَت، وحركاتٍ سَكَنت))[2]، ثم يمضي عليه السلام في ذكرِ أحوالِ الموتى في قبورِهم، وما سيؤولون إليه، بعد أن تركوا ديارَهُم التي أضحَت عَرصاتٍ خاويةً، وربوعاً خاليةً وذهبوا عنها ضلّالاً، فنذهَبُ في إثرِهم، ونَطأُ هامتَهم ونسكن فيما خَرَّبوا وهكذا تُكرر الأيامُ فعلتَها معنا، فيختلط في القبورِ الملوكُ والسَّوقةُ[3].

يدخل بعدها رسمُ صورٍ بيانيةٍ تشخصية حين يذكر تسليطَ الأرضِ عليهم لتأكل من لحومِهم، وتشرب من دمائهم ليصل بالمتلقي إلى صور مُنفِّرةٍ تذكيريةٍ رادعة واعظة ، حتى يصل إلى القول:((وإنَّ للموتِ لَغمراتٍ هي أفظعُ مِن أن تُستَغرَق بِصفَةٍ، أو تَعتَدِل على قلوبِ أهلِ الّدنيا))[4]، وقوله هذا للإمعان في التهويل ، والتذكير، والاعتبار، وفي الدعوةِ للعملِ لما بعد القبور، حينئذ ، نُدرِك دلالةَ المقتبسِ القرآني المباشر، حين تشَّظّت معانيه في ثنايا خطبه عليه السلام فكانت المنطلق إليه ، ومحوره الأساس ، وخاتمته أيضاً.

إنَّها هيمنةٌ دلاليّةٌ للنص القرآني الذي أخذ بتلابيبِ الخطبة، ثم أدارها معه حيث يدور، والذي عَزّز من معانيها في النص تلك الاستفهامات الاستنكارية الدالّة على التوبيخ: (أبِمصارِعِ آبائِهم يفخَرون أم بعديدِ الهلكى يتكاثَرون...)، وفي تصويرٍ بيانيٍّ تَشخِيصي .

وتوالت مثل هذه الهيمنة في قوله تعالى:﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ

(١) التكاثر/ ١-٢ .
(٢) نهج البلاغة، خ(٢١٦) ج٢/ ٢٣٠ .
(٣) ينظر:المكان نفسه، ج٢/ ٢٣٠ - ٢٣١ .
(٤) ينظر:المصدر السابق، ج٢/ ٢٣١ - ٢٣٧ .

وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾[1] في إحدى خطبه[2] ، التي حثّ فيها على الذكر والتقوى .

بَعد قراءةِ هذه النصوص، ونظائرها[3]، يدركُ المتلقي أن الإمام طَوّع نصوصَه للنص المُقتبَس، وجعلها – الآيات المقتبسة – عنصراً مُهيمِنا في سَوق دلالةِ النصّ لتسير في ظِلّهِ، فيصبح النصّ في نَسَقٍ موضوعيٍّ مُتسَلسِلٍ مُتَماسِك .

لم يترك زاويةً من زوايا النصّ خاليةً من البثِّ الدلالي للآية، إنَّها إشارةٌ دالّةٌ تعود بالمتلقي إلى الفواتح القرآنية المُقتبَسة والمُستقِرَّة في مقدَّمةِ النص، وبذلك تصبح إطاراً تنتظم فيه النصوص، أو أن يكون بمثابةِ الأرضية التي يُمكن أن تُؤسّس عليها الدلالة العامة لها.

وشكّل ذكرُ الموتِ وصورِهِ أحدَ المعالم المُتكرِّرةِ في نصوص الإمامعليه السلام، فما أن يتركه قليلا إلّا ويعود مرةً أخرى، وهذا الذكر كان يريده للناس كافة كما هُو بَيِّن .

وتتجلّى تبعية النصّ النهجي، للنصّ القرآني المقتبس حين يحيط به بغية تفسيره، وبيان معانيه كما في تفسيره لقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

ب- دَلالةُ الاقتباساتِ الواقعة في اثناء النَّص.

فتارة نجد النصوصَ المُقتبسة في بدايةِ النص[5]، أو في وسطِهِ[6] أو بعد ذلك بقليلٍ

(١) النور/ ٣٧ .
(٢) ينظر: نهج البلاغة، خ (٢١٧)ج٢/ ٢٣٧ – ٢٣٩ .
(٣) ينظر مثلا: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ . الانفطار/ ٦ . نهج البلاغة، خ(٢١٨)، ج٢/ ٢٤٠ – ٢٤٣ .
(٤) النحل/ ٩٠ .
(٥) ينظر مثلا: سورة يونس/ ٢٤في خ(١٠٧)، ج١/ ٢١٦، المدثر/ ٤٣في خ(١٩٤)، ج٢/ ٢٠٤، النساء/ ٥٩ في خ(١٢١)، ج٢/ ٨، ص/ ٧١في خ(١٨٧)،ج٢/ ١٦١، النحل/ ١٢٨ في خ(١٨٨)، ج٢/ ١٨٥، المدثر/ ٤٣في خ(١٩٤)، ج٢/ ٢٠٤ – ٢٠٥، الأنفال/ في٢٨ ق(٩٣)، ج٣/ ١٧١، المدثر/ ٣٨ق (٣٧٧)، ج٣/ ٢٤٤ .
(٦) ينظر مثلا: سورة، القصص/ ٢٤في خ(١٥٥)، ج٢/ ٧٣، طه/ ١٣٢في خ(١٩٤)، ج٢/ ٢٠٥، الحج/ ٢٥ ك(٦٧)، ج٣/ ١٤٠، الحديد/ في٢٣ ق(٤٣٩)، ج٣/ ٢٥٨ .

أو كثير[١] ، لَعلّ من أبرز تلك الدلالات- الناتجة عن تغير مواقعها – الاشتراك الفاعل في عملية السَّرد، والبناء الدلالي للنصوص، والتي يلعب فيها السياق دوراً بارزاً .

في خطبة طويلة له عليه السلام شكّل السردُ عنصراً مُهماًّ مع تنوّع في الأحداث والزمان والمكان ، لينتقل بالمتلقي من (مكان) إلى آخر ، حين يُفَصِّل القولَ في ابتداء خلق السماء والأرض ، وقصة خلق آدم ، وما جرى له مع إبليس، يصل بنا إلى ذروة الحدث المتمثل في امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام ، حيث يقول عليه السلام: ((فَسَجدوا إلّا إبليس اعتَرَتهُ الحَميَّةُ وغَلبَت عليه الشَّقوةُ وتعَزَّزَ بخلقَةِ النَّار ، واستهوَنَ خَلق الصَّلصال ؛ فأعطاه اللهُ النَّظرةَ استحقاقاً للسُّخطة ، واستتماماً للبَليَّةِ ، وإنجازاً للعدةِ فقال : « إنَّكَ من المُنظرين إلى يومِ الوقتِ المعلوم « ثُمَّ أسكَنَ سبحانَهُ آدمَ داراً أرغَدَ فيها عيشَهُ ، وآمَنَ فيها مَحَلَّتَه ، وحَذَّرَه إبليس وعَداوَتَهُ ...))[٢].

لقد مَثّلت الآيةُ[٣]جزءاً لا يتجزّأ من عمليةِ السَّرد القولي اعتماداً على الحكاية القرآنية، وازدادت فاعلية النص القرآني في العملية السردية في بعض مواضع النهج، ويكاد المتلقي لا يحسّ بها لولا شهرة نسبتها القرآنية التي التصقت في أذهان المتلقين، كقوله عليه السلام مُتَشَكِّياً:((...دَعَوتُكُم إلى نَصرِ إخوانكم فجَرجَرتم جَرجَرة الجَمل الأسَرِّ ، وتَثاقَلتُم تَثاقل النِّضوِ الأدبَر ، ثم خَرجَ إليَّ مِنكُم جُنَيدٌ مُتذائِبٌ ضَعِيف « كأنَّما يُساقون إلى الموتِ وهُم ينظرُون»))[٤].

لو حُذِفَت الآيةُ المباركة ما اكتملت الصورةُ المركَّبةُ التي رسمها عليه السلام لذلك التخاذل الذي توضح بالتشبيه، فجعل المتلقي يدرك الصورةَ التي أراد عليه السلام إيصالها إليه من خِلال السِّياق[٥].

(١) ينظر مثلا: سورة الأنعام/ ٣٨في خ(١٧)، ج١/ ٥١، العنكبوت/ ٢ في خ(١٥١)، ج٢/ ٦٤، الزمر/ ٧١ في خ(١٨٥) ج٢/ ١٥٥، الشعراء/ ٥٧ في خ(١٩٦)، ج٢/ ٢٠٧، لقمان/ ٣٤ في ، خ(١٢٤)، ج٢/ ١٥، البقرة/ ١٢٦ في خ(١٢٥)، ج٢/ ١٧، فصلت/ ٣٠في خ(١٧١)، ج٢/ ١١٣ .

(٢) نهج البلاغةخ(١)ج١/ ١٥-١٦ .

(٣) الأعراف/ ١٥ . وينظر:الحجر/ ٨، ٣٧ ، ص/ ٨٠.

(٤) نهج البلاغة، ج(٣٨)ج١/ ٨٦.

(٥) للسياق أثرُهُ في الأداء اللغوي والوظيفةالابلاغيَّة للغة.الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى ، د. حامد كاظم عباس، دار الشوؤن الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٤م، ص:٧٠.

وتنمو المقدرةُ السردية للمقتبس القرآني، حين تَتَواشَج مع نصِّ الإمام عليه السلام، فينصهران في بوتَقَةٍ بنائيَّةٍ، فيغدو النصّ مكتنزاً وناضحاً بالدلالة كما في قوله عليه السلام في وصيته لما ضربه(ابن ملجم): ((أنا بالأمسِ صاحبكُم ، واليومَ عِبرةٌ لكم ، وغَداً مُفارقكم ، إن ابقَ فأنا وليُّ دَمي وإن أفنَ ، فالفناءُ مِيعادي ، وإن أعفُ فالعفو لي قُربةٌ وهو لكم حَسَنةٌ ، فاعفوا: « أَلَا تحبّون أن يغفر الله لكم» واللهِ ما فَجَأني منَ الموتِ واردٌ كَرِهتُهُ ولا طالعٌ أنكَرتَهُ ، وما كنت إلّا كقاربٍ وَرَد ، وطالبٍ وَجَد «وما عند الله خير للأبرار»))[1].

إنَّ المتلقي لا تصيبه المفاجأة من حضور هذينِ المُقتبَسَين في الوصية ، فحين يتم قراءة النص يجده وقد تبلور عنهما، وتولد منهما، فقوله تعالى:(أن يغفر الله لكم) ارتبط برباط وشيج مع قولـه : (فاعفُوا)وقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ ارتبط بما قبله بحرفِ العَطفِ وبالنصّ عموماً حين بيّن سَبب ذلك كله، ونتيجتَهُ في آن .

وفي قوله عليه السلام واعظاً: ((...وكأنّهُ لم يسمَع تبرُّأ التابعينَ عنِ المَتبوعين إذ يقولون:«تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِين، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِين» كَذب العادلون بِكَ، إذ شَبَّهوك بأصنامِهِم، ونحلوكَ حِليَةَ المَخلوقِينَ بأوهامِهِم))[2].

لقد التحم كلامُهُ بالنصِّ المُقتَبس التحاماً بنائياً حين قدم له بقوله:(إذ يقولون)، وهو بهذا جعله عملا مُشتركاً في الدلالة، والتنسيق هو الذي سَمح بالوضوح الدلالي، وتجلّي المعنى .

لقد أفلح الإمام عليه السلام في جعل الآية تعمل في صلب المشهد، لإنشاء التوافق المعنوي، وإشاعة ظلالها الدلالية، ومدّ النصِّ بما يُجَدِّد ماءَه، ورونَقَه .

وإحضار النص القرآني للتعليل والاحتجاج يُعد مِصداقاً من مصاديق السرد

(١) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام، ج٣/ ٢٤.
(٢) نهج البلاغة، خ(٨٧)، ج١/ ١٦٣.

والبناء الدلالي، من ذلك احتجاجه بقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1]، بعد قوله عليه السلام: ((لا تأمَنَّن على خيرِ هذهِ الامةِ عذابَ الله))، وبقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2] بعد قوله عليه السلام: (ولا تيأسنّ لشرِّ هذه الأمةِ من رَوح اللهِ تعالى)، فشكّل منها جميعاً وحدة بنائية في سرد قام على الاحتجاج[3]، فقال: ((لا تأمَنَن على خيرِ هذه الأمة عذابَ اللهِ لقولهِ سبحانه وتعالى: « فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ، ولا تيأسن شر هذه الأمة من روح الله تعالى « إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ «))[4].

وكذلك عند استحضار قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ﴾[5] في الكلام عن الزهد[6].

ج- دَلالةُ الاقتباساتِ الواقعةِ في نهاياتِ النّصوص .

إنارةٌ دلاليةٌ مُتميزةُ تكون حِينَئذٍ، تتّجه بالنص نحو التوكيد أو التلخيص باعتباره نصّاً قرآنياً له تأثيره النفسي والعقائدي في ذهن المتلقي وله القدرة على تثبيتِ المعنى وتوكيده أو التذكير به حين يُوجز وهذا النوع حضوره المَلحوظ في النصوص النّهجية[7].

---

(١) الأعراف/ ٩٩.

(٢) يوسف/ ٨٧.

(٣) ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١٩/ ٢٧٤ .

(٤) المكان نفسه .

(٥) الحديد/ ٢٣ .

(٦) نهج البلاغة، خ (٤٣٩) ج٣/ ٢٥٨ .

(٧) ينظر: سورة ا ل عمران/ ٩٧ خ(١) ج١/ ٢١، الأنفال / ٦ خ(٣٨) ح١/ ٨٦ ، محمد / ٢ خ (٦٣) ح١/ ١١٢، البقرة/ ٢٠ خ (٨٧) ح١/ ١٨١، الأنبياء/ ١٠٤ خ (١٠٧) ح١/ ٢١٩، الدخان/ ٢٩ خ (١٨٦) ج٢/ ١٦٠ المجادلة/ ١٩ خ (١٨٩) ح٢/ ١٩٢، الأعراف/ ٨٧ ك (٥٥) ج٣/ ١٢٤، ص/ ٢٧ ق (٧٨) ح٣/ ١٦٧ القصص/ ٥ ، ق (٢٠٩) ح٣/ ٢٠٠، الحج / ١١ ق (٣٤٤) ح٣/ ٢٣٥، يوسف/ ٨٧ ق(٣٧٧) ج٣ ٢٤٥ .

وبعد كلامه عليه السلام في الحج ولأهميته ختم خطبته بقوله تعال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾(١) .

وتكرر الأمرُ في خطبة له عليه السلام حذَّر فيها من الدنيا والتي خَتَمَها بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(٢).

خطبته التي تَمحورت حول معنىً واحد أعاد التذكير بهِ، وتوكيده وبعد خطبة طويلة أخرى أوصى فيها بتقوى الله، وأبانَ فيها صفات المتقين، ودعا إلى العمل قبلَ الفوتِ وإقبال الغِيلة، وإدبارِ الحيلةِ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾(٣)فلخص بها حالَ مَن لَم يفعل ذلك من الأمم السابقة .

هكذا انتهى في خطبة أخرى خَصّ فيها المنافقين إلى قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٤)، اختزلت هذه الآية خطبَتَه بأكملِها ، فيترسخ معناها في ذهنِ المتلقي باعتبارها بُؤرة دلالية مُركزة، ومثلما يُفضي إيجازه- باختيار الآية المناسبة - إلى الوعظ والإرشاد يخرج به كذلك إلى التهديد والوعيد .

في كتاب لهعليه السلامإلى معاوية(٥)مُذكراً ومُوعداً خَتَم بقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(٦)، ويُدرك متلقي النص بالنبرةِ التهديدية للنصِّ القرآني

---

(١) سورة ا لبقرة/ ١٥٨ ينظر: نهج البلاغة، خ(١)ج١/ ٢٢ .
(٢) الأنبياء/ ١٠٤. ينظر: نهج البلاغة، خ(١٠٧) ج١/ ٢١٩ .
(٣)الدخان/ ٢٩ . ينظر: نهج البلاغة، خ(١٨٦)ج٢/ ١٦٠ .
(٤) المجادلة/ ١٩. ينظر: نهج البلاغة، خ(١٨٩)ج/ ١٩٢.
(٥) نهج البلاغة، ك (٥٥)، ج٣/ ١٢٤ .
(٦) الأعراف/ ٨٧ .

عند مطالعة كلامه عليه السلام الذي سَبَق هذه الآية، إذ قال: (.. واحذَر أن يُصيبكَ اللهُ منه بعاجلِ قارعَةٍ تَمسُّ الأصلَ، وتقطع الدابرَ، فإنِّي أُولي لك بالله أَلِيَّةً غيرَ فاجرةٍ لَئِن جمعتني وإيّاك جوامعُ الأقدارِ لا أزالُ بباحَتِكَ « حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ »).

وتصل دلالةُ المقتبس إلى ذروتها في قوله عليه السلام، وربما يُوصل الإيجاز إلى التوبيخِ[1]، أو الترغيــبِ[2] ، أو التذكيرِ[3].

الأمرُ اللّافت للنظر في هذه النصوص ، إنَّ غالبيَتِها جاءت في خواتم النصوص لِتُؤدِّي وظيفتها باعتبارها علامة تُشعِر المتلقي بنهايةِ النص مُحققة بذلك تكثيفَ المعنى وتلخيصِهِ، لما فيها من دلالات مُكتنزة .

أو إنَّها تأتي للتهديدِ، والوعيدِ، الذي ارتبط بالسور المَكِّية، أو للنصح والإرشاد الذي ارتبط بالسور المدنية، وربما يرجع الأمرُ إلى طبيعةِ كلٍّ من هذه السور كما هو معلوم في ظروف نزول كلٍّ منهما ولِمُلاءمَةِ السور القصار للوعيد، ولما يَحتَمِلَه من معانٍ تختص بذلك .

إنَّ البيئةَ التي يسودها الضَّلال، والانحراف لا بُدَّ لها من الصَّقلِ والتهذيب لذا نجد السُّوَر المَكِّية في كلامِهِ عليه السلام قد جاءت بقدرٍ أكبر مِن مثيلاتِها المَدَنيَّة [4].

ثالثاً :التَنوع الدَّلالي بِتَنوِّع الأساليبِ وتَغير الأشكال .

إنَّ الدّلالةَ تَبَع للشكل والأسلوب عند القدماء والمحدثين [5]، ويأتي هذا عِبرَ

(١) ينظر: نهج البلاغة، خ(٧٨)ج٣/ ١٦٧ . حين اقتبس الآية (٢٧)من سورة (ق) .
(٢) ينظر: المصدر السابق خ(٢٠٩)ج٣/ ٢٠٠ . حين اقتبس الآية (٥) من سورة القصص .
(٣) ينظر: المصدر السابق، خ(٢٠٦)ج٢/ ٢١٨ – ٢١٩ . حين اقتبس الآية(٢٦)من سورة النازعات .
(٤) بلغ عدد الآيات المكية التي ختم بها خطبه، وكتبه، وحكمه عشر آيات هي:(الأنفال، يُونس، الدُخان، ص، فاطر، المؤمنون، الأعراف ، النازِعات، النِّساء، القَصَص) والمدنية خمس هي(مُحمد ، المُجادلة ، آل عمران البَقَرة، الحج) .
(٥) أشار القدماءُ إلى هذا الأمر، وفَصَّل المحدثون القولَ فيه . ينظر: الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، وينظر: دلالة الألفاظ ، د.إبراهيم أنيس، مكتبة ألا نجلو المصرية، مصر، (د.ت).

السياقات المُختلفة، بِدءاً من المفردة ، وانتهاء بالجملة .

ولم يكن اختيار الإمامعليه السلامللأسلوب أو الشكل المناسب عشوائياً، وفي الوقت نفسه، ما كان بدعاً، ونشازاً بين مفرداته، وسطوره، وجُمله، بِقدر ما هو مَطلب لدلالةٍ مَقصودة .

لقد أخذت هذه الأساليب أشكالا عديدة في تنوعها لتنعكس في مرآة النصّ فتعطي أضواءً مُتنوعة من الدلالةِ، والتعبيرِ، ومن هذه الأساليب:

أ- الاقتباس الجزئي مِن الآيةِ ودلالتُهُ في النَّص .

شكّل الحضورُ الجزئي من الآيات ظاهرةً بارزةً في نصوص الإمام عليه السلام ، صحيح أنَّه يستحضر جزءاً من الآيةِ إلّا أنَّه كان تفعيلاً وإنعاشاً للنصّ لما يَحمِل من إشاراتِ و دلالاتٍ مُكثفة[1].

من كلام لهعليه السلام لأصحابهِ في بعض أيام صفين: ((..وامشوا إلى الموتِ مَشياً سُجُحاً ، وعليكم بهذا السَّواد الأعظَم ، والرِّواقِ المُطَنَّب فاضرِبوا ثَبَجَهُ فإنَّ الشيطانَ كامِنٌ في كِسرِه ، قَد قَدَّم للوثبةِ يَداً وأخّر للنُّكوصِ رجلًا، فصمداً صَمداً حتّى يَنجلي لكُم عمودُ الحَقِّ « وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ »))[2].

وقولهُ تعالى جزءاً منَ الآية التي اقتبس منها، وهي قوله تعالى:﴿ **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾[3]، غير أنَّ مُقتَضى الحال هو الَّذي اقتضى ذلك التَبعيض، مع الحفاظ على البؤرة الدلالية للمفردة(يَتِرَكُم) في

(١) ينظر مثلا: آل عمران/ ٩٧في خ(١)، ج١/ ٢١، الأنفال/ ٦في خ(٣٨)، ج١/ ٨٦ ، محمد/ ٣٥في خ(٦٣)، ج١/ ١١٢، القصص/ ٢٤في خ(١٥٥)، ج٢/ ٧٣، الزمر/ ٧١في خ(١٨٥)، ج٢/ ١٥٥، المجادلة/ ١٩في خ(١٨٩)، ج٢/ ١٩٢، المجادلة/ في٢٢ ك(٤٥)، ج٣/ ٨٤ ، الأعراف/ ٨٧في ك(٥٥)، ج٣/ ١٢٤، الحج/ ١١في ق(٣٤٤)، ج٣/ ٢٣٥.

(٢) نهج البلاغة، خ(٦٤)ج١/ ١١١ - ١١٢ .

(٣) محمد/ ٣٥ .

كلامه عليه السلام مع أصحابهِ في حربِ صفين، وخروجهم لقتال معاوية وجندهِ ، والتذكير بأنَّ اللهَ لن يُنقِص من ثوابِ أعمالِكُم[1]، ولن يُضيّعه ، ولن يَظلمكُم [2]، والمعاني كلُّها مُتقاربة[3] في السياقِ القرآني المُقتَبس، والمقصود ، وفيها حَثّ على القتالِ والصمودِ أمام العدو الذي رمز إليه بالشيطان، وهو رمزٌ استعاريٌ دالٌّ بما يملكه من بَثّ دلالي، (صَمداً، صَمداً حتَّى ينجلي لكم عمودُ الحَقِّ)، والآية الكريمة بدأت بنبذ التكاسل والتهاون والدعوة إلى السلم عند القدرة والعلو في طلبِ الحق وإحقاقه، وهذا مالا يحتاجه الإمام عليه السلام لأنَّ القوم امتثلوا لذلك وهم الآن في ساحة القتال، وهم بأمَسِّ الحاجةِ إلى وعدٍ إلهي مُطمئِن بوقوف الله معهم، لذلك وقعَ اختياره على بعضٍ دون بَعض من الآيةِ المباركة، تَمَشِّياً مع مُقتضى الحال، فبلغ في التأثير ذروته، حتى أنَّ صحبه بعد سماعهم لذلك انطلقوا في أكثرِ من عشرةِ آلافٍ خَلف الإمام عليه السلام، ووَثَبوا إلى رماحِهم، وسيوفِهم، ونبالِهم، حتّى وصلوا إلى خَيمةِ معاوية فكادوا أن يقضوا عليهِ لولا خديعة رفع المَصاحف[4]، فالآية مَثَّلت خُلاصة لخطته [5].

ولمّا كان معرضُ الحديثِ تواضعَ الرُّسلِ عليهم السلام وزهدهم في مَتاع الدنيا بَدأ بالنبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وثَنّى بموسى عليه السلام فقال:((وإن شِئتُ ثنّيت بموسى كَليم الله، صلى الله عليه وآله ، إذ يقول: « رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ »))[6].

ما أخذه من كتاب الله في سياقِ السرد الكلامي في خطبته جزءٌ من قولهِ تعالى:﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[7].

---

(١) ينظر:مجمع البيان ، الطبرسي ، ج٩/ ٣٠٨. وينظر:الجامع لاحكام القرآن ، القرطبي ، ج١٦/ ٢٥٦.
(٢) ينظر:جامع البيان ، الطبري ، ج٢٦/ ٨٣. وينظر:زاد المسير، ابن الجوزي ، ج٧/ ١٥٧.
(٣) ينظر:الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد الحسين الطباطبائي ت(١٤٠٢)هـ، مؤسسة النشر الاسلامي، ج١٨/ ١٤٠
(٤) ينظر:شرح بهج الصباغة، للتستري، ج١٣/ ٥٤٣ .
(٥) ينظر:نفحات الولاية، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، قم، سليمان زادة ، ١٩٩٥، ج٣/ ٦٢ .
(٦) نهج البلاغة خ(١٥٥)ج٢/ ٧٣.
(٧) القصص/ ٢٤

هنا تحّكم سياق المقال والبعد الزمني في فرض هذا الاختيار، فالسياق لا يتّسع لذكر «فسقى لهُما ثم تولى» إذ لا رابط بين القول في سياق الحديث، والبعد الزمني(المضارع)الذي لفّ خطبَة الإمام لا يتلاءَم مع الزمنِ(الماضي) في الآية: فقال، ولكلّ من الآية والخطبة زمنُها، لذلك مَهّدعليه السلام لاقتباسه بالقول:(إذ يقول)طلباً للدلالةِ، وسعياً إليها.

وفي كتاب بعثه إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة، وقد بلغه أنَّه دُعِيَ إلى وليمةِ قوم من أهلها فمضَى إليها، زَهّده في الدنيا وذكر أمره معها، وهو القادر على النَّيل مِنها ، وكَيف أنَّه طَلَّقها ثلاثاً، وهي دعوة غير مباشرة للاقتداء بهِ في رَعيَّتِهِ، خلص إلى القول : ((طُوبى لنفسٍ أدّت إلى رَبِّها فَرضَها ، وعَرَكت بجنبها بُؤسَها وهَجَرت في الليلِ غُمضَها ، حتى إذا غَلَب الكَرى عليها افترشَت أرضَها، وتَوسّدت كفّها في مَعشرٍ اسهر عيونَهم خوفُ معادهِم ، وتجافَت عن مضاجعهم جنوبَهم وهَمهَمَت بذكر ربِّهم شفاهُهُم ، و تقَشَّعت بطولِ استغفارِهم ذنوبَهم « أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحـُونَ »))(1).

وقع الاقتباس في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(2).

بَعد ذكر صفاتِ خَوف المَعاد، وكثرة الذكر، والاستغفار من الذنب انتهى إلى إيجازِ ذلك كله بكونِهم حزب الله وهم المفلحون، أنَّ محل الشاهد هو التكثيف الدلالي في المقطع من الآيةِ ولا حاجةَ له فيما سبقها من كلام لأنَّهُ مِمَّا لا ينطبق وسياق كلامهِ اعتماداً

(1) نهج البلاغة، ك(45)ج3/ 84 .

(2) الحشر/ 22 .

على قدرة المَقطع القصير من الآيةِ الواحدةِ على الدلالة، باعتبارِه وحدة خاصّة[1].

ب-التراكم الاقتباسي و أثرُه في دَلالةِ النَّص.

والمقصود بهِ وجودعدد من الاقتباسات فِي نَصّ واحدٍ مُتجاورة، أو مُتفرِّقة، أو بالصُورَتين معاً، فيغدو ذا مَقدرةٍ على البثّ الدلالي، على الرغم مِن وجود هذا النوع من التَراكم الاستعاري في النصوص المباشرة إلّا انَّه شَكَّل سِمَةً بارِزَةً للنوع الآخر مِنها[2].

يَتبَلوَر العطاءُ الدلالي، ويصل إلى ذروته حين يَستدعي الإمامُ عليه السلام سلسلةً من الاقتباساتِ المُتجاورة، فيكتنز النصّ بالإحالاتِ، والإيماءاتِ، والاشاراتِ، ويُشحَن بِكَمّ هائلٍ من القَداسَةِ والإيحاء .

ويختلف عَددُ المُقتبَسات في النصوص تَبَعاً لمُقتَضى المقال وفيها جميعاً يَرتقي النصُّ ، وتَتَعمَّق رُؤيتُه، إنَّ الأمرَ برمته لم يكن يخلو من مطلبية دلالية هي التي تفرض عدد الاقتباسات في نصّ دون غيره، ففي كلامه عليه السلام في خلق الأرض والسماء، وبيانِ عظمة الله وفَضلِه فأمطرَ النصَّ بالاقتباساتِ المُتجاورةِ لِيَفي بإنزالِ الموضوع في منزلتِهِ المناسبة.

حين يريد رسم صورة بيانية تَستوعب ما تقدم مِن معانٍ لا يجد بداً من الاستعانةِ بالقرآن الكريم، باعتبارِهِ نَصّاً مُتعالياً يقطر دلالةً، ويَفيضُ بياناً فقال عليه السلام:

---

(١) ينظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدي، شركة الشهاب، (د .ت)، الجزائر، ص :١٤ .

(٢) ينظر مثلا: اقتباس معنى سورة إبراهيم/ ٣٤ وطه/ ١١٠ والشعراء/ ٢٤ والأعراف/ ٥٥ والنبأ / ٧ في خ (١)، ج١/ ٧، واقتباس معنى سورة الأنبياء/ ٣٠ ولقمان / ١٠ والصافات/ ٦-٧ ونوح / ٦خ(١)، ج١/ ١٠-١١، اقتباس معنى المؤمنون/ ١١٥، القيامة/ ٣٦ والمائدة / ٣ والمائدة / ١٩ والنساء/ ٩٠ خ(٨٢)ج١/ ١٤٧، واقتباس معنى سورة البقرة/ ٤٤ والتوبة/ ١٠٩في خ(١٠١)، ج١/ ٢٠١، واقتباس معنى سورة طه/ ١١١ في خ(١٧٤)ج١/ ١٢٠ ، واقتباس معنى سورة الأنبياء/ ٣٠-٣١ وسورة هود/ ٤١ في خ(٢٠٦)، ج٢/ ٢١٦-٢١٧، واقتباس معنى سورة غافر/ ٦٠ والنساء/ ٣٢ والأنفال / ٣٣ والفرقان/ ٧٠ في ك(٣٢)، ج٣/ ٥٣ .

(ثمَّ انشأ سُبحانه فَتقَ الأجواءِ، وشَقَّ الإرجاءِ ، وسَكائك الهواء) ثم يصل إلى القول: ((فَسَوّى مِنهُ سَبعَ سمواتٍ ، جَعَلَ سُفلاهُنَّ مَوجاً مَكفوفاً ، وعُلياهُنَّ سَقفاً محفوظاً، وسَمكاً مَرفُوعاً، بِغَيرِ عَمَدٍ يدعَمُها، ولا دسار يَنظمُها، ثُمَّ زَيَّنَها بزينةِ الكَواكب ، وضياءِ الثَّواقِبِ، وأجرى فيها سِراجاً مُستَطِيراً، وقَمَراً مُنيراً في فَلَكٍ دائرٍ، وسَقفٍ سائـرٍ...))[1].

يزدحم النصُّ بالاقتباسات القرآنية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾[3]، و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾[5]، وقوله تعالى:﴿**وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا**﴾[6].

وتتوالى الاقتباساتُ بصورةٍ أكثر في مساحة نَصِّية نهجية أقلّ فينفجر دلالاتةً، ويغدو نصّاً مُتكاملاً في مَبناه ، ومَعناه ، كما في إحدى خطبه عليه السلام: ((... فالله الله أيُّها الناس فِيما استحفظَكُم مِن كتابه واستودعَكُم مِن حقوقِهِ ، فإنَّ الله سبحانَه لم يخلُقكُم عَبَثاً، ولم يَترُككُم سُدىً ، ولم يَدَعكُم في جهالةٍ ولا عَمىً، قد سَمّى آثارَكُم وعَلِمَ أعمالَكُم، وكَتبَ آجالَكُم، وأنزلَ عليكُم الكتاب تِبياناً لكُلِّ شَيءٍ، وعَمَّر فيكُم نَبيَّهُ أزماناً ، حَتّى أكملَ لهُ ولكم فِيما أنزَلَ مِن كتابهِ دِينَه الَّذي رَضِيَ لِنفسِه، وأنهى إليكُم عَلى لسانه مَحابَّهُ مِنَ الأعمالِ ومكارِهِهِ ، نواهيهِ وأوامِرِهِ ، وألقَى إليكم المَعذِرة واتَّخذ عَليكُم الحُجَّة ، وقَدّم

---

(١) نهج البلاغة، خ (١)، ج١/ ١١-١٢ .

(٢) الأنبياء/ ٣٠ .

(٣) البقرة/ ٢٩ .

(٤) لقمان/ ١٠ .

(٥) الصافات/ ٧ .

(٦) نوح/ ١٦ .وينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١/ ٧٦ - ٨٠ .

إليكُم بالوَعيدِ، وأنذَرَكُم بينَ يَدي عَذابٍ شَديدٍ))(١).

ويشي النصّ بأصداء الآيات المباركة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(٢)، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٣)، و﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٤)، و﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾(٥)، و﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٦)، و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٧) و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٨).

الخطبةُ التي قامَت على هذه الاقتباسات كانت خِطاباً معَ عموم الناس: (فالله الله أيُّها الناس)، لذلك أراد الإمام عليه السلام عبرَ هذا الحَشد الاستعاري أن يُقيم الحجّة عَليهِم.

---

(١) نهج البلاغة، ج١/ ١٤٧ – ١٤٨ .

(٢) المؤمنون/ ١١٥ .

(٣) القيامة/ ٣٦ .

(٤) فاطر/ ٢٤ .

(٥) يس/ ١٢ .

(٦) النحل/ ٨٩ .

(٧) المائدة/ ٣ .

(٨) النساء/ ٩٤ . ينظر :شرح ابن أبي الحديد، ج٦/ ٢٧٨ .

وقد اشترك الفعلان؛ الماضي والحاضر في النص مثلما كان الأمر في الآيات المقتبسات، مع لِحاظ أمرٍ آخر هو الاشتراك في صِيغةِ الخِطاب مَع النَّاسِ في المَوضوعين، وفي هذين الأمرين أجادَ الإمام انتقاء اقتباساتِهِ التي نبعت منها جُمَلَهُ وصاغ منها خطبتَه، وتحقق بذلك تفعيل المقتبسات وتفجير طاقتها الدلالية، وبرز مثل هذا الحشدِ في مواضيع عديدةٍ مِن النَّهجِ ، والذي مَثَّل إثراء المعنى الدلالي للنص[1].

رابعاً :غِيابُ الأشخاصِ في المقتبساتِ، وتَغيّر فِي أزمانِ الأفعالِ طِبقاً لِمُقتضى المَقال .

الاقتباس يُمثّل تداخلًا نصّياً في الحدث وشخوصِهِ ، ومكانه، إلّا أنّ التمعّن في النصوص النهجية يُظهر قاسماً مُشتَركاً لها ، ألا وهو الحَدَث فالمراد في الأغلب الأعَم هو الحَدَث ، للاعتبار ، أو التذكير أو الترهب به ، أو غير ذلك ، بغَضِّ النَّظر عن فاعِلِه، أو زمانِهِ، أو مكانِهِ ، وقد يكون التَشابه مع الحدث الواقع ، أو المُرتَقَب حدوثَه .

في خطبةٍ سابقةٍ له عليه السلام كما مَرَّ بنا[2]- بعد ذكر الموت، وفوات الفرصة – فرصة العمل الصالح-، وبعد أن تَطرَّق إلى ذكرِ مَن غَفلَ بعد أن((فات مافات، وذهبَ ماذهَب، ومضَت الدُّنيا لِحالِ بالِها))[3]يتلو قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾[4].

صَرَّحت السورةُ التي أخذَ بعضاً منها بذكر هؤلاء الذين ما بَكت عليهم السماءُ، ومضت الآياتُ بوصفِ أحوالِهِم؛ ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾[5]، أنهم

(١)ينظر مثلا: نهج البلاغة، خ(١٩٣)، ج٢/ ٢٠١ – ٢٠٢، ك(٢٧)، ج٣/ ٣١-٣٣ ، ك(٣١)، ج٣/ ٥٣ .
(٢) ينظر: الباب الأول، الفصل الثالث ، ص: ١٣٠ .
(٣) نهج البلاغة، (١٨٦)، ج٢/ ١٦٠ .
(٤) الدخان/ ٢٩ .
(٥) الدخان/ ٢٥ – ٢٨ .

آل فرعون [1]*، أراد عليه السلام الاعتبار بحال هؤلاء، وألا يكون - ممّن سمعه - في حال كحالهم، إنَّها دعوة للاعتبار مِمَّن مضى، وليس المهم معرفة مَن هُم ولا أينَ حدث هذا الأمر، بقدرِ ما يُمَثِّل دعوةً للعِظَة والاعتِبار، لذلك لم يَكن للشخوص أهميتُها في السياق .

وتتمتع الشخصيةُ بحضورِ مُتميز في الأعمال السردية، لتلتقي فيها مُكونات الخطاب الروائي، ونصوص الإمام عليه السلام التي اتَّصَفت بالأسلوب السَّردي ، لم تكن الشخصيةُ مفقودةً فيها لذاتها مادام الحديثُ مُنصَبّا على الحدثِ فقط ، من هنا نجد الشخصيةَ تُذكر تَصريحاً أحياناً[2]، وتَلميحاً أحياناً أخرى[3]، إلّا أنَّ النوع الثاني كان هو الأغلب في النصوص المقتبسة

لسنا إزاء شخصيةٍ نَمطيةٍ، كما هو الحال حين تكون مقصودة لذاتها وإنَّما إزاء شخصية تُمثِّل وسيلةً لغاية ، ومَقصديّة إفهاميّةٍ لها القدرة على رَفدِ الدلالة في النص، كقوله عليه السلام واعظاً:(...ولا تكونوا كالمُتَكَبّر على ابنِ أُمِّهِ مِن غَيرِ ما فَضل جَعله اللهُ فيه سوى ما ألحَقَت العَظَمَةُ بنفسِهِ)[4].

قال ابنُ أبي الحديد في شرحِهِ: «نهاهُم أن يكونوا كقابيلَ الَّذي حَسد أخاه هابيل فقتله، وهما إخوان لأبٍ وأُم»[5]، والإمام لم يُصرِّح بذكرهِ اعتماداً على الدلالية الإشارية للمفردات، ثم إنَّه عليه السلام كان يسعى إلى الوعظِ، والتذكيرِ وإقامةِ الحجة، وهذا كله ممّا لا يتطلب التركيز على الشخصية في الحَدثِ بقدر التركيز على الحدَثِ نفسِه، فهو عليه السلام

---

(١) * قال تعالى:﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ . الدخان/ ١٧ .

(٢) ينظر:نهج البلاغة، خ(٩)، ج١/ ٣٨، خ(٣١)، ج١/ ٧٣، ك (٤٤)، ج٣/ ٧٦، ق(٢٤)، ج٢/ ١٥٦ .

(٣) ينظر:المصدر السابق، خ (١)، ج١/ ١٥، خ (٢)، ح١/ ٢٢ ، خ(٩)، ج١/ ٣٨ ، خ(١)، ج١/ ٥٥، خ(١٨٩)، ج٢/ ١٩٢ .

(٤) المصدر السابق، خ(١٨٧)، ج٢/ ١٦٥، حيث وقع الاقتباس في(ابن امه)من قوله تعالى: (يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) . طه/ ٩٤ .ينظر:بهج الصباغة ، التستري ، ج٢/ ١٢، ومنهاج البراعة، الخوئي، ج٥/ ٢٤٤، وابن ميثم البحراني ، ٢/ ٢٥٨ .

(٥) ينظر:شرح ابن أبي الحديد ، ج١١/ ١٣٧ .

يبحث عن الإشارة العامة للشخوص وليس التشخيص والتخصيص[1]**، لأنَّه يُشير إلى قِصَّةِ الصِّراع الأزلي بينَ الخير، والشرّ، والحقِّ والباطِل، وما يستحضره من أثر يترتَّب عليهِ والزمن هو أحد العناصر البنائية في النصِّ الخطابي، ولَعلّه لا يقلّ أهميةً عَنِ الحَدَث، أو الشخصية، باعتبارِه رحبة دلالية تَستوعِب ذلك كلّه، ومِن ثم يَنثُّ دلالَةً في النص .

وللزمنِ خِصّيصةٌ في عمليةِ الاقتباس، إنَّه عليه السلام يُدرج ما اقتبسه مِن مُفردةٍ، أو آيةٍ، أو حديث نبويٍّ في خِطَبِهِ، أو كُتُبِهِ، أو مَواعظِهِ، ولا يجعلها في معزل عن زمانِها، ويُدخلها في سياقٍ مُتحَرِّك في ميادينِهِ الزمنية المُتعارفة، و «للمبدع دوره في عملية التناص حين يقتطع النص القرآني، أو الحديث النبوي، ويُدخله في سياقٍ مُتحرك جديد، فيصبح خلاصةً لما لا يُحصى من النصوص قبله» [2].

ويتجلّى هذا التحرك الرحب في زمانيةِ النص المقتبس ضِمن دائرةِ النص النَّهجي، حين يعرض الإمام إلى ذكرِ أحوالِ الأمم الغابرة، فيبدو الزَّمنِ(الماضي) هو الظاهر في الغالب، فالتذكير بتلك الأمم يَستدعي إحضاره لضرورةٍ سياقيةٍ مَنطقية، مثل قوله عليه السلام:((..فَلَمَّا مَهَدَ أرضَه، وانفذَ أمرَه اختارَ آدمَ عليه السلام خيرةً مِن خلقِهِ وجعلهُ أوَّل جِبِلَّتهِ، وأسكَنَه جَنَّتَه، وأرغَدَ فيها أكلُهُ، وأوعَزَ إليهِ فيما نَهاه عَنه،وأعلَمهُ أنَّ في الإقدام عليه التعرّض لِمَعصِيَتِهِ، والمخاطرةِ بِمَنزِلَتِهِ، فأقدَم على ما نَهاه عَنهُ مُوافاة لسابق علمه، فأهبَطَهُ بعد التّوبةِ ليعمر أرضَه بِنَسله، وليُقيم الحجّة على عِبادِهِ..))[3]، وموارد الاقتباس هي قوله تعالى:﴿ **قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ**

---

(١) ** وهذا السلوك يُمثّل أحد تمظهرات الرؤية الجديدة الآن حين ذهبَ بعضُ كتاب الروايةِ الجديدةِ في تعاملهم مع الشخصية مَذاهب جَديدة، وأحياناً غَريبة حِين أشاروا إلى شَخصياتهم الرِّوائية بِحروفٍ فقط. حركية الشخصية في الرواية الجديدة، سعيدي محمد، تجليات الحداثة، ع٣، ص:١٥٦ .

(٢) الخطيئة والتكفير، ص:٢٥ .

(٣) نهج البلاغة، خ(٨٧)، ج١/ ١٧٧ .

﴿مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾(1)، و﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(2)، و﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(3).

وعند النَّظرِ إلى مواردِ الاقتباسِ القرآني في النصّ، نجدها كانَت في الفعل (المضارع)، لانَّ سياقَ المقال مِن الله معَ آدم وزوجِهِ عليهما السلام كان حديثاً مُباشراً، وكان حديثُه عليه السلام بالماضي، لأنَّ سياقَ المقال هنا مُختلف حين يَتكلَّم عمّا مضى مِن الأمم، والرُّسُل، والأنبياء عليهم السلام تذكيراً، واعتباراً(4).

وعند النصح والإرشاد والوَعظ والتذكير بِنِعَم الله يكون الفعلُ(المضارع) المطلّ برأسِهِ على الساحة المستقبلية هو الأظهر، مثل قولِهِ عليه السلام: ((الحمدُ للهِ الفاشي في الخَلقِ حَمدُه والغالِب جِندَه))(5)، وهو انتهالٌ من قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾(6).

وفي قولِهِ واعِظاً: أيُّها الناس اتَّقوا اللهَ فَما خلقَ امرؤ عبَثاً فيلهو ولا تُرك سُدى فيلغُو)(7)، وهو قولٌ يعودُ بنا إلى قولِهِ تَعالى:﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾(8).

بدا واضِحاً مِقدار نجاحه عليه السلام في استجلابِ الحديث وفقَ مَظلّة زمنيّةٍ يُحددُها السياقُ، فنرى تَعميم الفضاءِ الزّمني الماضي تارةً، والمضارع المُتحرّك نحو المُستقبل

---

(1) الأعراف/ 24.

(2) البقرة/ 35.

(3) البقرة/ 38.

(4) ينظر: نهج البلاغة، خ(155)، ج2/ 71-75 وخ(7)، ج1/ 177 .

(5) المصدر السابق، خ(186)، ج2/ 156.

(6) المائدة/ 56.

(7) نهج البلاغة،ق(370)،ج3/ 241.

(8) المؤمنون/ 115.

تارةً أخرى، تَبَعاً للحديث، وكأنَّه عليه السلام يُجرد ما اقتبسه مِمّا عَلِقَ بهِ مِن دلالةٍ زمنيَّةٍ حينما يُغَيِّر الفَضاءَ الزَّمني للحديث، مع الوصول إلى غايةٍ واحدةٍ على الرَّغم من اختلافِ الأساليب، فالآية جاءت بصيغةِ استفهام استنكاريٍّ مع شيءٍ من التَّوبيخ، وكلامُهُ عليه السلام أتى بصيغةِ النَّفي الوعظِي الليِّن، والمُبَرِّر للاختلاف بينَ الصيغتين هو اختلاف المخاطَبين في كلّ ، أي أنَّهُ اختلافٌ في مَقامِ الحَال.

المبحثُ الثاني: الخَصائِصُ الفَنيَّة.

إنّ اللغةَ وسيلةٌ من أهمِّ وسائل التعبير عن الإحساس، وما يعتري النفس من خَلَجاتٍ، إلاّ أَنَّها بجانبِ ذاك كله تغدو وسيلةً فنيةً لها خصوصية جمالية عند الأديب المقتدر، فتصبح ذات أَثَرٍ، وتأثيرٍ كبيرين في المتلقي ويختلف هذان الأمران من أديب إلى آخر .

اللغة ليست مَدلولاً معنوياً فقط، ، إذ « ليس الشأنُ في إيرادِ المعاني وحَدها، وإنَّما هو جودةُ اللفظ..»(١)، وان كانت خطب الإمام عليه السلام، وكتبه ليست عَمَلا فنيّاً مقصوداً لذاته، غير إنَّها اتّسَمَت بخصائِص فَنيَّة قَلَّ نظيرُها في الأدب العربي .

والخصائص الفنية سماتٌ كثيراً ما اتصفت بها النصوص الدينية، إذ هناك حَميميَّة بين الغرض الديني، والغرض الفني، فيجعل منه وسيلة للتأثير والتَمكين قَصد الاستجابة، والإذعان، ذلك أنَّ للإنسانِ جانباً وِجدانِيَّاً، فلا مَناص من مُخاطبةِ هذا الجانب بلغة النَظَر الفَنِّي، وجماله(٢).

وانتظمت الخصائصُ الفنيةُ للاقتباساتِ في النصوص النهجية في مَحاور ثلاثة؛

---

(١) الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، ص: ٦٥

(٢) ينظر: في البنية الإيقاعية للشعر العربي، د. كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٨١م، ص: ٣١٩ .

الجانب الموسيقي، والجانب البلاغي، والجانب التركيبي .

أ- المستَوى المُوسِيقي.

يكشف لنا هذا المستوى أثرَ إيقاعِ الحروف والكلمات المقتبسة في النص وجماليته، سَواء أكانت تُؤثر فيه أم هي التي تَتأثر، وأثرَ ذلك في نفس المتلقي، انطلاقاً مِن أنَّ اللغةَ لَمَّا كانت « ظاهرةً صوتيةً تختلف اختلافاً كلياً عَن سائر الرموز الأُخر غيرِ اللغوية» [1]، لا بُدَّ أن تَتَّصف بخَصائِص تُميِّزها ، منها :

أولًا: التلاؤُم الصَّوتي بيَن المُقتَبس والنَّص الحَاضِن له.

إنَّ البنيةَ الداخليةَ للكلمةِ تُؤثِّر على علاقاتها مع الكلمات الأُخر في الجملة[2]، من هنا يشكل ما اقتبسه الإمام عليه السلام- أحياناً - محوراً إيقاعياً، يُمارس سلطتَه في الجمل التي بجواره، فيمنح النصَّ جَرَساً موسيقِيًّا، وصفة صوتية تكشف عن الجو العام للمعنى .

للمقتبس دورُه في تحديد موسيقى النص في قوله عليه السلام:((أما رأيتم الذين يُوَمَّلونَ بَعيداً، ويَبنونَ مَشيداً، ويَجمعون كَثيراً، كيف أصبحت بيوتُهم قبوراً؛وما جمعوا بُوراً، وصارت أموالُهم للوارثينَ، وأزواجهم لقومٍ آخرين، لا في حَسَنَةٍ يزيدون، ولا مِن سَيِّئَةٍ يَستَعتِبُون))[3].

سار المقطعُ على نَسَقِ المفردة القرآنية المُقتبسة من قوله تعالى:﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[4]، وكأنَّه - المقطع- ذا قافيةٍ مُوحَّدةٍ، وبناءٍ موسيقيٍّ واحدٍ، جاء مُتناغِماً مع التلوِّن الموسيقي الناتج عن تَغيِّر الفواصِل، فقادت جميعُها إلى نَسَقٍ صوتيِّ أخَّاذ .

(١) الصوت والدلالة، د. محمد بو عمامة، مجلة التراث العربي ، دمشق ، اتحاد كتاب العرب ، ع ٨٥ .

(٢) ينظر:أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص:٢٧٢ ..

(٣) نهج البلاغة، خ(١٢٨)ج٢/ ١٢١.

(٤) الفتح/ ١٢

وللوصول إلى المفردةِ (بوراً) مَهَّدَعليه السلام بالمفردَتَين: ((كَثيرا، قُبوراً))[1]، رافق الاتحاد في المعنى، اتحادُ في الفاصلةِ ، والتي تَغَيَّر بين الحينِ والآخر تَبَعاً لتَغيِّر المَعاني، تلاءَمت المفردةُ والنصُّ الحاضِن لها بحضورِ حرفِ(الباء)، وهو صوتٌ انفجاري مجهور للدلالة على التذكيرِ المَشوب بالرَّدع، والزَّجرِ، بالتوافقِ مع حروفٍ أسهمت نَبَراتُها، وإيقاعُها الصوتي في كَشفِ صورةِ المَعنى للمتلقي.

ومع هذا الحشد الصوتي المُعَبِّر بقوَّتِه، وشِدَّتهِ تُظهر بُؤرةً دلاليَّةً جَليَّةً في الاستفهام (أمَا رَأيتُم...)، والذي شَكَّل أسلوباً أدائيَّاً عَبَّر بِهِعليه السلام عَن عَجَبِهِ، واستنكارِهِ من السامعين لغَفلَتِهِم عن ذكرِ المَوت.

وهكذا الأمرُ في قولهعليه السلام عند ذكر حال أهل القبور: ((...وقَد أدبرت الحيلةُ، وأقبلَت الغيلةُ، ولاتَ حينَ مَناص!هَيهات هَيهات!قد فاتَ ما فاتَ، وذهبَ ما ذهبَ، ومضَت الدنيا لحالَ بالَها « فما بَكَت عليهِم السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظَرِين»))[2].

لَمَّا استقىعليه السلام الآيةَ الكريمةَ: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[3]أفاد من دلالتها ومَبناها، فطَغت صبغتُها الموسيقية في ما تلاها مِن جُمَلٍ:(ولاتِ حين مِناص!هِيهات هِيهات!قد فاتِ ما فات) .

في جُملٍ قصيرةٍ، سريعَة، ومتدفِّقَة تَشكَّلَ إيقاعٌ داخليٌّ للنص، كان المقتبسُ دافعاً له، فترك أثَرَه فيما جاورهُ مِن جُمل، فالمَدُّ المُتناغِم، والمُتواصِل في المفرداتِ (لاتَ، مَناص، هيَهات هَيهات، فاتَ، فات) يكاد يكون صرخةً مدويّة تكشِف عن ضَياع آمال هؤلاء في فضاءٍ شاسعٍ مَفتوحٍ، لا حدَّ له، صَوَّره الإمامعليه السلام بفعل هذه المدود .

حين أراد التعبيرَ عن تَوقُّف الآمال وتوقّف الحياة الدّنيا وحالها ، وانقطاع الأمل في النظرة (الانتظار) جاء بالآيةِ التي ختمَ بها المقطعَ بنهايتِها الساكنةِ (مُنظَرِين) سكون

(١) ينظر:الفصل الأول، اقتباس المفردة القرآنية ، ص : ٢٢ .

(٢) نهج البلاغة، خ(١٨٦)ج٢/ ١٦٠ .

(٣) سورة ص/ ٣ .

الحياة والأعمال ونجح في هذين الأمرين نجاحاً كبيراً، حين رسم لنا صورة صوتيةً مُفزِعة بتناقضاتها كتناقضِ الحياةِ والآخرة بالعملِ وانقطاعِه ، وهكذا استقطبت موسيقى المُقتبَسِ موسيقى النص ، وتحكّمت بهِ فغدت بُؤرةً صوتيَّةً يُردِّدُ النصُّ صداها.

إنَّ المقتبسات أخذت بمسارِ النصوص، واشتركت في الانتظام الموسيقي للمفرداتِ، وحروفِها، بما يُؤثِّر في النفس، بجماليةٍ موسيقيَّةٍ تقتربُ بنصوصِها إلى المساحةِ الشعرية ، وله مِثل هذهِ النَّماذج غير مَوضعٍ مِن نصوصِ النهج[1].

ثانياً: تَطويع النَّصّ المُقتَبَس لِموسِيقى النَّصّ.

وقد يُطوّع عليه السلام ما اقتبسه في كلامِه، حينئذ نرى للنصوصِ قدرتها في فرض موسيقاها، وإيقاعاتها على المفردات أو النصوص المقتبسة، فتصبح صَدى من أصدائِه، ولوناً من ألوانِهِ .

من ذلك قوله عليه السلام الذي اقتبس فيه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[2] فقال: ((لم يُولَد سُبحانَه فيكون في العزِّ مُشارِكاً، ولم يَلِد فيكون مُوروثاً هالِكاً، ولم يَتقدّمه وقتٌ ولا زمانٌ، ولم يَتَعاوَرَهُ زِيادةٌ ولا نُقصان، بل ظَهر للعقولِ بما أرانا مِن علاماتِ التَّدبير المُتقَن، والقَضاءِ المُبرَم ومِن شواهِدِ خَلقِه خَلقُ السمواتِ موطّداتٍ بلا عَمَد، قائماتٍ بلا سَنَد دَعاهُنَّ فَأَجبنَ طائعات مُذعِنات غَيرُ مُتَلكِّئات، ولا مُبطِئاتٍ ولولا إقرارهُنَّ لَهُ بالرّبوبِيَّةِ، وإذعانُهُنَّ له بالطَّواعِية لِما جَعَلهُنَّ مَوضِعاً لِعَرشِه، ولا مَسكَناً لِملائِكَتِهِ))[3]

يوضح الكلام معنى استدلالياً عميقاً، لذلك غابت فيه الجمل القصيرة المتدفقة، والمتلقي إزاء جمل استدلالية متتابعة تقوده إلى نتائج أراد الإمام بيانها، وهذا كله لم يمنع إتيانها في حلة لفظية زاد في جماليتها موافقة المقتبسات لجاراتها في الإيقاع .

---

(١) ينظر مثلا: خ(١٣٤)ج١/ ٢٩ - ٣٠ ، خ(٢١٨)ج٢/ ٤٠ - ٢٤١، ك(٣٨) ج٣/ ٧٠ - ٧١ .
(٢) الإخلاص/ ٣ .
(٣) نهج البلاغة، خ(١٧٧)ج٢/ ١٢٥-١٢٦ . .

فالألفاظ(مُشاركاً، موروثاً، هالِكاَ)، (وقتٌ ولازمانٌ، زيادةٌ ولا نقصانٌ)، (مُوطّدات بلا عَمَد، قائمات بلا سَنَد)، (طائِعات مُذعِنات غير مُتلكّئات) ، ألّفت نَغماً مُوسِيقياً مُتوازِناً ، تَوزَّع بين ثنايا النصِّ وفقراتِهِ ، وارتبطت برباطٍ وثيقٍ ذابَ فيه إيقاعُ النص القرآني المُقتَبس ، إذ كانت الآية مرتكزاً دلاليّاً كبيراً، اصطَبغ بصبغَةِ كلامه عليه السلام، لأنّ العناية كانت مُوجَّهة لمتابعةِ المعاني في مثلِ هذهِ الاستدلالات .

إنَّ تَعدّد الاستدلالات، وترابطها استَدعى تَنوّعاً في الموسيقى أيضاً، نحن إذن أمام تجانس صوتي ساعدَ في ربط المعنى في ذهنِ المتلقي وتعزيزِهِ من خلال اجتماع المعاني بِتَوالي التسلسل الصوتي الذي قاد بدوره إلى تسلسل موضوعي جَعَل الآيتين المُقتَبَستين جزءاً من موسيقى النصّ ومُرتَكَزاً دَلالِيّاً من مُرتكزاتِهِ .

وتتجلّى مثل هذه الخصيصة في قوله عليه السلام:((الحمدُ للهِ الأولِ فلا شيءَ قبله، والآخِرِ فلا شيء بعدَه والظاهِرِ فلا شيءِ فوقه،والباطنِ فلا شيءَ دونه))(1) .

حين يتمركز النصّ حول استدلال عقائدي عميق، يتعلق بالذات الإلهية وتنزيهها، يتّجه النصّ نحو التجريد المعنوي المَحض، ويَنتج عن هذا ذوبان المُقتَبَس في بوتقةِ النص وموسيقاه .

فالنصّ القَصِير انطلق من قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(2)، فهو ـ جَلّ عُلاه ـ أولٌ لاشيءَ قبله، وآخِرٌ لاشيءَ بعده، وهذا ما جمعَته الآيةُ بين طَرفَيها(الأول)و(الآخر)، فلا أثر لموسيقاها فقط، بل الأثر كلّ الأثر لمعناها.

ثالِثاً : التَناسُب بَين إيقاعِ المُقتبَس ومَعنى النَّص، وَتَغّيره تَبعاً لتَنوّع المَعانِي.

---

(1) نهج البلاغة، خ(92)ج1/ 187 .

(2) الحديد/ 3 .

هناك علاقة بين النَبرةِ الصوتية للمفردة، ومعناها[1]، إذ لكثيرٍ من المعاني جَرساتٌ تُصاحبها[2]فهي بمثابةِ وشائج بين الدلالةِ والمبنى تُعرف بها المعاني من ألفاظِها، وإيقاع حروفها .

إنَّ الموسيقى لم تكن حِكراً على النصوص الشعرية، بل تخطّتها إلى بعض النصوص النثرية المُتعالية، وفي مقدمتها نصوص نهج البلاغة. وهذه خِصِّيصةٌ من خَصائص النص النهجي، فهو « مُتآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبيرُ بالمدلولِ، أو الشكلُ بالمعنى، اندماج الحرارة بالنار، والضوء بالشمس، والهواء بالهواء..»[3]، والذي ساعد على هذا التنوع هو أنّ النثرَ أكثر تنوعاً إيقاعِيًّا من الشعر لانفكاكِهِ من القافية كقوله في وصف المُتَّقين: ((...أمّا الليل فصافّون أقدامَهُم، تالِينَ لأجزاءِ القرآنِ يُرتّلونهُ تَرتيلاً، يُحزنونَ به أنفسَهُم، ويَستَثيرونَ بِهِ دواءَ دائِهِم، فإذا مَرّوا بآيةٍ فيها تشويقٌ رَكَنوا إليها طَمَعاً، وتَطَلّعت نفوسُهُم إليها شَوقاً، وظَنّوا أنّها نُصُبَ أعيُنِهُم، وإذا مَرّوا بآيةٍ فيها تخويفٌ، أصغُوا إليها مَسامعَ قِلوبِهِم، وظَنّوا أنَّ زفيرَ جَهنَّم وشَهيقَها في أُصولِ آذانِهِم ...))[4].

ألفاظٌ رقيقةٌ تُوحِي بالخشوع، والرهبةِ، والخوفِ، وبدءاً نَجد تَوحد النص في الكلامِ على المؤمنين، وانقسم في وصفِهم عند الشوقِ والخوفِ تَبعاً لسماعهم آيات الترغيبِ، أو الترهيب عند وصفهم بالفَرَح والشوقِ والاستبشارِ جاء بحروفٍ مَهموسَةٍ هادئةٍ ، مُطَمئِنَة ، فطَغَت الحروفُ (الألف، والواو ، والياء) وهي حروف اللين، وبألفاظ مُلائمةٍ للسياقِ والشعورِ العام.

وعند وصفِهم بالخوفِ والرّهبةِ من الله انتقل للحديث بحروفٍ مجهورةٍ ، قَلِقَة،

(١) ينظر: في البنية الإيقاعية للشعر العربي، ص : ٢٩٥ .

(٢) ينظر: عناصر تحقيق الدلالية، ص:٦ .

(٣) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ، جورج جرداق ، منشورات ذوي القربى، قم، ط ، ١٤٢٤ هـ ، ص:٤٠ .

(٤) نهج البلاغة، خ(١٨٨)، ج٢/ ١٨٦ .

انفجارية، تَبَعاً لمُقتضى المَقال، فكثرت الحروف (الهاء، والقاف، والكاف، والطاء، والضاد ، والضاء...) ، وفي جرسه نبرة قوية ، تلازم التصويت الانفجاري الشديد .

إنَّ التجانسَ بين الأصوات، ودلالة العبارات خلق إبداعاً داخلياً، فأكسَبَ النصّ بُعداً جمالياً مَلموساً، في أسلوبَين مُوسيقيَّين مُنسَجمَين مع المَعنَيَين المُصاحِبَين لهما، لم يكن إيقاعاً واحِداً مُطَّرِداً مِثلَما لم يكن مَضُموناً واحِداً في النصّ وهَيمَنَ التنوعُ الموسيقيُّ بهَيمَنَةِ التنوع المضموني له .

وبإيقاعِيَّةٍ موسيقيَّةٍ هادِئَة، مُتَموِّجَة اصطفَّت كلماتُه وفي جُمَلٍ قصِيرَة، وبـ (فونيم) مُوحَّد في نهاياتِ الجملة اقترب قولُهُ إلى الشعرية المَوزونة، حيث قال:((... وأحَبّ الحَمد إليك وأفضَلَ الحَمدِ عِندَك حَمداً يَملأُ ما خَلَقت، ويبلغُ ما أرَدتَ، حَمدا لا يُحجَبُ عَنك، ولا يَقصُر دونَك، حمداً لا يَنقطعُ عَددُه، ولا يفنى مدَدُه ، فَلَسنا نَعلم كُنه عَظَمَتك إلّا إنَّا نَعلم أنَّك حيٌّ قَيُّومٌ، لا تَأخُذُكَ سِنَةٌ ولا نومٌ ، ولم يَنتَهِ إليكَ نظَـرٌ ، ولَم يُدرِكُـك بَصرٌ...))[1].

إنَّها فواصل مُتساوية في الوزن – تقريباً – وإيقاعاتٌ مُتَّحِدة مُتناسِقة في حروفِها ومفرداتها، وجاءت أصداءً لمقتبساتٍ قرآنية مُتجاورةٍ[2]، طَغى فيها السَجَعُ[3] المناسب للمعاني، وعَكَسَت دِقَّةَ تِلكَ المَعاني وهدوئِها .

ويكثر عنده عليه السلام اقتران المعاني الشديدة بالحروف الانفجارية الشديدة التي تكون للزجرِ والتنبيهِ والتذكيرِ والتقريعِ، وحِينَ يُخاطِب المنافقين، أو يذكر حال الكفار، حينئذ يأتي بِجُمَلٍ قصيرةٍ، رادِعَةٍ صاخِبَةٍ، وأغلب الاقتباسات هنا تكون من السوَرِ المَكّية المناسبة للزجرِ، والتقريعِ، والتهديدِ، لا سِيّما في خطبِهِ، وكتبِهِ عليه السلام التي وجَّهَها في مثلِ

---

(١) نهج البلاغة، خ (١٥٥)ج٢/ ٧٠ – ٧١ .

(٢) ينظر مثلا:خ(٤٤)ج١/ ٩١، خ (١٥٥) ج٢/ ٧٠ ، خ(١٨٦)ج٢/ ١٥٦ – ١٥٧ .

(٣) لا يمثل السجع عيبا في النص النهجي، بل هو شكل من أشكال الجمال حتى في القرآن الكريم .ينظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص: ٣٠٥ .

هذه المواضيع[1]، ومنها قولهعليه السلام مُذَكِّراً، ومُحذّراً: ((بنا اهتديتُم في الظَّلماءِ، وتسنَّمتُم العلياء، وبنا انفجَرتُم عنِ السّرار، وُقِرَ سَمعٌ لم يفقَهِ الواعية، وكيف يُراعِي النَّبأةَ مَن أصمَتهُ الصَّيحةُ ؟ رَبَطَ جِنانٌ لم يُفارقهُ الخَفَقانُ))[2].

عرضٌ مُتسلسل للأفكار، بأسلوبٍ لغوي حاد، ورصين، وبلغةٍ مَتينةٍ جَزلةٍ بحروفِها الشديدة، والتي صاحبتها نغمةٌ موسيقيّةٌ أضفَت على النص، مُسحة حَزينةً غاضِبَةً، أشبه ما تكون بالصَّرخةِ، وأحاطَ النصّ بلغةٍ مُوسقة، وبأسلوبٍ ينسَجمُ وأحاسيسَه الغاضبة، لتُفصِح عن الطقس الحزين الذي كان فيه .

حروف (الضاء، والجيم، والقاف، والدال) تجعل المتلقي يستشعِر لوعةَ الإمامعليه السلام وغَضَبه، وما صاحبها من أسئلةٍ استنكاريّةٍ[3] يائسةٍ من هؤلاء الَّذينَ أصمتهم الصيحةُ.

والنصّ يَشي بالمقتبساتِ، والطافية على سطحِه[4]، وإن كانت قد صِيغَت بحروفٍ، وكلماتٍ وكأنّها تُعبِّر عن شعورٍ بالضَّجَرِ من هؤلاء والناطق بهذه الحروف، والكلمات يَكاد يَحس بالذَّبحِ، والألَمِ والاختناق، وهنالك أمثلةٌ عديدة من هذا النوع في النَّهج[5].

هذا التقسيمُ الصوتي جاء تَبَعا لِتَغيّر الموضوع في النص، والتجانس بين الأصواتِ،

---

(١) ينظر مثلا: اقتباس سورة فاطر/ ٨ في خ(١٥٧)ج٢/ ٨١، الشعراء/ ١٥٧ في خ(١٩٦)ج٢/ ٢٠٧ ، الانفطار/ ٦ في خ(٢١٨)ج٢/ ٢٤٠، يونس/ ٣٠ في خ(٢٢١) ج٢/ ٢٤٧ ، الأعراف/ ٨٧ في ك(٥٥)ج٣/ ١٢٤

(٢) نهج البلاغة، خ(٣)ج١/ ٣٣ - ٣٤ .

(٣) اختلف المفسرون في ما جاء بعد الاستفهام وهو قولهعليه السلام:((وقر سمع لم يفقه الواعية)) هل هو دعاء أم توبيخ، ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٢٧١، منهاج البراعة، الخوئي، ج١/ ٣١٧، نهج الصباغة، التستري، ج٣/ ٥ .

(٤) من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. الحديد/ ٩.. ومن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٌ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٌ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾، الأعراف/ ١٧٩. ينظر:بهج الصباغة، التستري، ج٣/ ٢.

(٥) ينظر مثلا: نهج البلاغة، خ(١٨٠)، ج١/ ١٣٤-١٣٥. خ (٩٥)، ج١/ ١٩١-١٩٢. خ(٢٠٦)، ج٢/ ٢١٦-٢١٧.

ودلالة العبارات خَلق إبداعاً داخلِيّاً، فأكسَبَ النصوصَ بُعداً جَمالياً مَلموساً، وهكذا ألقَت المفرداتُ والتراكيبُ المُقتبَسة بحروفِها صداها على موسيقى النصّ المُتَساوقَة مع المعاني، عندها تَتَحقّق الدلالةُ الكليَّة للنَّظم وتسمو لتُشَكِّل عباراتٍ تقود إلى صُوَرٍ شعريةٍ زاهيةِ الألوان، عَذبةِ المعاني .

ب-المُستَوى البَلاغِي.

يتمحور الاهتمام حول محاولة التعَرف على نمطِ بعضِ الأساليب البلاغية التي ظهرت كخصائص دون سِواها في عملية الاقتباس ، وليس الأمرُ مَعنياً بالوقوفِ عند التقسيمات البلاغية ، وبعناوينها المُتَعارف عليها ، فالاهتمام يَنصبُّ على ما يتعلق بعملية الاقتباس أولاً ، وبوضوحهِ كظاهرةٍ بارِزَةٍ ثانياً .

ومن أهم الخصائص في هذا المستوى:

أولاً- اقتِباسُ الصورةِ الاستعاريَّةِ المجسَّمة وأثرُها في النَّص .

تتجلّى فاعليةُ النص المقتبس - أحياناً - في استكمال رسم الصورة البيانية والإفادة منه في التجسيم ، والتشخيص ، وهما فنَّان امتازا بحضورٍ فاعلٍ ، وكبيرٍ ، ليزداد التواصل بين النص والمتلقي .

قامت صور الإمام على التشكيل الفنّي ، وخضعت لبنائية دافقة لتؤدي غرضاً دلاليا مقصوداً بأجمل وأبهى صورة ، وتنفتح فضاءات نصوصه على مصراعيها للفيض الدلالي .

لقد تَنامى التصويرُ البياني القرآني المُستَدعى- وهو الأكثر حضوراً من التصوير البياني للحديث النبوي- بفعل هذين الفنين القادرين على شَدِّ المُتَلَقّي بالنص، وتفاعلهِ مَعَه

اقتبس التجسيم القرآني في قوله تعالى:﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[1] في قوله:((وتمسك بحبل القرآن))[2].

أصبح القرآنُ جِسماً ماديّاً، فَدعاعليه السلام إلى التمسك بحبلِه تعبيراً عن السقوطِ، والاضطرابِ، ما لم نتمسك بذلك الحبل، وهذا التمسك خلاص من التيهِ والضَّلالة، وهو تصويرٌ يفتح مَنافذَ جَمالية عديدة بالإضافة إلى منافذه الدلالية، ولها من الجمال والإمتاع نصيب كبير، لاسيما وإنَّها استندت إلى صورةٍ قرآنيَّةٍ، «وطريقة التصوير هي أجمل طرائق التعبير، وأفضلها في الفنِّ والدين»[3].

إنَّ تواجد التجسيم والتشخيص ليس ومضَة دلالية فقط، بقَدرِ ما هو خَلقٌ وإبداع .

واجتمعت تجسيمات عديدة في إحدى خطبهعليه السلام، ارتكز كثير منها على الصورة القرآنية المقتبسة من قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[4]، فقال عليه السلام: ((عباد الله إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزنَ وتجلببَ الخوفَ، فزهَرَ مصباحُ الهُدى في قلبهِ وأعدَّ القرى ليومهِ النازلِ به، فَقرَّب على نفسهِ البَعيد، وهوَّن الشديد، نظَر فأبصَر، وذكَر فاستكثَر، وارتَوى مِن عذبِ فُرات، سَهُلَت له مواردُهُ ، فشَربَ نهلاً ، وسَلكَ سَبيلًا جَدداً ، قد خَلعَ سَرابيل الشَّهواتِ ، وتَخلّى عنِ الهمُوم ، إلاّ همّاً واحداً انفرَدَ بهِ، فَخرجَ مِن صِفَةِ العَمى ، ومُشارَكةِ أهلِ الهَوىَ ، وصارَ من مفاتيحِ أبوابِ الهُدى، ومَغاليقِ أبوابِ الرَّدى))[5].

---

(١) آل عمران/ ١٠٣ .

(٢) نهج البلاغة، ك (٦٩)، ج٣/ ١٤١ .

(٣) مشاهد يوم القيامة في القرآن الكريم، سيد قطب، ص :٦ .

(٤) النحل/ ١١٢ .

(٥) نهج البلاغة، خ(٨٣)، ج١/ ١٤٩ – ١٥٠ .

صور بسيطة، واضحة، غير أنّها عبَّرت عن أعمقِ الأفكار، وأدقها من خلال إظهارها المعنويات بآثار ماديَّة، فيدهش المتلقي حين يرى الحزنَ شِعاراً[1]، والخوفَ جِلباباً، وانَّ للهدى مِصباحاً، وللشَّهواتِ سرابيل، واختلطت مع هذه المُجَسمات صُور بلاغية أخرى، حين استعار(القَرى) للعمل الصالح بجامع الانتفاع، و(العَمى) للضَّلال، بجامع عَدمِ الهداية .

وصل التصويرُ ذروتَه حين اختلطت الصور في قولهِ(عليه السلام): (وصار من مفاتيح أبوابِ الهدى، ومغاليقِ أبوابِ الرَّدى)، وأراد بمفتاح أبواب الهدى سبَباً من أسبابِ الهدى ، ومَغالِيقِ أبوابِ الشَر: أي سَبَباً مِن أسبابِ غَلَقِهِ .

إنّها صور نابضةٌ بالحركةِ، وجمعت بين الوضوحِ، والمعنى الدقيق، وعندها يحس المتلقي بشيئين مُتناقِضَين، هما جمال الصورة، والخوف منها، حين يَتَصور نفسه مِمَّن اتَّصفَ بهذه الصفات أو حين يتصور أنَّه ليسَ كذلك، لقد جمعت بين التشويقِ والإغراءِ من جانب، والتذكير والتنبيه من جانب آخر، وبذلك أضفَت هذه التجسماتُ بُعداً جَمالِياً ظاهراً، وهكذا الأمر حين يرى المتلقي أنَّ للفتنةِ عيناً[2]، وللباطلِ جَسَداً[3] وصولاتٍ[4] أو حين نسمع أنَّ للشيطانِ سنابكَ[5].

للإمام(عليه السلام)القدرة على جمع مثل هذه التجسيمات المصورة في صورة بيانية مركبة تصل بنا إلى تمام المعنى، وإظهاره، في أبهى صورة، فيجتمع حينئذ دقّةُ المعنى وجمالُ الصورة، لتستقِرَّ في الأذهانِ لِتُمارِس سِحرَها وتأثيرَها الكبيرين .

---

(١) الشِّعار: هو ما يَلي الجَسَد مِن ثِياب ، و تجلبَبَ الخوفَ : جَعَله جِلبابا أي ثَوباً . ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج٦/ ٢٨٩، وشرح ابن ميثم البحراني ، ج١/٤٠٦ .
(٢) ينظر: نهج البلاغة ، خ(٨٩)، ج١/ ١٨٢ - ١٨٣ .
(٣) ينظر: المصدر السابق ، خ(٣٢)، ج١/ ٧٦ - ٧٧ .
(٤) ينظر: المصدر السابق ، خ(٦٩)، ج١/ ١١٧ .
(٥) ينظر: المصدر السابق ، ق(٣١)، ج٣/ ١٥٨ - ١٥٩ .

ثانياً- التَّكثيفُ الصوري للُمقتبَسات وأثرُه في المَتلَقي .

يقود الاقتباسُ – أحياناً – إلى استدعاءِ حشد صُوري، فيغدو النصّ مُوحِياً، ومُعبّراً عن نفسه، وذا صِبغةٍ أدبية، تجري بتدفق مِمّا يثير دهشة المتلقي، وتَدعه يسترسِل، ويستَسلِم للاستماع، أو القراءة، وليس من الغريبِ أن نجد مثل هذه الخِصِّيصة في نصوص النهج، ويصبح ذا طابعٍ اختزاليٍ تكثيفيٍ مُؤثر.

يأتي الحشدُ التصويري للمقتبسات أحياناً في مجموعة جملٍ مُتجاوِرةٍ؛أو مُتفَرِقةٍ، وأحياناً أخرى تجتمع في جملةٍ واحِدَةٍ .

فمن النوع الأول قولهعليه السلام:((الأقاويلُ محفوظةٌ، والسرائرُ مبلوة، وكلُّ نفسٍ بما كسَبَت رَهِينة والناس مَنقوصون مَدخولون إلّا مَن عَصِم الله ..))[1].

ازدحم النصّ بأصداء وظلال لمقتبسات متجاورة، ارتبطت بوشاح معنوي، وعظي متناسق يُوحِّدها، وتلك المرجعيات الاقتباسية هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[4].

استطاععليه السلامأن يشير بمعنى الآيات الأولى إلى معنى محوري في نصه، وبالثانية انتقل من المبني للمعلوم إلى اسم المفعول» مبلوة « وهو مجازٌ مُرسَل باعتبارِ ما سيكون، وصيغة (مَبلوّة) المفعولية تدل على خضوعها لعلمِ الله الذي مثل الفاعلية المقدرة .

ويرى التستري في شرحه أن قولهعليه السلام:(والناس مَنقوصون مَدخولون ...) يحمل بين طياته معنى قوله تعالى:﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ

(١) نهج البلاغة، ق(٣٤٣)، ج٣/ ٢٣٤ .
(٢) ق/١٦.
(٣) الطارق/ ٩ .
(٤) المدثر/ ٣٨.

﴿ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾[1].

جمع الإمام المقتبسات في مقطع تأخذ جُمَلَهُ بعضها بيد بعض لتوصل المتلقي إلى تحذير هادئ وإن كان بصيغة اعتمدت أسلوب الخبر، وعلى الرغم من هذا الحضور الحاشد للصور في النص إلاّ أنّها لم تصل إلى حدِّ التَكلُّف، أو المَلَلِ، لأنّها صُوَر حَيَّة، نابضة، ولها القدرة على دفع المتلقي إلى ساحة الفهم والإمتاع .

ومن النوع الثاني قوله عليه السلام: ((فكَيفَ إذا كانَ بينَ طابقين من نار ضَجيج حَجَر وقَرين شَيطان))[2] ، وهي صورةٌ مُركَّبةٌ من قوله تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ** ﴾[3]، قوله تعالى:﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ** ﴾[4]، آيتان اجتمعتا، وأسهمتا في رسم هذه الصورة الموحدة .

والباعث في كلا النوعين في التكثيف الصوري واستحضار مثل هذا الحشد هو إدراك الإمام عليه السلام إنَّ سياق المقام، والمقال بحاجة إلى ذلك كله، ويكثر هذا الأمر في الخطب والكتب التي تأتي للنصحِ، والوعظِ والتذكيرِ، والزجرِ والتهديدِ[5] ، وتتوصل بهذا الحشدِ الاقتباسي إلى وحدةٍ معنويةٍ، ضِمنَ بناءٍ مُوحد فتجعل النصَ متماسكاً في مستوى أدبي جميل، وفاعل .

---

(١) ص/ ٢٤ . ينظر: بهج الصباغة، التستري، ج٨/ ٢١١ - ٢٢٢ .

(٢) نهج البلاغة خ(١٨٧)ج٢/ ١٣٥ .

(٣) البقرة/ ٢٤ .

(٤) الزخرف/ ٣٦ .

(٥) ينظر: نهج البلاغة ك(٦٩)ج٣ / ١٤٣ حيث اقتبس من: الأحزاب/ ٧١، النساء/ ٦٩ ، النور/ ٥٢، النساء/ ١٣و خ، (١٢٦)، ج٢/ ١٧، حيث اقتبس من البقرة/ ٢٤، الصف/ ٢ـ٣ وخ(١٧٣)، ج٢/ ١١٨ حيث اقتبس من الأنعام/ ٥٩، إبراهيم/ ٤٣، وك(٢٧)ج٣/ ٣٢، حيث اقتبس من:القمر/ ٥٣، الزلزلة/ ، غافر/ ١٩، الإسراء/ ٣٦ .

ثالثاً : غَلبة الأساليِب الإنشائِيَّة في المُقتَبسات .

عند التمعن في سطور النهج ، ونصوصه ، يتبين كثرة اعتماد الصيغ الإنشائية فيها كالأمر، والنهي ، والاستفهام ، والترجي، والنداء ، والقسم ، والتعجب «لأنها أقوى من الصيغ الخبرية وفيها تجديد لنشاط السامعين ، وأشدّ تنبيهاً ، وأكثر إيقاظاً، وأدعى إلى مطالبتِهم المشاركة في القولِ وفي الحكم ، وهي في الوقت نفسه أدقّ في تصوير مشاعر الخطيب ، وأفكاره ، لأن أفكارَه ، ومشاعرَه المتنوعة في حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها»[1].

ولا يقتصر الكلام على نوع منهما ـ الخبر والإنشاء ـ دون الآخر فالداعي إلى ذلك هو مقتضى المقال ، غير أن تحَويل الأخبار إلى إنشاء يكثر في الحكم والمواعظ على وجه الخصوص، كقوله عليه السلام: (خذ الحكمة أنى كانت...)[2]، وهو من خبر النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : ((الحكمة ضالّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها))[3].

إنَّ وضعَ كلامِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم الإخباري موضع الإنشاء يُفِيد إظهار العناية بأخذ الحكمةِ، والاهتمام بِهَا[4].

والأسلوب الإنشائي هذا يمنح الكلامَ ـ فوق الدلالة ـ قيمةً جماليةً، مِن جِهَة خَلق وشيجةٍ نفسيةٍ بين النصّ والمتلقي حين يحاول معرفه هذا الأمر الذي بَدأ بفعل الأمر (خذ)، ليكتَشِف أخيراً منزلةَ الحكمة وموقعها مِمّا استوجَب الحَثَّ على طَلَبِها والأخذِ بِها .

وعند السرد والرواية لحدثٍ ما نجده عليه السلام يستعين بالأسلوب الخبري فيعمد إلى تحويل الإنشاء المُقتَبَس إلى أسلوبٍ خبريٍ، كقوله عليه السلام حين ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم :((حتّى إذا

---

(١) بلاغة الإمام علي عليه السلام

(٢) نهج البلاغة، ق(٧٩) ، ج٣/ ٣١٧ .

(٣) ينظر سنن الترمذي ، ج٤/ ١٥٥ ، الجامع الصغير، ج٢/ ٣٠٢ ، ينابيع المودة ، ج٢/ ٤١٤ .

(٤) يفيد وضع الإنشاء في موضع الخبر إظهار العناية بالشيء ، والاهتمام به، ينظر: جمالية الخبر والإنشاء ، د . حسين جمعة ، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق ، ٢٠٠٥، ص: ٤١ .

قبضَ اللهُ رسولَه رجَع قومٌ على الأعقاب، وغالتهم السُّبُلُ ، واتّكلوا عَلى الولائِج، ووَصَلوا غير الرَّحِم وهَجَروا السَببَ الَّذي أُمِروا بِمودَّتِهِ ، ونقلوا البناءَ عَن رَصّ أساسِهِ ، فبنوه فِي غَيرِ مَوضِعِه))[1].

وهو من قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[2].

وكذلك حين حول الأسلوب الإنشائي – الأمر – في قوله تعالى :﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[3]، فقال بأسلوب خبري سردي عن حياة المصطفى : ((فصَدعَ بما أُمِرَ بهِ ، وبَلّغَ رسالاتِ ربِّه ، فَلَمّ بهِ الصَّدعَ ورَتَق بهِ الفَتقَ ، وألّفَ بهِ الشَّملَ بين ذوي الأرحام بعد العداوةِ الواغِرةِ ، والضغائِـن القادِحـة فـي القلوب))[4].

ويحمل في أخباره في المقطع الأخير معنى قوله تعالى:﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[5].

ج- المستَوى التَّركِيبي .

إنَّ دراسةَ خصائِص الجانبِ التَّركيبي ليسَت حِكراً على المعالجَةِ البلاغية، فالموضوع – هنا – لا يتعلق بالصِّلَةِ بَينَ الشكلِ والمضمون على وَجهِ الخصوص، بقدر ما يتَعلَّق بالخَصائِص الفَنية للمُتغَيِّرات الحاصلة في تركيبِ وبناء بعضِ المقتبَسات، وأثر

---

(١) نهج البلاغة، خ(١٤٦)، ج١/ ٤٨ – ٤٩ .
(٢) آل عمران/ ١٤٤ .ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج٩/ ١٠٧ .
(٣) الحجر/ ٩٤ .
(٤) نهج البلاغة، خ(٢٢٦)، ج٢/ ٢٥٣ .
(٥) آل عمران/ ١٠٣ .ينظر: نفحات الولاية، ج١/ ١٨٠ .

التركيب المُقتَبس في بناء وتركيب النص النهجي المُستَضِيف، وهذا مفهومٌ عام تَتَفرَّع منهُ مَصاديق عديدة منها :

أولا- إبدال المفردةِ المُقتَبَسة ودورُها في بنيَةِ النَّص .

تلك خِصّيصةٌ استدعتها ضروراتٌ دلالية، ومُقتَضياتٌ فَنية كما في قولهِ عليه السلام حاثّاً على أخذ العلم مِن آلِ البيت:((وردوهُم ورودِ الهِيم العِطاش))(١)، وهذا من قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾(٢).

هناك فارق بين القولين ، نتج عن اختلاف مُقتَضى الحال ، فقوله تعالى في محل الذمِّ حين يُشبِّه شرب أهل النار بِشربِ الهِيم شَديدة العطش(٣)، من خلال التشبيه البليغ المقدر في(شربِ الهِيم)، أي: كشربِ الهِيم ، وهو كنايةٌ عن شِدّة المَوقِف، وقولُه عليه السلام حثٌّ على أَن نَكون ذا حرص ، في أخذِ العِلم، والدِّين من آل بيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كحرص الهِيم الظماء على ورود الماء(٤)، وتدافعها عليه، وهو كنايةٌ عن شِدّةِ حاجَةِ الناس لعلوم آلِ البيت ، وضرورة التدافع على أبوابِهم ، والورود من مَعين علومِهم ، إذ أنَّ سِياقَ كل مِن المقولَتَين يَستدعي ذَينك الأسلوبين المُرتكزين إلى صورةٍ بَيانيةٍ تشبيهيةٍ واحدَةٍ، ولكن بصيغتين مُختلفَتَين .

وبَدَّل (هادمَ اللَّذات)(٥) في الحديثِ النبوي بالموتِ في كتاب له كتَبَهُ إلى الحارث الهمداني، حيث قال:((وعَظِّم اسمَ الله أن تذكره إلّا عَلى حَقّ وأكثِر ذكرَ المَوت، وما بَعد المَوت، ولا تَتَمَنّ الموتَ إلّا بِشرطٍ وَثِيق))(٦)، وسياق المقام هو الذي فَرضَ العدول مِن

---

(١) نهج البلاغة، خ(٨٣) ، ج١/ ١٥٣ .
(٢) الواقعة/ ٥٥ .
(٣) الهِيم هي الإبل العِطاش ، أو الَّتي لا تروي من الماء لداءٍ يُصيبُها. ينظر: جامع البيان، الطبري، ج٢٧/ ٢٥٥. وينظر: التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي ، ج٩/ ٥٠٢.
(٤) ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج٦/ ٢٩٨ .
(٥) ينظر: بحار الأنوار، ج٦/ ١٣٣، ميزان الحكمة ، ص:٢٩٦٤، منازل الآخرة، ص :٣٩ .
(٦) نهج البلاغة ، ك(٦٩)، ج٣/ ١٤٢ .

صِيغَةِ الجَّمع إلى المُفرَد في قولهِ عليه السلام، أنَّه موجّه إلى مُفرد، وهو الحارث الهمداني، في حين كان كلامُهُ صلى الله عليه وآله وسلم مُوجّها لعمومِ المسلمين .

وقال((..وتقليب الأزمنة والدهور مِن إقبالِ لَيلِ مقبل، وإدبارِ نهارٍ مُدبِر))[1]، وهو من قوله تعالى:﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾[2].

ولَعلّ وَجه تخصيصهِ عليه السلام الإقبالَ بالليلِ ، والإدبارَ بالنهارِ، مَع أنَّ لكلٍّ مِنهما إقبالاً وادباراً ، كون الأمر في الدنيا على خلاف المُراد في الأغلب »[3].

وفي استعارةٍ جَميلةٍ استبدل المفردة القرآنية (يشتري) مِن قولِهِ تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[4]، بالمفردةِ (أعِر)، مُعرباً عَن المعنى عَينِهِ في كلام قالَه لولدِهِ محمد ابن الحنفية في واقعة صِفِّين:((أعِرِ اللهَ جمجمَتَك))[5] .

إنها استعارةٌ تدعو إلى التأمل، والمفردة (أعِر) استجلبها عليه السلام بصورةٍ مُزدوَجَةٍ ، حين نقلها من الخَسارةِ إلى الرِّبح، وهو المعنى الذي تَضمّنته الآيةُ المباركة .

إنها(إعارة)و(بَيع)لمن يملكها أصلاً، مِن هنا كانت رمزاً للإعارةِ والتجارةِ الناجحةِ، وتَضمّن هذا الرمزُ إضاءتين: الحثَّ على الشهادة، والتأكيدَ على الرِّبحِ العظيم من هذه الإعارة .

استطاع الإمامُ عليه السلام أن يشحن كلامَه بهذه الدلالاتِ والإضاءاتِ خلال الإفادة

(١) نهج البلاغة ، خ(١٥٨)، ج٢/ ٨٢ .
(٢) المدثر/ ٣٢ـ ٣٤ .
(٣) بهج الصباغة، التستري ، ج١/ ٢٧٣ .
(٤) التوبة/ ١١١ .
(٥) نهج البلاغة ، خ(١٠)، ج١/ ٣٩ .

مِن الصور القرآنية التي رُسِمَت بالفن الاستعاري الذي عَبَّر عنه عليه السلام بمفرداتٍ تحمل المعنى عينَه، والصور نفسَها لاسيّما إذا ما تذكرنا مناسبة هذه المفردات لذلك الموقف ـ حَرب صِفِّين ـ فالإعارة تَدلُّ على إمكانيةِ الإرجاع، واللفظة (جُمجُمَتَك)تفصِح عن دمدمة طبول الحرب .

ثانياً : الثنائيةُ المُقتَبسةُ وأثرُها في تَركيبِ النَّصِ النَّهجي .

شَكّلت التركيبةُ الثنائيةُ لَبِنةً من لبناتِ النصوص عند الإمام عليه السلام تكون هذه الثنائية في إيراد مُترادِفَين، أو متقابلين فَتُسَمّى حِينئذٍ بالثنائيةِ (التَقابلية)، وقد اهتَمَّ(ابنُ جني)مِنذ وقتٍ مُبكر على الثنائيات الصوتية، وأثرِها في النَّص[1].

ويُمكن عَدّ النوع الأول نَوعاً مِن التَّرادف، باعتبارِه ألفاظاً دالَّةً على شيءٍ واحدٍ باعتبارٍواحد[2]، والنوع الثاني طِباقاً، باعتبار الطِّباق هو إيراد مُفردَتَين مُتقابِلَتَين في المَعاني[3] .

والأوّل يُعرب عن الفكرة المُتسَلِّطة على الشاعر، أو الناثِر، وهو أحد الأضواء اللاشعورية التي يُسَلّطها النَّصّ على أعماقِ الشَّاعِر، أو النَّاثِر فَيُضِيئها بحيث نطَّلع عليها[4]، ولِكِلا النَّوعينِ مِن الثنائية دور في بنية وموسيقى النص .

١ - ثنائيةُ المترادِفَين .

قال عليه السلام:((فَاتّقوا تَقيّة مَن سَمِع فَخَشَع ، واقتَرفَ فاعترَف ، وَوَجِلَ فعَمل، وَحاذَر فَبادَر ، وأيقَنَ فأحسَن ، وعُبِّرَ فاعتَبَر ، وحُذِّرَ فازدَجر ، وأجابَ فأناب ، وراجَعَ فَتاب ، واقتَدى فاهتَدى ، وأُرِيَ فَرَأى ، فأسرَعَ طالِباً، ونَجا هارِباً ، فأفادَ ذَخِيرةً، وأطابَ

(١) ينظر: الخصائص، ج٢/ ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل ودار الفكر، بيروت ، لبنان، (د.ت)، ج١/ ٤٠٢ .وينظر: الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى، ص:٢١٥.

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، (طباق) .

(٤) ينظر:قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٥، ص: ٢٤٣ .

سَريرَةً ، وعَمَّر مَعاداً، واستَظهَر زاداً ، ليَومِ رحِيلهِ ، وَوَجهِ سَبيلهِ ، وحالِ حاجَتِهِ ، ومَوطن فاقَتِهِ ، وقَدّم أمامَه لدارِ مَقامِهِ))[١].

تعاضدت الثنائيةُ والسَجْعُ في رصّ جُمَلٍ قصيرةٍ ذات وَقع شَديد، بحروفِها وسياقِها المُتنوِّع، مُعتَمِدةً قولَه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٢].

ومَثَّل استحضار هذه الثنائيات البناء الأساس في تركيب النصّ الذي يشف عن توازنٍ موسيقي أشبَه بالقافية ، فيدخل النصّ بانسيابية في نَفس المُتلقي ، ولم تكن حُليَةً في السِّياق ، بل من صميم العمل، ومَجيئُها يُوحي بالنَّصح، والإرشادِ ، والذي قام على إسنادٍ من الجناس عِبر المفردات: (حاذَرَ، بادَرَ ، أجابَ ، أنابَ) ، واضاف إضاءةً أسلوبيةً تتمثل بتوكيدِ الخبر ، وتَركيزِهِ في ذهنِ السَّامع، ونقلُ الخبر بهذا الأسلوب فيه تعظيمٌ لله، تَحقَّق بالتماثل الصرفي، والصوتي بينَ المفردات.

ومن النوع الثاني قوله عليه السلام واصفاً المنافق: ((إن أصابَهُ بَلاءٌ دعا مُضطَراً، وإن نالهُ رخاءٌ أعرَضَ مُغتَراً))[٣].

جُملتان مُتوازنَتان، قامَتا على طباق، يضعهُما في موازَنَةِ عقليةٍ بَصَريةٍ، فيرسما صورةً، جَليّةً لِلَّذى... إن أصابهُ بلاءٌ دعا مُضطَراً ، وإن نالهُ رخاءٌ أعرَضَ مُغتَراً .

والمفردة(مُضطَرّاً)تكاد ترسم لنا هذا الاضطرار من خلال الوَقف على حرفِ الضّاد، وهذه الطباقات قادت إلى تناغمٍ وائتلافٍ وتوازن، ورسمت صورة أزليَّةً لهذا الصِنف مِنَ الناس .

---

(١) نهج البلاغة، خ(٨٠)، ج١/ ١٣٤ .

(٢) الليل/ ٥ – ١٠ . وكذلك قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ البقرة/ ٤٤ . وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ . الذريات/ ٥٦وقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ . البقرة/ ١٩٧ . ينظر:شرح ابن أبي الحديد ، ج٩/ ١١١ .

(٣)نهج البلاغة، ق(١٥٠)ج٣/ ١٨٩ .

٢- ثِنائِيَّةٌ تَقابليةٌ تَضَّاديةٌ .

وقد تقوم الثنائيةُ على الضِدّية ، وما ينتج عنها من تَبيان صوتي يُرافق ذلك التغاير المعنوي ، بجانب ما ينضوي بين طرفيها من شمولية لمستويات عديدة .

ومن ذلك قوله عليه السلام في كتاب له إلى عبد الله بن العباس: ((أما بعد فإنَّ المَرءَ قد يَسُرُّهُ دَركِ ما لَم يَكُن ليَفوتَه، ويَسوءُهُ فَوت ما لَم يكُن لِيُدركَهُ، فليكُن سُرورُكَ بما نلتَ من آخِرتك، وليَكُن أسَفُكَ على ما فاتَكَ مِنها، وما نِلت مِن دُنياكَ فَلا تُكثِر بِهِ فَرَحاً، وما فاتَكَ مِنها فَلا تَأسَ عَليهِ جَزِعاً، وليَكُن هَمُّكَ فيما بَعد المَوت))(١).

طغت الثنائيةُ التقابليةُ على النص فنجد(يَسرهُ ، يَسوءُهُ)، (دَرك، فَوت)، (سرورَك، أسفَكَ) (نلت ، فاتَك) ، (آخِرتَك ، دنياك) ، (فَرحاً ، جَزعاً) وكأنَّها تدور حول ما اقتبسهُ من قولِهِ تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(٢).

كيلا تأسوا على ما فات ولا تفرَحوا بما هُو آتٍ نتيجة ذلك كله في الآية ، وجعل الإمام عليه السلام هذا المعنى مُحوَراً في كتابه إلى واليه، هو تقابلٌ بين مَشهَدين ومَعنيَين رافَقَهُ تقابلٌ في معانٍ مُرادِفةٍ ، وساندَةٍ ، اطَّردت في النص لتكتمل بها الصورة ، لأنّ التقابلَ «طريقةٌ من طرق التَّصوير»(٣).

وقد يَتَداخل هذان النوعان مِن هذه الثنائيةِ في مساحةٍ واحدة كقوله عليه السلام: (فَتَباركَ الَّذي يَسجد لهُ مَن في السماوات والأرض طَوعاً وكَرهاً ، ويعفر لهُ خَدّاً وَوَجهاً، ويُلقي بالطَّاعةِ إليه سِلماً وضَعفاً ، ويُعطِي لهُ القيادَ رَهبةً وخَوفاً)(٤)، ولهذه الثنائية أكثر

(١) نهج البلاغة، ك(٢٢)، ج٣/ ٢٣ - ٢٤ .
(٢) الحديد/ ٢٣ .وينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١٥/ ١١٠ .
(٣) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم ، سيد قطب ، منشورات دار الأضواء ، قم ، ص : ٧٥ .
(٤) نهج البلاغة، خ(١٨٠)، ج٢/ ١٤١-١٤٢.

من موقع في النص القرآني[1] والمفردتان الأخريان مَثَّلتا طِباقاً واضِحاً فجاءَ الإمامُ عليه السلام بمفردَتَين مُتقابِلتَين هُما: (طِوعاً وكَرهاً).

وحين كان الكلامُ يَتعلَّق بالإيمانِ والسجود ذكر عليه السلام ـ كما في الآية ـ حرية الاختيار (طَوعاً)، وقدرة الإجبار (كَرهاً)، وفي مَعرضِ حديثِه عن قدرة الله، وجَبَروتِه استوجَبَ ذكر الرهبةِ والخَوف وكلها اجتمَعت لتُحيك بناء النَّصّ، بمفرداتٍ إيحائيَّةٍ على الرغم مِن وجودِ الغَريبِ فيها، فأتى هذا الإيحاء عن ترابط الكلام بعضه ببعض، ونزوعه مَنزَعاً مجازياً في قوله عليه السلام: (ويُعطي لهُ القيادَ رَهبةً وخَوفاً) وتعدد احتمالية المعاني، وهذا من شَأنهِ إثارة المُتعةِ في نَفس المُتلقِّي

وهذه الثنائيات لايُراد بها زمنٌ دون غيرِه، بل تنفتح على كلِّ زمانٍ ومكان، فالسجود لله، وطاعة المخلوقات له، لا تقف عند زمانٍ دون آخر، وللطباق فيها يحمل بين طَيَّاته مُوسيقى داخلية كامنة في نسيج المفردات وتراكيبه، وجمله

وتكرَّرت مثلُ هذه الثنائيات في مواضعَ أخرى من النهج، حيث تُمَثِّل جَدليَّة أزليَّة في الصِّراع بَين الحقِّ والباطِل، والحَياةِ والمَوت، والشَّرِّ والخَير[2].

ثالثاً: الإفادةُ مِنَ الصِّيغَةِ البِنائيَّةِ للمُقتبَس في النص النَّهجي.

يَطِلّ المُقتبسُ في بعض الأحيان ببنائِه، وتركيبِه في خطب الإمام عليه السلام، وكتبه، ومواعظه، وبهذا يشَحن لُغتَه بهذه التراكيب، فتصبحُ لُغةً مُميَّزةً تزيد من التواصل بين نصوصِه، والمُتلقِّي لها.

---

(١) ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. الأعراف/ ٥٦ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ الرعد/ ١٢. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الروم/ ٢٤. ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ السجدة/ ١٦

(٢) المصدر السابق ينظر: خ(١٣٧)، ح١/ ٣٣، ك(٦٦)، ج٣/ ١٣٩، ق(١٧)، ج٣/ ١٥٥، خ(٥٠) ح١/ ٩٦، خ(١١٠)، ح١/ ٢٢٣ خ(١٠٩)، ح١/ ٢٢٠، ق(٤٢٢) ح٣/ ٢٥٤.

من ذلك ما اقتبَسه من الحديثِ الشريفِ: ((استَوصُوا بالنِّساءِ خَيراً))[1]، فقالعليه السلام: ((استوصِ بالتجارِ خَيراً))[2]. وفي قولهعليه السلام: ((أما إنَّكُم ستَلقونَ بَعدي ذلًّا شامِلا))[3]، وهو من قول المصطفىصلى الله عليه وآله وسلم:((سَتلقون بَعدي أثرَةً))[4].

وفي قولهعليه السلام: ((فإنّما هَلكَ مَن كان قبلكم إنَّهم منَعوا الناسَ الحقَّ فاشتروه، وأخذوهم بالباطلِ فاقتدوه))[5]، صدىً لتركيبِ الحديثِ الشريفِ: ((إنّما هلك الذين قبلكم كانوا إذا سَرقَ فيهِم الشريفُ تَركوه وإذا سَرقَ فيهِم الضعيفُ أقاموا عليهِ الحَد))[6].

وقالعليه السلام في مالك الأشتر: ((مالِك وما مالِك))[7]، وهو قولٌ يعود بنا إلى قولهِ تعالى:﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[8].

وأفاد عليه السلام من الصيغة (ما الحاقَّة) في قول: (مامالِك) للتعظيم ، قال التستري في شرحهِ:» والظاهر أنَّ « مالك « مُبتدأ ، وجملةُ « ما مالِك » خبرٌ لبيانِ عَظيمِ الأمرِ مثل قولهِ تعالى: (الحاقَّةُ، ما الحاقَّة..)[9].

إنَّه ارتكازٌ إلى العنصر البنائي القرآني، والذي ظهر أيضاً في قولهعليه السلام: ((يَتنَزّل

(١) وَردَ الحديثُ النبوي الشريف بصيغ عديدة لا تَبتَعِد كَثيراً عن هذهِ الصِّيغة.ينظر: صحيح البخاري، ج٦/ ١٤٥، صحيح مسلم، ج٤/ ١٧٨، سنن ابن ماجة، ج١/ ٥٩٤، سنن الترمذي ، ج٢/ ٣١٥ .

(٢) نهج البلاغة، ك(٥٣)، ج٣/ ١١٠ .

(٣) نهج البلاغة، خ(٥٧)، ج١/ ١٠٣ .

(٤) سنن النسائي، احمد بن شعيب النسائي ت(٣٠٣)هـ، دار الفكر، بيروت، ١٩٣٠م، ج٨/ ٢٢٥ .صحيح البخاري، ج٨/ ٨٧ ،

(٥) نهج البلاغة، ك(٧٩)، ج٣/ ١٥١ .

(٦) سنن الدار مي، ج٢/ ١٧٣، صحيح البخاري، ج٤/ ١٥١، صحيح مسلم ج٥/ ١١٤، سنن الترمذي، ج٢/ ٤٤٢ .

(٧) نهج البلاغة، ق(٤٤٣)ج٣/ ٢٥٨ .

(٨) الحاقة/ ١ – ٢ .

(٩) بهج الصباغة، التستري ، ج٧/ ٦١٥ .

الصبرُ على قَدر المصيبةِ))[1]، إذ ارتكز على بناءِ الحديثِ النبويِّ الشَّريفِ : ((أنَّ اللهَ يُنـزل المعونةَ علـى قَـدر المؤونةِ))[2].

وقد يعتمد الصياغةَ المُقتبسة بأكملِها دون زيادةٍ أو نقصان كقوله عليه السلام: ((ما عالَ مَن اقتَصَد))[3]، أو في قوله:((أحبِب حَبيبَك هَوناً ما ...))[4]، أو كما في قوله عليه السلام:((تتنزّل المعونةُ على قَدرِ المؤونةِ))[5].

---

(١) نهج البلاغة، ق (١٤٤) ، ج٣/ ١٨٥ .

(٢) الجامع الصغير، السيوطي ، ج١/ ٢٩٧، كنز العمال ، المتقي الهندي ، ج٦/ ٣٤٧ .

(٣) نهج البلاغة ، ق(١٤٠)،ج٣/ ١٨٥ . ينظر :الباب الاول ، الفصل الاول ، ص : ٦٩.

(٤) نهج البلاغة ، ق(٢٦٨)،ج٣/ ٢١٧ . ينظر :الباب الاول ، الفصل الاول ، ص : ٦٩.

(٥) المصدر السابق ، ق(١٣٩)،ج٣/ ١٨٥ .

ألبَابُ الثَانِي

التَضمِينُ فِي نَهجِ البَلاغَة

الفَصلُ الأوّل: أنـــــواعُهُ .
الفَصلُ الثَاني : وَظِيـــفَتُهُ.
الفَصلُ الثَالِث: خَصَائِصُهُ .

الفَصلُ الأوَّل
أنواع التَضمِين.

ألمَبَحثُ الأوَّل:تَضمِينُ الشِعر العـَرَبِي .
ألمبحثُ الثَانِي: تَضمِينُ المَثَل العَرَبِي .

مَدخَل:

النصّ «ليس ذاتاً مُستقلّة، أو مادّة موحّدة، ولكنه سلسلةٌ من العلاقاتِ مع نصوص أخر، ونظامه اللغوي مع قواعده ومعجمه جميعها تَسحب إليه كمّاً من الآثارِ، والمقتَطَفات من التاريخ، ولهذا فإنّ النصَّ يشبه في معطاه جيش خلاص ثقافي بمجموعات لا تُحصى من الأفكار والمُعتقدات، والإرجاعات»[1]، والعمل الأدبي كلّما كان أكثر انفِتاحاً، وتَداخلاً مع غيرِه من النصوص أصبح أكثر مُحاكاة وتأثيراً في الآخرين، وأصبح أكثر قدرة على توليد معانٍ جديدة مُتعدّدة، ممّا يساعد على خَلق جوٍّ إبداعي له القدرة على فَرضِ هيمنتهِ وتأثيرهِ في الآخرين على مَرّ العصور، وهذا مالا يتوافر إلّا في نصوص مُتَعالية كالنصّ النهجي، والذي هو كغيره من النصوص التي تَنفتِح على نصوصٍ سابقةٍ لها أثرُها في مَرجعيّة الإمام الثقافية والمُتَشعِّبة على لسانِه، وهو الذي عُرف بكثرة حفظه، وسعة ذاكرته[2].

والكاتب حين يكتب، والخطيب حين يخطب، إنَّما يرتكز إلى خزين ثَقافيٍ مُتنوّع تكون من خلاله حفظهُ، وتأثرهُ بنصوصٍ مُتعاقبَةٍ على ذهنِه[3]، وهو أساس انبثاقِ تجربته

(١) الخطيئة والتكفير، ص:٣٢١.

(٢) قال صاحبُ العمدة في حفظِه للشعر:)) حَفظ كَثيراً مِن أشعارِ العرب، وأمثالهم وحِكَمِهم، لقد عُرِفَ عنه انّه كان يُفاضِل بين الشعراءِ، وقدّم امرأ القيس..)). العمدة في محاسن الشعر، ونقده، ج١/ ١١١. وقال ابن عباس رضي الله عنه حَبر الأمة، والمشهور بكَثرة حفظِه للشعر حين قال له أحدُهُم لمّا رأى حفظَه للشعر:((ما رأيتُ أذكى منكَ قط «، فقال:لكنّني ما رأيتُ أذكى من علي بن أبي طالب)) .الأغاني:أبو الفرج الأصفهاني ت(٣٥٦هـ)، تحقيق:سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، (د. ت)، ج١/ ٨١.

(٣) ينظر:الخطيئة والتكفير، ص:٣٢٣. ويرى(أدونيس)، أنّ الشعراء يَقلّون قيمةً بقدر ابتعادهم عن التراثِ والموروثِ الأدبي فهما بمثابةِ نقطةٍ ثابتةٍ يدور حولها الشعراءُ. ينظر: الثابت والمتحول، أدونيس، ص:٣٧.

الإبداعية، إذ لا يأتي النصّ من فَراغ، فالنصوص عند المُحدَثين «في حالة صيرورةِ عَمل، لا يكفّ عن التفاعل وعن تعهد مَدارج الإنتاج»[1] ضمن عمليةِ التداخل بين تلك النصوص[2]، ثم أنّ للنصِّ ارتباطاً لغوياً بالمحيط الذي يعيش معه[3]، وقد مَهّد الإمام عليه السلام لهذا المنطلق حين ربط كثيراً من نصوصه بالموروث اللغوي والثقافي العربي القديم من شِعـــرٍ[4] ومَثَل.

ما فَتِئت العلاقةُ قائمةً بين المُبدِع، وتراثهِ القديم من شِعر، أو نَثر، والتي تعود به إلى» الإرثِ النَصِّي»[5] أو السمعي المخزون في ذاكرتهِ الضاغط على المُنتِج بقَصدٍ، أو بغيرِ قصد .

ومُبدعو النصوص ليسوا سوى نتاج ثقافي لسياقات الموروث الأدبي، إنَّهم يكتبون عن فَيضِ هذا المخزون الثقافي في ذاكرتهم كأفراد، وفي ذاكرة اللّاوعي الجَمعي لمجتمعاتهم.

ولمّا كان الإمام عليه السلام مُدركاً لقيمةِ الأثر الكبير للإشارات المباشرة، أو غير المباشرة للشِّعر والمَثل والحِكمة ، استحضرها في نصوصهِ بصور شَتّى، تَبعاً لمُقتضياتِ المَقال، أو الحال باعتبارها إشاراتٍ كافِيَة لاستثارةِ ذاكرة المتلقي، واستصحاب الدلالة المصاحبة

---

(١) تداخل النصوص في الرواية العربية، عبد الرحمن حماد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧ ، ص:٢٦.

(٢) وهذا المفهوم بَدأ حديثا مع الشكليين انطلاقا من (شلوفسكي)الذي فتق الفكرة، فأخذها عنه « باختين» الذي حَوَّلها إلى نظرية حقيقية تعتمد على التَّداخلِ القائم بين النصوص. ينظر: الخطيئة والتكفير، ص:٣٢١-٣٢٢ .

(٣) ينظر:علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩٧، ص:٣ .

(٤) وردت بعض الأشعار على سبيل الاستشهاد وسبقها قوله عليه السلام: ((كما قال أخو هوازن ، أو كما قال أخو بني سليم ، أو كما قال القائل))، وهذه الأبيات كما هو ظاهر لا تدخل في باب.ينظر:نهج البلاغة:خ(٣٤)، ج١/ ٨٢، ك(٤٥)، ج٣/ ٦٩، ك(٣٦)، ج٣/ ٦٩ .

(٥) لانّ ثقافة المُبدع سلسلةٌ من النصوص تُهذّب نصوصاً أخرى، ومن الرسوباتِ الموسوعية التي تنصهر ببطء، الواحدة في الأخرى، فتترك القديمة آثارَها في الجديدةِ.ينظر:السيميائية وفلسفة اللغة، امبرتو ايكو، ترجمة:د.احمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥م، ص:٣٩٢-٣٩٣.

لها فور سَماعها، أو قراءتِها، لا سِيّما وقد تَميّز بالفِطرة السليمة، والذوقِ الرَّفيع، والبَلاغة الآسرة، ثم بذخيرةٍ من العِلم انفرد بها عن أقرانهِ[١] .

المَبحَثُ الأوَّل : التَضمينُ الشِّعري.

كان الشعرُ، وسيظلّ مَنهلاً فيّاضاً للأدباءِ، والعلماء، فهو زادٌ لا ينفد، ومعينٌ لا ينضب، ورافدٌ للمعاني التي أودعَها الشعراءُ قصائِدَهم وعالجوا فيها كثيراً من فنونِ الحياة، وأصنافاً من الحِكمَةِ .

عمليةُ التضمين الشعري، إنّما هي «ظاهرة الائتِناسِ الشِّعري»[٢]، والتي تخلق رغبةً عند المُتلقي للاستزادةِ من قراءتِهِ .

إنَّ التباينَ الكبير بين القيم، والمفاهيم الجاهلية، والإسلامية لم يمنع من وجود قواسِم، ومساحاتٍ مشتركة بينها والتي تمثّلت في مَنظومةٍ من مكارم الأخلاق بُعِثَ النَبيُّ ﷺ ليُتَمّمَها[٣].

والشعرُ ديوانُ العَرب، فإذا خفي شيء من القرآنِ الكريم، رجع بعضُ المفسرين إليه، ليلتمسوا، تلك المعاني[٤]، حتّى أنّ ابنَ عباس رضي الله عنه أقام تفسيرَه- الذي عُرِف فيما بعد بـ(سؤالات ابن نافع)[٥]-على الشعر الذي ذاعَ، واشتهر بينَ الناس، فاستعانَ بهِ كشاهدٍ على معانيهِ، ويَبقى «الشعرُ قوةً ثانيةً للغةِ وطاقةَ سِحرٍ وافتتـان»[٦].

---

(١) ينظر: من روائع نهج البلاغة ، ص:٣٢.

(٢) كما يُسمّيها الدكتور إبراهيم ريكان .ينظر:نقد الشعر في المنظور النفسي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٩م ، ص :٥٢-٥٣.

(٣) لقوله ﷺ :((إنّما بُعثت لاتمّم مَكارمَ الأخلاقِ)) .كما انه ﷺ استمع إلى شعر كعب بن زهير في المسجد النبوي ينظر: العمدة ، ص :٩٢ .

(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي، ج١/ ١٩٩.

(٥) سؤلات نافع بن الأزرق ت(٦٥)هـ ، إلى عبد الله بن عباس ت(٦٨)هـ ، تحقيق د.إبراهيم السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨ م.

(٦) اللغة العليا، جون كوهن، ترجمة:أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٥، ص:٩٠ .

ولعلّ الانفتاح الرَّحِب لنصوصِ الإمام عليه السلام على الموروث الشعري العَربي ، وتداخلها مَعَه ، مَهّد لرفد الدلالة وتعزيزاً لها ، حين أدركَ ما للشعرِ من أثَرٍ في نفسِ المتلقي آنذاك ، وحتى يومنا هذا[1]، وأماطَ اللثام عن مهارته عليه السلام في التعامُل معه ، ووفرة اطلاعه عليه.

وتمثّل تضمينَه عليه السلام للشعر في أنواع عديدة، هي: التَضمين الشعري المباشر، والتَضمينِ الشعري غير المباشر.

أوّلاً : التَّضمِينُ الشِّعري المباشر .

إنّ التراثَ الشعري مُستودعٌ ثقافيٌّ، ضخم لا يتوانى الإمام عليه السلام من الرجوع إليه، فتارةً يأتي به شَطراً، وأخرى بَيتاً كامِلًا، تبعاً لمقتضيات وضرورات تَستدعي ذلكَ، لا سِيّما وإنّ بعضَ الأبياتِ أو شطراً منها حقّقت ذيوعاً لدى المُتلقي لصياغَتِها على طريقةِ الأمثال، مِمّا ساعد إدخالها في دائرة التعالقات النَّصية لضرورتها .

أ- تضمِينُ الشَّطر في النَّص النَّهجي[2]*.

ويتجلّى باستحضار الشطر أو بعضِه، وهو مع ذلك تضمينٌ حرفي دونَما تغيير في بُنيَتِه أو تركيبِه، كقوله عليه السلام في كتاب بعثه جَواباً إلى معاوية: ((.. وزعمت أنّي لكلِّ الخلفاء حَسَدت، وعلى كلِّهم بَغَيت، فإن يَكُن ذلك كَذلِكَ فليسَ الجنايةُ عليك فيكون العِذرُ إليك:وَتِلك شكاةٌ ظاهِر عَنكَ عارُها ..))[3].

(١) قال(ابن الأثير))): مَن احَبّ أن يكون كاتباً، أو كان عنده طبع مُجيب فعليه بحفظِ الدَّواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك...((. المثل السائر، ج١/ ١٦٩ . وقال (أبو هلالَ العسكري) : ((ومَن لَم يكن راوية لاشعار العَرب تَبيّن النقصُ في صناعتِه)). الصناعتين ، ص:١٣٨ .

(٢) وسَمّاه البعضُ(التضمينَ الجزئي).ينظر:البلاغة والأسلوبية، يوسف أبو العدوس، المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٩ ، ص:١٥١ .

(٣) نهج البلاغة:ك (٢٨) ج٣/ ٣٧ .

استشهد الإمام عليه السلام بشطرٍ من بيتٍ في قصيدة لأبي ذُؤَيب الهُذلي، والبيتُ الذي ورد فيه هو:

وَعـيَّرها الـواشون أنّي أُحِبُّـها وَتِلكَ شِكاةٌ ظاهِرٌ عَنكَ عارُها [1]

وأصبح هذا البيت فيما بعد مَثَلاً ، حتَّى أنَّ عبدَ الله بن الزبير لَمَّا عَيَّرَهُ رجلٌ بأمِّهِ – وهي أسماء بنت ابي بكر المعروفة بذاتِ النطاقين – قال له عبد الله: «وتلك شِكاةٌ ظاهر عَنكَ عارُها، وأراد أنّ تَعييرَهُ إيّاه بأن أمّه كانت ذاتَ النِّطاقين ليسَ بعارٍ يلزق به، وإنّه يَفتَخِر بذلك»[2].

وأراد الإمامُ عليه السلام باستشهاده بشطرِ البيت أنَّ هذا الذي ذكره معاويةُ ليس مِمّا وقع على معاوية، أو يخصه فيكون العذر له، فهذا ليس بعارٍ يلحق الإمامَ عليه السلام مع أنَّه لم يفعله، فيَتوَضَّح معنى الشطر عند من يَحفظ سياق الشعر الذي ورد فيه، ويبدو أنَّ البيتَ قد شاعَ بين الناسِ إلى الحَدّ الذي أنَّ شطرَه يَدلُّ عليه، أهمّية التضمين فيُفرِغ دلالَتَه العامَّة في النَّص.

وتَمَثَّل أيضاً بشطرٍ آخر هو: (وَقد يَستَفيدُ الظِّنَّةُ المُتَنَصِّحُ) في الكتابِ عينِه حين قال: ((...ما كنتُ لاعتذرَ مِن أنّي كنتُ أنقِمُ عليهِ أحداثاً ، فإن كانَ الذَّنبُ إليهِ إرشادي وهِدايتي لهُ ، فَرُبَّ مَلُومٍ لا ذَنبَ لهُ: وقد يَستَفيدُ الظِّنَّةُ المُتَنَصِّحُ))[3].

وقال صاحبُ(جمهرة الأمثال): الظِّنَّةُ:التُّهمة، والمُتَنَصِّح: المُبالغ في النّصح،

(١) ومطلع القصيدة هو:هَل الدَّهرُ إلّا ليلةٌ ونَهـارُها وإلّا طلوع الشَّمسِ ثُمّ غيارها. ديوان الهذيلين، القسم الأول، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٢٦٤ هـ ، ١٩٤٥، ص:٢١ . وقد نَسَبه كثيرٌ من شراح النهج إلى أبي ذُؤيب الهذيلي .ينظر مثلا: مِنهاج البَراعة، الراوندي، ج١٩/ ٩٩. ومِنهاج البَراعة، الخوئي، ح٣/ ٧٩. وأعلام نهج البلاغة، ج١/ ٢٤٢.

(٢) لسان العرب، مادة(شكا)، ج١٤/ ٤٤٠– ٤٤١ .ثمارُ القلوبِ في المُضافِ والمَنسوب ، أبو منصورعبد الملك ابن محمد الثعالبي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة ، ٩٦٥ م ، ج١/ ٢٩٤.

(٣) نهج البلاغة، ك(٢٨)ج٣/ ٣٩ .

والشعر لأكثم بن صيفي، ومعناه أنَّك إذا بالغتَ في النّصح لصاحبِك ظَنّ أنَّكَ تُريد حَظًّا لنفسِكَ، وأنّكَ إذا بالغتَ في النَّصيحَةِ فتأهَّب للتهمَةِ، وأنشدنا أبو أحمد عن الصولي عن ابي ذكوان قال أنشدني عمارة بن عقيل :

ألم تعلموا أنّي وإنْ قَـلَّ شِكركُـم لأعراضِكُم واقٍ أحُوطُ وأمـدَحُ

وكَم سِقتُ في آثارِكِم مِن نَصيحَـةٍ وقد يَستفيـدُ الظِنَّـةُ المُتَنَصِّـحُ[1]

والإمامعليه السلام أكثر في نصحه للخليفةِ عثمان بن عفان حتّى أنَّه قال في موضع آخر من الكتاب: ((فأيّنا كان أعدى له ، وأهدى إلى مَقاتِلِهِ ، أمَّن بذلَ له نُصرتَه، فاستَنفَدهُ، واستَكَفَّهُ ، أمَّن استَنصَرَهُ فتَراخى عَنهُ وبَثَّ المَنونَ إليه...))[2]، ويقصد بذلك معاوية الذي تقاعس عن نِصرة الخليفة، في حين أنَّهعليه السلام أرسلَ ولَدَيه لحِمايَتِهِ.

لم يبخل بالنصيحة، والوعظ حتّى لو أُسيءَ بِهِ الظَنُّ، ولا يهمه ذلك كله مادام انَّه أراد الإرشاد، والهداية، لاسيّما أيام الفتنة ونَتيجة لإسرافِهِ في النَّصح اتُّهِمَ فتمثلَ بهذا الشطر من البيت الذي يحمل دلالةً وإن كانت لا تتَمَظهر بصورةٍ بيانيَّةٍ إلّا أنّها تَضَع المتلقي أمام مِصداقٍ مِن مَصاديقِ تَصَّورٍ عام بعمومِ دلالة المُتَنَصِّح .

وفي المثالين السابقين اقتصرَ التضمينُ على الشطر الثاني للبيتين للإشارة إلى معنى يفهمه المتلقي بمجردِ سَماعِهِ، وهذا ما يُؤَكِّد إشارية لُغةِ الشعر[3].

---

(١) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ت(٣٩٥)هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ج١/ ١٦١.ونسبه البحراني في شرحه إلى أكثم بن صيفي أيضاً. ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٣٥٥.وذكر بعض الشراح صدر البيت ، ولم ينسبوه إلى قائل.ينظر مثلا: أعلام نهج البلاغة، ج١/ ٢٤٣. ومنهاج البراعة، الخوئي، ج١٩/ ١٠٠.واعتبره أحدُهم مثلاً ، ولم يذكر صدرَ البيت معه. ينظر: شرح نهج البلاغة، الموسوي، ج٤/ ٢٣٩.

(٢) نهج البلاغة، ك(٢٨)ج٣/ ٣٨ .

(٣) محاولة في تعريف الشعر الحديث، أدونيس، مجلة شعر، ع١، السنة الثالثة، ١٩٥٩م، ص:٩٦ .

وفي مواضع أُخر من النص النهجي استحضر عليه السلام الشطرَ الأول من البيتِ الذي ورد فيه[1]

ب- تَضمين البَيت الشعري في النّصِّ النَّهجي.

وهو النوعُ الغالِب في عمليةِ التَّضمين الشعري إذا ما قورِنَ بالتَّضمينِ الشطري[2]، وسُمِّيَ بالتضمين الكلي[3].

من ذلك قوله في الخطبة(الشَقشَقيَّة) : ((... فرأيتُ أنَّ الصَّبرَ على هاتا أحجَى، فصَبَرتُ وفي العَين قَذَى، وفي الحَلقِ شَجاً، أرى تُراثي نَهباً حَتَّى مَضى الأوَّلَ لسبيلِهِ، فأدلى بها إلى فُلانٍ بَعدَه(ثُمَّ تَمَثَّلَ بقول الأعشى)[4]*:

شَتّان ما يَـومِي عَلى كُـورِها ويَومُ حَيَّـانِ أخِي جابـِرِ))[5]

ونسبَ بعضُ شراح النهج البيتَ الذي تمثل به الإمام عليه السلام للأعشى الكبير، وهو أبو بصير ميمون بن قيس ابن جندل، من القصيدة التي قالها في مُنافرةِ عَلقَمة بن علاثة وعامر بن الطفيل وأولها :

عَلقَـمُ ما أنـتَ إلى عـامِـرٍ النَّاقصِ الأوتـارِ والوا تِـرِ[6]

---

(١) الشطر: (لبِّث قَليلًا يلحق الهَيجا حَمَل) ، والشطر: (دَع عَنكَ نَهباً صيحَ فِي حَجَراتِهِ).ينظر:نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٣، وخ(١٥٧)، ج٢/ ٨٠.

(٢) ينظر: نهج البلاغة، خ(٣)، ج١/ ٢٦، خ(٢٤)، ج١/ ٦٠، خ(٢٤)، ج١/ ٦١، خ(٣٤)، ج١/ ٨٢، ك(٣٦)، ج٣/ ٦٩ .

(٣) ينظر: البلاغة والأسلوبية، ص:١٥١ .

(٤) لم يَرِد هذا التعليق في نَصّ ابن ابي الحديد، ولكنه وَرَد في مَتن الخطبة في النسخة التي شَرَحها الشيخُ محمد عبده، وحقَقّها محمدُ محي الدين عبد الحميد، وأشار مُحقّق شرح ابن ابي الحديد إلى أنَّ هذا التعليق مَوجود في مَخطوطةِ النهج .ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج١/ ١٣٩ .

(٥) نهج البلاغة، خ(٣)، ج١/ ٢٦ .

(٦) ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١/ ١٤٢ . وينظر:مِنهاج البَراعة، الراوندي ، ج١/ ١٢٤. وينظر:أعلامُ نهج البلاغة، ج١/ ٤٦.

وأراد الإمام بذلك أنَّ هناك فرقاً شاسِعاً بين يومِهِ في الخلافة مع ما انتفَضَ عليه مِن الأمر، وما مُنيَ بِهِ من انتشار الحَبل واضطِراب أركان الخلافة وبَين يوم مَن سَبَقَهُ في الخلافة حيث وَليَها على قاعدةٍ مُمَهَّدةٍ، وأركانٍ ثابتَةٍ وسكونٍ شاملٍ، فانتَظمَ أمرُهُ، واطَّرَدَ حالُه، وسكنت أيّامُه[1]، والفرق بين حاليهما، كالفرقِ بين حالِ (جابر) في سَفَرِه، وهو على كورِ ناقَتِهِ وحال أخيه(حَيَّان)في رفاهيَّتِه، فالأوَّل كَثير العَناء، شَديد الشَّقاء، والثاني وافرُ النَّعيم، وافي الرَّاحة ، أي أنَّ الإمامَ أنشَدَه للمَثَل[2] .

وذكر ابنُ أبي الحديد في شرحه[3]، وصاحب جمهرة الأمثال[4]، ومجمع الأمثال[5] قصّة(جابر وحيان).

وقام عليه السلام ضَجِراً بتثاقلِ أصحابهِ عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي لَمَّا تواترت عليه الأخبارُ باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقَدِمَ عليه عاملاه على اليمن، حين غَلب عليهما(بسرُ بن أرطاة)، فقال: ((ما هِي إلّا الكوفَةُ أقبِضُها وأبسُطُها، إن لم تكوني إلّا أنتِ تَهبُّ أعاصيرُكِ فقبَّحكِ الله(وتمثل بقول الشاعر)[6]*:

لَعَمرُ أبيكَ الخَيرِ ياعَمرو إنّني   على وضَرٍ مِن ذا الإناءِ قَليلِ))[7]

أظهر الكوفةَ بهيئةٍ ماديَّةٍ، وهي في قبضَتِه:أي في تَصرفه، فالأول مَجاز لغويّ غير مُرسَل (لتقيده بالتشبيه)، باعتباره استعارة قائمة على التشبيه، والثاني(في قبضته)، وهو مجازٌ علاقته السببية، لأنَّ القبضَةَ هي السَبَب في التصرف، والتَمكن .

---

(١) ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج١/ ١٤٤ .

(٢) ينظر: منهاج البراعة ، الخوئي ، ج٣/ ٤٧.

(٣) ينظر: شرح ابن ابي الحديد ، ج١/ ١٤٣ - ١٤٤ .

(٤) ينظر، جمهرة الأمثال، ج٢/ ٣٢٠ .

(٥) ينظر: مَجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ت(٥١٨)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)ج٢/ ٣٥٦ .

(٦) هكذا وردت في متن الخطبة .ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١/ ٢٨٠ .

(٧) نهج البلاغة، خ(٢٤)، ج١/ ٦٠ .

وبخروجهِ عليه السلام من خِطاب أصحابهِ إلى خطاب الكوفة (إلاّ أنت)خرج من الغَيبَةِ - بالنسبة إلى الكوفة - إلى خطاب الحاضر[1]، فإن لم يكن لي من الدنيا مُلكٌ إلّا مُلك الكوفةِ ذات الفِتَن، والآراء المُختلفة، فأبعَدَها الله .

وشبَّه ما كان يحدث من أهلِها من الاختلافِ والشَّقاقِ بالأعاصير لإثارتِها التراب، وإفسادها الأرض[2].

لقد أراد الإمام عليه السلام من هذا كله بيان ضَجَرِه من أهلها حين تثاقلوا عن الجهاد ووجه التمثيل في تضمينه لهذا البيت هو « تمثيل على وَجه الاستعارة، فاستعار لفظ الإناء للدنيا ولفظ(الوَضَر)[3]القليل فيه للكوفة، وَوَجه المُشابهِة ما تشتَرك فيه الكوفةُ والوَضَر من الحَقارةِ بالنسبة إلى ما استولى عليه خَصمُه من الدنيا وما اشتمل الإناءُ من الطعام »[4]، وكأنَّه ضَربٌ من التَّشبيهِ الضمني بلونٍ جَديد، وهو أن يكون المُشَبَّه نَصَّاً نثرياً، والمشبه به نصاً شِعريَّاً.

ولم يَنسب صاحبُ (مجمع الأمثال)، أو شُرَّاح النهج البيتَ إلى شاعرٍ بعينهِ[5].

وبتضمينه لهذا البيت إنَّما، ضَمَّن تجربةً إنسانيَّةً، وعَقدَ مُقارنَةً مع ما أراد الشاعر، وإن كانت التجربتان مُختلفَتَين، فهما تدوران حول محور إنساني واحد، وانطلقا من وحدة في المعاناة الإنسانية ، من هنا أسقط عليه السلام هَمَّه، وأَلَمُهُ في قولِ الشّاعرِ هذا عند تضمينه.

وفي خطبتهِ السابقة، والتي خَطَبها بعد تواترِ الأخبارِ باستيلاءِ أصحابِ معاوية على البلاد، خَتَم بقولهِ: ((.. أما والله لوَددتُ أنّ لي بِكُم ألفَ فارسٍ مِن بَني فَراسِ بنِ غَنم:

---

(١) ينظر:شرح ابن أبي الحديد، ج١/ ٢٨٩ .
(٢) ينظر:المكان نفسه .
(٣) الوَضَر:هو بَقيّة الدَّسَم في الإناء ، أو هو الدَرَن الباقي فيه ، ويُستعار لكلِّ بقيةٍ مِن شيءٍ يَقلُّ الانتفاع به .ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج١/ ٢٨٨، وينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٢٣٢ .
(٤) شرح ابن ميثم البحراني ، ج١/ ٢٣٢ .
(٥) ينظر:مجمع الأمثال ، ج٢/ ٣٤ .شرح ابن أبي الحديد ، ج١/ ٢٨٣. ومنهاج البراعة، الراوندي، ج٣/ ٣٥٦.ومنهاج البراعة ، الخوئي ، ج١٠/ ٤٧٣.

هُنالِكَ لو دَعَوتَ أتاكَ مِنهُـــمُ   فَوارِسُ مِثل أرمِيــةُ الحَمِيم))[1]

شَبَّه هؤلاء – الذين تمَنَّى أن يكونوا مَعه بدلاً من أصحابهِ الذين تثاقلوا عن نِصرتهِ، حتى غزاهم جندُ الشام في عِقرِ دارهم[2]- بأرمِيَةِ الحَميم .

والارمِيةُ:جمع(رمي)، وهو السَّحاب، والحَميم:هو وقتُ الصَّيف وإنّما خَصَّ الشاعرُ سحابَ الصيف بالذكر ، لأنَّه اشَدَّ جفولاً وأسرع خُفوقاً، لأنّه لا ماءَ فيه، وإنَّما يكون السحابُ ثقيلَ السَّيرِ لامتِلائِهِ بالماء، وذلك لا يكون في الأكثرِ إلّا زمان الشقاء وإنّما أراد الشاعرُ وصفَهم بالسّرعةِ إذا دُعوا، والإغاثةِ إذا استُغِيثُوا ، والدّليلُ على ذلك قولُه:هنالِكَ لو دَعوتَ أتاكَ مِنهُمُ «[3].

ونُسِبَ البيتُ إلى أبي جُندب الهُذلي في الشَّرحِ[4]، وفي لسانِ العرب نجد النسبةَ نفسَها، ولكن برواية (رجال)[5].

واللغة الأدبيةُ المُتمثِّلة في استحضارِ البَيتِ اعتمدَت التَّصريحّ دونَ الإيحاءَ، وفَيها منَ الدَّلالةِ الكَثير على شِدَّةِ تَبَرُّمِه، وضَجَرِهِ، وبأدنى تأمُّلٍ يَتّضِح الفرقُ بينَ المُقامَين، بين ما هُوَ فيه، وما كان يَتَمنّاه .

ثانياً: التَّضمينُ الشِّعري غَيرِ المباشِر .

وتَمَثَّل في تضمينِ تراكيب، ومعانٍ[6] شِعريةٍ ذاع صيتُها، وعُرِفَت بتراكيبِها،

---

(١) نهج البلاغة، خ(٢٤)، ج١/ ٦١ .

(٢) كما فَعَل (بسرُ بن ارطاة) حين أغارَ على أطرافِ الكوفة . ينظر: نهج البلاغة ، خ(٢٤)ج١/ ٥٩، وينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج١/ ٢٨٧ .

(٣) ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج١/ ٢٨١.وقصد بهؤلاء بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة وعرفوا بالشجاعة.ينظر: المصدر السابق : ج١/ ٢٨٨ .

(٤) ينظر: المصدر نفسه ، ج١/ ٢٨١ . وعند الرجوع إلى ديوان الهذيلين لم أجد البيت فيه.

(٥) ينظر: لسان العرب،ج١٤/ ٣٣٧، ووردت بمثل هذه الرواية في الأغاني أيضاً. ينظر: الأغاني،ج ١٠/ ٢٣٠.

(٦) جوّز(ابنُ أبي الإصبع)المصري أن يكون التضمين معنيًّا مُجرَّداً من كلامٍ أو مَثَلٍ سائر، أو جملةٍ مُفيدةٍ، أو فَقَرَةٍ من كَلِمَةٍ .ينظر:تحرير التحبير، ص:١٤٠ .

ومعانيها تلك التي اقتربت بها من صِيغةِ المَثَل، والحِكمَةِ .

وقد تختلفُ أحياناً عن صياغتِها البنائيةِ – مع الاحتفاظ بدلالاتها على معانيها[1]– عند إدخالها في النصِّ النَّهجي، وتُعدُ تضمينا شِعريّاً غير مُباشِر، اعتماداً لَمرجِعيِّتها الشِّعرية التي انطَلَقت مِنها وعُرِفَت بها .

وقد يُؤتى بِبَعض من لفظ الشعر مع مَعناه[2]، وإعادَة نَسيجه، ومن المُمكِن تضمينها – على الرَغم من قِلّتِها – إلى تضميناتٍ شعريّةٍ(قريبةٍ)، وأخرى(بَعيدة) .

أ : التَضمِيُن الشِّعرِي غَيرِ المباشِر القَرِيب .

مِن السهولة بمكانٍ إرجاع هذا النوع من التضمين إلى مواردِها التي استَقى منها، من ذلك قولُه عليه السلام: ((... فَلكِلِّ أجَل كِتاب ، وَلكُلِّ غَيبَةٍ إيّاب ، فاستَمعوهُ مِن رَبَّانِيكُم ، وأحضِرُوهُ قلوبَكُم ، واستَيقِظوُا إن هَتفَ بِكُم...))[3].

قال ابنُ أبي الحديد: ((وقد قالَهُ عَبيدُ بن الأبرص، واستثنى مِنَ العمومِ الموتَ، فقال:

وكُــــلُّ ذِي غيبــةٍ يـَؤوبُ وَغائِبُ المــوتِ لا يَؤوبُ))[4]،

وأرجَعَه مُحققُ الشرحِ إلى مَوضعِهِ في ديوانِ الشَّاعِر[5].

والفرقُ بين القَولين يَكمُن في عَقيدِة كُلٍّ من القائِلَين، فالشاعر الجاهلي يَرى ـ وِفق عَقيدتِهِ ـ أن لاعودةَ لأحدٍ من الأموات إلى الحياة، فالموت عندهم فناءٌ وعدم،

(١) إنّ اخذَ قِسم والتَّصرُف في القسم الآخر تصُرفاً يَسيراً عُرِفَ بمصطلحِ « الاهتدام « .ينظر:معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادّة(الاهتدام)، ج١/ ٣٤٠ .

(٢) ينظر:المكان نفسه .

(٣) نهج البلاغة، خ(١٠٤)، ج١/ ٢٠٨ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد، ج٧/ ١٥٤ .

(٥) المكان نفسه .وينظر: ديوان عَبيد بن الأبرص ، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص : ٢٦ .

والإمام عليه السلام -بمقتضى اليقين بالمعاد - يرى عكس ذلك تماماً، فالعودةُ لكُلِّ غائب بعد موتِه(١)، إنها عودَةٌ لا بُدَّ منها، وأرادَ الإمامُ بهذا الاستحضار التَّضميني توكيدَ توبيخِهِ، وتقريعِهِ لهم على غَفلَتِهِم(٢).

وابن أبي الحديد في قوله أنّه عليه السلام: « يُحمق عَبيداً في استثنائِهِ»(٣)، لا يوجد ما يَدلّ عليه، ويُؤيِّده في سِياقِ كلامِهِ عليه السلام .

وفي إخبارِهِ عن عبد الملك بن مروان قال(٤):((كأنّي بِهِ قَد نَعَق بالشَّام، وفَحصَ براياتِهِ في ضَواحي كوفان فَعطفَ إليها عَطفَ الضَّروسِ وفَرشَ الأرضَ بالرؤوسِ قَد فَغَرَت فاغِرتُه وثَقُلَت في الأرضِ وَطأتُهُ...))(٥)

نلمح قوله عليه السلام: (فَعَطفَ إليها عَطف الضَّروس) والضَّروس هي الناقةُ السَّيئةُ الخَلق تَعَضُّ حالِبَـــها(٦)، وهذا يعود بنا إلى قَول بِشر بن أَبي خازم :

عَطَفنا لَهُم عَطفَ الضَّروسِ مِنَ الملا بِشَـــهباءِ لا يَمشي الضَـــرَّاءَ رَقيبُها(٧)

ورد التضمينُ في مَورد الذمّ، و(عطف الضروس) مُشبَّهٌ بِهِ، في تشبيهٍ بليغ مَحذوف الأداة، معَ استبدالِ صِيغةِ المُفرد « لها» بصيغةِ الجَّمع « لهم» طِبقاً لمُقتَضى السِّياقِ الذي أوحى بذلك، فالسياق هو عبارة «عن كل ما يَكتَنِف اللفظ الذي نريد فهمه من دَوال أخرى سَواء أكانت لفظية كالكلمات التي تشكل مع اللفظ الذي نريد فَهمه كلاماً واحِداً مُتَرابِطاً ، أو حالية كالظروفِ والملابساتِ الَّتي تُحيط بالكلامِ وتكون ذاتَ دلالةٍ

---

(١) وفي مكان آخر من النهج أراد بالغياب غياب السفر لذلك قال: ((ليسَ كلّ طالبٍ يُصِيب ولا كُلُّ غائبٍ يَئوب)) نهج البلاغة، ك(٣١)، ج٣/ ٥٩ .

(٢) ينظر:منهاج البراعة ، الخوئي ، ج٧/ ٣٠١.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ، ج٧/ ١٥٤ .

(٤) بنظر: شرح ابن أبي الحديد ج٩/ ٣٧ .

(٥) نهج البلاغة خ(١٣٤)، ج٢/ ٣٠ .

(٦) ينظر: لسان العرب، مادة(ضرس)، ج٩/ ٤٢٤ .ينظر: شرح ابن أبي الحديد ج٩/ ٣٨ .

(٧) ديوان بشر بن ابي خازم ، ص:١٥ .

في المَوضـوعِ»[1]

وفي كتاب لهعليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على البصرة، قال فيه: ((... ولكن هَيهَات أن يَغلِبَني هَواي، ويقُودَني جَشَعي، إلى تَخَيُّر الأطعمَةِ ولَعَلَّ بالحجاز أو اليمامَةِ مَن لا طمعَ لهُ في القُرص، ولا عَهدَ له بالشبعِ!! أو أبيتَ مِبطاناً وحَولي بُطُونٌ غَرثى، وأكبادٌ حَرَّى!!أوَ أكونَ كما قال القائلُ:

وَحسبُكَ داءً أن تَبيتَ بِبِطنـَـةٍ   وحَولَكَ أكبادٌ تَحِنُّ إلـــى القَدِّ))[2]

مِبطان:الذي لا يزال عَظيم البَطن من كِثرةِ الأكل[3]، «وكأنَّما صارت بطنُهُ آلةً للأكلِ والشَّرب لكنّ الإمامعليه السلامعبَّرمن خلال هذه الصِّيغةِ عن زهدِهِ وعِفَّةِ نفسِهِ، فَضلاً عن تَركيزِ التَّوبيخِ للمخاطَبِ وهذا المعنى يكشُفُ عنه السياق»[4] .

وبطون غَرثى: جائعةٌ[5]، وبذا ينطوي النَصّ على طباقٍ ضِمني في المُفرَدَتَين(مِبطاناً، غَرثى) .

وهناك روايةٌ أخرى ذكرها ابنُ ابي الحديد في شرحِ للنص، وهي:(أأبيتُ مِبطاناً، وحَولي بطون غَرثى..) فيكون وقعُ الاستفهام الاستنكاري أشدّ في بيانِ دلالةِ النص التي كشَفت عن رفضِهِ لِمثلِ هذه المعادلة التي مَهَّدَ لاستحالةِ حدوثِها بالأداة(هَيهَات).

والبيت الذي ضَمَّنَه الإمام ؛(وحسبُكَ داء...)، من أبياتٍ مَنسوبَةٍ إلى حاتم الطائي[6]، وقد وردت هذه الأبيات في ديوان الحماسة لأبي تمام وليس مَعها البيتُ

---

(١) دروس في علم الأصول، محمد باقر الصدر، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ، ص :١٠٣-١٠٤.

(٢) نهج البلاغة، ك(٤٥)، ج٣/ ٨٠ .

(٣) شرح ابن ابي الحديد، ج١٦/ ٢٢٥.

(٤) خصائص الجملة العربية في نهج البلاغة، ص:٤٢ .

(٥) ينظر:شرح ابن أبي الحديد ، ج١٦/ ٢٢٥.

(٦) ديوان حاتم الطائي، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨١م، ص: ٤٣.ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١٦/ ٢٢٨. ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ، ج٢/ ٤٢٠.

المذكور[1]، وهو مُنسَجِم مع القصيدةِ من حيث الوزن(البحر الطويل)، والقافية، والمعنى، والذي يُعزِّز ذلك روايةِ ابنِ أبي الحديد، وإن كانت بروايةِ(كَفى بك عاراً)[2].

والقولُ(وحولك أكباد...)، مَجازٌ مُرسَل علاقتُهُ الجِزئيّة، حينَ ذُكِر الجزءُ(أكباد)، وأراد الكل، وهم الناس الفقراء.

ومقولتُهُ هذه: (أو أبيتُ مِبطاناً وحَولي بطون غَرثى) تضمينٌ لقولِ الأعشى:

تَبيتونَ في المَشتَى مِلاءً بطونَكم وجاراتُكُم غَرثى يبِتنَ خَمائصا[3]

ولتوكيد المعنى نفسه استحضر البيت الذي يُقاربُه في المعنى تَنفيراً، فيعدّ لوناً من ألوانِ التوكيد لما أراد قوله، ولأهمِّيَّةِ الأمر وضرورتِه أكَّده عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعنىً مُقارب له تَجَلّى في البيتِ الَّذي استَشهَدَ به تَنفيراً عن العار اللازم عن الاستِمتاعِ بالطَّيباتِ مع وجود ذَوي الحاجةِ إلى يَسيرِ الطَّعام[4].

لقد ذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المعنى في مُستَوَيَين ضِمناً وتَصرِيحاً، ليَعودَ بَعدهما مُتسائلاً على سبيل النَّفي أو الاستنكار:((أأقنَعُ مِن نَفسي بأن يُقال:هذا أميرُ المُؤمنين، ولا أُشارِكهُم في مَكارهِ الدَّهرِ...))[5].

وكذالك نرى مثل هذا التضمين حين قال:(كحاملِ التَّمر إلى هَجَر، أو داعي مُسَدِّدَه إلى النِّضالِ)[6].

---

(١) شرح حماسة أبي تمام، أبو زكريا يحيى التبريزي ت(٥٠٢)هـ، تحقيق تغريد الشيخ، واحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٢/ ٩٨١-٩٨٢.

(٢) الشاهد الشعري في نهج البلاغة، بحث مخطوط، عبد الواحد خلف وساك، كلية التربية، ميسان، ص:١٤.

(٣) ديوان الأعشى، ص:١٩٣.

(٤) شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٤٢٠.

(٥) نهج البلاغة، ك (٤٥)، ح٣/ ٨١.

(٦) نهج البلاغة، ك(٨)، ج٣/ ٢٤. وقعَ التضمينُ من قول الشاعر الجاهلي(خارجَة بن ضرار المري):فَانَّكَ واستبضاعك الشِّعرَ نَحوَنا كَمستبضِعٍ تَمرا إلى ارض خَيبَرا ينظر: مجمع الأمثال، ج٢/ ١٥٢. ينظر: بهج الصباغة، التستري، ح٣/ ٨٩. ينظر: شرح ديوان الحماسة، للتبريزي، ج٢/ ٨٥٦.وقول الشاعر:أُعَلِّمهُ الرِّمايَةَ كلَّ يَومٍ فلمّا اشتَدَّ ساعدُهُ رَماني مجمع الأمثال، ج٢/ ٢٠٠. شرح ابن أبي الحديد، ج١٥/ ١٤٧.

وفي قوله عليه السلام:(قَلبتَ لابنِ عَمِّكَ ظَهر المِجَنِّ)[1]، وقوله:(كَما تَدين تُدان)[2].

ب : التَضمِينُ الشِّعرِي غَير المُباشِر البَعِيد (المعنَوِي) .

وهو قائمٌ على المَضامينِ المعنوية -المشهورة-[3] للشعر، والإفادةِ منها بعد صِياغَتِها صياغةً جديدة، على وفق سياقِ القولِ ومَبناه .

والإمام عليه السلام حين يتناول الشعرَ، إنّما يتعامل مَعهُ بشيءٍ من التَغيير، بزيادةٍ أو نقصان، ثم يَصوغَهُ صياغةً جديدةً، فيجعله مُنسَجِماً معَ العطاءِ الدَّلالي الذي أراده في السياق .

قال عليه السلام: ((رُبَّ قَول أَنفَذَ مِن صَول))[4]، والذي قد يكون من قولِ العرب:((والقولُ ينفذ ما لا تَنفذ الأبــرُ))[5]، رُبَّ تدل على التَّقليل، أي رُبَّ كلام يُؤثر في نفوذِ السطوةِ[6]، وهو مَثَلٌ يُضرَب للرفقِ واللين الذي يبلغ ما لا يبلغ بالعنف[7].

وقال له بعضُ أصحابه: وَدِدتُ أنَّ أخي فُلاناً كان شاهدنا ليَرى مانَصَركَ اللهُ بهِ على أعدائِكَ، فقال عليه السلام: ((أَهوى أَخِيك مَعَنا؟ فقال: نَعم، قال: ولقَد شَهِدنا في عَسكَرِنا هذا أقوامٌ في أصلابِ الرِّجالِ، وأرحامِ النِّساءِ سَيرعَف بِهم الزَّمانُ، ويَقوى بِهم الإيمانُ))[8].

يَرعَف بهم الزمان:يُوجِدهم ويُخرجَهم، كما يَرعف الإنسانُ بالدَّمِ الذي يخرج

(١) نهج البلاغة، ك (٤١) ، ج٣/ ٧٢ . وهو من قول الشاعر (معن ابن أوس): قَلبت لهُ ظَهرَ المِجَنِّ فَلَم أَدُم عَلى ذاكَ إلاّ رَيثَما أتحَوّل . ينظر: شرح الحماسة، للتبريزي ، ج٢/ ٦٩٦.

(٢) نهج البلاغة، ح(١٤٩) ، ج٢/ ٥٦.وهو تضمين لقول الشاعر(الفند الزماني): وَلَم يَبقَ سِوى العِدوانِ دِنَّاهُم كَما دانـُوا ينظر: شرح الحماسة، للتبريزي، ج١/ ٢٥.ينظر: المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري ت(٥٣٨) هـ ، دار النشر، ط٢، بيروت ، ١٩٨٢م ، ج٢/ ١٩٨.

(٣) يشترطُ بعضهُم أن يكون التضمينُ أصلًا للأقوالِ المشهورةِ .ينظر: البلاغة والأسلوبية ، ص:١٥٠ .

(٤) نهج البلاغة، خ(٣٩٤)، ج٣/ ٢٤٨ .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ، ج١٩/ ٣١٠ .

(٦) ينظر: توضيح نهج البلاغة، ج٤/ ٤٥٢.

(٧) ينظر: تفسير ابن ميثم البحراني، ج١/ ٦٦٩.

(٨) نهج البلاغة، خ(١٢)، ج١/ ٣٩ – ٤٠ .

من أنفهِ قال الشاعر:

وَما رَعَفَ الزمانَ بِمثلِ عَمرو ولا تَلِد النَّساءُ لَـــهُ ضَرِيبا[1] .

إنَّ تجسيم الزمان وإدخالهِ عالمَ المحسوسات يَدخل في صَميم الصورة الاستعارية(المَكنية)، إذ أَطَلَّ علينا الزمانُ بهيئةٍ آدَميَّةٍ، دلَّ عليها الفعلُ المضارعَ « يَرعَف » وهي خِصِّيصَةٌ من خصائصِ المُستعار منه المَحذوف

والفعلُ (يَرعف) له دلالتان، الأولى التَدَفق والدال على الكَثرةِ والثانية هي الاستمرارية، والمُوصِلة إلى عَدَمِ الانقطاع، وكلتاهُما تُوصِل إلى كَثرةِ عَطاء الزَّمان لِمثلِ هؤلاء، وعَدم خُلو الأرضِ منهم .

ومن ذلك أيضاً قوله عليه السلام في إحدى خِطَبِه:((ألا وفي غَدٍ - وسَيأتي غدٌ بما لا تَعرِفون - يأخُذُ الوالي من غَيرِها عُمَّالَها على مَساوِئِ أعمالِها))[2]، ولَرُبَّما يعود بنا إلى قولِ الشاعر :

سَتُبدي لَكَ الأيّامُ ما كُنتَ جاهِلا وَيأتيكَ بالأخبارِ مَن لَم تُزوَّدِ[3]

وهكذا فعلَ في تضمينات أخرى من هذا النوع، لمعانٍ ذاعت واشتهرت بمرجعياتِها بين الناس، وجاءت مُتساوِقَةً مع تجربتِهِ حين عكَسهُ على حاله، ومعاناتهِ ، مثل تضمينهِ لقولِ الشاعر:

وَالنّفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبتَــها واذا تُرَدُّ إلـــى قَليلٍ تَقنَعُ[4]

---

(١) ولم ينسبه شراح النهج إلى شاعر بعينه. ينظر مثلا: شرح نهج البلاغة، ج١/ ٢٠٩ . ومنهاج البراعة، الخوئي، ج٣/ ١٨٢.

(٢) نهج البلاغة ، خ(١٣٤)، ج٢/ ٢٩ - ٣٠ .

(٣) ديوان طَرَفة بن العبد ، تحقيق د. سعدي الضناوي ، دار الكتاب العربي ، ط٢، بيروت ، ، ١٩٩٧م، ص:١٢٠.

(٤) ينظر: ديوان الهذيليين ، ج١/ ٣ .

في قوله عليه السلام ((واعلم أنّكَ إن لَم تردَع نفسَك عن كَثيرٍ مِمّا تُحِب مَخافة مَكروهٍ سَمَت بِكَ الأهواءُ إلى كَثيرٍ مِن الضَّرَرِ))[١].

وكذلك في تضمينه قولَ الشاعر :فللموتِ ما تَلِدُ الوالــــدة[٢]

في قوله عليه السلام: ((لِدُوا لِلموتِ، وأجمَعوا للخَراب))[٣] .

وفي تضمينه قولَ لَبيد: أَلَا كَلّ شَيءٍ ما خَلا الله باطل وَكلّ نَعيمٍ لا مَحالةَ زائِــلُ[٤]

في قوله عليه السلام:((وكلّ نَعيمٍ دون الجَنَّةِ مَحقور، وكلّ بَلاءٍ دونَ النَّارِ عافِية))[٥]

المبحَثُ الثاني: تَضمينُ المَثَل العَربِي .

للمثلِ قدرةٌ في العَطاءِ الدلالي الكبير ، بأقلِّ عَدَدٍ مُمكِن من المفردات إذ « ليسَ في كلام العَرَب أوجز منها ، ولا أشَدَّ اختصاراً »[٦]، وتكاد تجمع التعريفاتُ الاصطلاحية للمَثَل على أَنَّه « صورةٌ حيّةٌ ماثِلَةٌ لَمشهَد واقعيٍّ ، أو مُتَخَيَّل ، مرسومة بكلماتٍ مُعَبِّرة مُوجزة يُؤتى بها غالباً لتقريبِ ما يُضرب له من الاستعارةِ ، أو الكِنايةِ، أو التشبيه»[٧].

والرسمُ بالكلماتِ - بيانيّاً - ، والإيجازُ، والاستعارةُ، والكنايةُ، والتشبيهُ،

---

(١) نهج البلاغة ، ك (٥٦) ، ج٣/ ١٢٥ .

(٢) الحماسة ، ج٤/ ٩٩ .

(٣) نهج البلاغة ، ق(١٣٢)، ج٣/ ١٨٣ .

(٤) ديوان لَبيد، الشيخ الطوسي، تحقيق د.حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي ، ط٢، بيروت، ، ١٩٩٦م، ص:١٤٥ .

(٥) نهج البلاغة، ق(٣٨٧)، ج٣/ ٢٤٧ .

(٦) المثل السائر، ابن الأثير، ج١/ ٧٥ .

(٧) هذا ما استخلصه الدكتور محمد حسين الصغير في كتابه (الصورةُ الفنية في المَثَل القرآني) بعد استعراضه للمعاني الاصطلاحية للمثل .ينظر:الصورة الفنية في المثل القرآني، دار الرشيد للنشر، بغداد ، ١٩٨١م، ص:٥٠ -٦٠ .

المُستفرغَة في الأمثال، مع مالها من «الشيوع والانتشارِ وكثرة الدوران على الألسن»[1] جعل منها طاقةً دلاليةً فاعلةً، ليس في النصوص الأدبية فقط ، بل تعدّاها إلى كتابِ الله [2]، وحديثِ رسولهِ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم[3].

لا غرابةَ إذن من وروده في النصِّ النهجي، لا سيّما وأنَّه كانَ جزءاً من ثقافةِ العصر الذي عاش فيه الإمام عليه السلام، وقد أَخذَ مساحةً واسعَةً مِن لُغةِ العَرب، وآدابِهِم .

ما مِن شَكٍّ أنَّ كلَّ إنسان يتأثر بما حوله من ظروف، وثقافات وآداب تستدعي ظلالَها في التركيب اللغوي والنفسي بصورةٍ أو بأخرى والاستحضار للمَثل في كلام الإمام عليه السلام، وكتبهِ ضرورة فَرَضها ذلك التأثر، من طبيعةِ الحياة آنذاك، حين امتدَّت ثقافةُ الإمام عليه السلام فشملت الشعرَ والمَثَلَ العربي .

ولم تقتصر على القرآن والسنَّةِ النبوية الشريفة ، وإن كانت مساحتُهُما أكبر كما يَتَبيّن في باب الاقتباس إذا ما قُورِنَ بمساحةِ التَّضمينِ في هذا الفصل، وما يتبعه مِن فصولِ أُخرى

وإثراء النص النهجي بالمَثَل عِبر آلية التضمين وطّد العلاقةَ التناصَّية مع الموروث الأدبي، فالشاعر، أو الناثر حين يقوم بذلك « إنّما قد يساعد في إبقاء ذلك المأثور حيّاً، أو أعاد له الحياة في صورةٍ مُعاصِرَةٍ، وهو نوعٌ من الحِفاظِ على الثَّقافَةِ والتَّذكير بِها»[4].

وفي مُقابل ذلك – حين زَخَرت نصوصُ النهج بالتضمين المَثَلي – جعلها تنفتح

(١) وهذا هو الفارق بين المَثَل والحِكمة « فالقول الصادر عن تجربةٍ يُسمَّى حِكمة إذا لم يتداول مَثَلاً وإذا كثر استعمالُه وشاع أداؤُه في المناسباتِ المختلفة « .جمهرة أمثال العرب، ج١/ ٥ .

(٢) أورد الدكتور محمد حسين الصغير، والشيخ السبحاني، في كتابيهما المؤلفات التي تناولت المثل القرآني. ينظر:الصورة الفنية في المثل القرآني، ص:٤٠٣ – ٤٠٩ .وينظر:مفاهيم القرآن، (دراسةُ الأمثالِ والأقسامِ في القرآنِ الكريم)، مطبعة اعتماد، قم، إيران، ١٤٢٥ هـ، ج٩/ ٢٦ – ٢٧ .

(٣) ينظر:المصدر السابق، ج٩/ ٦٥ – ٧٠ .

(٤) التناص مع الشعر العربي، عبد الواحد لؤلؤة، ص :٢٨ .

على أجواءٍ فسيحةٍ من الصُّوَرِ، والمعاني، وتستمد أكبرَ قَدَرٍ من الطاقة الدلالية والإيحائية، والبنية العميقة للمَثَل، إذ لم يكن تضمينها لدواعٍ تجميلية تزينيَةٍ بقدر ما هي إنماءٌ دلالي للنص .

ويبقى – ربّما – سبب تفضيل بعضها دون بعض ارتكازها على شيوعِها وانتشارها بين الناس من جهةٍ، وما تحمله من دلالاتٍ دون سواها من جهةٍ أخرى .

لقدَ تنوّعت طرائقُ التضمين للمَثَل العربي في النصّ النهجي فمنها ما كان تَضميناً مُباشراً لها، ومنها ما كان غير ذلك .

أوّلا: التَضمِين المباشِر للمَثل .

من ذلك قوله عليه السلام مُوبّخاً بعضَ أصحابه: » أشُهُودٌ كَغُيَّاب، وعبيدٌ كأرباب؟؟، أتلو عليكُم الحِكَم فَتَنفِرونَ مِنها، وأعَظُكم بالمَوعِظَة البالغة فَتَتفرَّقونَ عَنها، وأحُثُّكم على جِهاد أهلِ البَغي فَما آتي عَلى آخرِ القَول حَتّى أراكُم مُتَفَرِقِين أيادي سَبَأ، تَرجعون إلى مَجالِسِكُم، وتَتَخادَعون عَن مَواعِظِكُم«(١).

وأيادي سبأ « مَثَلٌ يُضرب في شِدَّةِ التفرق، وضَرَبهُ عليه السلام لتَفرقهُم عَن مجالس الذِّكر»(٢)، وسَبَأ قَبيلةٌ من أولادِ سَبأ بن يشجب بن يَعرب بن قحطان، وجاء المَثَلُ من قِصَّةِ هؤلاء حين تَفَرَّقوا بعد انفِتاحِ سَدّ مَأرِب وسقوطه فتفرَّقوا في البلاد، وصار يُضرَب فيمن يتَفَرَّق بعد اجتماع(٣).

وقوله عليه السلام:(... حَتَّى أراكُم متفرِّقين أيادي سَبَأ) أي: كأيادي سَبَأ وهو تَشبيهٌ بليغٌ محذوف الأداة، يَحملُ بينَ طيَّاتهِ استعارةً ذات خصوصِيَّةٍ مُتداوَلة عند العربِ

(١) نهج البلاغة، خ(٩٣)، ج١/ ١٨٨ .

(٢) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٤٧٧ .

(٣) المكان نفسه . وينظر:مجمع الأمثال، ج١/ ٢٧٥ .وقال البعضُ أنَّ(سبأ)اسم مدينة بلقيس باليمن. ينظر:النهاية في غريب الأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق:طاهر احمد الزاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، ج٢/ ٣٢٩ .

قبلَ الإسلام، والأيادي استعارةٌ تصريحيَّةٌ للقوة بجامع القدرة[1]، وهو مَثَل يُضرب للمتفرِّقين، وأصله قوله تعالى عن أهلِ سَبأ: « وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ »[2] ، وهو توكيد لقوله عليه السلام:((مُتَفَرِّقين)) [3]

لقد تعزّز المعنى المُراد باستحضار المَثل التصويري، وتموضعِهِ في بنية النصّ، بصورتِهِ التي اقترنَت بدلالةِ تعارف الناس عليها من خلال مَعرفة قِصّته المُرتبطة به[4].

الصورة هنا تُفصح عن وجودها بمجرَّد سَماع المَثَل، حيث أفضى إلى دلالةٍ مَقصودةٍ، اقترنت بالإشارة إلى رمزٍ استعاري لِما مَضى من الزمان فهو أداءٌ رمزي كان مُعَبِّراً للوصول إلى الغاية الدلالية المَنشودة .

إنَّ المعنى المُختَزن في ذهنِ المُتلقِّي هو العلامةُ البارزةُ في ساحةِ الخزين المَعرفي التي اتَّكأ النصُّ عليها في عمليةِ التضمين لهذا المَثَلِ دون سواه ، فسَهَّل الإفصاح عن الدلالة الكامِنة في النصّ والتي أحضرها التضمينُ إلى ساحة الإفهام.

إنَّ الإمام عليه السلام إذن لم يستنسِخ المَثَلَ استنساخاً منفصِلا عن سياقه في النص بقدرما كان ذا مَقدِرَةٍ بيانِيَّةٍ استطاع إدخالها، واستنزالها فيه وما مِن شكّ أنَّ له القدرة على تَشكيل اللغة المناسبة للحالِ والمقال .

ومن ذلك أيضاً قوله عليه السلام:((.. والله لقد رقّعتُ مِدرعَتي هذه حَتَّى استَحيَيتُ

---

(١) اقتصر تعريف المَثَلِ عند الأستاذ منير القاضي على كَونِهِ استعارة تمثيلية مَبنية على التشبيه المُركَّب .ينظر:المثل في القرآن الكريم، منير القاضي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٧، الأعداد(٣٠ – ٣٥)، ١٩٦٠م، ص:٤.وقد سَبقه الجاحظ بذلك حين سَمّى الاستعارةَ مَثَلا في تعليقهِ على بيت الأشهب ابن رميله . ينظر:البيان والتبيين، ج٤/ ٥٥ .ينظر:معجم المصطلحات البلاغية ، وتطورها، ج١/ ٣١٣ .ينظر:الصورة الفنية في المثل القرآني ، ص :٥٧ .

(٢) ينظر:منهاج البراعة ، الخوئي ، ج٧١/ ١٢٢ .ينظر:شرح نهج البلاغة ، ج٢/ ١٤٢ .

(٣) ينظر:منهاج البراعة ، الراوندي ، ج١/ ٤٣١ .

(٤) ولولا هذه القصص التي رافقت الأمثالَ لما فيها كثير من معانيها، لانّ للمَثلِ مقدمات وأسباب قد عُرِفت وصارت مَشهورة بين الناس مَعلومة عِندهُم .ينظر:المثل السائر، ج١/ ٦٣ .

من راقعِها، ولَقد قالَ لي قائلٌ:ألا تَنبذُها عَنك؟ فقلتُ:أُعزُب عَنِّي، فعِندَ الصَّباحِ يَحمَدُ القَوم السُّرى))[1].

(عِندَ الصَّباح يَحمَد القومُ السُّرى)مَثَلٌ يُضرَب لِمحتَمِل المَشقَّة ليَصِل إلى الرَّاحةِ، فأصله أنَّ القوم يسيرون في الَّليلِ فيحمدون عاقبةَ ذلك بقربِ المنزل إذا أصبَحوا [2].

قال التستري في شرحه:((مَثَلٌ لِتَعَبٍ آخرُهُ راحةٌ طَويلَةٌ))[3]، وقال إنّه لا يعلم أصله[4].

استفرغَ الإمام عليه السلام ما في المَثَلِ من دلالة، وفي الوقت عينهِ كَساهُ معنىً جديداً حين ضَمّنه كلامه، وأدخله في سياقِ أشار فيه إلى مَن سَخَّر دنياه لآخِرتِه .

لقد انتقل بالمَثَل من دلالتهِ المادية إلى دلالته المعنوية، واستوقَفَهُ عند المعنى الذي أراده هو عليه السلام، وبذلك استطاع أن يعكس معنى المَثَل على واقعِهِ هو عليه السلام، حيث الزهد، والوَرَع، والتقوى، ونبذ الدنيا وزخرفتها، وهذا مِمّا يُوصِل إلى النجاة، والسلامة، فلم يَخلُ النصّ من صورةٍ بيانيَّةٍ، وان لم تكن واضحة المَعالم لعموم المُتلقين .

---

(١) نهج البلاغة، خ (١٥٥)، ج٢/ ٧٦ .

(٢) ينظر:جمهرة خطب العرب ، ج١/ ١٣٨ . وشرح ابن ميثم البحراني ، ج١/ ٦٥١. منهاج البراعة ، الخوئي، ج٩/ ٣٩١.

(٣) بهج الصباغة، التستري،ج٦/ ٣٨٣ .

(٤) المكان نفسه . ونسبه صاحب(جمهرة الأمثال)إلى(الجميح) ،ونَسبَهُ صاحبُ طبقات الشعراء إلى غيرِ واحدٍ من الرجَّاز . ينظر:جمهرة الأمثال ، ج٢/ ٤٢ . ينظر:طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجَمحي ت(٢٣١)هـ ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ،(د.ت)،ج١/ ٥٩ . وكذلك جَعلَهُ صاحبُ المستقصى في أمثالِ العرب من الرجز :

انّي إذا الجِبس عَلى الكورِ انثَنى
لَو سُئِلَ المــاء فداء لافتَدى
وقالَ كم أتعَبت قُلتُ قـد أرى
عِندَ الصَّباح يَحمد القَومُ السُّرى

المستقصى في أمثال العرب،ج٢/ ١٦٨ .

وفيه نجد استخداماً آخر للتناص من خلال التضمين الذي جاء بهعليه السلام، فتجربتُهُ الشخصية في محاولة السَّعي الحَثيث للوصولِ إلى المُستَقَر(الأخروي)، بعد السَفر(الدنيوي)جاءت منسجمةً، ومُتوافِقةً مع تجربةِ قائل هذا المثل، وكما لا يَخفى فإنَّ المَثَلَ أدَّى ما أراد عليه السلاممن التَّعبير عَن الفِكرةِ الصالحة للتمثيل والتي وَحَّدت بين النَصِّ والسِّياق، الذين « قد يُكمل أحدهما الآخر »

وفي كتاب له بعثه جواباً إلى معاوية قال : ((وما لِلطُّلقاءِ وأبناءِ الطُّلقاءِ والتَمييز بينَ المُهاجرين الأَولين ، وتَرتيب درجاتِهِم ، وتعريف طبقاتِهِم ؟ هيهات ! لقد حَنَّ قِدحٌ ليسَ مِنها وطَفِقَ يَحكُمُ فيها مَن عَليهِ الحُكمُ لَها [1])).

قولهعليه السلام:(وما للطلقاء)... استفهامٌ على سبيل الاستحقار والإنكار على صِغر شأنهِ وحقارتهِ في هذه الأمور الكبار[2]، وقوله:(هَيهات)تُعزِّز هذا الاستحقار حين تدل على استبعاد أهلية معاوية لمثلِ هذا الحكم[3].

والقول – وهو محل الشاهد – (لقد حَنّ قِدحٌ لَيس مِنها)مَثَلٌ يُضرَب لِمَن يدخل نفسَه بينَ قوم ليس له أن يدخل بينَهُم، وأصلُه القِداح من عودٍ واحدٍ يُجعَل مِن غيرِ ذلك الخَشَبٍ، فيُصَّت بينهما إذا أرادها المُفيض، فذلك الصوتُ هو حَنينُه[4]، وهو صوتٌ ناشئٌ عن حركةِ ذلك العود(القِداح) يُخالِف أصواتَ الأعواد الأخرى فيُعرَف به انَّه ليسَ من جملتِها، فَضُرِبَ مَثَلاً لِمَن يَمدَح قوماً و يُطرِيهِم ويفتَخِر بهم مَع انَّهُ ليسَ مِنهم[5].

---

(١) نهج البلاغة،ك(٢٨)،ج٣/ ٣٤ . وينظر:لسان العرب،ج١٣/ ١٣٠ . وينظر:تاج العروس،ج٩/ ١٨٧.
(٢) شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٣٥٠ .
(٣)) ينظر: المكان نفسه .
(٤) شرح ابن ابي الحديد، ج١٥/ ١٤٩ .
(٥) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٣٥٠ . لأن معاوية في كتاب الإمامعليه السلام – كما يفهم من جواب الإمامعليه السلام– ذكر اصطفاءَ الله مُحمداصلى الله عليه وآله لدينه، وتأييده إيّاه بمَن أيّدهُ مِن أصحابهِ، لذلك ردَّ الإمامُعليه السلامعليه بهذا القَول بِصيغةِ الاستغراب والسخرية . ينظر:نهج البلاغة،ك(٢٨)، ج٣/ ٣٤ . ويُضرَب لِمن يَفتَخِر بقومٍ ليسَ مِنهم. ينظر: منهاج البراعة ، الراوندي ،ج٣/ ٧٢ .

وفي هذا التضمين – كما في غيره – أسرارٌ تعبيريَّةٌ بديعيَّةٌ ساعدت في فَهم المُراد مِن كلامه عليه السلام، فالمثل هنا ليس زُخرفاً يُؤتَى بهِ دونَما قَصديَّةٍ دلاليَّةٍ، بل هناك ضَرورة تَستدعيه ، للإسهامِ في استكمال دلالة النص، وإيصالهِ أو تقريبهِ من ذهن المُتلقي ،

وله عليه السلام بِضعة أمثالٍ أخرى ضَمَّنها بصورةٍ مُباشرة في مواضعَ مُتفرِّقة من نصوص النَّهج[1].

ثَانياً: التَضمينُ غَير المباشِر لِلمَثَل .

ذيوع الأمثال وانتشارها بين الناس بصيغةٍ مَخصوصةٍ يقف عائقاً دون جواز التغيير في بنيتها التركيبية ، هذا ما اشترطه جملةٌ من الأعلام[2]، وعُدَّ ذلك من أبرز مُميِّزات المَثَل عندهم[3]، غير أنَّ فُسحة القول بجواز التصريح بما تعنيه تسمح بنوع من التغيير وعملية التغيير هذه تستند إلى أمرين هما؛ التغيير اليسير لا يعيق من إرجاع تلك الأمثال إلى مَرجعياتِها أولًا، والتعامل مع الأمثال الشائعة، والتي تَكفي بعض ألفاظها للدلالة عليها، مِثل قوله في وصيةِ الإمام لابنهِ الحَسَن عليهما السلام:((...والصَّاحِبُ مناسبٌ، والصَّديقُ من صَدق غَيبُهُ ، والهَوى شَريكُ العناء ، رُبَّ قريب أبعدَ من بَعيد ، ورُبّ بَعيدٍ اقربُ من قَريب ، والغَريبُ مَن لَم يَكُن لَهُ حَبيب))[4] نبَّه على أنَّ مِن البُعَداء مِن هُو اقرب، وانفع منَ النَّسَب، وفي الأقرباء من هو أبعَد من البَعيد وهو مَشهور[5]، وهذا

(١) ينظر مثلا:قوله عليه السلام : " قَدَّمَ للوَثبةِ يَداً وأخَّرَ للنكوص قَدَماً " . نهج البلاغة، (٦٣)ج١/ ١١١ .
وقوله عليه السلام: " كما تدين تُدان " . نهج البلاغة،خ (١٤٩)ج٢/ ٥٦ .
وقوله عليه السلام)): آخر الدَّاءِ الكَي((. نهج البلاغة،خ (١٦٢)ج٢/ ٩٨ .
وقوله عليه السلام:)) قَذفاً بغَيب بَعيد ((. نهج البلاغة،خ (١٨٧)ج٢/ ١٦٣ .

(٢) ينظر مثلا :السيوطي في كتابه المزهر، والرازي في كتابه» نهاية الإيجاز»، ص:٨١ .والسكاكي، في كتابه « مفتاح العلوم»، ص: ١٨٧ .ود.محمد حسين علي الصغير، في كتابه، « الصورة الفنية في المثل القرآني»، ص:٥٢ .

(٣) عند توحيد التعريف الاصطلاحي عُدَّ « عَدم التغيير في لفظهِ الموضوع له « واحداً مِن شروطهِ الثلاثة، وهي؛(وجود علاقة المشابهة) ، و(السيرورة والتداول بين الناس) ، و(عدم التغيير في لفظة الموضوع). ينظر:المصدر السابق، ص:٦٠ .

(٤) نهج البلاغة ك(٣١)،ج٣/ ٦٢

(٥) شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٣٩٢ .

المعنى يعود بنا إلى المَثَلِ العَربي المَعروف ((رُبَّ أخٍ لكَ لَم تَلِده أمك))[١] .

وقال مُضَمِّناً المَثَلَ العربي ((الدهرُ ضَربان، ضَربُ بَلاء، وضَربُ رَخاء))[٢] وفي كتاب له بَعَثه إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه :)) ... واعلم بأنَّ الدَّهرَ يومان، يومٌ لكَ، ويومٌ عَليك، وأنَّ الدُّنيا دارُ دُوَل))[٣]

وقَد جَرى هذا التغيير في المَثَلِ لِيَنسَجم مع الحالةِ الشعورية للإمام عليه السلام، الظاهرة في الوِدِّ والحُب لعامله ، وابنِ عمِّهِ، في خطابٍ مُباشرٍ معه(لكَ)و(عَليك) .

وقال في مَوضعين من مَواضِع النَّهج في خُطبهِ مُوَبِّخاً فيها أهلَ الكوفة على مماطلتهم بالنّفار إلى الحَرب[٤]: ((... ومَع أيِّ إمام بَعدي تُقاتِلون؟ المَغرور واللهِ مَن غرَّرتُمُوه، ومَن فازَ بِكُم فقَد فازَ واللهِ بالسّهمِ الأخيَب، ومَن رَمى بِكم فقَد رَمى بأفوقِ ناصِل))[٥].

وفي أخرى قال مُوبِّخاً أصحابَه لتقاعسهم عن النهوض إلى حرب أهل الشام[٦]:((... أكلّما أطَلَّ عَليكُم مَنسرٌ مِن مَناسر أهلِ الشَّام أغلَقَ كُلُّ رَجُلٍ منكُم بابَه، وانحَجَر انحِجارَ الضَّبَّةِ في جُحرِهَا، والضَّبُع في وِجارِها ؟ الَّذليلُ واللهِ مَن نَصرتُمُوه !ومَن رَمى بِكُم فَقَد رَمى بِأفوَقِ ناصل ...)) [٧].

في كليهما ضَمَّن مَثَلا عَربيّاً قديماً:((رَجَعَ بأفوَقِ ناصِل))[٨]، وهو مَثَلٌ يُضرَب لِمَن

(١) جمهرة الأمثال ، ج١/ ٤٢٥، ٤٧٢ ،
(٢) ما ورد في وصية الحرث بن كعب لبنيه جمهرة خطب العرب، ج١/ ١٢٢ .
(٣) نهج البلاغة ك (٧٢).ج٣/ . وقاله بصيغة أخرى:(واليومُ يومان:يَومٌ لك، ويَومٌ عَلَيك).نهج البلاغة ، ق (٣٩٦)، ج٣/ ٢٤٩
(٤) شرح ابن ميثم البحراني ، ج١/ ٢٥٢ .
(٥) نهج البلاغة، خ(٢٩) ، ج١/ ٧٠ .
(٦) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٣٤٠ .
(٧) نهج البلاغة ، خ (٦٦)، ج ١/ ١١٣-١١٤ .
(٨) مجمع الأمثال ، ج١/ ٢٩٥ .

استنجد بِمَن لا ينجـده[1]، ولِمن رجع عن مَقصَدِه بالخَيبَةِ أو بما لا غناء عنده[2].

والسَّهم الافوَق: المَكسور الفُوق ، وهو مَدخل الوتَر، والناصل: الذي لا نَصلَ لهُ[3]، قال الميداني:الناصل: السَّهم سَقَط نَصلُه، والأفوق الَّذي انكسَر فوقه[4]، وشبَّهَهُم بالسِّهام المَكسورة الفوق، المنزوعة النَّصل، لعدم الانتفاع بهم في الحَربِ ، كما لا ينتَفع بالسَّهم الموصوف[5]وكنَّى بإغلاق كلّ مِنهم بابَـــه - عند سَماعِهم بقدوم طَلائع جيش الشَام بعد استفهام دالٍّ على التَّوبيخ - بقوله: فَيَنحَجرون:أي يستَترون في بيوتهم جبناً، كما تتَستر الضَبّةُ في جحرها، والضّبع في وِجارِه»[6] ، وإنَّما وقعَ التشبيهُ على الضّبّة مُبالغةً في وصفِهم بالجّبنِ والفرار.

وللإمعان في التَّوبيخ والذمّ جاء بمفردةِ (الفَوز) – مع أن لا فوزَ بهم – على سَبيلِ المجاز « مِن باب إطلاق اسم أحد الضِدَّين على الآخر » [7] ويحمل بينَ طَيّاتهَ استهزاءً يعود بنا إلى قولِه تعالى: (فبَشِّرهُم بعذابٍ أليم) [8]، وكذلك باستجلابٍ صيغةَ التَّفضيل بالذَمِّ (الأخيب) ، أي أشَدّ خَيبَة ، وهو الحِرمان[9].

وهذا القول فيهِ حشدٌ لفنونٍ بلاغِيَّةٍ عَديدةٍ، إذ جمع النَصَّانُ فنوناً من البلاغةِ ، كالتَّشبيهِ، والاستعارةِ، والكنايةِ، والحَصرِ، والتَّوكيد.

أما التَّشبيه فقد وقعَ في تشبيهِهِم بانحجارِ الضبّة والضّبع وهُما تشبيهان بلاغيان،

---

(١) ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج٦/ ٨٢ .

(٢) ينظر: الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة، محمد الغروي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤٠٧ هـ ، ص:١٧٩

(٣) ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج٢/ ٩٠ .

(٤) ينظر: مجمع الأمثال ، ج١/ ٢٩٥ .

(٥) ينظر: منهاج البراعة، الخوئي ، ج٥/ ١٢٣ .

(٦) الوجار هو بيت الضبع . ينظر، شرح ابن أبي الحديد، ج٦/ ٨٢ .

(٧) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٢٥٢ .

(٨) آل عمران/ ٢١، التوبة/ ٣٤، الانشقاق/ ٢٤ .

(٩) ينظر: منهاج البراعة ، الخوئي ، ج٤/ ١٦. وشرح نهج البلاغة ، ج١/ ٢٤٢ .

والاستعارة في قوله عليه السلام:(مَن رمى بِكُم)وهي استعارةٌ لبعثِهِ لهم إلى الحَرب للدلالة على عدمِ انبعاثِهِم عَن أمره[1]، فهم كالسَّهم «الذي لا فوق له ولا نصل فإنَّه لا يكاد يَتجاوز عَنِ القوس مسافةً»[2]، لقد وصفهم بأردَأ أوصافِ السهم الذي يبطل معها فائدتَه لمشابهَتِـهِم له في عدم الانتفاع بِهِم في الحرب[3]، والكناية حين كنَّى بإغلاقِ كل منهم بابَه دلالةً على جبنهم، وكراهية سماعهم للحرب[4].

والحَصر في قوله عليه السلام:(مَن فاز بِكم فقَد فازَ. . .) و(ومَن رَمى بِكم فقَد رَمى ..) للدلالة على حَصر الذلَّ لكلِّ مُنتصرٍ بهم فيمن نَصَروه[5].

وجاء المَثَلُ ليُفصِح عن يأسِ الإمام من هؤلاء، وصيغة التفضيل (أفعل) في (أخيَب)، جاء بموازاة الحالة النفسية، لما للمفردة من دلالةٍ نفسِيَّةٍ ظاهِرةٍ، وما صاحَبَها من توكيدٍ بالقَسم(واللهِ)، والذي جاء كجملةٍ اعتراضيةٍ أحسَّ الإمامُ بضرورتها، وتجلَّى التوكيدُ في القسم(المغرور واللهِ)وفي الأداة (قَد) في قوله: (قَد فازَ، قد رَمى)

والاشتراك في الموضوع صاحَبَهُ تشابه في البناء في كلتا الخطبتين، حيث الاستفهام يصاحبه قسمٌ ويتبعهما توكيدٌ بالأداة (قَد) ثم يأتي تضمينٌ غير مُباشِر للمَثَلِ العربي .

وفي كلتيهما بيانٌ لحاله عليه السلام مع هؤلاء الذين أبانَ عن صفاتِهم وساعد المثلُ في عكس خَيبةِ الإمام، ويأسِهِ منهم، ليُبَين عن عاطفةٍ مُتوجِّعةٍ كانَ يحملها في صدره فَمَدَّت النصَّ بنَبَضِ الحَياة .

ولهذا النوع من التضمينِ مساحةٌ أوسع من سابقهِ في النصوص النهجية [6].

---

(١) ينظر : شرح ابن ميثم البحراني ، ج١ / ٢٥٢ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المصدر السابق ، ج١/ ٣٤١ .

(٥) المكان نفسه .

(٦) ينظر مثلا قوله عليه السلام :((لَو كان يُطاع لِقَصير أمرٌ)). نهج البلاغة،خ(٣٤) ، ج١/ ٨١ . وقوله عليه السلام: ((ما سَمَّر سميرٌ وما أَمَّ نجمٌ في السماءِ نَجما)). نهج البلاغة ، خ (٢٢)، ج٢/ ١٠ . وقوله عليه السلام: ((الهَمُّ نصف الهَـرَم)) . نهج البلاغة ، خ (١٤٣)،ج٣/ ٨٥ .

الفَصلُ الثَانِي

وَظِيفَةُ التَّضمِين

المَبحـَثُ الأوَّل :الوَظِيفةُ الدَّلالِيَّة.

المبحَثُ الثَانِي:الوَظِيفةُ الفَنيـَّة.

مَدخَل.

الموروثُ الأدبي العربي- مِن شِعر ومَثَلٍ- بمثابة رَحِم دلالي زاخر يَرفد النصوصَ بولادات دلالية تَتَفجر عناصرُهُ، وتتوزّع فيه بوصفها رَصِيداً مَعنَوياً كامِناً .

سيدور هذا الفصل حول محورين يُوصلان إلى التَّعرف على توظيفِ التضمين في المُستَويَين الدلالي، والفني، فالنص - بما يحتويه من بنى صغيرة - هو لفظٌ ومعنى، أداةٌ وفكرةٌ، شَكل ومضمونٌ ومِن ثَم قد يُؤدي وظيفةً تنبع من معانيهِ، وأفكارهِ، ومضامينهِ لتصبّ في فضاءاتٍ دلالية رحبة مُتنوِّعةﷺأو قد يؤدي وظيفةً فنيَّةً تَتولد من ألفاظهﷺوأدواتهﷺوشكله ٠

من الصعوبةِ بمكان الفصل بين هذين النوعين من التوظيف، وإدراجهما تحت عناوين مُستقلة بهما وهذا لايعني استقلالها في هذه الوظيفة أوتلك دونَما علاقةٍ أو سبَب يربطها ببعضِها لتُوصِل في نهايةِ الأمر إلى عطاءاتٍ دلالية فنيةٍ مُوَحّدة، تحمل في طيّاتها طاقةً دلاليةً بأبهى صورة[1].

هذا ما نجده في النص النهجي" فالنصّ في النهج ليس قطعة بلاغية ذات جمالٍ مُجرَّد، بل هو وظيفة متقنة، إنّه ثمرة التزاوج الطبيعي بين البلاغة والأفكار والذي تترتّب عليه إنجاب أفكارٍ لُغويَّةٍ جديدةٍ واستخدامات لغوية وبيانية جديدة " ٠[2]

(١) باعتبار((إنّ للتضمين الفني وظيفة هي في الغالب لتطوير المعنى، أو الحدث))دير الملاك، ص:٢٢٨. أو باعتباره حاملا لوظائف عديدة.ينظر:النص والتناص، ص:١٧٥-٢٠٨.

(٢) سلطة الحق، ص:٢٨٦.

لولا معرفة الإمام بالقيمة الوظيفية للأشعار والأمثال ما استخدمها في كلامه وكتبه ومواعظه ، والذي زاد في نجاح توظيفها مقدرته الفذَّة في نسجها بسياقِ كلامهِ ، والوصول إلى غايةِ عطاءاتِها الدلاليّة والفنيّة ٠

المبحَثُ الأوَّل : التَّوظيفُ الدَّلالي.

قد تتعدّد مُسميات الوظائف الدلالية للشعر، والمَثَلِ في النص النهجي، وتَتَشَعب، غير أنَّها تتوحد مع مشتركاتٍ تسعى إلى اختزالِ تلك التشعبات، وحين سعى الإمام إلى مثل هذا التوظيف إنما أراد الإفادة ممّا يتضمنه الشعر، والمثل من طاقه تعبيريه، وقدرة إيحائية مرتبطة بوجدان المتلقي، ووعيه، ممّا يستدعي إثارة ، وتفعيلا للدلالات المختزلة ، ومن أبرز أنواع هذا التوظيف:

أولاً – دلالة البَيانِ و التَوضِيح .

للتوظيفِ البياني وجهان، تمثَّلا في إبراز المعاني، والانتقال بها من مستوى إلى آخر، أكثر منه وُضوحاً للمتلقي، وهو ما يتعلق بالمحتوى الدلالي، وفي إبرازِ المعاني من خلال فَنَّي التشخيص والتجسيد- كما سيتَّضِح(١) - والمار عِبر التوظيف الاستعاري، وهو ما يَتعلَّق بالتوظيف الفني، ولكلّ منهما مَوضعه الخاص .

وثَمّة تداخل آخر في مُسمّى هذا النوع من التوظيف ، والذي يتوضّح في(الإيحاء) الدال دون التصريح به، وبدلالاته الإيحائية هذه يوصل المتلقي إلى ساحة الفَهم والبيانِ والتوضيحِ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمَثَل، فهو « يوحي دون أن يصرح « (٢).

لقد أبانَ الإمامُ عمَّا يجيش في صدرِه حين وَجَد قدرةً فائقةً للتعبير عن واقعه المَرير، وتجربته المُؤلمة التي وافقت شطراً من الشعر ضَمَّنّه في جوابٍ لِمَن سأله: كيفَ

(١) ينظر: الباب الثاني، الفصل الثاني، ص: ١٨٩-١٩١.

(٢) الإشارة الجمالية في المثل القرآني، د.عشتار داود محمد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص:٣٨.

دفعكُم قومُكُم عَن هذا المَقام وأنتُم أحقّ بهِ ؟ فقال عليه السلام: ((...فإنّها كانَت أثرةً شَحّت عليها نفوس قوم ، وسَخَت عَنها نفوسُ آخرين ، والحكمُ اللهُ، والمعود إليه يومَ القِيامةِ، ودَع عَنكَ نَهباً صِيحَ في حجَراتِهِ وهلمَّ الخطبَ في ابن أبي سفيان ، فلقد أضحكني الدهرُ بعد إبكائهِ ، ولا غرو والله فيا له خطباً يَستفرِغ العجَبَ ، ويكثر الأوَد...))[1].

ضَمّن الإمامُ خطبتَه شَطراً من بيتٍ لامريءِ القَيس[2]، أراد به بيان ما هو عليه من زاوِيَتَين ، الأولى: دَع عنكَ مامضى مِن أمرِ الخلافةِ ، وهلم إلى مانحن فيه مِن أمرِ معاوية [3]، فجعل (هلم الخطب في ابن أبي سفيان) مُتَمّماً ، وبَديلاً عن عَجزِ البيت((ولكن حديثاً ما حديث الرَّواحِل))[4].

والثانية أراد أنَّه أصبح في حالٍ هي أشدّ، وأمَرّ ممّا كان فيه، والدالّ على ذلك قرائنُ عديدةٌ، منها تشبيه الأمر بالخَطب، وهو الحادث الجَلَل[5]، وعنى به الأحوال التي أدَّت إلى أن صار معاويةُ مُنازِعاً في الرِّياسةِ، قائماً عند كثيرٍ من الناس، صالِحاً لأن يقع في مقابلته، وأن يكون نِدًّا له[6].

---

(١) نهج البلاغة، خ(١٥٧)، ج٢/ ٧٩-٨٠.

(٢) والبيت هو: وَدَع عَنكَ نَهباً صِيحَ في حجَراتِهِ ولكن حَديثاً ما حديث الرَّواحِلِ.ديوان امرئ القيس، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص:٣١٢. وذكر ابن أبي الحديد البيت كاملا، واستطرد قائلا:((وامَّا البيت فهو لامرئ القيس بن حَجَر الكندي، ورُوِيَ أنَّ أمير المؤمنين لم يستشهد إلّا بصدره فَقط)).شرح ابن ابي الحديد، ج٩/ ١٩٦. وهكذا نسبه اغلب شراح النهج.ينظر مثلا: منهاج البراعة ، ج٢/ ١٣٤. منهاج البراعة ، الخوئي ، ج١٠/ ١٦١ .وينظر: أعلام نهج البلاغة، ج١/ ١٥٤ .ويرى الراوندي في تفسيره ايضا ان البيت لامرئ القيس، ولغيره .ينظر: منهاج البراعة ، ج٢/ ١٣٤ .وروى الشيرازي تتمة أخرى للبيت هي : ((وهات حديثاً ما حَديث الرَّواحِلِ)).ينظر: توضيح نهج البلاغة، ج٢/٤٤٨ .وروى الخوئي في شرحه أن في بعض النسخ قد ذكر مصراع البيت، ثم استدرك قائلا: « والظاهر هُو سَهوٌ مِن النُسّاخ، وانَّه لم يَتمثَّل إلّا بصدرِ البيت »منهاج البراعة ، ج١٠/ ١٦١ .

(٣) ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج٩/١٩٨.

(٤) ينظر: المكان نفسه .وينظر: منهاج البراعة ، الخوئي ، ج١٠/ ١٦١ .

(٥) لسان العرب، مادة(خطب) .

(٦) ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج٩/ ١٩٩.

وللتوكيد على فداحةِ ذلك الخطب قال (فلقَد أضحَكني الدهر بعـد إبكائِهِ) و(لا غـَرو واللهِ): أي ولا عَجَبَ والله [1]، لذلك هو خَطب يستفرغُ العجَبَ ويُكثر الأوَد: أي العَوَج [2] ، وهو تعبيرٌ استعاريٌّ دال .

إنَّ المعنى المُكتَنز في شَطرِ البيت بِفِعلِ ما يحمله بين طيَّا ته من قصّة أصبحت مثَلاً فيما بعدﷺوهي قصّة الشاعر –امرئ القيس– حين نزلَ على خالد بن سَدوس ابن إصبع الهَمدانيﷺفأغارَت بنو جديلة عَليهِﷺفذَهبوا بأبلهِﷺفلمّا أتى امرأ القيسِ الخَبر ذَكرَ ذلك لجارهِﷺفقال لهُ: اعطِني رواحلكَ ألحَق عليها القومَ ﷺفأردّ عليكَ ابِلَكﷺفذهَب في إثرِهم حَتّى أدركَهُمﷺفقال: يابَني جديلة، أغَرتُم على اِبلِ جاري !فقالوا:ما هو لك بجارٍ، قال:بَلى والله وهذهِ رواحلُهُ، قالوا: كذلِك ! قال: نَعَم فرجَعوا إلَيه فأنزَلوه عَنهن ، وذهَبوا بِهن وبالإبلِ، تَحوَّل بَعدَها امرؤُ القيس، ونزل عَلى جارِيَة بن مرّة بن حَنبل أخي بَني ثَعل ، فأجارَه وأكرَمهُ، فقال يمدحه بأبياتٍ منها هذا البيت[3]، فصار البيتُ مَثَلا يُضرَب لِمَن ذهبَ من مالهِ شيءٌ ، ثُمَّ ذهبَ ما هو أَجلّ مِنه[4].

لاشكَّ أنَّ التضمينَ الجزئي لشطرِ من البيتين انطوى على فِكرةٍ مُماثلَةٍ لما أراد الإمام قوله، فأفاد منها للتعبير عن تجربتهِ، وبيَّنها بصورةٍ مُوجَزةٍ واضِحَةٍ أشدّ الوضوح، بفعلِ الإشارة إلى قِصَّةِ كثر شيوعُها حتَّى أصبحت مَثَلا بينَ الناس.

عند الرجوع إلى السياقِ يتَّضح سَبب استحضار هذا الشطر دون سِواه، إنَّما كانَ للاشتراكِ في الدلالة المُعبِّرة عَن معاناة كلّ من الإمامِ والشَّاعِر.

ووظف قول الأعشى:

---

(١) المكان نفسه.

(٢) ينظر: المكان نفسه.

(٣) ينظر: مجمع الأمثال، ص:٩٤.ينظر: شرح ابن آبى الحديد ، ج٩/ ١٩٦-١٩٧.

(٤) ينظر: مجمع الأمثال ، ج١/ ٢٦٨. ينظر: جمهرة الأمثال ، ج١/ ٤٥٢.ينظر: النهاية في غريب الأثر، ج١/ ٣٤٣.

(شَتّانَ ما يَومَي علي كُورِهـا   وَيـــومُ حَيّانَ أخي جـابِـرِ)[1].

في الخطبة الشَقشَقيَّة حيث قال: ((فصَبَرتُ وفي العَينِ قَذىً، وفي الحَلقِ شَجاً، أرى تُراثي نَهباً، حَتَّى مَضَى الأوّلُ لسبيلهِ فأدلى بها إلى فلانٍ بَعدَه))[2] ثمَّ تمَثَّل بالبيتِ، لاستكمالِ بَيانِ حالهِ عليه السلام .

من المعلوم أنَّ للشعر الجاهلي قِدرةً على شَحن النصوص المُستَضِيفة لها بالدَّلالاتِ فيما لو روعِيَ فيها السياق، والاتَّساق مع المعنى العام، فيكون أكثر تأثيراً في المتلقين، وهذا ما أدركه الإمام وأحسن استخدامه، لاسيّما إذا تذكرنا ما للشعر الجاهلي من أثرٍ في النفوس من هنا ندرك بيان المعنى واتِّضاحه بفعل هذا التوظيف الناجح والكاشف لدلالة النص العميقة .

كذلك الأمر حين ضمَّن المثلَ العربي:((فعِندَ الصَّباح يَحمد القومُ السَّرى))[3]في خطبةٍ وعظيّةٍ طويلةٍ[4]، مُستَشهِداً بذكرِ الأنبياء ونَبذِهِم لزخرف الدنيا صلى الله عليه وآله وطلبهم للآخرة صلى الله عليه وآله كالنبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، وموسى وداود عليهما السلام حتى وصل إلى هذا المَثَلِ الَّذي أدّى به وظيفةً إبداعِيَّةَ أدَّاها في التَّضمين

ثانياً : دَلالةُ التَهديدِ وَ الوَعيد .

يتحقّق ذلك حين تُفصح التضميناتُ عن غضبهِ، فيؤدي التضمين وظيفةً إسقاطيَّةً مُوحيةً صلى الله عليه وآله تفجر طاقات دلالية مخزونة في ذهن المتلقي، لتعكس ذلك الغضب كقوله عليه السلام في كتاب بعثه إلى معاوية ((... وذكَرتَ أنَّهُ ليس لي ولأصحابي عندك إلاّ السَّيفُ؛ فلقَد أضحَكتَ بعد استِعبار! مَتى ألفَيتَ بَني عبد المُطَّلب عن الأعداءِ ناكلِين،

(١) ديوان الأعشى ، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٦٨م، ص:١٩٢.
(٢) نهج البلاغة، خ(٣)، ج١/ ٢٦.
(٣) نهج البلاغة ، خ(٥٥٥)، ج٢/ ٧٦.ينظر: جمهرة خطب العرب، ج١/ ١٣٨.ينظر: الباب الثاني، الفصل الأول، ص، ١٧٧.
(٤) ينظر: نهج البلاغة ، خ (١٥٥)، ج ٢/ ٧٠-٧٦.

وبالسَّيفِ مُخَوَّفِين ؟ لَبِّث قَليلا يَلحق الهَيجا حَمَل ﷺ فسيَطلِبُك مَن تَطلُب ...))[1].

حيث وقع التضمين في القول:(لَبِّث قَليلا يَلحق الهَيجا حَمَل) وهو شطرٌ من البيت :لَبِّث قَليلَا يَلحَق الهَيجا حَمَل ما أحسَن الموتِ إذا الموتُ نَزَل

وقِيل أصلُه أنَّ مالكَ بن زهير تَوعَّد (حَمل بن بدر)[2]فقال حمل : لبّث قلَيلاً يلحق الهيجا حَمَل فأرسل مَثَلا يُضرَب للوعيدِ بالحربِ وقِيل أ صله أنَّ مالكَ بن زهير تَوعَّد (حَمَل بن بدر) فقال حَمل: لَبِّث... ... البيت، ثم أتى وقتلَ مالكاً ، فظفر أخوه قيس بن زهير به وبأخيهِ حذيفه فقتلهما[3].

لقد استحضره الإمام بعد سؤالين على سبيل الاستذكار والاستغراب أراد بهما نَفي الخوفِ عن بني عبد المطلب مِن الأعداء والسيف ، فجاء التضمينُ توظيفاً دلاليّاً أراد به تَهديدَ معاويه ووعيده بالانتظار قَليلاً حتى يحضر الإمام بجيشهِ ، وهو الذي سَيطلب معاويةَ «فسوف يطلبُكَ مَن تطلب» وبمجرد ذكر الشطر الدّال على المَثَل وقصَّتِهِ نُدرك مقدارَ التَّهديدِ والوَعيد ، والذي يُعزِّز ذلك قولُه»فسيطلبك مَن تَطلِب» ، وهو وعيدٌ بالسَّيرِ الشَّديد إليه[4].

وبهذا أجاد الامام توظيف شطر البيت، حتى أنَّ المتلقي يُدرك قَصده بمجرد قراءة الشطر، لاسِيَّما بعد أن جعله يبدو وكأنَّه من سياقِ الكلام ، مِن خلال إذابَتِهِ في كلامهِ ، فبدا الشطرُ وكأنّه وحدةٌ مُتجانسةٌ مع كلامه عليه السلام، وأصبح بمثابةِ بناء هيكلي ذي نسيجٍ متساوق .

(١) المصدر السابق ، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٩.

(٢) ونسبه صاحب اللسان إلى ((حمل)) أيضاً.ينظر: لسان العرب ، ج١١/ ١٨٢.ونسبه كثير من الشراح إلى(حمل).ينظر مثلا: منهاج البراعة ، الراوندي ، ج٣/ ٨٢. ومنهاج البراعة ، الخوئي، ج١٩/ ١٠٠. و أعلام النهج ، ج١/ ٢٤٣

(٣) ينظر: جمهرة الأمثال ، ج٢/ ٢٠٦ .ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ، ج٢/ ٣٥٥.

(٤) ينظر: المكان نفسه.

كذلك في قولهعليه السلام في جواب قوم سألوه عن عقاب مَن أجلَبَ على عثمان بَعدما بُويـع: ((يا أخوتاه إنّي لستُ أجهلُ ما تَعلَمون وسَأمسِكُ الامرَ ما استَمسَك واذا لَم أجد بُدًّا، فآخِرُ الدَّواءِ الـكَيُّ))(١)، و(آخر الدّواء الكَي) أوّل مَن قاله لقمانُ بن عاد، وأصبح فيما بعد مَثَلا يُضرب فِيمَن يَستعمِل في أوَّلِ ما يَجب استعمالَه فِي آخِرِه وفِي أعمال المخاشَنَةِ مع العدو إذا لم يَجِد مَعَهُ اللّين والمُداراة(٢).

مُستهل جوابه: «يا أخوتاه إنّي لست أجهلُ ما تعلمون» لا يُوحي بتهديدٍ أو وعيد مالم نُكمِل قراءة النص الذي يَصل ذروتَه في قولهعليه السلام:(...وسأمسِكُ الأمرَ ما استمسك، وإذا لم أجد بُدّا فآخر الدواء الكي)، والانتهاء بآخرِ الدواء الكي تُسفِر عن حَلّ صارم وسريع يتَوضَّح بحرف العطف «الفاء» الذي لا يترك فسحةً زمنيةً بين ما يسبقه، وما يلحقه، إذ لا تَواني ولا توقف إذا لم يكن بدّ من ذلك .

وبعد الانتهاء من سَماع جوابهعليه السلام تظل دلالةُ المَثَل عالقةً ولاصِقةً، ومُدوّيةً في ذهن المتلقي، فيتصور من خلالهِ جِدِّيَّة الوعيد .

النص هنا ليس مُجرد بناء لغوي ذي دلاله موضوعية بقدر ما يشكل دفقة شعورية تُوحي بالكثير إن جاء في سياقٍ مُناسب ، وتضمينه للمثل (آخر ألداء الكي)، في هذا السياق يمثل رغبة حقيقيَّةً لما يَعتري قلبَه من هؤلاء الذين حَمل كلامُهعليه السلام تهديداً حقيقيّا لهم لا مُوارَبة فيه ، وله من ذلك غير مثال(٣) .

ثالثاً: دَلالةُ التوبيخِ .

كثيراً ما مُلِئ قلبهعليه السلام باللَّوعةِ والحزنصلى الله عليه وآله وكثيراً ما تَرجَم أحزانَه إلى آهاتٍ عبر

(١) نهج البلاغة، خ(١٦٣) ، ج٢/ ٩٩.

(٢) ينظر: مجمع الأمثال ، ج١/ ٢٩٢.و: جمهرة الأمثال ، ج١/ ٩٧و: المستقصى في أمثال العرب ، ١٩٨٢، ج١/ ٥..

(٣) ينظر: قولهعليه السلام : ((إنَّ غداً مِن اليومِ قريب))، نهج البلاغة، خ(١٥٢)، ج٢/ ٦٨، خ(١٨٣)، ج٢/ ١٥١.

آلية التضمين، فَيستشعرها المتلقي غَضَباً تارةً ، أو حِزناً تارةً أخرى ، وقد يترجمها توبيخاً- لِمَن يستحقه- إذا كان ألامر يتعلق بحقوق العباد ، ونصرة الحق على الباطل ، ولا تأخذه في ذلك لومةُ لائم ما دام الأمر واقعاً بين الحق والباطل ولا يهمّه كثرة الناس حوله أو تفرقهم عنه ، لأنّ طريق الحق قليل سالكوه

لقد بدأ بهذا الأمر مع أقرب الناس إليه صلى الله عليه وآله كالذي فعله مع ابنِ عمّه عبد الله بن عباس[1] حين كان والياً على البصرة، ومِمّا جاء في وعظِه له من تضمين قوله عليه السلام: ((أمّا بَعد، فإنِّي كُنتُ أشركتُكَ في أمانَتِي، وجعلتُكَ شِعاري وبطانتي؛ولم يَكُن رجلٌ مِن أهلي أوثَقَ مِنكَ في نَفسِي لِمُواساتي ومُؤازَرَتِي، وأداءِ الأمانةِ إليَّ؛ فَلَمّا رأيتَ الزمانَ على ابنِ عَمِّكَ قَد كَلب، والعَدُوَّ قَد حَرب ، وأمانَةَ النَّاسِ قَد خَزِيَت، وهذه الأُمَّةَ قَد فَنَكَت وَشَغَرت ؛ قَلَبتَ لابنِ عَمِّكَ ظَهرَ المِجَنّ، ففارَقتَهُ مع المُفارِقين، وخَذَلتهُ مع الخاذِلِين، وخُنتَهُ معَ الخائِنين فَلا ابن عَمِّكَ آسَيت، ولا الأمانةَ أدَّيت...))[2] .

قوله عليه السلام: (ضَربت لابنِ عمِّك ظَهر المِجَنّ) يُضرب مثلًا لِمَن يكون مع أخيه فيتغَيَّر عليه ويصير خَصماً لهُ ، ولِمَن يصير حرباً ، بعد كونه سلماً[3] وأصله إنَّ الرجلَ إذا كان سِلماً لأخيه يكون بطن تِرسِهِ إليه فإذا فارقَه وصار حَرباً له يَقلب له ظَهرَ تِرسِهِ ليدفع بِهِ عَن نَفسهِ ما يَلقاه مِن شَرٍّ، فجعلَ ذلك كناية عن العداوةِ بعد الصَّداقَة[4] بعد أن(كَلب)الزمنُ: أي اشتَدَّ ، و(حَرِب)العدو: أي استأسَدَ ، وأمانَةُ الناس قَد خَزِيَت: أي افتَضَحت خيانَتُها ، وبعد أن (فَنكَت وشَغَرت) الأمة ، و(فَنكت)،

(١) وإن كان الكتابُ وُضِع في الأصل تحت عنوان(ومِن كتاب له إلى بعض عمّاله)، غير أنَّ المشهور انَّه كَتَبَهُ لابن عمِّه(عبد الله بن عباس)، لوجود قرائن استدلوا بها لاثبات هذا القول كقوله عليه السلام:((قلبتَ لابنِ عَمِّكَ ظهر المِجَنِّ)) و((لابن عمِّكَ آسَيت))، وذهب البعض انه موجه لعبيد الله بن عباس.ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١٦/ ١٣٤.ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٤٠٨.

(٢) نهج البلاغة، ك(٤١)، ج٣/ ٧٢-٧٣.

(٣) ينظر: منهاج البراعة ، الراوندي ، ج٣/ ١٣٦ .

(٤) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٤٠٩-٤١٠.ويرى ابن الأثير أن القول: ((قَلبت لهُ ظَهرَ المِجنّ))، كناية عن تغير المودة.ينظر: المثل السائر، ج٣/ ٧٧.

من (فَنَكت الجاريةُ):إذا صارَت ماجِنَة ، وهو تصويرٌ استعاريٌّ جميل ، يُظهر فسادَ الأمة التي(شَغَرت): أي خَلَت من الخيرِ[1]قلبت لابنِ عَمِّك ظَهر المِجَنِّ : أظهرت له العداوةَ؟.

بعد هذا التقديم المصور لواقع الأمة ، وحال الإمام معهم ، نَستشعِر عظم وقع الحدث عليه ، إذ أتت الخيانةُ في خِضَم أحداثٍ تكالبَت ، وترافقَت ؛ اشترك فيها الزمنُ، والعدوُّ، والامةُ ، ولا بأس في ذلك كُلِّه ، إلاّ أنَّ ما أوجع الإمام منها خذلان أقرب الناس إليه ، والمُطالَب بالمُواساة ، والنِّصرة ، (ولم يَكن في أهلي رَجلٌ أوثَقَ مِنكَ في نفسي لمُواساتي ومُؤازَرَتي ، وأداءَ الأمانةِ إليّ)، ولم يقتصر الأمرُ على المفارقة والخذلان فقط، إنَّما تعداهما إلى سرقة أموالَ الناس، كما هو واضح في قوله(عليه السلام): ((واختَطَفتَ ما قَدرتَ عليه مِن أموالِهِم المَصونَةِ لأراملهم وأيتامِهِم، اختطاف الذِّئبِ الأزَلّ دامية المَعزى الكَسيرة))[2]

والصوره التشبيهية تُفصِح عن حَنَق الإمام وغَضَبه من هذه الخيانة الظالمة، فالذئب الأزلّ: الخفيف الورِكَين كِنايةً عن شِدّة عَدوِه ، وسرعة وَثبِه على مَعزى دامية، وهي كِنايةٌ عن ضعفها[3] ، فنلمحُ طِباقاً معنوياً يكشفُ لنا غَلَبة الذِّئب ، وقوَّتِه ، وضعف المَعزى ، وانكسارِها ، وهما استعارتان ظاهرتان، تَحملان من الدلالةِ الكثير، وإذا كانت نهايةُ النصّ الأول تكشف عن توبيخ الإمام للمُخاطب ، فإنَّ مقدمتَه تكشف عن شَكواه وتظلمه ، وبذلك كان وقعُ التوبيخ أشَدّ ومعناه آكَد .

والتضمين مَحل الشاهد مِن شِعرٍ يَنسَب إلى(مَعَن بن أوس) حيث قال :

قَلَبت لهُ ظهرَ المِجَنِّ فَلم أدُم   على ذاك إلاّ رَيثَما أتحــوّل [4]

(١) ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج١٦/ ١٣٣.
(٢) نهج البلاغة، ك(٤١)، ج٣/ ٤١٠.
(٣) شرح ابن أبي الحديد ، ج١٦/ ١٣٣-١٣٤.
(٤) المستقصى من أمثال العرب، ج٢/ ١٩٨.

وكذلك في قوله عليه السلام:((أصبَحتُ واللهِ لا أُصَدِّقُ قولكم، ولا أطمَعُ في نَصرِكُم، ولا أُوعِدُ العدوَّ بِكُم، ما بالُكُم! ما دواؤُكم!ما طِبُّكُم!القومُ رِجالٌ أمثالُكُم! أَقَولاً بغيرِ عِلمٍ؟ وغَفلةً مِن غَيرِ وَرَعٍ ؟وطَمَعاً في غَيرِ حَقٍّ))[1].

في نَسقِ استفهام استنكاري أعرَبَ الإمامُ عن استيائِهِ، وغضبِهِ ، بعد يأسه مِن نِصرَةِ أصحابه، وتقاعسهم عن حقِّهم، واستيلاء جند معاوية على كثيرٍ من بلادِ المسلمين، حتَّى أنَّه عليه السلام أقسمَ على ذلك باللهِ(أصبحتُ واللهِ ...)، وفي ثنايا هذا الاستياءِ و الغَضَب وَقَع توظيفٌ للتضمين الواقع في قوله عليه السلام:(ما بالكُم ! ما دواؤُكُم! ما طِبكُم!القومُ رِجالٌ أمثالكم!)، هو تضمين يعود بنا إلى قول الشاعر الجاهلي (الشَرَّاخ بن يَعمر الكِناني):

القومُ أمثالُكُم لهُم شَعَرٌ   في الرَّأسِ لا يُنشَرُون إن قُتِلُوا[2]

وهو توظيفٌ ناجح لما كان شائعاً عند العرب قبل الإسلام ، إنّ المَلِك مُحاطٌ بهالةٍ مُقدَّسَةٍ حاكها الناسُ في مخيلاتِهِم ، وخَوفُهُم من السِّحرِ والغَيبيَّاتِ والآلهة التي كانوا يَعبدونها ، وانّ دماءَ هؤلاء الملوك ليست كسائرِ الدِّماء[3]، فهي تشفي من الجنون صلى الله عليه وآله وألحقوا بها جُملةً من المُعتَقداتِ، وتَرتَّبَ على ذلك اعتقادُ أمرٍ عَظِيمٍ ؛ وهو أنَّ الملوكَ لا يُقتلون بِسهولةٍ ، وفي يوم(ذي قار) «عندما قتَلَ فارسٌ بكريٌّ أحدَ أبناءِ ملوك فارس التَفَت إلى الجيشِ صائِحاً: «يا قوم إنَّهُم يَموتون «[4]، وكأنَّه حَطَّم الأسطورةَ بِذلِك.

والذي أفاد دلالةَ التوبيخ فيه هو وجود سلسلة الاستفهام الإنكاري :(ما بالُكُم؟، ما دواؤُكُم ؟ ما طبكُم ؟).

---

(١) نهج البلاغة، خ(٢٨)، ج١/ ٧١.

(٢) شرح ديوان الحماسة، التبريزي ، ج١/ ١٢.وذكر ابن أبي الحديد في شرحه مثل هذه العلاقة بين القولين ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج٢/ ٩٠.

(٣) ينظر: الأسطورة والرمز في الأدب الجاهلي، د. عادل جاسم البياتي، ص :١١٥.

(٤) شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ، ج١/ ٢٠٨.

رابِعاً : دَلالةُالوعظِ و النُصحِ و الإرشَادِ .

لَعلَّ هذا التوظيف الدلالي مِن أشَدِّ التوظيفاتِ الدلالية بروزاً، وأكثرها حضوراً في كلام الإمام، وكتبِه، وحكمِه، فأخذت مساحةً واسعةً في النَّص النهجي، وقد يكون المُبَرر لذَلك كله هو انَّهعليه السلامكانَ حريصاً أشد الحرص على القيام بذلك لأنَّه إمامُ الأمَّةِ وخليفتُها في زمانٍ كثرت فيه الفِتنُ وتداخلت فيه الأمور فكان لهم مَناراً ، وفَناراً في هذا البحر المُظلم مِن الفِتَنِ .

من ذلك قوله واعظاً ابنه الحسنعليهما السلام: ((رُوَيداً يَسفِر الظَّلامُ كأن قَد وَرَدَت الأضغانُ، يُوشِكُ مَن أسرَع أن يَلحَق ..))[1] .

في كلمات مُوجزة ، دالَّة، طرح الإمام معنىً كبيراً، مُكثّفاً، كاشِفاً عن نفسه في تصوير بياني، جعل ما ضمّنه من مَثَلٍ ، هو، ((رُوَيداً يَسفرُ الظَّلامُ))[2]، والذي يُضرَب للأمَلِ بعد اليأس، وقد أصبحَ مُحوَراً لهذا التصوير، ودلالةً توكيديَّةً من خلال استحضار المصدر(رُويداً)، ليُوصِل المتلقي – وباطمئنان – إلى أنَّ الظلامَ – وهو استعارة للشدّة– لابدّ أن يزول، مَهما طالت مُدّ تُه ، فَضلاً عن التقريب في الزَّمن ، والحامِل مَعَهُ فُسحَةً كَبيرةً مِنَ الأمل .

« والأظعان: جمع ظعينة، وهو الهَودَج تركب فيه المرأة، عَبّر بهِ عن المُسافرين في طريق الدنيا إلى الآخرة، كأنَّ حالَهم أن وَردُوا على غايةِ سَيرهِم «[3]، وما أسرع ما سيكون ذلك، والذي سيلحق بالركبِ هو مَن أسرع خُطاه، كنايةً عن التَخفُّف من الذنوب، وزخرف الدنيا، فَمَن كان مُثقَلا بالذَّنوبِ لا يكون مِمَّن سَيلحق بالركبِ .

إنَّ معرفة مَن وقع عليه الخطاب وهو الحسن عليه السلام ـ تعين في فهم وإدراك مقدار العظة، وعظمتها، والسياق هو الآخر يساعد في إدراك التبادل بين المعاني الموضوعية

---

(١) نهج البلاغة، ك(٣١)، ج٣/ ٥٦.

(٢) مجمع الأمثال، ج٢/ ٢١٤.

(٣) شرح ابن أبي الحديد، ج٣/ ٥٦.

والمعاني العاطفية، والانفعالية[١].

وثَمّة قول له يندرج تحت هذا التوظيف حيث قال واعظاً: ((وأنعِم الفِكرَ فِيما جاءَكَ عَلى لسانِ النَّبيِّ الأمي ، صَلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّم مِمّا لا بُدَّ مِنه ، ولا مَحيصَ عنه وخالِف مَن خالَف ذلك إلى غَيرِه ، ودَعهُ وما رَضيَ لنَفسِه ، وضَع فَخرَكَ واحطط كِبرَكَ ، واذكُر قَدرَك ؛ فإنَّ عَليه مَمَرَّكَ ؛ وكما تَدين تُدان وكما تَزرَع تَحصد ، وكما قَدَّمتَ اليوم تَقدِم عَليهِ غَداً ، فأمهد لقَدَمِكَ ، وقَدِّم ليومِكَ ، فالحَذَر الحَذَر أيُّها المُستَمِع والجَدّ الجَدّ أيُّها الغافل « ولا يُنَبِّئُكَ مِثلُ خَبير»))[٢].

نسجَ النصَّ في جمل انشائيَّةٍ فعليَّةٍ يتقدّمها في الغالب فعلُ الأمر(أنعِم ، خالِف، دَعه، ضَع ، احطِط ، اذكر ، ....) ثم استحضر مَثَلَينِ مشهورين ليُنَبِّه بهما[٣]، وهما قوله عليه السلام:(كما تَدين تُدان) و(كما تَزرع تَحصِد) ، وقد وقعت فيها الاستعارةُ في الدين والزراعة، والحصد[٤].

وعزّز نصحه وارشاده بأسلوب التوكيد اللفظي(فالحَذر الحَذر) و(الجَد الجَد)، ثم جاء التعزيز باقتباس قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٥]، فتعاضد التضمينُ و الاقتباسُ في حَشد الدلالة الوعظية التي بلغت درجة التحذير.

وله أيضاً قوله واعظا:((تَكلَّموا تُعرَفوا فانّ المرءَ مَخبوءٌ تَحتَ لِسانِه))[٦]، وهذا مِمّا يعودُ بنا إلى قولِ(زهير بن أبي سلمى):

(١) ينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب المنيرة، ط١٠، مصر، ١٩٨٦م ، ص:٦٤.
(٢) نهج البلاغة، خ(١٤٩)، ج٢/ ٥٦.
(٣) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٦٢٥.وقولهم:((كَما تَدين تُدان))، يضرب في الحث على فعل الخير.ينظر: مجمع الأمثال، ج٢/ ١٥٥، ١٦٢.ونسبه بعضهم ليزيد بن الصعق ينظر: جمهرة الأمثال، ج٢/ ١٦٨.
(٤) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٦٢٥.
(٥) سورة فاطر/ ١٤.
(٦) نهج البلاغة، ق(١٤٩)، ج٣/ ١٨٩، ق(٣٩٢)، ج٣/ ٢٤٨.

لِسانُ الفَتى نِصفٌ ونصفٌ فُؤادُهُ   فَلَم يبقَ إلاّ صورةُ ألَّحمِ والـدَّمِ[1]

وله شواهد أخرى لِمثلِ هذا النوع من التَّوظيف في ساحةِ النصّ النهجي ، استجلب فيها الماضي فحقق به ومضاتٍ واسعة الدلالة من خلال علاقات تناصّية تضمينية ، كما في إحضاره لأحد أبيات لَبيد في كلام له عليه السلام : ((ما خَير بخيرٍ بعدَهُ النار، وما شَرّ بشرٍّ بعدَه الجَنَّة ، وكُلّ نعيمٍ دونَ الجَنَّة فهو مَحقور ، وكلُّ بَلاءٍ دونَ النَّارِ عافِية)) [2] .

و تضمين قول الشاعر أبي ذُؤَيب الهُذَلي في قوله عليه السلام:((واعلم أنَّكَ إن لَم تَردَع نفسَكَ عن كثيرٍ مِمّا تُحب مَخافةَ مَكروهٍ سَمَت بكَ الأهواءُ إلى كثيرٍ مِن الضَّرَرِ)) [3] .

وتضمين قول أحدهم في قوله عليه السلام لمعاوية: ((فكنت في ذلك كناقلِ التَّمر إلى هَجَر، أو داعي مُسَدَّدهِ إلى النِّضالِ)) [4]

خامِساً : دَلالةُ الإقناع، و الإفهَامِ .

ولرُبَّما تفضي دلالةُ التضمين إلى الإقناع ، وحَثّ المتلقي لأمرٍ ما وإقناعِهِ بقرينةٍ عقليَّةٍ مع تهيئة مناخ نفسي مصاحب داعم للفكرة والدليل ، إذ لم يكن الهدف العقلي غائباً عند الإمام ، وكثيراً ما أعتمد المنهج العقلي في الحديث عن العقائد من؛ توحيدٍ ، ونُبوَّةٍ ، ومَعادٍ وغيرها كثير حتى يصل الأمر إلى حديثهِ عن الحقِّ والباطل .

فالشاهد الشعري قد يكونُ دليلاً، والمثل مَقروناً بالحِجَّةِ[2] وفي أسلوبٍ شطري

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) ، ص :٨٩ .

(٣) وهو قول لبيد :ةألا كُلُّ شَيءٍ ماخَلا الله باطِلُ   وكُلُّ نَعيم لا مَحالة زائِلُ.
ديوان لبيد ، ص، :١٤٥.ينظر: نهج البلاغة ، ح(٣٨٧)، ج٣/ ٢٤٧.

(٤) وفي تضمين قول الشاعر الهذلي : والنَّفسُ راغِبةٌ إذا رغَّبـتَها   وإذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقنـَعُ.
ديوان الهذليين ، القسم الأول ، ص : ٣ . نهج البلاغة ، ك(٥٦) ، ج٣/ ١٢٥ .

(٥) وتضمين قول الشاعر: اعلّمه الرماية كُـــــلَّ يوم   فَلمّا اشتَدَّ ساعدُهُ رَماني نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٤ .ينظر: شرح ابن أبي الحديد ، ج١٥/ ١٤٧ .ينظر: منهاج البراعة ، الراوندي ، ج٣/ ٧١ .

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر ت(٣٣٧) هـ، ص :٥٧. ويرى السيوطي أن في ضرب المثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة. ينظر: الإتقان في علوم القرآن،ج٤/ ٣٩.

ضِمنَ معنىً قام على الإقناع بما قدَّمه وصولا إلى نتيجةٍ حتميَّةٍ، فقالعليه السلام: ((مَن كَرُمَت عليهِ نَفسُه هانَت عَليـهِ شَهَوته))(١)، لقد بدأ من حيث انتهى حاتم الطائي:

فإنَّكَ إن أعطَيتَ بَطنَكَ سُؤلَهُ   وفَرجَكَ نالا مُنتَهى الذَمِّ أجمَعا(٢)

مِن أوضح مَصاديق الشهوة؛ البطن والفرج، وإشارتهعليه السلام بالاسم العام شاملٌ لكلِّ مصاديقها والمفردتان(كَرُمَت، هانَت) تُوحِيان بذلك التنازع بين النَّفسِ والشَّهوةِ.

ومن المَثَل السائر، والمَضروب فيمن يحمل شيئاً إلى مَن هو في غِنىً عَنه أقام الحِجَّة على معاوية في جوابه له حين نصحهُ بما هو في حاجةٍ له فشَبَّهَهُ بمَن يَحمل التَّمرَ إلى هَجَر فقالعليه السلام: ((فلقد خبّأ لنا الدَّهرُ منك عَجَباً إذ طَفقتَ تُخبِرُنا بِبَلاءِ الله تعالى عِندَنا ونِعمَته علينا في نَبِيِّنا، فَكُنتَ في ذلك كَناقلِ التَّمر إلى هَجَر أو داعي مُسَدِّده إلى النِّضالِ...))(٣) .

محاولة لإفهامهِ وإقناع الآخرين، إنَّ حديث معا وية في بيانِ نعمةِ الله على الناس في بَعث النبي المصطفىصلى الله عليه وآله، فيرىعليه السلامإن ذلك من عجائب الدهر وإنَّ معاوية في عملهَ هذا كَمَن ينقل التمرَ إلى(هَجَر)، وهي مدينةٌ اشتَهَرت في كِثرةِ تمورها ، وهو كناية عن العمل الذي لا طائلَ من ورائهِ، وجاء بهعليه السلام كعاملٍ من عواملِ الإقناع النفسي للسامع، وجاء بهعليه السلام ليُحَقِّق هذه الغاية ، ووقع الأمُر في اختيارهِ وتوجيههِ وِفقَ منظومةٍ نفسيَّةٍ تستند إلى شيوع المعنى، ومعرفة المَغزى للاستدلال على ما أُريد بيانه.

وبالإضافة للإقناع والإفهام يتَحقَّق أمرٌ آخر، حين يكون التَّضمينُ وسيلةً – بالإضافةِ لما تقدم – للتفريغ النفسي، كما في قولهِ حين بَرَّأ نفسَه مِمّا اتَّهمَه بهِ معا ويه في قتلِ الخليفة عثمان بن عفَّان، فأفلَحَ في ذلك أيّما فلاح، إذ قال: ((وما كنتُ لأعتَذِرَ مِن أنّي كُنتُ أنقم عليهِ أحداثاً فإن كان الذنبُ إليهِ إرشادي وهِدايتي له، فربّ ملوم لا ذنب

(١) نهج البلاغة، ق(٤٤٩)،ج٣/ ٢٦٠.

(٢) ديوان حاتم الطائي، ص :١٧. ينظر: شرح حكم نهج البلاغة ، ص :١٧٩.

(٣) نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٤.

له، وقد يستفيد الظنة المتنصّح)[1]

وصل الأمر إلى أن يقدم نصحه وإرشاده للخليفة من قِبَلِهِ حَتّى أُسيءَ بِهِ الظَنُّ، فلم يَجِد بُدًّا من استحضار هذا البيت الذي ينطبق تمام الانطباق على حالِه.

المبحَثُ الثَاني : الوَظيفةُ الفنّية :

ليس التضمين بأقلّ مساحة من الاقتباس، ويمثل هذا المبحث الملمح الفني ـ بأنواعه ـ للتضمين الذي تَتّكيء النصوص عليه فيتَجلى بسماتٍ فنيَّةٍ لاتقلُّ أهميَّةً عن الروافد الدلالية في النصّ

ومثلما كان للتضمين دور في العطاء الدلالي، كان له دور في التو ظيف الفني، والذي تمثّل بمستوياتٍ عديدةٍ منها :

أوّلا:المستَوى البَلاغِي :

تنوّع التوظيف الفني في هذا الجانب البلاغي ، لاسِيَّما فيما يتعلق بالمجاز مِن تشبيهٍ، واستعارةٍ، وكنايةٍ ، علماً أنَّ البلاغةَ لم تكن مَقصودةً لذاتها بِقَدَرِ ما كانت تُمَثِّل سليقةً طَوعِيَّةً، فِطريَّةً للإمام ، وأبرز تلك التوظيفات البلاغية :

أ: رفدُ الصُورةِ البيانيةِ في النَّص .

لقد مَثَّل التشبيه ركيزةً من ركائز هذا التوظيف ، ومن خلال الركون إلى هذا الفن البلاغي توضَّحت كثيرٌ من المعاني ، بصورة مُعبِّرة ، كقوله لما أراد تصوير حزنه ، وألمه مِمّا أصابه من نكوص أصحابه عن نصرته ، وتخلفهم عن حقهم ، وتخليهم عنه .

صوَّر مالا يُمكِن تصويره لولا هذا التشبيه في قوله عليه السلام:((أ شهُودٌ كغيَّاب، وعَبيدٌ كأرباب، أتلو عليكُم الحِكَم فَتَنفِروا مِنها، وأَعَظكم بالمَوعِظَةِ فتتَفَّرقون عَنها،

(١) نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٩. ينظر: الباب الأول ، الفصل الأول، ص:١٦٤.

وأحثّكم عَلى جِهادِ أهلِ البغي فما آتى على آخرِ القول حَتّى أراكم مُتفَرِّقين أيادي سَبَأ، ترجعون إلى مَجالِسِكُم وتَتَخادَعون عـن مَـواعِظِكمُ))[1].

وصفهم بالكبر والتّيه[2]بأسلوبٍ إنشائيٍّ استفهاميٍّ استنكاريٍّ ساخر برفقة أسلوب بيانيٍّ تشبيهيٍّ شَبهَهُم بالغِيّاب، على الرغم من حضورهِم ، وبالأرباب مع كَونـهِم عَبيداً ، فشَكَّلَت الألفاظُ (شُهود، غِياب)، (عَبيد، أرباب) فَنّاً طِباقيَّاً مُتَمِّماً للصورةِ التشبيهيَّةِ، وامتزجا ليَرسُما صورةً لتناقضات هؤلاء، وتبدلهم من حالٍ إلى حال ووَجه الشَبَه أنَّ الفائدةَ في شاهِدِ الموعظة دون الغائِب عنها هي سماعُها والانتفاعُ بها، وأمَّا الثانية فلأنَّهم رَعِيَّةٌ مِن شأنِهم التَعبُّد لأوامر أمرائِهم، ثم أنَّهم لتعززهم وشموخهم كِبَراً وعَدم طاعَتِهم كالأرباب الذين مِن شأنِهم أن يأمروا ولا يأتَمِروا، ثُمَّ وَبَّخَهُم بنفارهم عَمّا يتلو عليهم من الحِكَم وتفرّقهم عن مَواعِظِهِ البالغة[3]، وهم بعد نفورهم مِمّا يقول، وتفرقهم عن حقهم، إنّما تَفَرّقوا كأيادي سَبأ .

إنّها صورةٌ تشبيهية ، تضمّنت دلالةً إشارية للمثل المعروف بقِصَّتِه بين الناس آنذاك ، ووظفها عليه السلام لبيان تفرق القوم، أو للدعاء عليهم[4]، هي صوره قامت على التشبيه البليغ وتقديره: (كَقوم سَبأ) ، وهناك توظيف مُماثِل لمَثَلٍ عربي شاعَ ذِكرُه في موضع آخر من مَواضعِ النهج[5] .

أمّا الأسلوب الاستعاري فقد وُظِّف توظيفاً ناجِحاً في الإفصاح عَمّا يَجول في فكر الإمام، بصور نكاد نراها ، وما كان لها لتَظهر لولا هذا التوظيف، وكثيراً ما كانت

---

(١) نهج البلاغة، خ(٩٣)، ج١/ ١٨٨.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج٧/ ٦١.

(٣) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٤٧٧

(٤) يرى الغروي انَّه دعاءٌ عليهم، ثم يستدرك فيقول « ولكن ظهورها في تشبيهِ تفرُّق أصحابهِ عند خطابه عليه السلام بتفرق سبأ يمنع الدعاء اللّهم إلّا أن يعم المعنيين بالاشتراك « .ينظر: الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة ، ص:٧٦.

(٥) في قوله عليه السلام مشبها نصح معاوية له بـ((ناقلِ التّمر إلى هَجَر)) .نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٤.

الاستعارة في دراسات السابقين ومُؤلَّفاتهم كاشفةً عَمّا يدور في النفوس من آمال، ومَحبَّةٍ، أو بغض، أو عرض لقضايا اجتماعيه وهُموم نفسية[1].

وكذلك قوله عليه السلام لأصحابه في بعض أيّام صفين يحثّهم على قتال الأعداء الذين كَمِنَ الشَّيطانُ في عسكرهِم :((...وامشُوا إلي المَوتِ مَشياً سُجُحاً ، وعليكُم بهذا السَّوادِ الأعظَم ، والرِّواقِ المُطنِب فاضربوا ثَبَجَهُ ، فإنَّ الشَّيطانَ كامِنٌ في كِسرِه وقد قَدَّمَ للوثبَةِ يَداً وأخّر للنكوص رجلاً ، فصَمداً صَمداً ، حتَّى ينجلي لكُم عمودُ الحَقّش « وأنتم الأعلون» ، والله مَعَكُم ولن يَتِرَكُم أعمالَكُم))[2].

وصايا عديدة وجَّهَها لجندهِ مُستَحضراً فيها تصويراً دقيقاً بآليَّةٍ بيانيّه كاشفةٍ للمعاني، ومُجَسّدةً لها في المفردة(الشيطان)، هي تعبيرٌ استعاريٌّ دالٌّ على ضَلالَة جيش الأعداء وغِوايتهم.

وقعت الاستعارةُ التصريحيةُ في هذه المفردةِ المضغوطةِ بالدَّلالاتِ لمعاوية بجامع الضَّلالة والغِواية للناس في كلّ[3]لذلك أوصاهم عليه السلام بضَربِ(ثَبَجِه)أي وِسطه[4]، والهاء تعود إلى الرِّواق، فالشيطان أي معاوية كامِنٌ في وَسطه .

ولِحثّ الجُند على قِتالِ الشيطان وحزبه، رسمَ لهم صورةَ تَردّدِه وخوفِه، وأظهرها باستحضار استعارةٍ تمثيلية في المَثل الَّذي أصبح يُضرَب للمُتَردِّد في أمرٍ ما، وهو قوله عليه السلام:(لقد قَدَّم للوَثبَةِ يداً وأخَّر للنكوص رِجلا)، ويكون (تقديم يَدهُ للوَثبةِ

---

(١) في الأدب والبيان، د. محمد بركات، ص :١٠٥ .

(٢) نهج البلاغة ، خ(٦٣)، ج١/ ١١١-١١٢.

(٣) يرى ابنُ أبي الحديد انَّه عليه السلام ربما أراد بالشيطان إبليس، أو ربما أراد به معاوية، والثاني هو الأقرب لوجود قرينةٍتُؤيِّده، وهي((قَد قَدّم للوثبَةِ يَدا))، والى القول الثاني ذهبَ كثيرٌ منَ الشُّراح.ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج٥/ ١٣٧.ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٣٣٥-٣٣٦.ينظر: منهاج البراعة ، الراوندي، ج٢/ ٢٩٢ .ينظر: منهاج البراعة ، الخوئي ، ج٥/ ٢٧ .توضيح نهج البلاغة ، ج٢/ ٢٦٣.وقد يكون المراد به – الشيطان– عمرو بن العاص .ينظر: منهاج البراعة ، الخوئي ، ج٥/ ٢٧ .

(٤) لسان العرب، مادة (ثبج)ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج٥/ ١٣٧.

كنايةعن تزيينه لأصحاب معاوية الحرب والمَعصية، وتأخيرُ الرجل للنكوص كنايةً عن تهيئَتِهِ للفرار إذا التقى الجَمعان كما حكى الله سبحانه عنه (فلَمَّا تَراءت الفئتان نَكصَ على عَقبَيهِ وقال انِّي بريءٌ مِنكم) ، قال ابنُ الأثير، بل هو مَثَلٌ بالصميم يُقال على كلِّ مَن شَاكَلَهُ في الجُبنِ إن جاء الجَدَّ، والإقبالُ على الدنيا ما وجَد إليها سَبيلًا وهو من صفاتِ الأنذال[1].

نجح الإمامعليه السلام في هذا الاستبدال المجازي ذي القدرة على وضعِ المتلقي أمام صورةٍ فنيَّةٍ مُتحَرِّكَةٍ ، تنبض بالحياةِ حتَّى يكاد يَراها، فكان تحريكها للنفسِ أقوى وهذا ما ابتغاه عليه السلام في نصِّهِ، وبذا أصبح النصُّ ذا قيمةٍ دلاليةٍ بمَعرَضٍ حَسَنٍ يشِدُّ السامعَ باعتماده الركائز المعرفية عند المتلقي، فكان التضمين بمثابة إحالة سريعةٍ، تكفي الإشارةُ إليها لتكتمل الصورةُ فيتصوَّرها المُتلَقي كيفما يشاء للوصول به إلى حقيقةٍ واحدةٍ وهي التردد والخوف في صفوفِ العدو، وهنا تَجلَّت وظيفةُ التَّضمين البلاغي توظيفا يُفَجِّر الوعيَ المخزون في الذَّاكِرةِ .

ولعب التوظيفُ البلاغي دوره من خلال الطباق في المفردات:(خَير، شَر)، (الجنَّة ، النَّار)، (نَعيم بَلاء) ، في قولهعليه السلام الذي سَبَق ذكره في هذا الفصل[2].

وجاء بانزياح جميلٍ آخر في قولهعليه السلام:((مَعاشرَ المُسلمين استَشعِروا الخَشيَةَ، وتجلببُوا السَّكينةَ ، وَعَضّوا عَلى النَواجِذِ فإنَّه أنبى للسُّيُوفِ عَن الهَام، وأكمِلُوا للَّامَةَ وقَلقِلُوا السُّيُوفَ في أغمادِهَا قَبل سَلِّها والحِظُوا الخَزَر، واطعِنُوا الشَّزَر، ونافِحُوا بالظِّبا، وَصِلُوا السّيوفَ بالخُطَا))[3]

إنَّ استشعارَ الخشيَةِ، وتَجلبُبَ السَكينَةِ استعارتان مُجسِّمَتان للخَشيَةِ والسَّكينةِ، وإظهارهما بِمظاهرِ اللبوس، للدلالة على ضرورة التحلي بهما في مثل هذه الساعة من

(١) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٣٣٦.
(٢) ينظر: المثل السائر ، ج٣/ ٧٣.
(٣) ينظر: الباب الثاني ، الفصل الثاني، ص : ١٩٣ .

الحرب، وقوله عليه السلام:(وصلوا السُّيوف بالخُطا)، هو أمرٌ بوصلِ السَّيف بالخُطا لتَدارك قصر السَّيف، أو التردد، لأنَّ الزحفَ في الحَربِ إلى العَدو والتقَّدم إليه خطوات في حالِ المُكافَحَةِ يَكسر تَوهُّمَهُ الضَّعف، ويُلقي في قلبهِ الرُّعبَ ويُداخِلهُ الرَّهبة[1]، وذلك مِن قول الشاعر:وإذا قَصُرَت أسيافُنا كـانَ وَصلُها خُطانا إلى أعدائِنـا فَنُضَارِبُ[2] أو قول الشاعر:

نَصِل السيوفَ إذا قَصُرنَ بِخَطوِنا يَوماً ونَلحقُها إذا لـم تَلحَقِ[3]

أو من قولِ الشاعر(بشربن عبد الرحمن بن كَعب):

وإذا السيوفُ قَصـرنَ أكملها لَنا حَتَّى تَنـالَ بها العَدوَّ خُطانا [4]

ولهذه الاستعارة أثرها في رسم صورةٍ بيانيَّةٍ تُمَكن المُتلقي مِن تصورِها، وإدراكِها، إذ كلما كانت الصورةُ أبسط اكتسبَت أهميتَها «والصورة الفنية تكتَسِب عنصرَ الأهمِيَّةِ بِقَدرِ ما تَتَميَّز بالوضوحِ والبساطةِ وبالألفةِ»[5].

وقد وردت في هذا المعنى أشعارٌ كثيرةٌ ذكرها ابنُ أبي الحديد في شرحِهِ، وفي غيرِ واحد من كتبِ الأدب[6].

---

(١) نهج البلاغة، ح(٦٣)، ج١/ ١١٠-١١١.

(٢) شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ٣٣٥.

(٣) نسب البيت إلى الاخنس بن شهاب، كما في خزانة الأدب، ونسبه صاحب (الأشباه والنظائر) إلى قيس بن الخطيم.ينظر: خزانة الأدب، ج٣/ ٢٤.ينظر: الأشباه والنظائر، ج١/ ١٢٠.ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج٥/ ١٣٤.ينظر: شرح ابن ميثم البحراني، ج١/ ١٢٠.وأورده أبو تمام في حماسته بصيغة (وإن قَصُرت أسيافُنا).ينظر: شرح الحماسة، للتبريزي، ج١/ ٤٨٨.

(٤) نسبَهُ صاحبُ (الكامل في الأدب) إلى كعب بن مالك.ينظر: الكامل في الأدب، ج١/ ١١٤.ينظر: شرح ابن أبي الحديد، ج٥/ ١٣٤-١٣٦. ونسبه التبريزي إلى (كعب بن مالك) أيضاً، ولكن برواية:نَصل السُيوف إذا قَصـُرنَ بخطوِنا قُدماً فنلحقها إذا لـم تَلحَق شرح حماسة أبي تمام، ج١/ ٨٤.

(٥) حماسة أبي تمام، شرح التبريزي، ج١/ ٤٨.

(٦) دراسات في صور القرآن، ص:٧.

ومِمّا ضَمّنه بأسلوب كِنائيٍّ، ما جاء في قوله عليه السلام في كتاب وجَّهَهُ لابنِ عمه (عبد الله ابن عباس): (قَلبتَ لابنِ عمِّكَ ظَهرَ المِجَنِّ)، كما مرَّ في موضعٍ سابقٍ في هذا الباب[1]

ب: القدرة عَلى التَجسِيم والتَشخِيص .

للشعرِ والمَثلِ دورهما في استجلاءِ المعاني وإبرازها في تجلّياتٍ ماديَّةٍ تَمَثَّلت في تجسيم ما دَقَّ وخَفِيَ، وتشخيص الجمادات غير الحَيَّة ، فالشعر ساحةٌ يتزاحم فيها هذان الفنانَ، وللمثل -أيضاً- « شأنٌ ليس بالخَفي في إبراز خَبيَّاتِ المعاني، ورفع الأستار عَن الحَقائقِ حتى تُريكَ المُتَخَيَّل في صورةِ المُحقِّق والمُتَوَهَّم في معرض المُتَيقّن والغائب كأنَّهُ مُشاهَد» [2]، وهذا هو صميم فن التجسيم .

والغايةُ في ضَرب الأمثال عند الزركشي ت(٧٩٤)هي تشبيهُ الخَفي بالجلي والشَّاهد بالغائِب[3]، وبذلك تصور الحياة تصويراً دَقيقاً [4].

وبِفَنَّي التجسيم والتشخيص تَتَكشَّف العلاقةُ بين ما هو مُتخيَّل وما هو واقع ، حينئذ تتوفر للمتلقي فَرصةُالتخيل لما لا يُمكِن تخيله ، ورسمهِ بصُوَرٍ يمكن إدراكها، وبفضلِ ما تقدّم كان للنص النهجي القدرةُ على بثِّ طاقةٍ توصيليَّةٍ تشدُّ المتلقي، وتستوقفَه طويلا، فهو- النصّ- ليس قطعة بلاغية ذات جمالٍ مُجرَّد، بل ذو وظيفةٍ مُتقَنة[5].

من ذلك قولُه عليه السلام: ((ولَقَد شَهِدَنا فِي عَسكَرِنا هذا أقوامٌ في أصلابِ

(١) شرح ابن أبي الحديد ، ج٥/ ١٣٤-١٣٦.ينظر: خزانة الأدب ، ج٣/ ٢٤.ينظر: البيان والتبيين ، ج٣/ ٢٦.

(٢) ينظر: الباب الثاني ، الفصل الأول ، ص :١٧١.

(٣) تفسير الكشاف ، ج١/ ٧٢.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن ، ج١/ ٤٨٨.ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ، ص:٥٥، ٨٢.ينظر: مفاهيم القرآن ، ص:٤٣.

(٥) المجلة في الأمثال لأبي عبيدة (معمر بن المثنى)، د. حاكم حبيب الكريطي، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعةالكوفة، ع(١)السنة الاولى، ٢٠٠١م ، ص:٦٤.

الرِّجالِ وأرحامِ النساءِ سيرعف بِهِم الزَّمانُ ، ويقوى بِهِم الإيمانُ))[١]، لقد وُظِّفَ التجسيمُ وأُخرِجَ الزمانُ بيهئةٍ آدميَّة ، مُتَحرِّكة تَتَراءى أمام المُتلقي ، قدّم لها بفنٍّ مجازي عقلي باعتبار ما يكون إذ أنَّ أنصارَه هؤلاء لم يُولَدوا بعد بقرينة أنّهم (في أصلابِ الرجال ، وأرحامِ النساء) ، وإنّما نَسَبَ وجودَهم إلى الزمان لانَّه من الأسباب المُعدّة لقوابلِ وجودِهِم[٢]، ودار التوظيفُ التَّضميني لقولِ الشاعر :

وما رَعَفَ الزمانُ بمثلِ عَمرُو   وَلا تَلد النِّساءُ لَهُ ضَريبا [٣]

يبدو أنّ استعارةَ المفردة (يَرعَف) تحمل دلالةَ الولادة بقرينةِ(يَرعَف بِهِم)، ولم يَقل (يَرعفهُم) وبهِ دلالاتٌ عديدة ، منها كثرة هذا الولادات ، وتدفّقها ، والذي عزز هذه الدلالة فعل الرعاف المُتعَارَف عليه بكثرتِهِ، وترادفِهِ في حالِ حصولِهِ، كان التضمين بِمنزِلةِ التَّصوير والتَّشكيل لمعنى خفي ودقيق .

وكذلك صوَّر لنا النفسَ بهيئةِ فَرسٍ جامحٍ يجب الإمساك بلجامِه ، وردعه طَلَباً للسلامة ، والأمان في وصيةٍ له عليه السلام لشريح ابنِ هانيء: ((... واعلم أنّكَ أن لَم تردَع نفسَك عَن كثيرٍ مِمّا تُحِب مَخافةَ مَكروهٍ سَمَت بكَ الأهواءُ إلى كثيرٍ مِنَ الضَّرَر))[٤].

إن لم تردعها سَمت بك أهواؤُها إلى كثيرِ من الضَّرر ، والدالّ على ذلك التجسيم للنفس هو القول (تَردع نفسَك) ، والتي تُحيلُ إلى دلالات ، لعَلّ من أبرزِها تَخيل النفس بصورةِ فَرَسٍ جامح لابُدَّ من رَدعِهِ ـ مَنعه بقوَّةٍ ـ والتَّمَكن مِنه، وإلّا فسيقودنا إلى كثيرٍ مِنِ الضَّرر، فالنَّفسُ راغِبَةٌ إذا ما رغَّبتَها وإذا رُدَّت إلى قليلٍ تَقنَع، فالتضمين وما صاحبه مِن تَجسيم يُحِيلُ إلى مَعانٍ خارجَةٍ عنِ النَّهي من حيث البِنية، وحاضرة من حيث المعنى، وتَعود بهِ إلى إشاراتٍ دالَّةٍ تَعود عليه بصورةٍ مُتحَرِّكَة ، ولّما كان سياق النص وعظِياً فقد جاء مُتكامِلاً في تأديته للتوظيف، والمعنى في بنيةٍ مُنسجِمةٍ، وتعالق

(١) ينظر: سلطة الحق ، ص :٢٨٦.

(٢) نهج البلاغة ، خ(١١) ، ج١/ ٣٩-٤٠.

(٣) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ، ج١/ ١٩١.

(٤) ينظر: الباب الأول ، الفصل الأول ، ص :١٧٢.

الإبداع عند الإمام مع ما ضمّنه على مستوى التناص، وهذا ـ قد ـ يُبدي لنا إعجاب الإمامعليه السلام بما ضَمّنه، ويدل على سعة معرفتهِ، وحفظِه، وكثرة مَخزونهِ الشعري لثقافةِ عصرهِ، وبإعادةِ صياغَتهِ لَمَّا جاءَ بانزياحٍ جميلٍ ليُخرِجَ المعنى من السكونِ إلى الحركةِ، فارتقى به إلى أدبيةٍ فنيَّةٍ عالية .

ومن خطبة لهعليه السلام:((فالله اللهَ عِبادَ الله فإن الدُّنيا ماضيةٌ بكُم عَلى سَنَنٍ ، وأنتُم والساعةُ في قَرَنٍ ، وكأنَّها قَد جاءت بأشراطِها ، وأزِفَت بإفراطِها ، ووقفَت بكُم على صراطِها ؛ وكأنَّها قد أشرَقَت بزلزالِها ، وأناخَت بكَلاكِلِها ، وانصَرمَت الدُّنيا بأهلِها ، وأخرجَتهُم من حضنِها فكانَت كيومٍ مضى أو شهرٍ انقضى ..)) [1] .

يلتقي المتلقي بشريطٍ تصويري اعتمَد فَنَّ التشبيه، والاستعارة، بعد تمهيد كنائي مُوضحاً قرب الساعة (وأنتُم والساعةَ في قَرَن)، وقدّم لذلك كله تحذير عِبر آلية التوكيد اللفظـي:(فالله الله عـباد الله).

يلمح المتلقي اعتماداً للنص على قوله تعالى:(إذا زُلزلت الأرضُ زِلزالَها، وأخرَجَت الأرضُ أثقالهـا)[2]، والذي يُعزّز هذا الزعم وجود بعض المفردات،والبناء والموسيقى، وتشابه الفاصلة .

ومع التجسيم في استعارة لفظ الكَلا كِل لأهوالِ الساعة الثقيلة ، ووصف الإناخة لهجومها بتلك الأهوال على الناس[3]، واعتَبرت مُرشّحة لوجودِ ما يُلائم « المُستعار منه « وهو(أناخَت) ، وتَعزَّزت دلالاتُها بوجودِ صيغةِ الجمع(كَلا كِلِها)»، باعتبار تَعدّد أهوالها الثقيلة النازلة بهم»[4]ويعود بنا هذا التجسيمُ إلى قولِ امرئ القيس، مُشبِّهاً كثرة همومه وقساوتها:

---

(١) نهج البلاغة ، ك(٥٦) ، ج٣/ ١٢٤-١٢٥.

(٢) المصدر السابق ، خ(١٨٥)، ج٢/ ١٥٥.

(٣) سورة الزلزلة / ١-٢. .

(٤) ينظر:شرح ابن ميثم البحراني ، ج٢/ ٢١٥.

وَلَيلٍ كَموجِ البَحرِ أرخى سُدُولَهُ   عَليّ بأنواعِ الهُمُومِ ليبْتَلي
فقُلتُ لهُ لّمّا تَمطّى بِصلبِهِ   وأردَفَ أعجازاً وناءَ بكَلكَلِ [1].

وحيث استمد الإمامعليه السلام صورته من الناقة، إدراكاً منه لما تشكله من وجودٍ مَلحوظ في حياة العرب في الجاهلية والإسلام، ولِما لَها من منزلةٍ خاصَّةٍ في نَفَس العَرب، فنجد حضورها في الشعر العربي حضوراً كبيراً[2]، وبفضلِ هذا التجسيم المُرتكز على صورةِ النَّاقه وثقلها، يُدرِك المُتلقِّي مَدى عَظَمَةِ أثقال أهوال الساعة، فكان وسيلةَ إيضاحِ لأمر خَفِي دقِيق .

ثانياً : المستَوى الموسِيقي :

يقوم النصّ أحياناً على إبداعيةِ التشكيلِ الموسيقي الذي منَحه جماليةً وتأثيراً يُعضِّد دلالَتَه ومعناه، فالدور الموسيقي هو أحد عناصر الأسلوب الفني[3]. وتوضيح ذلك عند عرض المعاني في صُورٍ تستند إلى حَشدٍ موسيقيٍّ يتناسب والمعنى، ويتواشج معه، فتدل بذلك على ابتكاريَّةٍ توليديَّةٍ عند المُبدع ، والمُتلقي يدرك الأثرَ الدلالي للمفردات من خلال سماعه لها، ومن ثم يدرك معنى النصّ العام، إذ أنَّ وضعَ الحرفِ، أو الكلمةِ أو الجملةِ على نحوٍ محدود إنَّما يكون لمزايا ومَلامح فنية تأتي في مقدَّمَتِها الموسيقى .

عند النظر إلى السياقِ الداخلي(اللغوي) ندرك علاقةَ الكلمة، أو التركيب من خلال موقعها في النص ، وعلاقتها بما يسبقها، من هنا نجد تغييراً طفيفاً فيما يُضمِّنَه لمناسبةِ السِّياق المُوسيقي كما في قولهعليه السلام: ((... فَلِكلِّ أجَلٍ كِتاب، ولِكلِّ غَيبَةٍ إياب، فاستمعوه مِن رَبَّانيكُم، واحضروه قلوبَكُم))[4] اعتمد الإمام الفاصلة الموسيقية

---

(١) المكان نفسه.

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص:٤٢ .

(٣) لقد وصفها طرفة بن العبد في معلقته في أكثر من (٢٨) بيتاً.ينظر: شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٣، بيروت، ١٩٧٩، ص :١٠٢-١٢٤.

(٤) ينظر: في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٥، ١٩٧٧م ، ص :٨٩-٩٨.

المسجوعة في نَسَقٍ موسيقي أذاب فيه ما ضمّنه ليصبَح جزءاً من النص لايمكن رفعه، (لِكلِّ أجَلٍ كِتاب)و(لِكلِّ غَيبَةٍ إيّاب) جُملتان مُتوازنَتان مَسجوعتان، أردفهما بجُمَلٍ مَسجوعَةٍ مُتناغِمَةٍ، أضفَت جميعُها بُعداً موسيقياً مُؤثِّراً يشد السامعَ ويُغريه بالاستماع إلى مزيد.والمدُّ في (كتابٍ، إيّاب) يُوحي بالسعة، والفُسحةِ، وبالتالي يحتاج المتلقي بُرهة من الانتظار لما يُفصح عن ذلك الكتاب، وما وراء ذلك الإياب، لم يكن تَضميناً مُباشراً كما هو ظاهر- لقولِ عبيد بن الأبرص:»وكلُّ ذي غيبَةٍ يَؤوب «[1]، وبذلك تَغيَّر المَعنى بتغيّر المَبنى، حديث الشاعر عن ذي الغيبة الذي سيؤوب ما عدا غائب الموت، وحديث الإمام عليه السلام عن كلّ ذي غيبةٍ، وأراد بها غيبةَ الموت، وحديثه هذا دعوةٌ ضِمنيَّةٌ للاستعداد لتلك الأوبَةِ، إنَّها دعوةٌ لإحضار القلوب قَبل أن يَهتف داعي الموت.

وبذا يكون عليه السلام قَد استَرجَع التجربةَ القديمة لما ضَمّنه، وأعاد ترتيبَها في حلَّةٍ جديدةٍ تَتَلاءَم مع البناء السياقي في تركيبٍ بِنائيٍّ مُوَحَّد .

وفي خطبةٍ قالها بعد التحكيم إثر معركةِ صفين:((أمَّا بَعد فإنَّ مَعصِيةَ النَّاصحِ الشَّفيق العالم المُجَرِّب تُورث الحَيرَةَ، وتُعقِب النَّدامةَ وقد كُنتُ أَمَرتُكُم في هذه الحكومةِ أمري، ونَخَلتُ لكُم مخزونَ رأيي لوكان يُطاع لقصيرٍ أمرٌ فأَبَيتُم علىَّ إباء المُخالِفين الجفاة، والمُنابِذين العُصاة، حَتّى ارتابَ الناصحُ بنصحِه وَضنَّ الزَّندُ بِقَدحِه))[2]. لو كان يُطاع لقصيرٍ أمر تضمينٌ ظاهر[3]، ومثَّل فاصِلًا موسيقيًّا بينَ الأسجاع السابقة، واللّاحقة له نظراً لما مَهّد لذلك، وما يَستَتبِعهُ من مَعانٍ استدعَت مَعَها تَغييراً مُوسِيقيًّاً مُصاحِباً لتغيُّر المعنى في سِياق الكلام ، والمفردات(الحَسرَة ، النَّدامة)، (أمري ، رَأيي)، تشابهت أسجاعُها وتُلِيَت بأخرى مثل (جُفاة ، عُصاة)، (نصحه ، قَدحَه) ، وتوسَّط بين هذا التَكتّل السَجعي تضمينٌ(لو كان يُطاع لقصيرِ أمر) ، فشكَّل واسطةً صوتية بين المتجانسات الصوتية التي انتظمت وِفقَ تشكيلاتٍ معنَوية مُتجَانِسة، فالحَسرة والنَّدامة

(١) نهج البلاغة ، خ(١٠٤) ، ج١/ ٢٠٨.
(٢) وكُلُّ ذي غَيبَـةٍ يُؤوب وغائِبُ المَوتِ لا يَؤوبُ. ديوان عبيد بن الأبرص، ص : ٢٦.
(٣) نهج البلاغة، خ(٣٤) ، ج١/ ٨١.

تحققاً لأنّ القوم لم يطيعوه عليه السلام وهو الناصح المشفق، والعالم المجرب .

وبعد أن قدّم لهم مَنخولَ رأيه ـ وهي استعارة للفظ (النخل) لاستخلاصِ أَسَدِّ آرائِهِ، وأجودها لهم [1]ـ وعَصَوه، وسيكون مصيرهم كمصير أصحاب قَصِير حين لم يأخذوا بنصحه .

كنّى عليه السلام عن حالهِ مع قومهِ بحالِ قصير ـ مَورد الشاهد ـ لتَشابه تجربتهِ عليه السلام مع تجربة قصير بقِصَّتهِ المعروفة حين نَصَح قومَه ، فلم يأخذوا بنصحهِ ، حتى دفعوا ثمنَ مَعصيته حياتهُـــم[2]، والتي أصبحت مَثلاً فيما بعد ، وبتضمين هذا المَثَل حَمَّل الإمامُ النصَّ لُغةً إشاريّةً ، رَمزيّةً مُكثَّفة .

وتعاقب الصفات للقوم(المُخالِفين الجُفاة)، و(المُنابِذين العُصاة) ندرك نوعاً من أنواع التوكيد ، ومُسحةً من الذمِّ الصريح لهم .

وقولُه عليه السلام : (ضنَّ الزّندُ بقَدحهِ) ، مَثَلٌ يُضرَب لمن يبخل بفوائدِهِ إذا لم يجد لها قابلًا عارفاً بحقِّها ، أولم يتمكن من إفادَتها ، فإن المُشير إذا اتُّهِم ، واستُغِشّ ، أو خُطِّئ في رأيهِ ، ربّما لا يَنقدح له بعد ذلك رأي صالحٌ لِحكم الغضب عليه من جهة مُخالفتهِ وعَدم قبول رأيهِ[3]، فالتضمين هنا ليس بكاشفٍ للمعنى فقط بقَدر ما هو كاشفٌ لحزنِ الإمام ، ولوعَتهِ ، وهذا ما يُعَزِّز اللّغة الاشاريّةَ ، والرمزيّةَ المُكثَّفة.

وبتناسقٍ موسيقي آخر ورد في جُملتَين مُتوازنَتين قال عليه السلام : ((المَنيَّةُ ولا الدَنيَّةُ، والتقَلّل ولا التَوسّل))[4]، وأضفى التّشديدُ في المفردات: (المنيّة ، دَنيّة ، تَقلّل ، تَوَسّل إيقاعا يُسهِم في رَفد ذلك التناسق ، فنَتجَ عن ذلك كله إيقاعاً عذباً ، تشكل بتتابُعٍ مُتَّصِلٍ للأصوات المُنسَجِمَة. جُملتان اسميَّتان تُوحِيان بثَبات حقيقتِهما، وتحملان أمرَينِ

(١) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ، ج١/ ٢٧٣
(٢) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ، ج١/ ٢٧٣.
(٣) ينظر: الباب الثاني، الفصل الأول ، ص :١٨١
(٤) شرح ابن ميثم البحراني ، ج١/ ٢٧٤.

مُتقابلين فالَمنيّة : (الموت)خيرُ من الدّنيّة (العار) ، أي: اختار الموتَ على العارِ،[1]، و(الدَنيّة)هي الخَسيسَة من الأمرِ تُرتَكب في طَلَب الدنيا ، وكثيرٌ من الكِرام يختارون الموتَ على ذلك[2].

وأدَّى الجناسُ دوراً بارِزاً في توليف هذا التجانس الصوتي الناتج عن تضمين قول(أوس بن حارث) والذي سار مَثَلًا بينَ الناس[3]، وبذلك أدخلَ التجربةَ القديمةَ للمَثَلِ، وأعاد تشكيلَها في سياقٍ مُلائِم لها، إذ أنّ وضعَ الحرف ، أو الكلمة ، أو الجملة على نحوٍ ما ، إنَّما يكون لِمَلمَحٍ فَنّي تأتيَ في مُقدِّمَتِّها يالموسيقى

(١) نهج البلاغة ، خ(٣٩٦)، ج٣/ ٢٤٨.

(٢) ينظر: مجمع الأمثال ، ج٢/ ٣٠٣.

(٣) ينظر: شرح ابن ميثم البحراني ، ج٢/ ٦٢٧.

(٤) ينظر: جمهرة الأمثال ، ج٢/ ٢٥٣، ومجمع الأمثال ، ج٢/ ٣٠٣. ونَسَبَهُ صاحب الأغاني إلى (هانئ ابن أبي مسعود)، أو إلى(هانئ بن قبيصة الشيباني)، مُحَرِّضاً يوم (ذي قار)، كما نَسبَهُ إليه صاحبُ الجَمهرة في مَوضع آخر من كتابه. ينظر: الأغاني ، ج٢٤/ ٦٨ . ينظر: جمهرة الأمثال ، ج١/ ٣٧. ونَسَبَ صاحبُ جمهرةِ خطبَ العرب هذا القولَ إلى (دُريد بن زَيد)، في وَصِيّةٍ له لبَنِيه. ينظر: جمهرة خطب العرب ، ج١/ ١٢٥.

الفَصلُ الثَالِث

خَصائِصُ التَضمِين

المبحَثُ الأوَّل: الخصائِصُ الدَّلالِيَّة.

المبحَثُ الثَّانِي: الخصَائِصُ الفَنِّيَة.

مَدخَل :

تمّيز التضمينُ بخصائص عَديدَة ، تَنوّعت في مزاياها وتَعدَّدت في مُسمَّياتها، غير أنّها بَرزت في مُسَمَّيَين بارزين ، وتَوزَّعَت بينهما ، وهما ، (الخَصائِص الدَّلاليّة) و(الخَصائص الفَنيَّة) ، ولكلّ منهما أقسامُه ، وشواهدُه التي تَدلُّ عليه ، وتشير إليه، قد تشترك – في كثير من الأحيان – في قواسم مُشتركَة لكنَّها تنصهرُ أخيراً في بَوتَقَةِ التضمين، سواء أكانت أشعاراً أم أمثالًا ، فتُظهر لنا نَصّاً ذا دلالةٍ ، وجماليَّةٍ فنّية تُرافقه.

ولا بُدّ من الاعتراف بادئ ذي بِدء أنّ النصَّ النهجي قد تَطغى فيه خِصّيصةٌ دلاليةٌ ، أو فنّيةٌ ما عند التضمين لكّنها تبقى ليسَت الوحيدة الفاعلة في ساحَتهِ ، وقد بَرهن النصُّ النَّهجي عَن جداراتٍ أسلوبية مُميــزة[1].

والتضمين يجعل للنصّ الحاضِن له المقدرة على مَنح المُتلقي قراءةً جَديدة ، فيُفضي به إلى فضاءاتٍ دلاليَّةٍ ، وتَجلّياتٍ جَماليَّةٍ تُمَكِّنهُ مِن سَبرِ غَوره ، وإن كانَ الأمرُ يحتاج إلى شيءٍ من التدقيق وإِعمال الفكر.

إنَّ التوزيعَ الخصائصي للتضمين ظَلَّ مُوزَّعاً بين دلالي وفَنّي كسابقهِ في الاقتباسِ في ضوءِ مَنهَجِيَّةٍ ضاغِطةٍ نحو هذا التوزيع ، لذلك سَيدور الفصلُ حول هذين المحورين.

---

(١) يرى عزيز السيد جاسم أنَّ النصَّ عند الإمام(عليه السلام)» يُولَد مُتكاملا في تأديَتِهِ الوظيفيةَ الخاصَّة بهِ رغم انه يُبَرهِن – في حالات ثانية – عَن جَداراتٍ أسلوبيَّةٍ « .سلطة الحق، ص:٢٨٦ .

المبحَثُ الأوّل : الخَصائصُ الدّلاليَّة

وتمّثلت في جملةٍ من الخَصائِص التي تَتَعلق بالجانبِ الدلالي وعطاءاتِهِ، وهي:

أوّلاً :التنوعُ الدّلالِي بِتَنوِّع أسالِيب التَضمِين وَ أشكالِه .

يَتَنوَّع العطاءِ الدلالي للتضمين تَبَعاً لتَنَوِّع أساليبِهِ وأشكالِهِ وسَيَّان في ذلك تَضمين الشعر أو المَثَلِ، ويَتأتّى ذلك كلُه من تَنوعات كثيرةٍ، لَعلّ من أبرز مَصاديقِها ما يلي :

أ- تَنوُّع دَلالة الشِّعر بتَنوِّع أسالِيب تَضمِينه .

لقد عمد الإمامعليه السلامإلى أنواع من التّضمينِ الشعري على وِفق مطلبِيَّةٍ دلاليَّةٍ مَقصودة، إذ نراه يُضَمِّن شطراً من بَيتٍ تارةً أو بيتاً كامِلاً أخرى، ولا بدّ من وجود دَواعٍ استَدعَت استحضار هذا النوع من التضمين دون سِواه، ويتبين هذا في تَتَبع دلالةَ كلٍ نوعٍ منها، والوقوف عندها والنظر إليها والمقارنة بينها، وهي :

١-التَضمِينُ الجزئي للشعرِ وَ دَلالتُه في النَّص .

ليسَ منَ المَعقول بمكانٍ أن يَتُم هذا النوع من التضمين لشطرٍ من بيتٍ دون قَصدِيَّةٍ مَرجُوَّة ، كالـذي حَصل حين ضَمَّن ثلاثةَ أشطارٍ من ثلاثةِ أبياتٍ في كتابٍ له عليه السلام بَعث بهِ جَوابـاً إلى معاوية بن أبـي سفيـان[1]، تضميناتٌ تَنوَّعت دلالتُها بينَ(التَّوبيخِ ودَفع الشُّبهة والتَّهديد)على التوالي وِفقَ السياق الذي ورد فيه كلٌّ منـها .

جاء تضمينُهعليه السلامالشطر الأوّل مُوظَّفاً في موردِ بيانهِ أنَّ الأمر لا يتعلق بكَ – يا معاوية – ((فتِلكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عنكَ عارُها))[2].

---

(١) نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٧-٣٩.

(٢) ينظر :الباب الثاني ، الفصل الأول ، ص : ١٥٥-١٦٣.ويرى التستري في شرحه أنّ التضمين جاء للاحتجاج أو الدفاع .ينظر:بهج الصباغة، التستري، ج١٣/ ٢١٠ .

وتضمينه عليه السلام للشطر الثاني(وقَد يَستفيدُ الظِنَّةُ المُتَنَصِّح)في سياقٍ مَهَّد لمثلِ هذا الردِّ، ودفع الشبه التي أوردها معاويةُ في كتابه .

والشطرُ الثالث(لبِّث قَليلاً يَلحَق الهَيجا حَمَل)لا يَخفى ما فيه من تهديدٍ ووعيدٍ ظاهِرَين دونَ الحاجةِ إلى الرجوعِ لسياقه الذي ورد فيه .

وعلى العكسِ من ذلك تَماماً حين نرى التضمينَ الشطري مُوصِلاً إلى دلالةِ بالتضافر مع ما جاوره من السياق، كما في تَضمينِه شطرٍ لامرئ القيس:(وَدَع عَنكَ نَهباً صِيحَ في حَجَراتِهِ)كما مَرَّ في موضعٍ سابِقٍ[1].

يتَوضح مِمّا تَقدَّم أنَّه عليه السلام إنما يأتي بمثلِ هذا التضمين في كتبِهِ – في الأغلب – أولاً، وفي مخاطبة عدوِّهِ ثانياً، ومُعرِباً عن سخطِهِ في توبيخ، أو تهديد، أو تَبرم ثالِثاً، وفي حديثِهِ مع أعدائِهِ عند التوبيخ والتهديد كأنه عليه السلام يكتفي بالدَّلالَةِ المُركَّزة للشطر، للوصول إلى ما يَبتغِيه من معانٍ بأوجزِ صورةٍ، وأقلِّ قدرٍ من الكلمات.

في الأغلبِ الأعم لم يكن حَديثاً مَع مَن يُحب مِن أنصارِه، أو أتباعِهِ فالزجر والتهديد والوعيد تَقرعُ القلوبَ والأجسادَ قبل أن تَقرع الأسماع .

تَضمِينُ البَيتِ ألشِّعري الكامِلِ وَ أثَرُه في دَلالَةِ النَّص .

وردَ التضمينُ المباشر الكامل للبيت الشعري في النصِّ النَّهجي في مواضع مُتفَرِّقَةٍ[2]، وإذا كان تضمين الأشطار قد ورد في أغلبِهِ في كتب الإمام عليه السلام فإن تضمينَ البيت جاء أكثرُهُ في خطبِهِ عليه السلام، وبذلك يختلف الدافعُ النفسي والدلالي لها ، من ذلك ما جاء في خطبتِه(الشَقشَقِيَّة)حيث ضَمَّن قولَ الأعشى :

---

(١) ينظر:الباب الثاني، الفصل الأول ، ص:١٨٥.

(٢) لم يَدخل الاستشهادُ الشعري في دائرةِ التضمين لاسباب تَقدَّم بيانُها، وقد وَرَدَت في بعضِ خُطبِهِ، وكتبِهِ عليه السلام في أماكنَ مُتفرِّقةٍ مِنِ النَّهج.ينظر:الباب الثاني، الفصل الأول، ص:١٦٥ .

شَتّانَ ما يَومَي عَلى كُورِها   ويَومُ حَيّانَ أخي جابِـــــرِ [1]

وقد جاء به مُعبِّراً عن شَكواه التي أسقطَها في تضمينه لقولِ الشاعر لَمَّا وجده مُناسِباً للمُقارَنَةِ بين خلافَتِهِ وخلافة مَن سَبَقَهُ، واختلاف الحال في كل.

وهكذا الأمرُ حين ضَمَّن بيتاً آخر حين تواتَرت عليه الأخبارُ باستيلاءِ أصحاب معاوية على اليمن، وهو قول الشاعر :

لَعمرُ أبيكَ الخَيرِ ياعَمروُ إنَّني   عَلى وَضَرٍ مِن ذا الإناءِ قَليلِ [2]

لقد أورده ليُعَبِّر به عَن حزنه في سياقٍ داعمٍ لمثلِ هذا التعبير، والتضمين حتَّى يَصلُ بنا أخيراً إلى التمنِّي ، فيستحضر بيتاً آخر هو:

هُنالِكَ لو دَعَوتَ ، أتاكَ مِنهُـمُ   فَوارِسُ مِثلُ أرمِيَةِ الحَمِيـمِ [3]

يجد المتلقي نفسَه إزاء تَضمينات لأبياتٍ في الخَطب فقط وفي مَوردِ الشَّكوى، والتَّمَنِّي، والحِزن، في كلامٍ معَ الأصحابِ والأنصارِ .

وعند المقارَنةِ بين النوعين يبرز التفاوتُ الدلالي في سياق المقال تَبَعاً لاختلاف مُقتضى الحال ، وكلاهما لا يخرج عن محوريه النصوص الدلالية التي استضافَتها ، إذ لم تكن بِمعزَلٍ عنها في كلا النوعين .

إنَّ النصَّ النهجي عِبرَ التضمينات الشعرية يَكشفُ عن ذَوقِ الإمام عليه السلام في اختيارِ الشعر العربي ، كما إنَّها كشفت عن مَعرفتهِ الدقيقة بمعاني الأشعار، وقبل هذا وذاك كان مُفصِحاً عن حزنه ، ولوعته ، وأمله عليه السلام، إنّهُ تعبيرٌ عن إخفاءِ كلِّ ذلك، وإفصاحاً للأمل ، وما زال ذلك كلّه مُستَمِراً في نصوصه عليه السلام ، فكأنَّما الإخفاء

(١) نهج البلاغة، خ(٣)، ج١/ ٢٦.

(٢) نهج البلاغة، خ(٢٤)، ج١/ ٦٠ .

(٣) نهج البلاغة، خ(٢٤)، ج١/ ٦١ .

والإفصاح مُتلازِمان ، وكانت الإحالاتُ التضمينية مُتوافِقَةً تَماما مع المعاني التي أرادهاعليه السلام في كلامِهِ فأعطَت الدلالةَ المَطلوبةَ ، والمَرجُوَّة.

ثانياً : التَّراكُم التَضمِيني و أثَرَهُ في دَلالَةِ النَّص .

ونقصد بالتراكم التضميني تواجد تضمينات عديدة في نصٍّ واحدٍ، وهو من الأساليب الفاعِلة في الأثر الدلالي ، ويأتي هذا الحشدُ التضميني في النصّ بغية شَحنِ الموقف والتأثير في المُتلقي، فيغدو صيغةً نَصِّيَّةً شديدة التكثيف .

وعندها ينفتح النصّ على باحةِ التأويل المُتعدد بِتعدد التضمينات ، ويصبح فاعلاً بمقدار فاعلية تسخيرها ، أو مقترباتها أو بما تُوحي بهِ من دلالات .

تداخل كلامهعليه السلام مع تضمينات كثيرةٍ دُفعةً واحِدةً كما يتَّضِح لنا في إحدى خطبه[1]، لإحساسِهِعليه السلام بالحاجة إلى دَفقٍ دلالي، لكي يُوصِل المُتلقي إلى دلالةٍ ما، فيَدعَهُ يتفاعل مع الحَدَث، وجَسامَتِهِ[2]، وللتعبير عن شِدَّةِ بَرمِهِ، وغضبهِ مِمّا حَدث، فبدأ بالنفي والشرط:(ما هيَ إلّا الكوفة أقبِضها وأبسطها، إن لم تكوني إلّا أنتِ تهب أعاصيرُكِ فقبَّحَك اللهُ)، ثم استحضر قول الشاعر:

لَعمرُ أبيكَ الخَير يا عَمروُ إنَّني عَلى وَضَرٍ مِن ذا الإناء قَليلِ [3]

لقد عبّر به عَمَّا هو فيه فجاء التضمينُ:(إنّني عَلى وَضَرٍ مِن ذا الإناءِ قَليل)وافِياً في التعبيرِ عن ذلك، والإشارة إليه ، تداخل نصُّهُ مع هذا الحشد التضميني ، ويلحظ فيه تراكم تناصّي بحيث سَمَح لتداخلِ النصوص والخروج بها إلى دلالةٍ جَديدةٍ مَقصودةٍ .

بعد استعراضهِ لما حَلَّ من عَبَث جنود معاوية، وفَتك(بسر بن أبي أرطاة)استحضر

(١) نهج البلاغة، خ(٢٤)، ج١/ ٥٩-٦٢ .

(٢) تواترت الأخبارُ باستيلاء جند معاوية بقيادة(بسر بن أبي ارطاة)على اليمن، وطَردِ عاملِها والعَبَثِ بأمنِها ينظر:الباب الثاني، الفصل الأول، ص:١٦٦.

(٣) نهج البلاغة، خ(٢٤)، ج١/ ٦٠ .

تَضمينا آخر مُتَمِّماً، ومعَبِّراً عَمّا يَتمناه بعد تقاعسِ أنصارهِ فقال:(أما والله لودَدتُ أنَّ لي بِكم ألفَ فارس مِن بَني فَرس بن غنم:

هُنالِكَ، لو دَعَوتَ، أتاكَ مِنهُمُ فوارسُ مثــلِ أرمِيَةِ الحَميــمِ [1]

كلّ من التضمينات يعطي مساحةً دلاليَّة معينه، فتلتحم أخيرا في فضاءِ النص.

وحين أرادعليه السلام أن يَبعثَ بجواب على كتاب بَعثَ به معاوية إليه، أوردَ حشدا من التضمينات، (كناقلِ التَّمرِ إلى هَجَر، داعي مُسَدِّدهِ إلى النِّضالِ، لَقَد حَنَّ قدحٌ ليس مِنها، وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها، فَربَّ مَلوم لا ذنبَ له ، وقد يَستفيد الظِّنَّةُ المُتَنَصِّحُ، لَبِّث قَليلًا يَلحق الهَيجا حَمَل)[2]، وهذه كلها تضمينات انتثرت بين سطور الكتاب لكي تُفصِح عن رغبَتهِعليه السلام في دفع ما اتَّهمه به معاوية، وبعد ما تَبَيَّن المَقصدُ الدلالي لها في مواضع سابقة[3]، يتوضح هنا الدافع وراء هذا الاستحضار الحاشد، إذ أدّى تَوالِيها إلى بروزِ دَلالاتٍ مُتَعَدِّدة مُتحَرِّكة استطاع الإمام بها أن يجعل مُتلَقِّيه أمام إطلالَةٍ نابِضَةٍ تزخر بالأخيلَة، والصُّوَر .

وجاور هذه التضمينات بعضُ الاقتباسات ، تَمثَّلت باستحضار خَمس آيات استحضاراً مُباشراً وزَّعه بين ثنايا كتابهعليه السلام[4]، فأصبح كلوحَةٍ مُوشاة بالكثير من الاستحضارات التَّضمينية والاقتباسية مِمّا جَعَله يَزخَر بالإحالات الدالة المُكَثَّفة.

وتراءى مثل هذا الحشد للتضمينات في وصِيَّةٍ منه لولده الحسنعليهما السلام في مواضع عديدة مثل قولهعليه السلام:((... إذا كانَ الرِّفقُ خُرقاً كان الخُرقُ رِفقاً، ربّما كان الدواءُ داءً والداءُ دواءً، ورُبَّما نَصحَ غير الناصح وغَشَّ المُستَنصَحُ، وإيّاكَ واتِّكالَكَ على المُنى فإنَّها بَضائعُ المَوتى، والعَقلُ حِفظُ التَجارِب، وخيرُ ما جَرَّبت ما وعَظَك، بادِر الفُرصَةَ قَبل

(١) المصدر السابق، ج١/ ٦١ .
(٢) نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٤-٤٠ .
(٣) ينظر:الباب الثاني، الفصل الأول، ص:١٥٦، والفصل الثاني ، ص ، ١٧٧ .
(٤) سورة الأنفال/ ٧٥، آل عمران/ ٦٨، الأحزاب/ ١٨، هود/ ٨٨، هود/ ٨٣، على التوالي .

أن تكون غُصَّة، ليسَ كلُّ طالب يُصيب، ولا كلُّ غائِب يؤوب، ومِنَ الفَساد إضاعةُ الزَّاد ومَفسدةِ المَعاد، ولكلِّ أمر عاقبةٌ، سَوف يأتيكَ ما قُدِّرَ لكَ، التاجرُ مُخاطر، ورُبَّ يَسير أنمَى مِن كَثير، ولا خَيرَ في مُعينٍ مَهين، ولا في صَديقٍ ظَنين، ساهِل الدَهرَ ما ذَلَّ قُعودُهُ ..))[1].

وهذا الكلام « قد اشتمل على أمثالٍ كثيرةٍ حَكيمَة »[2]، وقد فصَّلَ شُراح النَّهجِ مَوارد تِلك التضمينات[3] في هذا المقطع، والوصية عموماً[4].

إنَّ مُقتضى الحال هو الذي استدعى ذلك الرصف من الأمثالِ في كلامِ الإمام للوصول إلى نَتائج تجارب السابقين فيَضعها أمام ولده للاتِّعاظِ بِها .

لقد أفصح هذا التراكم التضميني المقصود عن فيض دلالي مكثف حاول عليه السلام استنزاله في ما قلّ ودلّ من الألفاظ .

ثالثاً : التَكثِيفُ الدَّلالِي للتَضمين وأثَرُهُ في النَّص .

ونشهد من خصائِص التضمين حضور الدلالة المُكَّثف، عندما يَستدعِي بضع كَلماتٍ تمنح النصَّ معنىً كبيراً لما تكتَنِزه من معانٍ كثيرة.

إنَّ الطابعَ الاختزالي المُكثف للشعر والمَثَل ساعد في تعزيز هذا التكثيف الدلالي، لا سِيَّما حين يكونا حاملين للإيحاء والإشارة عند ارتباطهما بقصةٍ ما تُوحي بذلك .

إنّ شدّة الاختزال في الشعر والمَثَل جعلتهما يَنفتِحان على مساحاتٍ واسعةٍ من التأويل تتَّسع في الدلالة كلما ضاقت عباراتُهما .

---

(١) نهج البلاغة، ك(٣١)، ج٣/ ٥٨-٥٩ .

(٢) شرح ابن ابي الحديد، ج١٦/ ٧٦ .

(٣) ينظر: المصدر السابق ، ج١٦/ ٧٦ -٨١ .

(٤) مثل قوله عليه السلام:((رُوَيداً يَسفر الظَّلام))، و((ليسَ كُل مَن رَمى أصاب))، و((سَل عَن الرَّفيق قبلَ الطَريق)).ينظر: نهج البلاغة، ج٣/ ٥٦، ٦٢ .

ومن خلال هذه الخِصِّيصة نرى النصوصَ تستهدف الاقتصار والاختصار في صياغةِ المعاني، ورسم الصُوَر .

من ذلك إشارتهِ إلى قِصَّة(قَوم سَبأ) وتفرقهم في البلاد بَعد تداعي سَدّ مَأرب في إشارةٍ دالَّة وقعت في تضمين(أيادي سبأ)في قولهِ لأصحابه:((وأحثّكم على جهادِ أهلِ الغَي فما آتِي على آخرِ القَول حَتَّى أراكم مُتَفَرِّقين أيادي سبأ))(١).

و(أيادي سبأ)مَثَلٌ يُضرَب للمُتفرِّقين اقتِراناً بما يُصاحِبَه من قصّة مَعروفةٍ، فأصبح النصُّ بفعل الإشاريَّةِ التضمينية ذا طابع اختزالي تكثيفي والتكثيف وان كان إيجازاً في اللفظِ إلاّ انَّه يقود إلى غِنى المَعنى .

أو حين ألمَحَ إلى معنىً كبير في الإشارة إلى(قَصِير)وما عُرِفَ مِن أمرِه مع قومهِ حين أمرَهم فلم يطيعوه، وما حَلَّ بهم بعد ذلك، فقالعليه السلام:((... ونَحلتُ لَكُم مَخزونَ رأيي، لو كَان يُطاع لِقَصِيرِ أمرٌ))(٢)، في إشارةٍ دالَّةٍ إلى قِصَّةٍ مَعروفَةٍ، ولَمحة تدلّ على معناها .

أو كما في تضمينِهِ للمَثَل((آخِر الدَّاء الكَي))(٣)، حين خَتم به كتاباً بعثه جواباً لمن سألهُ عِقابَ من أجلَب على عثمان بَعدما بُويِع .

لقد تمثَّلت الكثافة الدلالية في تِلك التَّضمينات التي جَعَلت النصوصَ تَزخَرُ بالبُؤَر الدَّلالية التي صَنَعها التلميحُ، ولخصتها الإشارةُ بكلماتٍ دالّاتٍ لا تحتاج سوى وقفة قصيرة لنرى قصدَ الإمامعليه السلاموغايَتَه.

وهذه الإشارات والتلميحات تَمنح النصوصَ مفاتيحَ لمعانٍ مَركوزَة في ذهن المُتَلَقِّي، وتمثل التكثيف الدلالي في الأمثال المُوَظَفة للنَصحِ والإرشاد، حتَّى غَدت

(١) نهج البلاغة، خ(٩٣)، ج١/ ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق، خ(٣٤)، ج١/ ٨١ .

(٣) المصدر السابق، خ(١٦٤)، ج٢/ ٩٩ .

النصوص كفضاءاتٍ مُتَعَدَّدَةِ المعاني .

والنصوص هنا تقوم على استدعاءِ قِصّة أو حادِثَةٍ تقذف بدلالاتها في النص فيغدو حِزمة من المعاني الدائرة في فَلَك المَعنى العام للنص .

لم يقتصر التكثيفُ على المَثَل دون الشِّعر في النص النهجي، ومن مصاديق ذلك تضمينه لأشعارٍ عديدة كما مَرّ من نماذج، لا سِيَّما في تِلك التي بَثَّهاعليه السلام كإشارات دالّةٍ، ولمحاتٍ مُعَبِّرة، عن المعاني الشعرية التي ذاعَت وانتَشَرَت كأمثالٍ بينَ الناس كقولهعليه السلام:((فلّما رأيتَ الزَّمانَ على ابنِ عَمِّكَ قَد كَلِب، والعَدوَّ قَد حَرِب، وأمانَةَ النَّاسِ قَد خَزيَت، وهذه الأمّة قد فنَكَت وشَغَرَت قَلَبتَ لابنِ عَمِّكَ ظَهر المِجَنّ ، فَفارَقتَهُ معَ المُفَارِقين))[1].

ترادفت الأحداثُ وتَتابَعَت سَويَّة - بدلالةِ حرف العطف الواو - في جُملٍ موصولَةٍ، رسَمَت صُوَراً للزمان الذي كَلِب والعَدو الذي حَرِب في زمانٍ خَربَت فيه أمانةُ الناس، لِنَصَلَ إلى ألمِ الإمامعليه السلاممن هذه الخيانة التي حَوَت ذلك كلَّه، من الكَلَبِ والحِرابَةِ والفَنَك والتَفَرّق[2]، والخلو من الخير[3]، نحسُّ حِينئِذٍ بحرقةِ الحَدث في قلبِ الإمامعليه السلام .

وقولهعليه السلام:(قَلَبتَ لابنِ عَمِّكَ ظَهرَ المِجَنّ)مَثَلٌ يُضرَب لِمَن يُخالِف ما عُهِدَ فيه[4]، ويَحمِل بينَ طَيّاتهِ دلالةً بفعلِ الإحالة إلى ما يَستَتبِعَهُ من ظِلال معنوية مُختَزلة مُستَمَدة مِن الجوِّ العام للنص والسياق الذي جاء فيه فَعبَّر عن واقعٍ مَرير بِصورةٍ غير مُباشِرةٍ، نَستَشعرها مِن السِّياق الذي وَرَدَ فيه التضمين .

---

(١) نهج البلاغة، ك(٤١)، ج٣/ ٧٢ .

(٢) شغرت الأمة: تفرقت .ينظر:شرح ابن ميثم البحراني، ج٢/ ٤٠٩ .

(٣) ويرى ابنُ ابي الحديد في شرحهِ: « شَغَرت الأمَّةُ : خَلَت مِنَ الخَير « .شرح ابن ابي الحديد، ج١٦/ ١٣٣ .

(٤) نهج البلاغة، ج٣/ ٧٣ .ينظر:الباب الثاني، الفصل الأول ، ص:١٧١ .

رابِعاَ : تَغَيُّرُ دَلالَة التَضمِين بِتَغيّر مَواقِعهِ فِي النَّص .

تَعدّد الدَّلالةِ وتَغيّرها وظيفة هامّة من وظائفِ الكلمات، بَل هي هَدفٌ رئيسٌ لأيِّ نشاطٍ لغوي[1] .

النصُّ عبارةٌ عَن « جُمَلٍ متتابِعة »[2]، تَتَغيّر معانيهُ بتغَيّرِ مواقعِها، وإذا كانت الكلمات تلتزم معانيها المعجمية في النص، فإن التغيير في مواقعِها في بنية النص يفتحُ المجالَ أمام احتمالاتٍ دلاليّةٍ جَديدة - قد - تُفهَم من خلال السياق .

وتغير مواقع التضمينات في سياق نصوص النهج قادر على تنويع العطاء الدلالي فيها، وأصبحت تمثل خصيصة من خصائص التضمين في كلام الإمامعليه السلام، فنراه في اثناء النص تارة [3]*، وأخرى في نهايته يختم بها نصوصه.

أ- دَلالةُ التَضمِين الواقِع في اثناء النَّص .

كَثُر هذا النوع من التَّضمين في خطب الإمام، أو كتبهِ ليكونَ جزءاً لا يَتَجزّأ من سَرد النصّ وبنيَتهِ، إذ يبقى النصُّ غير مُكتَمل البناء والمعنى عند رفعهِ من النص .

لقد استطاععليه السلامأن يُوجِد علاقةً وثيقةً بين ما ضَمّنه والنصوص التي استضافت تلك التضمينات حين يتداخلان عِبر التضمين، فتتحرك المعاني المُضَمَّنة كإشاراتٍ كاشِفَةٍ عن المعنى العام للنص بما تحمله من معانٍ سانِدة له، عندئذ يصبح النصُّ نسيجاً مُتداخِلاً تدور المعاني فيه حول محورٍ دَلاليٍّ مَقصود .

من الصعوبةِ بمكان فهم المُراد من ذلك كلِّه دون الاستعانة باللّوازِمِ التي تساعدنا

---

(١) عناصر الإبداع في شعر ابن زيدون، د.فوزي خضر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٤م، ص:١٠٧.

(٢) اللغة والسياق، ص:٢١٨ .

(٣) * ليس هنالك تضمينات بدأ بهاعليه السلامخطبَهُ أو كتبَهُ، واقتصر على النوعين الأخرين فقط والقول:(في اثناء النص)نقصد بهِ ماليس في بدايَتهِ وليس في نهايتِهِ، وقد يقترب من وسطِ النَّص أو يبتعد عنهُ قَليلاً أو كثيراً.

في تكوينِ فكرةٍ عامَّةٍ عند تداخل النصوص وامتزاجها [1]، أو دون الاستعانةِ بالسياق لأنَّ « السياق وحده هو الذي يساعدنا على إدراك التبادل بين المعاني الموضوعية والمعاني العاطفية والانتقالية »[2]، وَسِيّان في ذلك بين تضمين الشعر، أو المَثَل، فكلاهما يأتي مُتمِّماً لمعنى السياق النَّصِّي .

عند النظر في تضمين الأشطار الثلاثة [3]في إحدى خِطبه نَجد أنّها أتَت ضِمن سِياقٍ سَرديٍّ دال، فالشطر الأول جاء بعد قوله: ((وزَعَمتَ إنّي لكلِّ الخلفاء حَسَدت، وعَلى كلِّهم بَغَيت فإن يَكن ذلكَ كذلِك فليسِ الجنايةَ عليك فيكون العذرُ إليك وتِلكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عنكَ عارُها وقلت:إني كنت أُقادُ كما يُقاد الجملُ المخشوش حَتَّى أُبايِع))[4].

والثاني في سياقِ قوله:(وما كُنتُ لأعتَذر مِن أنِّي كُنتُ أنقِمُ عَليه أحداثاً، فإن كانَ الذَّنبُ إليه إرشادي وهِدايَتي لَهُ فَرُبَّ مَلومٍ لا ذَنبَ له وقَد يَستَفِيد الظِّنَّةُ المُتَنَصِّح، وما أردتُ إلّا الإصلاحَ ما استطعتُ[5].

والثالث ورد في السياق:((وذكَرتَ أنَّه ليسَ لي ولأصحابي عندَك إلّا السيفُ، فلَقَد أضحَكتَ بَعد استِعبار ، مَتى ألفَيتَ بَني عَبد المُطَّلِب عَن الأعداءِ ناكِلين، وبالسَّيفِ مُخَوَّفين لَبِّث قَليلاً يَلحَق الهَيجا حَمَل فسيطلبك مَن تَطلب ويَقرُبُ مِنكَ ما تَستَبعِد))[6].

الشطر الأول ارتبط! بما قبله بحرفِ العطف، وكأنَّه عليه السلام قد وحَّدَ بينه وما سبقه بهذا الحرف الذي جاء من أصلِ الشطر ومَبناه، (ليس الجنايةُ عليك فيكون العذرُ إليك وتِلكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عنكَ عارُها) ثم وصله بما بعده بحرف عطف آخر وهو

(١) والمقصود بذلك لازمة السياق، أو المقام، أو المقال، أو غيرِها من اللَّوازِم .

(٢) دور الكلمة من اللغة، ص:٦٤ .

(٣) ينظر:الباب الثاني، الفصل الثالث ، المبحث الأول، ص: ١٦٣-١٦٤ .

(٤) نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٧ .

(٥) المصدر السابق، ج٣/ ٣٩ .

(٦) المكان نفسه.

الواو:(وقلت)، فيدرك المتلقي الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه بالزمان دون وجودِ فاصِلَةٍ زَمَنيَّةٍ بينهما ، وكذلك الثاني حِينَ تَمَّمَ به كلامَهعليه السلام:(فَرُبَّ مَلوم لا ذَنبَ لَهُ)، (وقد يستفيد الظِّنَّة المُتَنَصّح)، حيث وصَلَ بحرف العطف(الواو) ، أما الثّالث فقد ارتبط بما قبله ومُتَمِّماً لمعناه، (مَتى وجَدتَ بَني عبدِ المُطَّلب عَنِ الأعداء ناكِلين وبالسَّيفِ مُخوَّفين لَبِّث قَليلًا .... .

ونجحعليه السلامأيّما نجاح في ضَمِّ ما ضَمَّنَهُ من شطرٍ شعريٍّ آخر وجَعَلهُ فاعِلاً في إظهارِ المعنى وإتمامِه، ومُساهِماً في استكمال بنية النص السردية ، حين تعلق ما بعده بما سَبقَه بحرفِ عطف هو من بنية الشطر، حتى بدا النصُّ نسيجاً واحِداً ؛ في قولهعليه السلام:((فإنَّها كانَت أثرةٌ شَحَّت عَليها نُفوسُ قوم ، وسَخَت عَنها نُفوسُ آخرين ، والحَكَمُ اللهُ والمَعُوُد إلَيهِ يومَ القِيامَةِ : وَدَع عَنكَ نَهباً صِيحَ في حَجَراتِه ، وهَلُمَّ الخَطب في ابن ابي سُفيان ، فلقد أضحَكَني الدهرُ بعد إبكائِهِ ، ولاَ غَروَ واللهِ فيالَهُ خَطباً يَستفرِغُ العَجَب ويُكثِرِ الأوَد ، حاولَ القومُ إطفاءَ نورِ اللهِ مِن مِصباحِهِ وسَدَّ فَوارِهِ مِن يَنبوعِهِ)) [1].

والمُلاحظ في تضمينِه للأشطار أنَّها في أغلبها جاءت لتَشتَرِك في السياقِ السردي لكلامهعليه السلام

وتجلّى الأمرُ بصورةٍ أوضَح في التَّضمينِ غيرِ المُباشر بِنَوعَيه القَريب والبَعيد في كثيرٍ من المَواضِـع [2].

ولتضمين المَثَل دورُه في رسم المعاني وإتمامِها في سياق النص ودور إبداعي في تشكيلِهِ حين يَستَحضِره الإمامعليه السلاممن حافظتِهِ وخزينِهِ الثقافي، فهو قوي الحضور في ذاكرتِهِعليه السلام .

وعند العودةِ إلى السياق نجده يشي بمِثلِ هذه الخِصِّيصة، فالسياق هو « المَرجع الذي

(١) نهج البلاغة، خ(١٥٧)، ج٢/ ٧٩-٨١ .

(٢) ينظر:أنواع التضمين في نهج البلاغة، الباب الأول، الفصل الأول، ص: ١٦٨-١٧٣.

يُحال إليه المُتلقي كي يَتمكّن من إدراك مادّة القولِ ويكون لفظاً أو قابلاً للشرح اللفظي »[١].

ومِن مصاديقِ ذلك تضمينه للمَثَل (لو كان يُطاع لقَصير أمرٌ) في قوله عليه السلام:((وقد كُنتُ أمرتَكم في هذه الحكومةِ أمري، ونَخَلتُ لكُم مخزونَ رأيي لو كان يُطاع لقَصير أمر فأبَيتُم عليَّ إباءَ المُخالِفين الجُفاة)[٢].

نجد بين الجملتين(نَخلتُ لكُم مخزونَ رأيي)و(لو كان يُطاع لقَصير أمر) كمال اتصال، باعتبار انَّ الثانية جاءت لبيان الأولى فتَرَكَ الوَصلَ بينهما .

ومن قوله عليه السلام لأصحابه في بعض أيام صفين:((... فإنّ الشيطانَ كامِنٌ في كِسرِه، قد قَدَّم للوَثبةِ يَداً، وأخَّر للنكوص رِجلا، فصَمداً صَمداً حتَّى يَنجلي لَكُم الحقِ)) [٣].

أعطى المَثَلُ صورةَ لذلك الشَّيطان المُتَرَدِّد، فحاله أشبَه بِمَن يُقدِّم يَداً للغَدر، ويُؤَخِّر رِجلاً للنكوص، فلو رفع التضمينَ لم يَتوضَّح كمون الشيطان وصورتِهِ التي تُوهِن العزمَ في نفوسِ أصحابِه عليه السلام في صِفِّين .

أو حين جعل المَثَل (رمى بأفوق ناصِل) في بنية قوله عليه السلام:(المَغرورُ واللهِ مَن غَررتُموه، ومَن فازَ بِكُم واللهِ فَقَد فَاز بالسَّهمِ الأخيَب، ومَن رَمى بِكُم بأفوقَ ناصِل)[٤].

وكذلك في قوله مُضمّناً حَشداً مِن الأمثلةِ لتكون بمثابةِ لَبنات أساسِيَّة في بناء كتاب له عليه السلام بعثه إلى معاوية ، فضمن الأمثال:((كناقل التمر إلى هجر))[٥]، ((داعي مسدّده إلى النضال))[٦]، ((لقد حنّ قدح ليس منها))[٧]، وجعلها في جملة كلامه.

---

(١) الخطيئة والتكفير، ص:٣ .

(٢) نهج البلاغة، خ(٣٤)، ج١/ ٨١ .

(٣) نهج البلاغة، خ(٦٣)، ج١/ ١١١ .

(٤) المصدر السابق، خ(٢٨)، ج١/ ٧٠ .

(٥) المصدر السابق، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٤ .

(٦) (٦) المكان نفسه.

(٧) (٧) المكان نفسه.

وبعد بيانِ ما تقَدّم لابُدَّ من القول أنَّ الشِّعر والمَثَل بوصفِهِما جِنسَين أدبِيَّين عند تَضمينَهُما في نصٍّ ما يبقيان مُرتَبِطَين بسياقِ ذلك النص، مع الإحالةِ إلى سياقاتٍ خارجِيَّةٍ مَقصودة .

ب- دَلالَةُ التَضمِينِ الواقع في نَهايةِ النص .

لقد كانت التضميناتُ السابقة – بين ثنايا النص – جزءاً من البناء الدلالي فيه، وكذلك الأمر حين يتغير موقعُها فتصبح في أواخر النصوص .

من ذلك قوله عليه السلام في خطبةٍ له لمّا وقَع في سمعه عليه السلام من أخبارٍ سَيِّئَةٍ ، ودخول جند معاوية اليمن وطرد عامِلَيه عُبيد الله بن عباس وسَعيد بن نمران ، وتثاقل أنصاره عن ردِّهِم خَتَم مُخاطِباً أصحابَه((أما واللهِ لوَدَدتُ أنَّ لي بِكُم ألفَ فارسٍ من بَني فراس بن غَنم

هُنالِكَ لو دَعَوت، أتاكَ مِنهُمُ   فَوارسُ مِثلَ أرمِيةِ الحَميمِ))[1]

وكأنَّه عليه السلام بهذا التضمين لَخَّص كلامَه كلَّه في أُمنِيَةٍ عَبَّر عَنها بقول الشاعر، بما يعرف بالإسقاط النفسي حيث وجدَه مُعبِّراً أصدقَ تعبيرٍ عَمَّا يختلج قلبَه، بِغَضِّ النَظَرِ عن خصوصية مَوقفِ كُلٍّ مِنهُما .

وقد يُوصِل المُتلَقي إلى نتيجةٍ يُريد إيصالَه إليها، كما في خطبتِهِ التي دعا فيها – بعد حمدِ اللهِ وتَنزِيهِهِ عن الصفات – إلى الاقتداء بالرسل والسَّير في هَديِهِم، والاستشهاد بحالِ المُصطفى صلى الله عليه وآله في الدنيا، ونبذه لزخرُفِها، فهو صلى الله عليه وآله :(لم يضَع حَجَراً عَلى حَجَر حَتّى مَضى لسَبيلِهِ، وأجابَ داعِيَ ربِّه، فما أعظم مِنَّةَ اللهِ عندَنا حينَ أنعم عَلينا بهِ سَلَفاً نَتَّبعَهُ وقائداً نَطَأ عَقبَه، واللهِ لقد رقَّعتُ مِدرَعَتي هَذه حَتّى استَحيَيتُ مَن راقِعِها، ولقد قال لي قائلٌ :ألا تَنبُذُها عَنك؟ فقلتُ:اعزُب عَنّي، فعِندَ الصَّباحِ يَحمَدُ القومُ السُّرى) [2].

---

(١) نهج البلاغة، خ(٢٤)، ج١/ ٦١.

(٢) المصدر السابق، خ(١٥٥)، ج٢/ ٧٦.

نَطأ عَقِبَه:أي نَتَّبِع خَطوَه ونَسير بِهَديِه، والعَقِب بفتح فَكَسر هو مُؤخَّر القَدَم، مُبالَغةً في الاتباعِ والسلوك على الطريقةِ، نقفو أثَرَه خُطوةً خُطوة، حَتَّى كأنَّنا نَطأ مؤخَّر قَدَمه [1].

واختَتَم إحدى خطبه بالتضمين:((عِندَ الصَّباحِ يَحمدُ القَومُ السَّرَى)) [2]، فَلُخِّصَت الخطبةُ بهذا المَثَل الذي عَنى : إن فَعَلتُم ذلك كُلَّه فسَيكون حالكُم كَمَن أتعَبَ نفسَه في السَّير لَيلاً، وعند ذلك سَيلَقى ثمرةَ جهدهِ بعد حين .

ومِثلُهُ حِين خَتَم كلامَه بالمَثَل « آخِر الدواء الكَي « في جوابهِ لِمن سَألهُ مِن أصحابهِ في معاقَبَةِ مَن أجلَبَ عَلى عثمان، فقال عليه السلام:((... إنَّ الناسَ مِن هذا الأمر – إذا حُرِّك – عَلى أُمور:فرقَةٌ تَرى ما تَرَون، وفرقَةٌ تَرى ما لا تَرَون، وفرقَةٌ لا تَرى هذا ولا ذاك فاصبِروا حَتَّى يَهدأ الناسُ، وتقَع القلوبُ مَواقِعَها ، وتُوخَذ الحقوقُ مُسمحَةٌ فاهَدأوا عنِّي، وانظُروا ماذا يأتيكُم بهِ أمري، ولا تَفعَلوا فَعلَةً تُضَعضِعُ قُوةً وتُسقِطُ مُنَّةً، وتُورثُ وهناً و ذِلَّةً، وسَأمسِكُ الأمرَ ما استَمسَكَ، وإذا لَم أجِد بُدّاً فَآخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ)) [3].

بعد بيانِ اختلاف الأمَّةِ في ذلك أوضَح أنَّ الأمرَ سيؤول إلى ما أرادوا عندما يأتي أمرُهُ بذلك، وسيمسك الأمر ما استَمسَك، وإذا لم يكن بُدٌّ مِن ذلك فإن آخر الدواء الكَي، وهو قولٌ يَحمِلُ جَواباً عَمّا سَألوه، ولو لم يَقُل سِوى ذلك لَفُهِم الجوابُ، مِن هُنا نَجِد دلالةَ التَّلخيص والاختزال فيما ضَمَّنه في أواخر النِّصوص .

المَبحَثُ الثاني:الخَصائِصُ الفَنِّيَّةُ .

إنَّ الجانبَ الفني هو الذي يزيد من روحية النص ، ويمدّهُ بالأخيلةِ والإلهام، بل هو الحد الفاصل بين اللغة المِعيارية واللغة الأدبية .

---

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة ، محمد عبده ، ج٢/ ٧٦.
(٢) المصدر السابق، خ(١٥٥)، ج٢/ ٧٦.
(٣) المصدر السابق، خ(١٦٣)، ج٢/ ٩٨-٩٩ .

والنص النهجي – باعتباره نَصّا أدبيا مُتعاليا – تميّز بخصائص فنِّيَّة عَديدة، وقد انعكس هذا الأمر على ما ضَمَّنه من شِعرٍ أو مَثل، إذ اصطبغا – عِبر آليةِ التضمين – بهذه الخصائص، تخطّت به حدود التشبيه والاستعارة والكناية وأدخَلَتهُ في فَضاءاتٍ من المُستَوَيات الفَنِّيَّة المُختلفة كالمستوى الصوتي والمستوى البلاغي .

وفي ضوء ذلك نجد الخصائص الفنية هذه تَوزَّعت بين تِلكَ المستويات، وانضَوَت تحت أقسامِها .

أوَّلاً:المستَوى الصَوتِي .

والتوظيفُ الصوتي في التضمين له دورٌ أساس في رسم بعضِ من الخصائص المُميزة له، وتنتج من اختيار مفردات دونَ سواها في تراكيبَ مُنسَجِمةً مَع بعضها، وفي سياقٍ مُلائِم لها، وهذا ما سوف يُسلَّط الضوءَ عليه في هذا الجانب .

أ- التلاؤُم الصَّوتِي بَين التَّضمِين و النَّص الحَاضِن لَهُ .

إنَّ الإتيانَ بتضمينٍ ما لم يَكُن بمِعزَلٍ عن بناء النصّ الحاضِن له، في دلالَتِهِ، أو موسيقاه، فالشعر أو المَثل حين يُستَحضَران لا يُؤتى بِهِما مُجرَّدين، أو مَنزوعَينِ عن سياقِ النص .

يتحقّق التلاؤُم الصوتي من عَدمِ وجود تنافر بين حروف مُفردات التَّضمين والسياق الوارد فيه، وبفضلِهِ يغدو التَضمينُ جزءاً من البناء الموسيقي للنصّ، ولا يُمكِن التفريق بَينهُما لولا هذه الفروقات الجَليّة بين الأجناس الأدبية المُجتمعة في النصِّ ، وتمثَّلت هذه الخِصِّيصَةُ الفنيّة في مَورِدَين هما:

١ – تَطويع التَضمِين لِيَتَلاءَم مَع مُوسِيقَى النَّص الحَاضِن .

من ذلك قولهعليه السلام:((اللّهُم إنِّي قد مَلَلتُهُم وسَئِمتُهم وسَئموني، فأبدِلني بِهِم خَيراً مِنهُم وأبدِلهُم بِي شَرّاً مِنِّي، اللّهم مُث قلوبَهُم كما يُماث المِلحُ في الماء، أما والله

لوَدَدّتُ أنّ لي بِكُم ألفَ فارس مِن بَني فراس بنِ غَنَم

هُنالِكَ لو دَعَوتَ أتاكَ مِنهُمُ فوارسُ مِثلُ أرمِيَةِ الحَميم))[1]

إذ يجد المتلقي تَواجداً مُتَميِّزاً لحرف الميم، في المفردات:(مَللتهم، سَئِمَتهم، سَئِموني، بهم، مِنهُم، أبدِلهُم، مِنِّي، مُث، قُلوبَهُم، يُماث، المِلح، المَاء، أما، بكُم، مِنِّي)، وعند التَمعُّن فيما ضَمَّنه عليه السلام من شِعرٍ نجده بَيتاً طافِحاً بحرفِ الميم هو الآخر، وتَمثَّل في المفردات:(مِنهُم، مِثل، أرمِيَةِ، حَمِيم)، فأصبح بفعلِ هذا التساوق وكأنّه قطعةٌ مِن النّص، ولا فرقَ بينهما، سوى الوزن والقافية .

وبهذا التلاؤم بين مُفرداتِ التضمين والنصّ يَتحقَّق إيقاعٌ موسيقيٌّ لانَّ « الانسجام الصوتي الداخلي الذي ينبَع من التَّوافق الموسيقي بين الكلماتِ ودلالاتها أو بين الكلماتِ بِبَعضِها هو المُوصِل إلى الإيقاع المُوسيقي »[2].

ومثل هذا في قوله عليه السلام في كتاب له بعثَ به جَواباً إلى معاوية:((وزَعَمتَ إنّي لكلِّ الخُلفاءِ حَسَدت، وعلى كُلِّهم بَغَيت! فإن يَكُن ذلكَ كذلِكَ فليسَ الجِنايةُ عَليك فيكون العِذر إليك، وتِلك شَكاةٌ ظاهِرٌ عَنكَ عارُها))[3].

حيث وافَقَ الشَّطرُ المُضمَّن المَقطعَ الذي استَضافَه في حضورِ حَرف الكاف الظاهر في مُفرداتِ النـصّ : (كُل ، كُلهم ، يَكُن ، ذلِك ، كَذلِك ، عَليكَ ، يَكون ، إليكَ).

يَستشِف المُتلقِّي للنص هنا تَلاؤُماً صوتِيّاً قائِماً على اختيار مُفرداتٍ سارت والنص وفق نَسَقٍ موسيقِيٍّ يرفد المعنى بِلَمحَة فنية لا تَقلُّ تأثيراً عن الدلالة فيه .

ومن كتابٍ له عليه السلام لأبي موسى الأشعري ، عامله على الكوفة ، وقد بَلَغهُ عنه

(١) نهج البلاغة ، خ(٢٤)، ج١/ ٦١ .

(٢) قضايا الشعرفي النقد العربي، د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ، دار صادر ، بيروت ، ص : ٣٦ .

(٣) نهج البلاغة ، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٧ .

تَثبيطَ الناسَ عن الخروج إليه لما نَدبَهُم لحربَ أصحاب الجمل:((... أمّا بَعد فَقَد بَلَغَني عَنك قَولٌ هو لكَ وعَليك ، فإذا قَدِمَ عليك رَسولي فارفَع ذَيلَك واشدُد مِئزَرَك ، واخرُج مِن جُحرَك ، واندُب مِن مَعَك ، فإن حقَّقتَ فانفُذ ، وان تَفشَّلت فابعُد، وايمُ اللهِ لتُؤتَيَنَّ مِن حيث أنت ، ولا تُترَك حَتَّى يُخلَط زُبدُكَ بخاثِرِكَ ، وذائبُكَ بجامِدِكَ ، وحتّى تُعجَل في قِعدَتِك ، وتَحذَر مَن أمامِكَ، كَحَذَرِكَ من خَلفك...)) [1].

وقع التضمينُ في المَثَل [2](لا يَدري أيَخثر أم يذِيب) بعد صياغتِهِ بما يُوافِق النصّ الذي شَكَّل الكاف نهايةً سَجَعِيَّةً لكثير من عباراتِهِ ومُفرداتِهِ(عَنكَ ، لَكَ ، عَليكَ ، ذَيلَك ، مِئزَرَك، جُحرَك ، مَعَك ، تَترُكَ ، قعدَتَك ، أمامَك ، حِذرك ، خَلفك) .

فأورده عليه السلام بصيغةٍ لفظِيَّةٍ تناسب موسيقى النص فقال مُعيداً صياغَتَه:(ولا تترَك حَتَّى يُخلَط زُبدك بخاثِرِك ، وذائبُكَ بجامِدِك) ، ومعنى هذا المثل: « لتَفسُدَنَّ حالُك ولِتُخَلِّطَنَّ ، ولِيَضرِبَنَّ ما هُو الآن مُنتظِم من أمرك »[3]، أو كما يرى ابنُ ميثم البحراني في شرحِه إنَّهُما مَثَلان « كَنَّى بهما عَن خَليطِ أحوالِهِ الصَّافِيةِ بالتَّكديرِ، كَعِزَّته بِذِلَّتهِ ، وسرورِهِ بِغَمِّهِ ، وسهولَةِ أمرِهِ بصعوبَتِهِ...)[4].

والإتيان به – أو بهما – بهذه الهيئة إنَّما هو حِرصٌ منهُ عليه السلام على ملاءمة الألفاظ والجَري بهِ في ميدان موسيقى النَّص، إذ لمّا كانَ الكتابُ مُوَجَّهاً بصيغةِ الخطاب المُباشر عبر الضَّمير المُتَّصِل(الكاف)، تراها ستحضر هذا المَثَل وفق هذه الخطابية المُباشِرَة، والمُؤَثِّرة.

٢- تَأَثُّر النَّص الحَاضِن بِموُسيقى التَّضمِين .

ويجري إسهامُ ما ضَمَّن في موسيقى النصّ حين يكون جزءاً من بنائه الموسيقي

(١) المصدر السابق ، ك(٦٣)ج٣/ ١٣٣ .
(٢) ينظر : مجمع الأمثال ، ج٢/ ٢٨١ .وينظر: جمهرة الأمثال ، ج١/ ١١٠ .
(٣) شرح ابن ابي الحديد ، ١٧/ ١٩٠ .
(٤) شرح ابن ميثم البحراني ، ج٢/ ٤٧٥ .

، إذ يَتمَثَّل ذلك في مَعلَمين واضِحَين ؛ فتارةً يشترِكُ في بناء هندسةِ موسيقِيَّةٍ مُتوازِنَةٍ ، وأخرى يشترك في تشكيلِ موسيقى النصِّ كالجناسِ مَثَلا .

من المَعلَم الأوَّل قولُهُ عليه السلام:((أينَ تَذهَب بِكُم المذاهِبُ وتَتيهُ بِكُم الغَياهِبُ ، وتَخدَعُكُم الكَواذِبُ ؟ ومن أينَ تُؤتَون وأنَّى تُؤفَكون فَلِكُلِّ أجَلٍ كِتاب ، ولِكُلِّ غَيبَةٍ إيّاب ، فاستَمِعوه مِن رَبَّانيكُم وأحضِرُوه قلوبَكُم واستَيقِضُوا إن هَتَفَ بِكُم، وليَصدُق رائدٌ أهلَه ، وليَجتَمِع شَملَه ، وليُحضِر ذِهنَه ، فلقد فلَقَ لكم الأمَر فَلقَ الخَرَزَةِ وقَرَفَه قَرفَ الصَّمغَةِ ، فَعِند ذلك أخذ الباطِلُ مأخَذَهُ ورَكَبَ الجهلُ مَراكِبَه))[1].

وقع التضمين في قوله عليه السلام:(لكلِّ غَيبةٍ إيّاب) و(ليَصدق رائدٌ أهلَه)، وعند إمعان النظر في بنية النص نجده مُوزَّعاً بين جُمَلٍ مَسجوعَةٍ مُتوازِنَة، فالثلاث الأولى اشترَكَت بسَجَع واحد:(مَذاهب، غَياهِب، كَواذِب)، ثم بجُملَتَين مَسجوعتين انتهتا بالمفردتين:(تؤتون، تؤفكون)، تتبعهما جملتان مَسجوعَتان مُتوازنَتان:(لكلِّ أجَلٍ كِتاب ولكلِّ غَيبةٍ إيّاب)، ثم ثلاث أُخر تَنتَهي بالمفردات:(أهلَه، شَمله، ذِهنَه)، وهكذا يسير النصُّ على مِثل هذه الوتيرة .

وبذا شكَلت التضميناتُ جزءاً لا يَتجزَّأ من بناءِ موسيقَى النص، من خلال ذلك الاتّزان، والتناسب ليمثل مَظهراً إيقاعِيًّا يَنسَجِم و سياقَ النصّ الصوتي .

وقد أخذ الاستفهامُ الاستنكاري والتقديم – لكلِّ أجلٍ كِتاب ولِكلِّ غَيبَة إيّاب – والتوكيدات المُتَنَوّعة دورها في توحيدِ النص وتلوين دلالاتِهِ .

وتكرر إسهامُ مثل هذا التضمين في رسم موسيقى النصّ في قوله عند وصفهِ آل البيت عليهم السلام :((فيهم كرائمُ القرآن ، وهُم كُنوزُ الرَّحمن إن نَطَقوا صَدَقوا ، وإن صَمَتوا لم يُسبَقوا، فليَصدُق رائدٌ أهلَه ، وليحضر عقله ، وليَكُن مِن أبناءِ الآخرَةِ فإنَّه مِنها قَدِم

(١) نهج البلاغة ، خ(١٠٤)، ج١/ ٢٠٨ .

، واليها يَنقَلِب ..))[1] ، مثّل التّضمينُ هنا مَلمَحاً موسيقِيّاً جميلًا تَوحَّد مع معنى النص وألفاظه .

وتمثَّل المَعلَمُ الثاني في تِلك التضمينات التي شكَّلت واسطةً بين مجموعاتٍ سَجعية مُتلَوِّنةٍ ، لتكون بمثابةِ استراحاتٍ ، أو مُنطَلَقات بين تلك المجموعات ، كقولهعليه السلام في كتاب له بعثَ بهِ إلى ابنِ عَمِّه عبد الله بن عباس مُعاتِباً:((... فلمّا رأيتَ الزّمانَ على ابن عمِّكً قَد كَلِب ، والعَدوَّ قَد حَرِب ، وأمانةَ النَّاس قد خَزِيَت ، وهذه الأمة قد فَنَكت وشَغَرت ، قَلَبتَ لابنِ عَمِّك ظهرَ المِجَنِّ ، ففارَقتَهُ مع المُفارِقِين ، وخَذَلته مَع المُخاذِلين وخُنتَهُ مع الخَائِنِين ، فلا ابنَ عمَّكَ آسيت ، ولا الأمانةَ أدَّيت...)) [2].

جاء التّضمين لمعنى قول معن بن أوس :

قَلَبتُ لَهُ ظَهرَ المِجَنِّ فَلَم أَدُم   عَلى ذاكَ إلّا رَيثَما أتحَوَّلُ [3]

ومثَّل واسطةً بينَ الجُمَل المَسجوعة:(كَلِب، حَرِب)، (خَزِيَت، شَغَرت) والأخرى بعد التضمين هي: (مُفارِقين، خاذِلين، خائِنين)، (آسَيت، أدَّيت)، وكأنّ التضمين نقلةٌ موسيقيَّةٌ مِن نقلات مُتَشابِهات لتُعطِي تنويعاً لها، وتَلويناً مع ما بِها مِن تَوازنٍ وانسِجام.

وكذلك قولهعليه السلام لأصحابه بعد التحكيم مُذَكِّراً ومُوبِّخاً:((... أما بَعدُ فإنّ مَعصيةَ النَّاصِح الشِّفيق العالم المُجَرِّب تُورث الحَيرةَ، وتُعقب النَّدامة، وقد كُنتُ أمَرتُكم هذه الحكومَةَ أمري، ونَخَلتُ لَكُم مَخزون رأيي لو كان يُطاع لقَصيرٍ أمر، فأبَيتُم عليّ إباء المُخالِفين الجُناة والمُنابِذين العُصاة، حَتَّى ارتابَ النَّاصِحُ بنَصحِه، وضَنَّ الزندُ بِقَدحِه))[4].

---

(١) المصدر السابق ، خ(١٥٠)، ج٢/ ٥٨.

(٢) المصدر السابق ، ك(٤١)، ج٣/ ٧٢-٧٣ .

(٣) المستقصى في أمثال العرب ، ج٢/ ١٩٨ .

(٤) نهج البلاغة ، خ(٢٤)، ج١/ ٨١ .

إذ جاء التضمين:(لو كان يُطاع لقَصير أمر)كواسطةِ العقدِ بَينَ الأسجاع:(حَيرة، نَدامة)، (أمرِي، رَأيِي) و (الجُفاة، العُصاة)، (نَصحَهُ، قَدحَهُ)التي خَلَقَت انسِجاماً صوتِيّاً في النَّص .

ب- تَغيُّر مُوسِيقى التَضمِين تَبَعاً لتَغيّر المعَاني .

تَتَغيَّر التَضمِيناتُ بتغير موضوع النصّ المُستَضيف، فَتَشتدّ ألفاظُهُ حيثما كان النصُّ في مَعرض الزَّجرِ والتَّهديد والوَعيد، وتَنساب هادئة عند النَّصح والمَوعَظة والتَّذكير، ترتفع بقوتِهِ وتنخفضُ هامسةً بفتورِهِ، أو قد تكون قوّةً ثمَّ يرتَد إلى هدوءٍ ثم يعود بها إلى سِيرتِها الأولى حين يَتَغيَّر النصُّ بمواضعِهِ بين صيغة وأخرى .

وتلك واحدةٌ من الخصائص الفنية للتضمين، والمتلقي هنا يتمتع بِتنَوِّع موسيقى النَّص، مثلما يتمتع بتنوِّع مَعانيه ، وينتج عن ذلك أيضاً تواشجٌ بين طبيعةِ التعبير الأدبي ونظامهِ الصوتي فتكمل بذلك أدبية النص .

في جوابٍ شديدِ الوقع بعث به إلى معاوية يردّ فيه على ما اتّهمَهُ بهِ من حَسَدٍ للخلفاء، وتحامل عليهم قال :((... وزعَمتَ إنّي لِكُلِّ الخُلَفاءِ حَسَدت، وعلى كُلِّهم بَغيت فإن يَكُن كَذلِك فليسَ الجِنايةُ عليكَ فيكون العِذرُ إليك وتِلكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عَنكَ عارُها)) (١).

استحضر تضميناً لشطرٍ من بيتٍ يُشاكِل حِدَّة الرَدِّ ويُسايِرَهُ فيها، ويزداد التصعيد قُوّةً فيما استدعاه من تضمين لاحِق حين وصل إلى التهديد له في ذلك الردِّ فقال عليه السلام:((وذَكَرتَ أنَّه ليس لي ولأصحابي عِندَكَ إلّا السيف، فلَقَد أضحَكتَ بعد استِعبار مَتى ألفيتَ بَني عبدِ المُطَّلب عن الأعداء ناكِلين ، وبالسيفِ مُخَوَّفين لَبِّث قَليلاً يلحَق الهَيجا حَمَل)) (٢).

---

(١) نهج البلاغة ، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج٣/ ٣٩ .

بازدياد الحروف الانفجارية الشديدة المُعرِبة عن الغَضب وعَدَم الرِّضا ، ازداد مثلها فيما ضَمَّنه عليه السلام حيث(الباء ، والحاء ، والقاف ، والجيم ، والتاء) والتي تُوحي بالشِدَّة والقُوَّة ، لأنّه في مَقام الردِّ والاستنكار والوَعيد .

ولمّا كان النصُّ – في أغلبه – تكَوَّن مِن جُمَل قَصيرَة جاء التضمينُ لشطر البيت مُتَلائماً مَع السياق، وجاء مُعَبِّراً عن حالة شُعوريَّة قَويَّة، وهذا التراكم الصوتي المُتلائِم يُمثِّلُ انعِكاساً للسياق الوارد فيه، وأسهمت نبراتُها في كَشفِ صورة المعنى للمتلقي .

إيقاع النص يُساوق المعنى ويُسايِرُه ، فهو مثله مُتلاحقٌ سريعٌ ، كلُّ ما فيه مُتَحرِّك ، والإيقاع اللفظي يكشف عن هذه الصَّيحة القَويّة وجاء ما ضَمَّنه داعِماً لهُ في الشِدَّة والقُوَّة .

فالشطر في حروفهِ وإيقاعهِ ونبرتهِ حازمٌ شديدٌ وكأنه – بوزنهِ الرجزي – قِيلَ في ساحةِ حَرب وقتال ، وقد زاد في سرعة النصّ وصَخَبِه فتثير في نفس المتلقي هزّةً ورَهبةً، وتَوجّس حتّى نكاد نتقطّع ذُعراً وخَوفاً بهذه المُوسيقى القارعة للقلبِ قبل السمع .

تلاءَمَ النصُّ والتّضمينُ في تصوير مَشهَدٍ مُرَوِّع يأخذ في نَفس المُتَلَقي مَأخذَه، وبتَوحد إيقاع النص ومعناه، فأضحيا قِطعَةً واحِدةً، وهكذا الأمر في تضمين مَعنى قول الأعشى :

تَبيتُونَ في المَشتَى مِلاءَ بُطونُكم وجَاراتُكُم غَرثَى يَبِتنَ خَمائِصا(1)

في كتابٍ له عليه السلام بعثَهُ إلى عاملِه على البصرة لمّا بلغه أنَّه دُعِيَ إلى وَليمَةِ قَوم من أهلِها فمضى إليها فدعاه للاقتداء بهِ بنبرةٍ منَ الزَّجر والعِتاب الشَّديد:(... ولَكن هيهات أن يَغلبَني هَواي، ويقودني جَشَعي إلى تَخيّر الأَطعمَةِ ولَعلَّ بالحجاز أو اليَمامَة مَن لا طمعَ له في القرص ولا عَهدَ له بالشِّبَع أو أبيتُ مِبطاناً وحَولي بُطونٌ غَرثَى وأكبادٌ

(1) ديوان الأعشى ، ص:١٩٣ .

حَرَّى ...)[1]، (فالباء، والتاء ، والطاء ، والراء) تُفصِح عن مِقدار غَضَبِه وعدم رضاه عَمّا سَمعهُ عن تلكَ الوليمة .

المفرداتُ(غَرثى ، حَرَّى) تنسجم مع مفردات النصّ(هَيهات ، هَواي) وغيرها من المفردات ، من حيث انتهائِها بأصواتِ المَد الطَّويلةِ ذات النَّغمةِ العالية ، والدالّة على وَفرةِ الموسيقى ورخامَتِها والتي ترتبط بالدُّعاءِ والخضوع[2].

وبجَوٍّ يَلفّه الحزنُ والألَمُ قدَّم لكلامِهِ بقولِ الشاعر :

لَعمرُ أبيكَ الخَيرِ ياعَمروُ إنّنــي   عَلَى وَضَرٍ مِن ذا الإناء قَليـلِ

ليأتي كلامُه بعد ذلك على وتيرةٍ مِن الحزن والألَم فيقول:(أُنبئتُ بُسراً قد اطَّلَعَ اليَمن وانِّي واللهِ لأظنّ أنَّ هؤلاءِ القوم سَيُدالُون مِنكُم باجتِماعِهِم على باطِلِهم، وتَفَرُّقُكُم عَن حَقِّكُم ...)[3].

ويتراءى التلاؤُم هنا فيما ضُمِّن والنصّ هو ذلك الطباق في(اجتماعِهِم، تفرقهم)، (باطِلهم، حَقكم)الذي يبدو مُنسجِما مع الإيقاع في البيت المُضَمَّن، فالإيقاع يُعدُّ سِمةً مِن سِمات اللغةِ العربية[4]، وإذا كان أشدّ بُروزاً في الشِّعر، فإنَّه يَتحقَّق بفعلِ السَجَع والجناس والطِّباق والمُوازَنة وسواها من الوسائل الموسيقية[5]، فالتماثل بين مُفرداتِ التركيب إحدى السِّمات الأسلوبية للإيقاعِ الصَّوتِي[6].

---

(١) نهج البلاغة ، ك(٤٥)، ج٣/ ٨٠ .

(٢) ينظر:الإيقاع أنماطه ودلالاته في لغة القرآن الكريم، د.عبد الواحد المنصوري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩م، ص :١٥٢ .

(٣) نهج البلاغة ، خ(٢٤)، ج١/ ٦٠ .

(٤) ينظر:فقه اللغة العربية ، ص:٣٥ .

(٥) ينظر:الأسس الجمالية في خطبة الجهاد للإمام علي(عليه السلام)، د.فليح كريم خضير، مجلة الطليعة الأدبية، ع«٣»، بغداد، ص :١٠١ .

(٦) ينظر:الأسلوبية في دراسات الإعجاز القرآني، د.عواطف كنوش، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩م، ص:٩٠ .

ثَانِياً : المُستَوى البَلاغِي .

عند دخول الشِّعر أو المَثَل في ساحةِ النصّ النهجي بالتضمين يجلبان مَعهُما خصائصَهُما فيصطبغ بهما، فيعكسان مالَهُما من صُوَرٍ اعتمدت الانزياحَ ، والمُتَحقِّق بالتَّجسيمِ ، والتَّشخيص وما يُرافقهُما من صور بَيانيَّةٍ تَتَلون بِتَلوّن فنون البيان من استعارةٍ ، وكنايةٍ ، وتشبيه .

وهما بما يَحملانَهُ من انزياحٍ وإيجاز وإصابةِ مُباشَرةٍ للمعنى إنَّما يُسهمان في رَفدِ صور النص، أو يجعلانه عاكِساً لأَلوانِ الطَّيفِ البياني لهما.

إنَّهما يَشتَركان في خِصالٍ ثلاث، هي: إيجازِ المعنى، وإصابةِ المعنى وحُسنِ التَّشبيه(١)، وهذا ممّا يُوصِل إلى بيانِ الصورة التي تُعَدّ مِن أبرز عَناصرِ الجمال في العَمَلِ الأدبي .

وإذا كان الشعرُ حامِلاً لفنون بلاغيَّةٍ عديدةٍ، فإنَّ البلاغيين حَصَروا الأمثال في المَجازات التَّمثيلية عَلى وَجهِ الخصوص(٢).

وحين تَخلَّلَ الشعر والمَثَل خطبَ الإمامعليه السلامورسائله ومواعظه أسهَمَت في استكمالِ رسم صورةٍ بيانِيَّةٍ وما استتبعها مِن تجسيمٍ أو تشخيصٍ، وهذا ما تَوزَّعت مَحاورُ هذا الجانَب بَينَ ثناياه .

أ-التَضمِين وأثَرهُ فِي رَفد النَّص بالتَجسِيم و التَشخِيص .

من المعلوم أنَّ البحثَ البلاغي عند التعامل مع النص الأدبي يَتقصَّى الصُّور البيانية والقِيَم الجمالية التي تُرافقها، ولم يكن التضمين ببَعيدٍ من هذا الدور الذي تَمظهر في فَنّي التَّجسيمِ والتَّشخيص اللذين يُعدّان من أبرزِ الخَصائص الفنية البلاغية .

(١) وان عُدَّت هذه الخصال مِمّا يُمثِّل العمق البلاغي للمَثَل، والتي أضافَ لها إبراهيمُ النظَّام ت (٢٢٣هـ) جَودةَ الكناية .ينظر: المزهر، السيوطي، ج١/ ٤٦١ .مجمع الأمثال ، ج١/ ٦ .الصورة الفنية في المثل القرآني، ص:٥٤ – ٥٥ .

(٢) ينظر: الأمثال في القرآن ، ص : ١٢٧ .

لقد جسّم الزمانَ وأظهره بهيئةٍ آدميَّةٍ ألمح بها الاستخدام الاستعاري بقرينةِ إحدى خصائصِها (يرعَف)، التي تُظهر أطرافَه، وتَشي بها والسِّين تحمل دلالةً مُستقبليَّةً تحمل التفاؤلَ والأملَ، فقالعليه السلام:((... ولَقَد شَهِدَنا في عسكَرِنا هذا أقوامٌ في أصلابِ الرِّجالِ وأرحامِ النِّساء، سَيرعف بهم الزمانُ، ويَقوى بهم الإيمانُ))[1].

والصورةُ هُنا تُوحي للسامع بالكثيرِ من المَعاني، لاعتمادِها الفنَّ الاستعاري القادر على التَّجسيم لكلِّ ما هو مَعنوي، والانتقال مِن المعاني الحَرفِيَّة اللغوية للمُفرَدات إلى المعاني المجازية .

وبفضلِ هذا التجسيم حَدث الانزياحُ وهو أفضل حالات التصوير الفنِّي في الإبداع [2]، ومن خلاله تنتقل المفرداتُ من معانيها الحقيقية إلى معانيها المَجازية الجديدة لتُعطي مَعنىً جديداً ودلالةً جديدةً لصور ذهنية تُدرَك من خلال التصور المادي للحواس .

وكذلك لما جسَّم النفسَ الإنسانية وأخرجَها من عالم المعنويات إلى عالم الوجود المادي بفعل الانزياح المُتحقِّق بالفعل(أردَع)في صورتِهِ النَّصِّية(تردَع)، وكأنَّ النفسَ فرسٌ جامِحٌ يحتاج إلى ردع حتى لا يُورِد صاحِبَه مَوارد الهَلَكَة فقال مُوصِياً(شريح بن هاني)لمَّا جَعَله على مُقدّمتهِ إلى الشام:((.. واعلم انَّكَ إن لم تردَع نفسَك عَن كثيرٍ ممّا تُحِب مَخافَةَ مَكروهٍ سَمَت بِكَ الأهواءُ إلى كَثيرٍ مِنَ الضَّرَر))[3].

وحين تصور المعاني بهيئةِ الأشخاص تكون أثبت في الأذهان لِقدرة المُتلقي الاستعانةَ بحواسِّهِ في تصوِّرِها .

ومنَ المُتعارَف عليه عند البلاغيين والنقاد ارتباط فَنَّي التجسيم والتشخيص بفنّ الاستعارة، وقد نجد شيئاً من ذلك في الكنايةِ، كما في قولهعليه السلاممُعاتِباً ابنَ عمِّه(عبدَ الله

(١) نهج البلاغة ، خ(١١)، ج١/ ٤٠ .
(٢) ينظر: الصورة الفنية في كلام الإمام علي، ص :١٦٥.
(٣) نهج البلاغة، ك(٥٦)، ج٣/ ١٢٥.

ابن عباس):((قَلبتَ لابنِ عَمِّكَ ظَهر المِجَنِّ، ففارَقتَهُ معَ المُفارِقِين))(1).

إنَّ المُتَلقي ليكاد يَرى صورةً تكشِفُ عن عمقِ الدلالةِ في النصِّ فيصل – دون معاناة – إلى المعنى الحقيقي الكامِن بين مفرداتِ النص، واستطاع عليه السلام أن يَجعَلَها تَمتَدّ وتَتَوسَّع لتُعَبِّر عن المَعنى العام للنصّ، لقد جعلها – من خلال الكناية – عِنواناً لكتابهِ عليه السلام وان لم تكن في مُقدَّمةِ النص .

وفي قوله:(رُبَّ قولٍ أنفذَ مِن صَول) يرسم لنا صورةً مُجسَّمةً لذلك القول النافذ وكأنه سهمٌ أو شعاعٌ يخترق الأجساد، ولهُ القِدرةُ على الإيذاءِ والإيلامِ فيأتي التصويرُ رافداً لإظهارِ المَعنى بأوضَحِ صورةٍ .

ب- حَلّ الشِّعر ونَثره عِبرَ آليَّة التَّضمِين .

حلُّ الشعر ونثرهِ مصطلحٌ بلاغيٌّ كثر تداوله في المُصنَّفاتِ البلاغية القديمة والحديثة(2)، ومن خصائصِ التضمين عند الإمام عليه السلام تطويع ما ضَمّنه من شعرٍ في خطبِهِ، وكتبِهِ، ومواعظِهِ، والسير بها في تيارِ النصوص لتكون عَوناً للوصولِ بها إلى غايةٍ مَرجُوَّةٍ.

ويستدعي ذلك تغيّراً في تركيب البنية الشعرية بعيداً عن النَظم والقَوافي، والإتيان بها بِما يُناسب السياق الذي وردت فيه، ليكون استدعاءً مَرِناً آخذاً به إلى التماسكِ في

(1) نهج البلاغة، ك(41)، ج3/ 73.

(2) ينظر:الصناعتين ، ص : 216 .وينظر:المثل السائر، ج1/ 78.وينظر:المصطلحات البلاغية، وتطورها، مادة(حل) و(حل الأشعار)ج2/ 457 – 462 .وينظر:مصطلحات بلاغية، د. بدوي طبانة، مادة(حل). وحلّ الشعر:نثرُهُ ونقيضُه العَقد، وهو نظمُ الشِّعر، وقد بَحَث(ابن منقذ) هذين المصطلحين في باب واحد من كتابهِ(البديع في نقد الشعر)، وعرَّفَهما بقوله: « إنَّ الحلَّ والعَقد هو ما يتفاضَل فيه الشعراءُ، والكُتّابُ، وهو آن يأخذ لفظاً مَنثوراً فينظمه أو شعراً فينثره ويُطارِحَهُ العلماءُ فيما بينَهُم» وتابعه في ذلك ابن الأثير وأبو هلال العسكري، وابن أبي الإصبع المصري ، والقز ويني ، وتبعه شراح التلخيص ، وان كان أبو هلال العسكري قسمه على أربعة أضرب ، واشترط القزويني في ذلك شرطين .للتفصيل في ذلك ينظر:البديع في نقد الشعر، ص:259 ، المثل السائر، ج1/ 77 ، الصناعتين، ص:216، تحرير التحبير، ص:439، الإيضاح، ص :425، التلخيص ، ص:426، معجم المصطلحات البلاغية، ج2/ 457-462، وقد عده القز ويني(حل الشعر) من فنون الاقتباس.ينظر:الإيضاح، ج1/ 386 .

نسيج الألفاظ، وتعلق بعضها ببعض ومناسبة السابق للّاحق في البنيةِ والمعنى .

ويُعَد هذا اللون من التضمين - في كثير منه - تَضميناً إشاريّاً يُحيل المُتلقي إلى مناراتٍ دلاليَّةٍ مُكثَّفة، لا سِيَّما حين يكون تَضميناً لما شاعَ من أشعارٍ بين الناس آنذاك .

إنَّ دواعي المَقال، ومُقتضى الحال هُما الدافع إلى ذلك كلِّه والحاثّ إليه، ليَكشف مِن خلال إعادة صياغتِها بما يَتلاءَم وسياق النص النهجي ويجعلها تَتناغم مع ما جاورَها من مُفرداتٍ، وجُملٍ، وتراكيبَ فَتُوصِل المتلقي إلى المعنى المقصود .

واستطاع الإمام عليه السلام - بما يَمتلك مِن مقدرة فنيَّةٍ - نَثرَ كَثيرٍ من الأشعارِ عند تضمينها في كلامهِ، وكتبهِ حتَّى غَدَت مِن بُنى سياقِها ، وبذلك يكون غير خارجٍ عَمّا اشترطَهُ البلاغيون في نَثر النَّظم .

وتوزَّعت مصاديقُ هذه الخِصِّيصةُ بينَ النِّصوص النَّهجية ولم تَنحصر في لونٍ واحدٍ من نصوصِهِ دون سواها .

من ذلك قوله عليه السلام:((سَيرعَف بهم الزَّمانُ))(١)، وقوله عليه السلام: ((ما بالُكُم ما دواؤُكم؟ما خطبُكم!القومُ رجالٌ مِثلكم))(٢)، وقولُه عليه السلام:((وصَلوا السيوفَ بالخُطى))(٣)، وقوله:((فَلِكلِّ أجَل كِتاب، ولِكُلِّ غَيبَةٍ إيّاب))(٤)، وقولُه عليه السلام:((وانَّ

---

(١) نهج البلاغة، خ(١١)، ١/ ٤٠ ، هو من قول الشاعر:

وما رَعفَ الزمانُ بمثلِ عمـرو ... ولا تَلِد النِّساءُ لـــهُ ضَريبا

(٢) نهج البلاغة، خ(٢٨)، ج١/ ٧١ . هو من قول الشاعر:

القومُ أمثالُكُم لهـــم شَعَرٌ ... فِي الرَّأسِ لا يُنشَرون إن قُتِلُوا

شرح ديوان الحماسة، التبريزي ، ج١/ ١٤٦.

(٣) نهج البلاغة، خ(٦٣)ج١/ ١١١، هو من قول الشاعر:

وان قَصرت أسيافُنا كان وصلُها ... خُطانا إلى أعدائِنا فَنُضارِبُ

حماسة أبي تمام شرح التبريزي، ج١/ ٤٨٨. .

(٤) نهج البلاغة ، خ(١٠٤)، ج١/ ٢٠٨، هو من قول الشاعر:

وكلُّ ذي غَيبـــةٍ يَؤُوبُ ... وغائبُ المَـــوتِ لا يَؤُوب

ديوان عَبيد بن الأبرص، ص:١٣ .

الفارَّ لغَيرِ مَزيدٍ مِن عُمرهِ))[1]، وكلها مِمّا جاء في خطبهِ .

ومن مصاديق ذلك كله في كتبهِ عليه السلام نجد قوله عليه السلام:((فكنتَ في ذلك كَناقِلِ التَّمرِ إلى هَجَر))[2]، وكذلك ما جاء في كتاب آخر:((قلبتَ لابنِ عَمِّكَ ظَهر المِجَنِّ))[3]، وقوله عليه السلام:((أو أبيتُ مِبطاناً وحولي بُطون غَرثى، وأكبادٌ حَرّى)) [4]، وقوله عليه السلام:((واعلم أنَّك إن لَم تَردَع نفسَكَ عَن كَثيرٍ مِمّا تُحب مَخافةَ مَكروهٍ سَمَت بكَ الأَهواء إلى كثيرٍ مِنَ الضَّرَرِ))[5].

ومن مَصاديق ذلك في حِكَمِهِ ومواعظِهِ قولُه عليه السلام:((لا تَظُنَّنَ بكَلِمَةٍ خَرجَت مِن أحَدٍ سوءاً وأنتَ تَجِد لَها في الخَيرِ مُحتَمَل))[6]، وقولُه عليه السلام:((لا تَجعَلنَّ ذَربَ لِسانِكَ عَلى

(1) نهج البلاغة ، خ(١٢٠)، ج٢/ ٦، هو من قول الشاعر:

قد عَلِمَ المستاخرون فـي الوَهَل ... إذا السيوف عُرِّيَت مـن الخَلَل

إنَّ الفِرارَ لا يُزيدُ فـي الأجَل ... لم ينسبهُ صاحبُ الحماسـةِ إلى أحد

ينظر:حماسة أبي تمام، شرح التبريزي ، ج١/ ٤٦٦.

(2) نهج البلاغة، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٤، هو من قول الشاعر:

فانَّك واستبضاعك الشِّعر نَحوَنا ... كَمستبضِعٍ تَمراً إلى ارضِ خَيبَرا

حماسة أبي تمام، شرح التبريزي، ج٢/ ٨٥٦.

(3) نهج البلاغة، ك(٤١)، ج٣/ ٧٢، هو من قول الشاعر:

قَلبتُ لهُ ظَهرَ المِجَنِّ فَلـم أدُم ... على ذاك إلاّ رَيثَما أتَحـوَّلُ

المستقصى في أمثال العرب، ج٢/ ١٩٨ .

(4) نهج البلاغة، ك(٤١)، ج٣/ ٨٠.، هو من قول الشاعر:

تَبيتُونَ في المَشتى مِلاءَ بطونُكُم ... وجاراتُكُم غَـرثى يَبتن خَمائِصا

ديوان الأعشى، ص: ١٩٣ .

(5) نهج البلاغة، ك(٥٦)، ج٣/ ١٢٥.قال الشاعر:

والنَّفسُ راغبَـةٌ إذا رغَّبتَها ... وإذا تُرَدُّ إلـى قَليلٍ تَقنَعُ

ديوان الهذليين ، القسم الأول، ص :٣ .

(6) نهج البلاغة، خ(٣٦٠)، ج٣/ ٢٣٨، هو من قول الشاعر:

إذا ما بَدَت مِن صاحبٍ لَكَ زَلّةٌ ... فَكُن أنتَ مُختاراً لِزلّتِهِ عُـذرا

ديوان الحماسة، ج٢/ ١٦.

مَن أنطَقَكَ ولا بَلاغَةَ قولِكَ عَلى مَن سَدَّدَكَ))[1]، وقولُهعليه السلام:((مَن كَرُمَت عَليهِ نَفسُهُ هانَت عَليهِ شَهواتُهُ))[2].

وفي ما مَرَّ من أمثلةٍ نجد أنَّ كثيراً من هذا التضمين ورَدَ في مقام النصح والإرشاد ووافَق أغلُبها السياقَ الذي وردت فيه، وإنها لم تقتصر على نوعٍ واحدٍ من نصوص النهج.

ج- تَغيُّر الأسالِيب البَلاغيَّة فِي التَضمِين بَين الخَبر والإنشَاء .

الخبرُ والإنشاء مَظهرانِ من مظاهر التَّوزيع البلاغي، ولكلٍّ منهما أقسامُه وأغراضُه التي يَخرجُ إليها حقيقة ومجازاً[3].

وقد توزَّعت التضميناتُ بينهما بما يتطلبه السياق، قد يقوم الإمامعليه السلامبتحويل أحدهما إلى الآخر تَبَعاً للمقصدية الدلالية، وعند الوقوف عند التضمينات الشعرية يتضح المَيل إلى النوع الأول وإن كان هناك حضور للنوع الثاني إلاّ أنَّه أقلّ بكثيرٍ من سابقهِ .

في تضمين الأشطار الثلاثة يتضح الأسلوب الخبري في اثنين منهما، وفي الثالث فقط ورد الأسلوب الإنشائي، إذ جاءت الأخبار في الأشطر:((وقد يَستفيد الظِّنَّة المُتَنَصِّحُ))[4]، وهو خبرٌ خرجَ إلى غَرضٍ أصلي وهو(فائدةُ الخبر)، أُنزِل فيه المخاطَب

---

(١) نهج البلاغة، خ(٤١١)، ج٣/ ٢٥١، هو من قول الشاعر:

وكَم عَلّمتهُ نَظـــمَ القَوافِي فَلَمّا قالَ قافِيـــةً هَجاني

محاضرة الأدباء، ج١/ ٤٦.

(٢) نهج البلاغة، خ(٤٤٩)، ج٣/ ٢٦٠.، هو من قول الشاعر:

فإنَّك إن أعطيتَ بَطنَكَ سُؤلَـه وفَرجَكَ نالا مُنتَهى الذَمِّ أجمَعا

ديوان حاتم الطائي، ص:١٧ .

(٣) باعتبار أنَّ الكلامَ مِن وجهةِ نَظَرٍ بلاغيَّةٍ، أما خَبر أو إنشاء.ينظر:معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مادة(إنشاء)، ومادة (خبر)ج١/ ٣٣٢-٣٣٤، ج٢/ ٤٦٤-٤٧٢ .

(٤) نهج البلاغة ، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٩ .

- وهو معاوية - مَنزلة الجاهل بالخَبر، فأفاده بالحكم الذي تضمَّنهُ الكلام

وفي الشطر الثاني:((وتِلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها))[1]، وهو خبرٌ خرج إلى غَرضٍ مجازيٍّ وهو التوبيخ .

واقتصر الأسلوبُ الإنشائي على الشطر الثالث وهو:((لبِّث قَليلاً يلحق الهيجا حَمَل))[2]، وهو إنشاءٌ خرجَ إلى غرضٍ مجازي وهو الوعيد .

وعند التَمعّن في تضمين الأبيات الأربعة الكاملة، يظهر توزّعها بالتساوي بين الخبرِ والإنشاء، فالخبر في البيتين:((شَتّان ما يَومي على كورِها))[3]، والآخر:((هُنالِكَ لو دعَوتَ أتاكَ منِهُمْ))[4]، وهما خبران خرجا إلى غَرضَين مَجازيَين هما؛(التَحسّر)في الأول، و(التَشَكّي)في الثاني، والمُوصِل إلى هذين المَعنَيَين سِياقُ الكلام الذي وردا فيه .

وتمثّل الأسلوبُ الإنشائي في البَيتين الآخرين وهُما:((لَعمر أبيكَ يا عمرو إنَّني))[5]، و((وَدَع عَنكَ نَهباً صِيحَ في عَرَصاتِهِ))[6]، فالأول لوجود صيغة القسم(لَعمرِ أبيك)، والثاني لوجود فعل الأمر(دَع)والأول مع أنه أسلوب إنشائي إلّا أنَّه خرج إلى غرضٍ مجازيٍّ وهو الخبر، والآخر خَرجَ للتشكي .

وفي التضمينات غير المباشرة - القريبة والبعيدة - للأشعارِ والأمثالِ يَظهر الأسلوبُ الخبري طافِحاً في النصوص، كما في قولهعليه السلام:((كنا قِلِ التَّمرِ إلى هَجَر))[7]،

---

(١) المصدر السابق ، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ، ك(٢٨)، ج٣/ ٣٩ .
(٣) المصدر السابق ، خ(٣)ج١/ ٢٦ .
(٤) المصدر السابق ، خ(٢٤)ج١/ ٦١ .
(٥) نهج البلاغة، خ(٢٤)ج١/ ٦٠ .
(٦) المصدر السابق ، خ(١٥٧)، ج٢/ ٧٩.
(٧) المصدر السابق ، ك(٢٨)ج٣/ ٣٤ .

و((أو داعي مُسدِّده إلى النِّضالِ))[١]، و((رُبَّ قَولٍ أنفذ مِن صَول))[٢]، و((لِكلِّ غَيبَةٍ إيّاب ولكُلِّ أجَلٍ كِتاب))[٣].

وحتى الإنشاء قد يخرج بهعليه السلام إلى الخبر، كما في قولهعليه السلام:((سَيرعَف بهم الزَّمانُ))[٤]، وهو من قولِ الشاعر : (وَما رَعَفَ الزمانُ بمثلِ عَمرو) إنشاء غير طلبي تحقق بفعل النفي(ما)، وقد خرج إلى الإخبار لكن الإمامعليه السلام جاء به خَبراً صِرفاً يدل على التفاؤُل والأملِ المُتحَقِّق بفعل(حرف السين) الدالّ على الإستقبال .

هذا مع وجود الإنشاء في مواضع أخرى وان كانَت أقل، كما في قولهعليه السلام:(لا تظنَّنَ بكلمةٍ خَرجَت من أحدٍ سُوءاً)[٥]، وهو في الأصل من أسلوبٍ خَبري مَرَّ ذكرُهُ[٦]، ومثلُهُ قوله:((لِدوا للمَوتِ))[٧]، وهو من أصلٍ خبريٍّ أيضاً .

ولرُبَّما يأتي كثرة الأسلوب الخبري في كلامهعليه السلام من طبيعةِ ذلك الكلام الذي هُو في معظمه بيانٌ، وكشفٌ عن أمورٍ كثيرةٍ استدعت الشرحَ والوَعظَ .

وحين لَخَّص(الحُوفي) الصفاتَ التعبيرية للإمامعليه السلام ذهَب إلى أنَّ الصَيَغ الإنشائية هي الأكثر في كلامهِ فقال:» كثرة الصِّيغ الإنشائية وهي الأمرُ والنَهي والاستِفهام والتَرجِّي والتَمنّي والنِّداء والقَسَم والتَعجُّب وهي أقوى من الصيغ الخبرية تَحديداً لنشاطِ السامعين، وأشدّ تَنبيهاً وأكثر إيقاظاً، وأدعى إلى مطالبتهم بالمشاركةِ في القَول وفي الحكم، وهي في الوقتِ نفسه أدقّ في تصوير مَشاعرِ الخَطيب، وأفكارِهِ، ولابُدَّ من

---

(١) المكان نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، خ(٣٩٤)ج٣/ ٢٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، خ(١٠٤)ج١/ ٢٠٨ .

(٤) المصدر السابق ، خ(١١)ج١/ ٣٩ .

(٥) المصدر السابق ، خ(٣٦٠)ج٣/ ٢٣٨ .

(٦) ينظر: الصفحات السابقة.

(٧) نهج البلاغة ، خ(١٣٢)، ج٣/ ١٨٣ .

أساليب مُتغايرة تُفصِحُ عنها »[1].

نعم يصح رأيُهُ في عمومِ كلام الإمامعليه السلام غير انَّه - قد - لا يكون كذلك في مَواردِ التضمين كما هو ظاهر .

(١) ينظر: بلاغة الإمام علي ، دار المعارف ، ١٩٨٧ ، ط٢، ص :١٩ .